

طبعة دار الشروق الأولى  
١٤١١ هـ - ١٩٩١ م

جيش جنوب الطبيع عشوائية

## © دارالشروق

القاهرة : ١٦ شارع جراد حسني - هاتف : ٣٩٣٦٥٧٨ - ٣٩٣٤٨١٤  
بريسا : شرق - تلکس : ٩٣٠٩١ SHROK UN  
بيروت - ص. ب : ٨٠٦٤ - فاكس : ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٧٦٥ - ٨١٧٧١٣  
بريسا : داشرق - تلکس : SHOROK 20175 LE

عبد الرحمن الشقاوى

# أئمّة الفقاهة السعاد

الإمام زيد بن علي زين العابدين  
الإمام جعفر الصادق  
أبوحنيفه النعمان  
مالك بن أنس  
الليث بن سعد  
الإمام الشافعي  
الإمام أحمد بن حنبل  
الإمام ابن حزم  
العز عزالدين عبد العزيز بن عبد السلام

دار الشروق

**الفلاح للفنان حلمى التونى**

## المحتويات

٧	.....	المقدمة
١٣	.....	زيد بن علي زين العابدين
٣٥	.....	الإمام جعفر الصادق
٥٣	.....	أو حنفية النعسان
٧٣	.....	مالك بن أنس
٩٣	.....	الليث بن سعد
١٢١	.....	الإمام الشافعى
١٦٣	.....	الإمام أحمد بن حنبل
٢٢٥	.....	الإمام ابن حزم
٢٨٩	.....	العز الدين عبد العزيز بن عبد السلام

# المقدمة

## الاسلام عقيدة وشريعة

فأما العقيدة فقومها التسليم لله ، والإيمان به وحده لاشريك له ، وعلاقته وكتبه ورسله ، وتستند على أركان الإسلام الخمسة ، وهي تنظم العلاقة بين الله تعالى والناس وتطورهم وتزكيهم فيصبح العبد المؤمن حرا أمام الآخرين بقدر عبوديته لله ، غنيا عن الناس بقدر فقره إلى الله ، عزيزا على نفسه وعلى سواه بقدر إيمانه أن العزة لله جيئا .

أما الشريعة فهدفها تحقيق مصالح البشر ، وهي المبادئ التي تنظم المعاملات ، وتصوغ الحياة الأفضل ، وتمم مكارم الأخلاق ، وتوّلّ القلوب على التراحم والمحبة ، وتصوغ العقول لعمان الأرض وتحقيق السعادة فيها ، وتدريب الإنسان على الصالحات من الأفعال ، ليصبح الإنسان بحق أخي الإنسان .. !

وإذا كانت العقيدة والشريعة ، هما العنصران اللذان يشكلان الدين ، فهما عنصران متلازمان لا انفكاك لها ، كالأضوء ومصدره .. ولكن العقيدة مع ذلك تعنى المسلمين وحدهم ، أما الشريعة التي تنظم التعامل بين البشر ، فهي تعتم بأحكامها كل الناس مسلمين وغير مسلمين .

وقد أثر الإسلام على غوما ، في جميع الذين يعيشون على أرض الإسلام ، فهو ميراثهم العظيم ، مهلا تكن دياناتهم .. فقد ترسّبت قيمه الفاضلة في نفوسنا ، بلا استثناء ، وما زالت أعمق كل واحد منا تشرق فجأة بالروعة ، عندما نذكر الأيام الباهرة الذاهبة المضيئة من تاريخ الإسلام ، حين أطلت رحنته ، وشكلت عداته مجتمعات كثيرة عبر التاريخ ، حين كانت رياطه تحقق على الدنيا من ساحل الأطلسي في الأندلس ، إلى أقصى الشرق .

وقد تدرّبت مبادئ الإسلام على أن تواجه بيات جديدة غير التي نشأ فيها ، وظللت هذه

المبادئ قادرة على العطاء ، وتعودت تقديم الإجابات على كل ما يواجهها من أسئلة ، وبذل  
الحلول لكل ما يستحدث من المشاكل ...

ألف الإسلام هذه القدرة على حل مشاكل البشر وتحقيق مصالحهم عبر أربعة عشر قرناً منذ  
نشأ أول مجتمع إسلامي في المدينة المنورة تحت قيادة الرسول صلى الله عليه وسلم .

زحف الفرسان الأوائل ليحرروا الشعوب المستعبدة في الإمبراطوريات القديمة ورأوا رعایا  
تلك الإمبراطوريات يدخلون في دين الله أفواجا ، تخلصاً للنفس من الهوان ، وذل الاستعباد ،  
وآلام الظلم .

كانت هذه الفتوحات تحمل في أحشائها جنين حضارة جديدة . فقد كان أولئك الفرسان  
المسلمون محاربين بواسل هذا حق ، وكانوا أيضاً دعاة عدل وحضارة وحرية ، وكانوا علماء ..  
فقد كانوا من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أو من التابعين ..

وكانت نصرة الدين الجديدة بكل عنفوان تعليمه عمر قلوبهم .. وما فتحوا البلاد باختصار عن  
مغام ، ولكن محررين وهداة ورعين ، وحملة مبادئ نشروها بين الناس . وهذا كله كان ميلاد  
عصر جديد . وجاء من بعدهم خلف عظيم ، من أهل الجزيرة العربية أو من أهل البلاد  
المفتوحة ، أحسنوا نشر التعاليم وبرعوا في استنباط الأحكام الشرعية لمستحدثات الأمور ،  
متاثرين بالبيئات الجديدة ، محترمين الأعراف والعادات السائدة عندما لا تعارض مع نصوص  
الشريعة الإسلامية أو روح تلك الشريعة السمححة .

على أن الإسلام لم ينتشر بالفتح وحده ، بل أدى التجار – ومنهم علماء – دوراً كبيراً في نشر  
الإسلام في كثير من أقطار الأرض ، وكان العلماء في ذلك الزمان يعملون بالتجارة والصناعة  
والزراعة وغيرها من الحرف ليكسبوا من كد أيديهم ، ويؤدوا دورهم في نشر تعاليم دينهم ومبادئه  
في الوقت نفسه .

وقد نشأ من أهل البلاد المفتوحة علماء وفقهاء أثري بهم الفقه الإسلامي .

وقد أحسست أن من الواجب على أن أنشر صفحات نضال هؤلاء العلماء والفقهاء ، وأن  
أنقصى موافقهم من الحياة والناس ، وأرسم بقدر ما وسعني الجهد صوراً لهم أضعها أمام قراء  
هذا العصر ، عسى أن يجدوا فيها المثال الحى ، وعسى أن تثير فيهم الحمّة ، لينهضوا بعض مانهض  
به السلف الصالح .

وهؤلاء الذين كتبتي عنهم ، هم الذين انفعلت بخيالهم وفكيرهم واقتحاماً لهم الجسور ،  
ونضالهم في سبيل حياة أفضل ، وعوائقهم فهوّلءً اذن ليسوا لهم كل أئمة الفقه الإسلامي .

منهم من أوجزت في الكتابة عنه ، ومنهم من أطبت . وما ذلك لفضل أحد منهم على الآخر ، فكلهم أصحاب فضل ولكنني وجدت بعضهم قد ظلمه التاريخ ، فلم يعرفه الناس كما ينبغي ، فأضطررت إلى الإفاضة في الكتابة عنه ، ومنهم من أساء إليه بعض أتباعه فصوروه على غير صورته ، فكان معيًا على أن أجلو صورته الصادقة .. أما الآخرون فما يعرفه الناس عنهم كثیر ، فما تناولت الا مواقفهم التي لم تنشر من قبل على نحو كاف .

ولست أنكر أنى لقيت في الكتابة عن هؤلاء الأئمة نصبا .. وبعضهم تدر المراجع عنه ، وبعضها قد اختفى .. ولقد أذكرا نى ذهبت إلى جامع الإمام الليث بن سعد ، عسى أن تكون في الجامع مكتبة بها بعض الكتب عنه .. واستقبلنى القائمون على الجامع أكرم استقبال ، وقالوا إن الإمام كان كريما ، ومن التقاليد إكرام من يزور جامعه . وسألت عن المكتبة فقال لي أحدهم على استحياء : كانت تقام هنا أذكار مرأة في الأسبوع ، ومنعت ، وأهلل الجامع والمكتبة ، فتسلى الماعز فأكل ما في المكتبة من كتب ، منها خطوطات وكنوز علمية نفيسة !!

ولقد أردت أن أضع أمام القارئ الذى لا يستطيع أن يشتري الموسوعات ، صورة من فقه هؤلاء الأئمة العظام ، ومواقفهم من الحياة وأود أن أذكر بالخير والعرفان تلك الجهود التى بذلها أستاذنا المرحوم الشيخ أبو زهرة رحمه الله ، وجهود المستشار عبد الحليم الجندي قواه الله ومد فى عمره فكلاهما ألف كتاباً موسوعية عظيمة عن عدد من أئمة الفقه الإسلامى .. كما أذكر بالخير والعرفان اهتمام المرحوم العالم الشيخ محمد شاكر بشرح الإحکام في أصول الأحكام لابن حزم الأندلسى .. وأوجه الشكر إلى كل الذين كتبوا عن أئمة الفقه الإسلامي

وأنا بعدأشكر القراء الذين اهتموا بهذا الكتاب قبل أن ينشر كاملا ، عندما كنت أنشره موجزا تحت عنوان شخصيات إسلامية في السنوات الثلاث الماضية خلال شهر رمضان المظيم وإن كنت قد قصرت أو نسيت أو أخطأت في بعض هذه الصفحات ، فإنني لأدعوا الله ربنا لا تؤاخذنا بما نسينا أو أخطأنا ..

نفعنا الله جيئا بعلم هؤلاء الأئمة وهيا لنا أن نتعظ بمواقفهم وجسارتهم في الحق ، وشجاعتهم على الباطل ، وأن نعمل بما شرحوه وجلوه من مبادئ الإسلام .

والله ولي التوفيق .

عبد الرحمن الشرقاوى



الإمام زيد بن علي زين العابدين  
الفقيه الفارس



عاش في ذلك العصر المدوى بطبول الانتصارات ، ورنين الأبواق العزافة ، وصهيل الخيول الزاحفة ، وصليل السيوف .. في أوج الفتوحات الإسلامية التي رفعت راية الإسلام على أسوار الصين في أقصى الشرق إلى الأندلس في أقصى الغرب ، وخفقت على جنوب فرنسا وعلى جزر البحر الأبيض المتوسط ، فارتفعت مئارات الدين الجديد على الجزء الأكبر من العالم الذي عرفه إنسان ذلك الزمان ..

وهو عصر باهر مفعم بالغنى والتنوع ، وبكل ما يثير الزهو.

وهو مع ذلك عصر مشوب بالحنين إلى عدالة المسلمين الأوائل وصدقهم وورعهم ..

عصر مفعم بالأسى ، وجلال الذكريات ، وبالأشواق إلى الحرية ..

يناسب في دوى انتصاراته أذن حزين مكتوم ، ونفثات غيظ كاظم .. وتبلل راياته الخفافة دماء المظلومين ودموع لا تجف أبدا ، وتمزق أنغام الانتصارات فيه أصداء النعيب والعويل .. !

كانت الدولة الأموية تواصل الفتوحات وترسي قواعد الإمبراطورية الإسلامية ، ولكن الخلفاء مع ذلك كانوا يضطهدون مخالفיהם وحتى ناصحيهم ، ويتباعون آل بيت الله ومن يتبعون لهم ليقتلواهم بلا رحمة !!

كان الخليفة الأموي لا يطيق نصيحة ، حتى لقد أعلن هشام بن عبد الملك وهو في بيت الله الحرام أنه سيقطع رأس من يقول له « آتني الله » ..

وما كان المسلمون في ذلك الزمان يحبون أن يرفعوا الرأس بالعصيان في وجوه الخلفاء طلبا للعدل أو نهيا عن المنكر ، لكيلا يتتصدع بنيان تلك الجيوش الموجهة لفتح بلاد جديدة تنشر فيها الإسلام !

ومن هنا نسبت مأساة الإنسان في ذلك الزمان : ذلك أنه يجب أن يوافق على ما يرفض ، ويقبل ما يكره ، ويُسكت على ما يدين ، لأن جيوش الدولة مشتبكة في حروب مع غير المسلمين ! ..

وهكذا استغل الخلفاء هذا الإحساس المرهف بالمسؤولية ، فتهربوا كل من يخالفهم أو يعلن عدم الرضا عنهم ..

وهكذا آثر الصمت عدد من علماء المسلمين نجاة بأنفسهم من بطش الحاكمين .. ومامن شيء كان يزعج الحكام مثل حين الناس إلى عصر النبوة ، وزمن الخلفاء الراشدين ، وحب المسلمين الصادق لآل بيت رسول الله (ص) .. وندم الذين تخلوا عن الحسين بن علي . كانوا يخالفون كل شيء حتى الندم ! ..

في هذا الجو المضطرب الذي يزقه التناقض بين ما يحبه الإنسان وما يكرهه . ، بين ما يسر وما يعن ، ولد زيد بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب .

ولد في المدينة عام ثمانين للهجرة ، وما زال رجع الأئتين على الحسين شهيد كربلاء ملاً الآذان ، وما زالت الفجيعة تخص الحلوق وتُحرق الأكباد ١١

ولد وما زالت دماء كربلاء تغشى عيون صناع الفجيعة والمفجوعين على السواء .. وما زالت ذكريات نكبة آل البيت تفرى صدور قوم مؤمنين !

مامن شيء بعد يطفئ النار التي في الصدور .. حتى القصاص الذي ثار فيه بعض أشياخ الحسين من كل من شاركوا في مقتل الشهيد العظيم وأل بيته .. حتى هذا القصاص لم يشف غيظ القلوب ! .

استمر الاضطهاد ، وسارت الدولة الأموية على إقصاء آل البيت وألزمتهم المدينة ، فالتزمواها لا يرحوها إلا إلى الحرج .

وكان عميد آل البيت بعد استشهاد الإمام الحسين رضي الله عنه هو ابنه علي زين العابدين .

وقد اختار على زين العابدين بن الحسين أن يعلم الناس وأن يفهمهم بأمور دينهم ، وأنخذ أولاده بالنظر في علوم الدين ، وأعد لهم ليكونوا من بعده أئمة صالحين .

وقد كان على زين العابدين هو أصغر آل البيت في كربلاء .. أنقذه مرضه واستماتة عمه السيدة زينب دفاعاً عنه ، وكان القتلة قد ذبحوا آل البيت من الذكور ولم يرحموا أحداً حتى الأطفال ، وشردوا نساء رسول الله في الفلوات .. ثم ساقوهن في موكب وحشى من كربلاء إلى دمشق تقدمهن رأس سيد الشهداء على سن حربة !

كل تلك الذكريات الفاجعة ظلت تعيش حية في أعماق على زين العابدين ، وصورة أبيه لاتفاق عينيه . عبد صالح خرج يطلب العدل للناس ، ويناضل لاسترداد حقوقهم وحرتهم ، وبايدهم على أن ينصروه ليسترد لهم شرفهم وكبرياتهم ، فإذا بهم يخذلونه ويسلمونه وأآل بيته إلى ظالميهم !!

من أجل ذلك رفض على زين العابدين طلب شيعة آل البيت في العراق أن ينهض من المدينة كما نهى أبوه .

وصرف زين العابدين عنه أولئك الذين استنهضوه فقد وعى ماحدث لأبيه في العراق .. وظل يوصي ولديه حمدا الباقر، وزيدا لا ينخدعا باستئناف أهل العراق ، ففي مأساة الحسين عبرة !!  
وحين توفي الإمام على زين العابدين ، وترك تلك الحياة المذلة بكل ما فيها ، ترك للناس علما غزيرا ، وترك ابنه الأكبر حمدا راعيا وأستاذًا لابنه الأصغر زيد ..

وزيد إذ ذاك في مقتبل العمر ، يتطلع إلى كل شيء بهذا النوع من الدهشة التي نعرفها عندما سنب السنون بنا إلى الشباب ، وطالعنا الحياة بما لم نعرفه من قبل ! ..

ووجد المدينة من حوله تضليل القراء ، ورواية الحديث ، وعلماء الدين .

وكانوا يتذاكرن فيما بينهم ، ويتلقون طالبي العلم من مختلف أرجاء الأرض .. ولكنهم يسكنون ألسنتهم عن جور الحكم ، اتقاء لعسف هؤلاء الحكماء الذين أتوا أن يطشاوا بكل من عرف عنه أنه لا يرضي عن سيرتهم !!

وهكذا كان علماء المدينة منتصفين عن السياسة إلى الدين .

وكلهم مع ذلك يفسيق صدره ولا ينطق لسانه !! ..

وعجب الفتى زيد كيف يسكتون عن المنكر ، ولا يأمرن بالمعروف !!

وتحدث إلى جعفر ابن أخيه الأكبر محمد .. وكان في مثل سنه ولكن جعفر بن محمد طلب منه أن يصبر ويصمت ، وهذا نصحه أخوه وأستاذه محمد .. فقد رخص الله تعالى للمسلم أن يسكت على الظلم ولا ينهض مقاومةً البغي والفساد ، إن هو خشي على نفسه أو عرضه أو ماله !!

وانصرف زيد إلى الدراسة عدة سنين .

على أن زيدا لم يسكت بعد !! ..

مات أخوه الأكبر محمد الباقر، وبقى هو وابن أخيه جعفر يرثا كران.

وحفظاً علوم آل البيت وكل ما لديهم من أحاديث ، وكل ماوصل إليهما من علماء المدينة .

ثم رأى زيد أن يتترك المدينة بحثاً عن الحقيقة في مدايا أخرى .. وكان قد سمع أن في العراق مدارس وفلسفات جديدة .

وكان عدد من الصحابة والتابعين قد تفرقوا في الأمصار.

لقد سمع خلال الحج والعمرة من رجال يعيشون في البصرة والكوفة فأراد أن يطلب علمهم ..  
وسمع منهم أنه في خارج المدينة يُلعن الإمام على كرم الله وجهه وزوجها فاطمة الزهراء رضي الله عنها  
على منابر المسلمين بأمر حكام الدولة !

وعلم أن هؤلاء الحكام يرتكبون كل المظالم والمعاصي التي نهى عنها الإسلام ، والتي جاء الإسلام  
ليخلص منها شرف الإنسان !

ماصبه على هذا كله ؟

ولكن محيلته والناس في المدينة يتذمرون مواجهة الحكم المستبد الباطش الباغي !  
على أن المدينة لم تكن هي كل المجتمع الإسلامي .. والمسلمون ليسوا هم كل الناس .. وأمة محمد  
(ص) ليسوا هم المسلمين وحدهم فقد أرسله الله للبشر كافة .

ورحل زيد إلى البصرة والكوفة .. وهناك وجد مجتمعآ آخر غير مجتمع المدينة المنورة .

كانت النفوس تغلى بالسخط والرفض .. وقد نشأت فرق انتشرت إلى أطراف الدولة تهم معاوية  
بالكفر، وتدين الدين أيدوه وتحكم على الفقهاء الذين ناصروه وأيدوا ورثته في الخلافة بأنهم ليسوا من  
الله في شيء ، وبأنهم باعوا دينهم بدنيا الحكام وأنهم مرتفقة متنطعون ، وجبناه منافقون ، سكتوا عن  
الظلم وعن سب على فاطمة على المنابر منذ أمر بذلك معاوية !!

وأى مسلم هذا الذي يسكت وخطباء المساجد ينفذون أوامر حكام بنى أمية ويلعنون من على  
المنابر فاطمة بنت الرسول صلى الله عليه وسلم ، وزوجها على بن أبي طالب الذي كرم الله وجهه  
والذي دعا له الرسول (ص) : « اللهم وال من والاه وعاد من عاداه » !! ..

مسلم يصح إسلامه ، هذا الذي يسكت عن حكام ظلموا الرعية ، واستباحوا مالها ، وعدوا  
مصالحها وهم أجراوها ، ويلعنون فاطمة وعليها من فوق المنابر كل جمعة ويؤمنون المسلمين في الصلوات  
بعد هذا !! ..

لم يكن من الممكن أن تمر سيرة حكام بنى أمية في عدائهم الأعمى لآل البيت ، وعدوائهم الbaghi على حقوق الآخرين ، دون أن تثير ثائرة القلوب منها يكن سلطان البطش والقهر ...

من أجل ذلك نشأت جماعات سرية اتجهت إلى أطراف الدولة ، تعمل على الإطاحة بحكم الأمويين . وكانت أقواها تلك التي نشأت في العراق واتجهت إلى خراسان ..

تفجر تيار السخط في البصرة والكوفة وسائر الأمصار ، وأخذ أحفاد الذين أسلموا الحسين وبختلوه يستعدون للنهوض ضد حكام بنى أمية .. واعتبروا ثورتهم توبة إلى الله لما فعلوه بالحسين .. وانسلوا بزيد بن علي زين العابدين ، وهو في البصرة والكوفة مختلف إلى العلاء .

على أن زيدا بن علي زين العابدين بن الحسين كان مأيذل يذكر تعذير أبيه ، وما زالت صور ما صنعته أهل الكوفة بعده الحسين تطوف أمام عينيه ..

إنه في أعماق نفسه ليؤمن بأنه مطالب بأن ينفخ للأمر بالمعروف والنبي عن المنكر ، وأنه يجب أن يقاوم البدع وأن يعيي السنن .. ولكن كان في نفسه شيء ما ! .. لم يأت الوقت بعد .. وليس لديه من القوة والمدة والعديد ما يواجه به سلطان الأمويين ..

عندما يأتي الوقت سيتحقق العصبة الbaghi ويدعو لنفسه إماماً للمسلمين .

ولن يأتي الوقت حتى يكون لديه ما يكفي من الرجال الصادقين الشجعان .. رجال لا يخذلونه ولا يسلموه كما صنع أجدادهم مع جده الحسين !!

وها هوذا يضطرب بين الكوفة والبصرة والمدينة .. فتى في نحو الثلاثين فارع مهيب صريح الوجه ، صاحب السن ، محب لطبيات الحياة التي أحلاها الله لعباده ، عازف مع ذلك عن زخرف الدنيا ، طالب للحقيقة ، مولع بالحكمة ، باتر في حسه ، فارس باسل من فرسان الحق !!

وفي العراق وجد جماعات مختلفة متطرفة من شيعة آل بيته اضطهدهم جور الحكام وظلمهم لآل البيت إلى المبالغة والتطرف .. والتفوا حوله .. منهم جماعة تدعى أن الوحي كان سينزل على الإمام على بن أبي طالب ولكنه أخطأ !! وآخرون يواجهون لعن على من على المنابر بحسب اللعنات على الشيفيين أبي بكر الصديق والفاروق عمر بن الخطاب !! ومنهم جماعة تعتقد أن على بن أبي طالب لم يمت ، ولكنه رفع إلى السماء كعيسى بن مريم عليه السلام !! . وكما تعلم من أبيه وأخيه الأكبر محمد الباقر ، حاول أن يرد تلك الجماعات إلى الصواب فلم يستطع ، وحاور رؤساءهم فأنكرروا عليه رأيه ، واتهموه بناصب جده الإمام علي العداء ، فأعلن برأته منهم جميعا .. كما فعل آخوه الأكبر وأبوه من قبل .

وأقبل على الذين اختلفوا إلى دروسه بوضع لهم مزايا الشيختين ، ويدرك بفضلها على الإسلام ، ويعد أن توليهما الخلافة مشروع وصحيح .. وأعلن على الناس : « كان على أفضل الصحابة إلا أن الخلاف فُوّضت إلى أبي بكر وعمر رضي الله عنهما لمصلحة رأوها ، وقاعدة دينية راعوها ... فإن عهد الحروب التي جرت في أيام النبوة كان قريباً وسيف أمير المؤمنين (علي) في دماء المشركين من قريش لم يجف بعد ، والضيائين في صدور القوم من طلب الثار كما هي . فما كانت القلوب تميل إليه كل الميل ولا تنقاد له الرقاب كل الانقياد .

وهكذا تابع أباء وأخاء الأكبر في توقير الشيختين وعثمان ، وأعلن أن المفضول قد يقدم على الأفضل إذا اقتضت ذلك مصلحة الأمة ، وأنه لا يشترط أن يكون الإمام من أولاد على وفاطمة بل يشترط فيه الصلاح ...

وفي البصرة وجد خلافاً بين الفقهاء حول موقف مرتكب الكبيرة .. أكابر هؤلاء فاسق منافق؟

وحاور هناك عدداً من أफضل العلماء منهم واصل بن عطاء وأبو حنيفة النعمان ، وقامت بينهم مودة ونشأ احترام متبادل .. حتى لقد صرّح أبو حنيفة أنه ما وجد في البصرة أفضل من زيد بن علي  
وفي العراق عرف فيمن عرف فرقاً تتحاور فيما بينها حول القضاء والقدر .. وحول الإنسان .. أغير هو يختار ما يفعله ، أم أنه مسير مقصىٌ عليه بما يفعل بلا إرادة منه ولا اختيار ! .

ووجد آخرين يبحثون عن مصادر الأحكام .. من أين يأتون بالحكم إذا عرضت قضية أو مادة أو حالة ولم يجدوا لها حكماً في القرآن أو السنة .

وكان زيد قد تعود عن أبيه وأخيه أن يتلقى العلم من كل مصادره ، وألا يكتفى بعلم شيوخه من آل البيت ، وأن يفتح عقله وقلبه لتحقيق كل الآراء ..

كان في تلك البيئة الثقافية المضطربة بالتيارات الفكرية المتعارضة من يرى أن مرتكب الكبيرة كافر ، غلاد في العذاب

. . .  
وآخرون يقولون إن مرتكب الكبيرة منافق يظهر غير ما يطن ، ولو كان مؤمناً ما ارتكبها .

وآخرون من رأيهم أنه لا يضر مع الإيمان معصية ، وأن أمر مرتكب الكبيرة يرجأ إلى أن يحاسبه الله ..

وقد أغوى هذا الرأي بعض الناس باقتراف الكبائر ..

وورقة أخرى رأت مرتكب الكبيرة يستحق العقاب وأمره راجع إلى ربه ..

ولكن الإمام زيدا رأى أن اقتراف الكبيرة منزلة بين الكفر والإيمان .. و يسمى مرتكبها فاسقا .. وهو مسلم لا كافر، ولكنه ليس مؤمنا ، لأن المؤمن ولـي الله ومرتكب الكبيرة يعصي الله . ثم إن الإيمان يقتضي الطاعة ، ومرتكب الكبيرة عاصٍ ، ولكن لا يخلد الله في العذاب ، بل يعذبه الله بقدر ذنبه !

أما عن القضاء والقدر وحظ الإنسان من الجبر والاختيار فالإمام زيد يعتبر الإنسان حررا مختارا فيما يفعل وفيما يأخذ أو يدع من طاعة وعصيان ، ذلك أن المعصية ليست قهرا من الله . ولو لا هذه الحرية لسقط التكليف ، ولسقط الثواب والعقاب . فالإنسان إذن مسؤول عما يفعل . وبمقدار حرية في الاختيار يستحق الثواب أو العقاب ، ولكن على الإنسان أن يؤمن بالقضاء والقدر وهذا الإيمان لا يلغي حرية الإنسان . وقد روى عن عمر أنه سأله سارقا : « لم سرقت » فقال : « قضى الله على بذلك ». فأمر عمر بقطع يده وبجلده قائلا : « القطع للسرقة والجلد للكذب على الله » !

والقدر هو تقدير الله في علمه الأزلـي ، والقضاء هو حكمه التكليفي . والإنسان حرفي أن يعمل أولاً يـعمل وهو يـحاسب بـعملـه .

وكان الإمام زيد يوضح للناس ماروا عن الرسول (ص) .. فقد شبه الرسول قضاء الله وقدره بوجود الإنسان بين السماء والأرض لا يستطيع منها فكاكا . وشبه حرية الإنسان في العمل بحرية الله على الأرض ، فلا السماء والأرض تملـيان عليه ما يـصنع !

وشرح موقف الإمام على بن أبي طالب من هؤلاء الذين يحسبون أن أعمال الإنسان هي قضاء لازم وقدر عـتمـوم .. فقد قال الإمام على : « لو كان ذلك بطلـ الشـوابـ والعـقـابـ ، والـوعـدـ والـوعـيدـ ، والأـمـرـ والنـهىـ ، ولم تـأتـ لـائـةـ منـ اللهـ لـذـنـبـ ، ولاـ حـمـدةـ لـحـسـنـ ، ولمـ يـكـنـ الـمـحـسـنـ أـوـلـيـ بالـمـدـحـ منـ الـمـسـىـ ، ولاـ الـمـسـىـ أـوـلـيـ بـالـذـمـ منـ الـمـحـسـنـ . »

ورأى الإمام زيد في القضاء والقدر شبيه برأي حسن البصري الذي عرفه الإمام زيد في العراق .. يقول حسن البصري : « من لم يؤمن بالله وقضائه وقدره فقد كفر ، ومن حل ذنبه على الله فقد كفر » ..

أما الرأـيـ فيـ الأمـورـ الجـديـدةـ التيـ تـعرـضـ والـأـفـضـيـةـ التـيـ تـسـتـحدـثـ وـلـيـسـ فـيـ الـكـتـابـ أوـ الـسـنـةـ حـكـمـ هـاـ ، فـقـدـ ذـهـبـ إـلـيـ وـجـوـبـ النـظـرـ فـيـ تـشـابـهـ هـذـهـ الـأـمـورـ الجـديـدةـ معـ الـأـمـورـ التـيـ وـرـدـتـ هـاـ أـحـكـامـ فـيـ الـكـتـابـ أوـ الـسـنـةـ ، فـإـنـ تـشـابـهـ جـيـعاـ ، وـتـوـفـرـتـ فـيـاـ لـمـ يـرـدـ حـكـمـهـ فـيـ الـكـتـابـ أوـ الـسـنـةـ ذاتـ عـلـةـ الـحـكـمـ المـنـصـوصـ عـلـيـهـ ، طـبـقـ الـحـكـمـ نـفـسـهـ .. وـهـذـاـ هـوـ الـقـيـاسـ .

على أنه إذا تعارض قياسان أحدهما ظاهر ضعيف ، والآخر قوي غير ظاهر ، وجب الأخذ بما هو أقوى وهذا هو الاستحسان ..

ومهما يكن من شيء فالعبرة في إجراء الحكم هو رعاية مصالح الأمة لأن تحقيق المصلحة هوقصد الشارع وهدف الشريعة .. وتلك هي المصالح المرسلة .

والإمام زيد في كل هذا يدعوا إلى إعمال العقل فإن لم يمكن الوصول إلى حكم بعد هذا ، فما من سبيل إلى الوصول إلى حكم عادل إلا بإعمال العقل .. فالعقل وحده هو الذي يحكم على الأفعال بالمحسن أو القبح ، وبما يتضمنه اقتراف أيها من ثواب أو عقاب !!

وكان الحكام يحاولون أن يخنقوا الفكر والرأي ، وأن يعطّلوا عمل العقل ، ليفرضوا على الأمة قبول مايفعلون ، زاعمين أنهم خلفاء الله في الأرض ، مستندين في تبرير المظالم على بعض المرتزقة من أشباء الفقهاء ، وأشباء الرجال ، من وضعوهم في قاعات الملك كأنهم بعض الزينة الزائفة !! .. ثم رفعوهم على المنابر يلعنون فاطمة بنت الرسول صلى الله عليه وسلم وزوجها الإمام على بن أبي طالب كلما نودى على الصلاة من يوم الجمعة ! !

وبقدر ما كانت الأمة تختقر صناع الزيف هؤلاء ، كانت تكبر الفقهاء والعلماء الشرفاء والمفكرين الأحرار من أمثال واصل بن عطاء ، وأبي حنيفة النعمان ، وزيد بن علي وابن أخيه جعفر بن محمد الذي عرف بجعفر الصادق .

وكان الخليفة هشام بن عبد الملك بن مروان وعماله على الأمسار يتربصون بهؤلاء جميعا .. فاما جعفر الصادق وأبو حنيفة وواصل بن عطاء فقد ابتعدوا عن السياسة ، وإن لم يسلموا من أذى هشام وعماله !

ولكن زيد بن علي زين العابدين سلك طريقا آخر ..

كان يعرف أن هشام بن عبد الملك يتربص به كما يتربص بالآخرين ، ويضيق بأرائه في الفقه ، وبدعوته إلى إعمال العقل وتحرير الفكر ، وحماية إرادة الإنسان ، كما يضيق بدعوة الآخرين !

وعلى الرغم من كل ذلك فقد خرج الإمام زيد ليجعل من الفكر حرّكة .. ومن الثقاقة عملا !! من الحق أنه ظلل كالآخرين متقيا بطش السلطة الغاشمة ، مكتفيا بالاجتهد في أمور الدين ، وبالدعوة إلى سيادة سلطان العقل .. ولكنه شعر أن الوقت قد جاء !! جاء الوقت لتحول الكلمات إلى خطوات على طريق الحقيقة !

وأعلن أنه لا يحق لمسلم أن يقبل هدية أو عطاء من حاكم مالم يكن هذا الحاكم عادلاً يحقق مصالح الأمة . فأخرج بذلك عدداً من فقهاء العصر وعلمائه كانوا لا يجدون حرجاً من قبول المدايا والمعطاء ..

ثم أذن في الناس بأن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر واجب شرعاً وأصل من أصول الدين .

وهكذا انطلق يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويدين كل تصرف يخالف الشريعة ويطلب بالتغيير والإصلاح ، ويبث بالآمة أن يشحذ كل فرد فيها عقله ليتعرف على الحسن والقبيح ويرفض قبول ما يأباه عقله !

وصحبه أحد شيعة آل البيت وهو أبو خالد ، ليدون أقوال الإمام زيد ، واجباته على كل مايسأل عنه .

فأمر هشام بن عبد الملك بن مروان بسجن أبي خالد .

وظل أبو خالد في محبه حتى مات . على أن حبس أبي خالد لم يرهب الذين التفوا حول الإمام زيد ، والذي بهرتهم شجاعته في الحق وقوته على الباطل !

لقد التفوا حوله بكل حبهم لآل بيته (ص) ، وبكل ندمهم لأن أسلافهم خذلوا جده الحسين ، وبكل أحلامهم في أن تعود للناس من جديد تلك الأيام الجميلة الذاهبة المفعمة بالفضائل ، حين أصبح الإمام على أمير المؤمنين ، فإذا الناس لا يمتاز أحدهم عن الآخر إلا بالعمل الصالح ، وإذ يحيى سنته رسول الله (ص) ليجعل الناس سواسية كأسنان المشط لافضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى ، وإذ به يأخذ من الأغنياء مازاد عن حاجة العام ، ليسد به حاجة الفقراء إلى الطعام ، ولبيلغ بهم حد الكفاية لأحد الكفاف ..

تلك الأيام الباهرة المشحونة بالخطر وثبات الأطماء التي شعر فيها الإنسان بحق أنه خليفة الله في الأرض .

تلك الأيام النبيلة التي كان فيها القرآن والسنة ثم إجماع الصحابة هي مواز بين العلاقات الإنسانية ودستورها بكل ماجاء به الدين الجديد من مكارم الأخلاق .. وبكل ماقصد إليه الشارع الحكيم من تحقيق مصلحة الأمة ..

التف أتباع آل البيت ، والفقهاء الصالحون ، والحر يصون على دينهم ، والزاهدون ، والحاملون بالعدل والمجتمع الفاضل والطهارة .. وكل أعداء الزيف .. التفوا جميعاً حول الإمام زيد .. وأنفذ بعضهم يطالب الإمام زيد بأن يتقدم ليترد الإمامة وليكون هو الخليفة .. ولينتزع من أظفار البغي حق آل البيت في إمارة المؤمنين .

ولقد ظن هشام أن الناس إنما فتنوا بزید لفصاحته ..

وفى الحق أن زیداً كان يملك تلك البلاغة التي امتاز بها آل البيت ، والتى ينحها الصدق قدرة خارقة على التأثير.

فكتب هشام إلى والى العراق : « امنع أهل الكوفة من حضور مجلس زید فإن له لساناً أقطع من السيف وأحد من الأسنة وأبلغ من السحر » .

ولم يمتنع الناس عن لقاء زید على الرغم من كل شيء ! .

وظل زید يتجلو فى أنحاء العراق ، فيرى صوراً من المظالم لم يرها من قبل وهو فى المدينة .. واستغاثات المظلومين تستنهضه ، ليدفع عنهم البطش ، وينقذهم من غاشية الفساد ، ولি�ذود عن حرم الدين .

وكان الإمام زید قد صرخ برأيه في شروط الخلافة وجاهر بأن الخليفة لا يكون خليفة لرسول الله وأميرًا للمؤمنين وإمامًا للأمة إلا إذا توفرت له شروط ثلاثة :

— الشورى أى لا ينفرد بالرأى ويستبد في الحكم

— والمباعدة أى أن يختاره الناس بارادة حرمة غير مكرهين ولا خائفين أو تحت الإغراء ، فهذا كله يعطى حرية الإرادة . التي لا تصح البيعة أو الاختيار إلا بها ..

— وثالث الشروط هو العدل .. فيقيم الخليفة المجتمع على قواعد الشعور ، ويتحقق المساواة بين الناس في الحقوق والواجبات والفرص ، ولا يحكم بهواه ، بل يكون معيار المعاشرة بين الأفراد هو ما يقدمون من عمل حسن ..

ولقد أدرك هشام أن هذا الرأى يهز عرشه ويقاد يدكَّه دكًا .. فحكمه كحكم أسلافه من بنى مروان وبنى سفيان وكل الأميين لا يقوم على الشورى بأصولها الشرعية .. والبيعة لم تصح شرعاً لأحد منهم لأنها ليست نتيجة إرادة حرمة بل هي بيعة إكراه تحت ضغط القهر أو الإغراء ، ثم إنه لا يجرى العدالة كما فرضتها الشريعة !

وها هو هذا الخليفة يظلم الناس بلا حساب .. فإذا يصنع زید ! .. ما صنته وواجبه الشرعي أن يُحق الحق ويحارب الباطل ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر !

ما زالت استغاثات المظلومين تستصرخه ليهض ذائداً عن حوض الشريعة ومحرمات المسلمين ومصالح الأمة .

واستشعر الخليفة الخطر، وخشى إن هو وتب على زيد أو بطش به أن تشتعل الثورة على بنى مروان .. وكان زيد قد جمع حوله الفقهاء والشباب والصالحين وأهل التقوى والفقراء .. جمع الأمة كلها ولم يبق مع الخليفة غير المرتزقة والمنتفعين والجواري والنادميين والمصححين وأشباه الرجال !

ورأى هشام أن خير ما يطلبه تأثير زيد هو اقتلاع ماله في قلوب الناس من احترام وتقدير .. وتوفير ومهابة !

وإذن فيجب أن تُشوّه صورة زيد في عيون المعجبين به .

أفضل هو؟ !

أطاهر قوع نز يه فوق الدنية؟ !

إذن فلتلطخ بالأوحال كل هذه النصاعة التي بهرت الآخرين !

فليُسقط هشام بكل الحيل هيبة زيد أمام الناس ! ..

أم تقم أركان هذه الدولة على الخديعة منذ التحكيم بين على ومعاوية؟ .. أم يكن المكر السيء  
قواعدها؟ !

فليُنصب هشام الفخاخ لزيد .. فإن لم يقع فيها فليختلق عليه ، ولتكن الأكذوبة ضحمة حتى  
تذهل الناس فلا يجرؤ أحد على تكذيبها !

ووافت هشام بن عبد الملك بن مروان فرصته ، حين اختلف زيد مع بعض أبناء عميه حول وقف  
على بن أبي طالب لأنبيائهم تكون الولاية .

فأصدر هشام أمره إلى والي المدينة بأن يستدعي المتنازعين أمامه في المسجد ، وأن يشغل الخصومة  
بینها ويطيئها ، وأن يمحشد أهل المدينة ليروها ..

وصدع الوالي لأمر الخليفة .. وحضر الناس وجاء الخصمان فأغراهما الوالي بأن يتشاتا ، ليرى  
الناس الإمام الطاهر وأآل البيت كيف يتخاصمان على المال والمنصب وعرض الحياة الدنيا .

ولكن الإمام الطاهر زيد بن على أدرك الخديعة فترك النزاع ، وقال لابن عميه إنه متنازل عن حقه  
ولأنه لن يخاصمه إلى هذا الوالي أبدا .

ثم قال زيد للوالى : « أجمعـت ذريـة رـسـول الله لـأـمـرـ ماـكـانـ يـجـمـعـهـمـ عـلـيـهـ أـبـوـبـكـرـ وـعـمـ؟ »

وبدلا من أن ينتهي الأمر بتنازل زيد عن الدعوى أشار الوالى إلى أحد المرتزقة من أشباء الرجال وأراذل أتباع بنى أمية ليحرضه بأن يعرب على الإمام الطاهر زيد عف اللسان .

قال الوالى وهو يغرس صنيعته بإهانة زيد : « أما لهذا السفيه أحد؟ » .. فقال صنيعة الوالى : « يا ابن أبي تراب وابن حسين السفيه ، أما ترى لوال عليك حقا ولا طاعة؟ » فرد زيد كاظما غيظه : « اسكت فإننا لا نحبيب مثلك .. » فقال الرجل : « ولم ترغب عنى ، فوالله إنني لخير منك ، وأبى خير من أبيك وأمي خير من أمك » فتضاحك زيد وقال : « يامعشر قريش هذا الدين قد ذهب ، أفذهبت الأحساب؟ فوالله إنه ليذهب دين القوم وما تذهب أحسابهم . » فانتفض من بين القوم عبد الله بن واقد بن عبد الله بن عمر بن الخطاب بكل حمبة جده الأكبر عمر بن الخطاب وانقض على صنيعة بن أمية قائلا : « كذبت والله .. هو خير منك نفسا وأبا وأما ومحبنا » فقال الصنيعة : « دعنا منك ». فأخذ حفيظ عمر بن الخطاب كفا من حصى فضرب به الأرض وهو يقول للوالى .. « والله مالنا على هذا صبر» ! ..

وترك زيد المدينة مرة أخرى .. وسافر إلى العراق ، حيث شيعة آل البيت وفقهاء العراق ومثقفوها ينصرونه ويعنونه ، ولا يسمحون لوالى المدينة بأن يبينه أو يغرس به بعض الأراذل المرتزقة .

وكان فى صحبة زيد حين قدم العراق هذه المرة نفر من قرابته من بنى هاشم .. وحسب الخليفة هشام بن مروان بن عبد الملك أن والى العراق سينتهز الفرصة ليهين زيدا أمام أقربائه .. وانتظر هشام ماسيفعله والى العراق بزيد تشويها لصورته أمام الذين جاوزوا فى إعجابهم به كل الحدود .

ولكن والى العراق خالد بن عبد الله القسرى بدلا من أن ينصب الفخاخ للإمام زيد أقام له مآدب التكرم .. !

فأمر الخليفة بعزل خالد وسجنه ، وولى بدلا منه يوسف بن عمر الثقفى وهو فظ غليظ القلب سيء المكر .. فعذب خالدا فى سجنه عذاب شديدا لم يكف عنه ، حتى أذعن خالد لما يريد الوالى الجديد .. أن يدعى على زيد أنه خان الأمانة !

واستدعي الإمام إلى الوالى العراقي الجديد .. وقال الوالى الجديد لزيد : « إن خالدا يزعم انه أودعك مالا ». قال زيد : « كان خالد واليا على العراق مكلفا بأن يشتمنى ويشتم آبائى على منبره فكيف يودعني مالا؟ » فأرسل إلى خالد فأحضر من مجلسه فقال له الوالى : « هذا زيد قد انكر أنك أودعته شيئا » فقال خالد للوالى الجديد : « أتريد أن تجمع مع إثنك إثنا فـى هذا؟ .. كيف أودعه وأنا أشتمنه وأشتم آباءه على المنبر» ! وغضب الوالى الجديد يوسف الثقفى وأعاد خالدا إلى سجنه ليعذب أشد عذاب ، بعد أن أفسد محاولة الإيقاع بالإمام زيد وتشويه صورته أمام الناس ! !

وتصايع أهل العراق مستنكرين ما يحدث للإمام زيد، وتعجلوا نهضته لاسقاط الخليفة ودولة بنى أمية جيئاً، ووعدوه أن يجمعوا له مائة ألف مقاتل يباعونه إماماً وخليفة للمسلمين وأميراً للمؤمنين! وحملت جواسيس هشام إليه هذا النباء، فأرسل هشام يطلب زيداً ..

ولما ذهب زيد إلى قصر الخليفة لم يستقبله أول الأمر.. بل أبقاء أياماً خارج القصر يطلب اللقاء فلا يجده.. وحسب الخليفة أنه بهذا السلوك يهين الإمام ويزرى عليه أمام الناس..!

وأنهراً أذن له في دخول القصر، وأمر الخليفة أحد عيونه أن يتبعه وأن يخصى عليه ما يقول..

ورأى زيد قصراً منيفاً باهر الغنى فاخر الرياش محلاً بعقود مذهبة، فزحفت من أعماقه أصداء أنين المطحونين واستغاثات المظلومين. وتخاللت أمام عينيه صور الفقر التي رآها في كل بلد نزل به! .

هنا يهدى الدين إذن !

أين هذا القصر البادئ ذو الزخرف والترف الخرافي من بيت الخليفة بالكوفة في الزمن القديم، حيث حكم أمير المؤمنين الإمام على دولة عظمى نحو أربعة أعوام، من بيت صغير من طين هو أدنى بيت من بيوت المسلمين!؟ .

إنه لا يتحقق لأحد من المسلمين أن يعيش في مثل هذا الترف، قبل أن يحصل كل فرد في الدولة من المسلمين وغير مسلمين على الكفاية لا الكفاف: الطعام والملابس والمسكن والمركبة والدواء والعلم والأمن كل ما يكفي حاجاته المشروعة.. وهذا هو الإسلام الحق!

أما هنا فتنتهك الشريعة، ويفهدر كل ماجاء به الدين القيم!!.. ولكن.. ولكن الذي يملك كل هذا المتعاع ذليل.. فهو عبد لما ينتفع به!!

وقال زيد لنفسه بصوت سمعه الحاجب الذي يخصى كلماته: «والله لا يحب الدنيا أحد إلا ذل» ..

ورجل الخليفة يخصى ما يقول، ويخصى حركات الدهشة والاستنكار..

ثم صعد زيد إلى هشام، فلما دخل عليه لم يجد موضعاً يجلس فيه، ولم يفسح له هشام، فجلس زيد حيث انتهى به المجلس. وسأل هشام عن شيء فحلف له زيد، فقال هشام: «لا أصدقك» فقال زيد: «إن الله لم يرفع قدر أحد عن أن يرضي بالله ولم يضع قدر أحد عن أن يرضي بذلك منه..» فقال له هشام مغلظاً: «اسكت لا ألم لك!.. بلغنى أنك تذكر الخليفة وتتنمها وأنت ابن أمّة»..

إن الخليفة ليذكره بجده أم أبيه على زين العابدين ويزرها ! .. وأم على زين العابدين بن الحسين كانت من بنات كسرى سبيت وأختان لها في عهد عمر بن الخطاب .. فكانت هي للحسين ابن على فأولدها على بن زين العابدين وكانت الثانية لمحمد بن أبي بكر والثالثة لعبد الله بن عمر .. وعندما استشهد الحسين ، انقطعت أمرأته الفارسية تلك لتربية ولدها على زين العابدين بن الحسين ورفضت الزواج . وكانت صغيرة السن ، فائقة الجمال ، حميدة الخصال .

قال زيد هشام : « إن لك جواباً فإن أحببت أجيتك به ، وإن أحببت أمسكت » .. فقال هشام : « بل أجب » فقال زيد : « إن الأمهات لا يقعدن بالرجال عن الغايات . وقد كانت أم إسماعيل أمة لأم أخيه إسحق ، وأخوه ابن صريحة مثلك ، فأختاره الله عليه فأنخرج من صلبه خير البشر محمد صلى الله عليه وسلم . فتقول هذا لي وأنا جدي محمد ؟ وأنا وابن فاطمة وعلى ! » قال له هشام معنقاً : « أخرج . » قال زيد : « أخرج .. ثم لا تراني إلا حيث تکره .. » .

ومنذ طرده هشام من قصر الخلافة ما رأاه هشام بعد إلا حيث يکره ..

فقد عرف الناس بما دار بين الخليفة وزيد فجهروا بالسخط على الخليفة ، وأخذوا على الرغم من كل شيء يلعنونه في أسواق الكوفة هو وأسلافه من الملوك الأمويين !

يقول الطبرى : ثم رجع زيد إلى الكوفة فاستخفى فقال له محمد بن على بن أبي طالب حيث أراد الرجوع إلى الكوفة أذكرك الله يا زيد لما لحقت يأهلك ولم تقبل قول أحد من هؤلاء الذين يدعونك إلى ما يدعونك إليه فإنهم لا يفون لك .. فلم يقبل منه ذلك .. وقرر أن يقيم بالكوفة على الرغم من نصيحة أخيه محمد الباقر .

ويقول الإمام الطبرى .. قال أبو عنف :

فأقبلت الشيعة لما رجع إلى الكوفة يختلفون إليه ويبايعون له حتى أحصى ديوانه خمسة عشر ألف رجل فأقام بالكوفة بضعة عشر شهراً إلا أنه قد خرج منها إلى البصرة نحو شهرين ثم أقبل إلى الكوفة فأقام بها وأرسل إلى أهل السواد وأهل الموصل رجالاً يدعون إليه . وتزوج حيث قدم الكوفة ابنة يعقوب ابن عبد الله السلمي أحد بنى فرقان . وتزوج ابنة عبد الله بن أبي العباس الأزدي . وكان سبب تزوجه إليها أن أمها أم عمرو بنت الصلت كانت ترى رأى الشيعة ، فبلغها مكان زيد فأتته لتسليم عليه . وكانت امرأة جسمانية حميمة قد دخلت في السن إلا أن الكبر لا يتبين عليها . فلما دخلت على زيد بن على فسلمت عليه ، ظن أنها شابة فكلمته ، فإذا هي أفعص الناس لساناً وأجله منظراً ، فسألها عن نسبة فانتسبت له ، وأخبرته من هي . فقال لها « هل لك رحمك الله أن تتزوجيني . » قالت :

«أنت والله رحمك الله رغبة لو كان من أمرى التزويج» . قال لها : «وما الذي يمنعك من ذلك ؟»  
قالت : «يمنعني من ذلك أنني قد أستمنت .»

فقال لها : «كلا قد رضيت ، ما يبعدك من أن تكوني قد أستمنت .»

قالت : «رحمك الله . أنا أعلم بنفسي منك وبما أتي على من الدهر . ولو كنت متزوجة يوما من  
الدهر لما عدلتك . ولكن لي ابنة أبوها ابن عمى وهي أجمل مني وأنا أزوجها إن أحببت .»

قال : «رضيت إن تكون مثلك»

قالت : «لكن خالقها ومصورها لم يرض أن يجعلها مثلى ، حتى جعلها أبيض وأوسم وأجسم ،  
وأحسن مني ذلاً وشكلاً»

فضحلك زيد وقال لها : «رزقت فصاحة ومنطقا حسنا فأين فصاحتها من فصاحتك ؟»

قالت : «أما هذا فلا علم لي به لأنني نشأت بالمحجاز ، ونشأت ابنتي بالكوفة فلا أدرى لعل ابنتي  
أخذت لغة أهلها»

ثم أوعدها موعدا فأتتها فتزوجها ، ثم بني بها ، فولدت له بخارية ، ثم إنها ماتت بعد وكان بها معجبها  
انتهى حديث الإمام الطبرى .

وكان زيد بن علي يتزل بالكوفة منازل شتى في دار امرأته في الأزد مرة ، ومرة في دار أصهاره  
السلميين .. وفي دور عديد من شيعة آل البيت مرات أخرى .

وظلل طوال إقامته بالكوفة يباهي الناس ويبيح الناس وكانت بيته : «إنا ندعوكم إلى كتاب  
الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، وجهاد الظالمين ودفع المستضعفين وإعطاء المهرمين وقسم هذا  
الفناء بين أهله بالسواء ، ونصرة آل البيت»

ورفع عدداً من أبناء عميه ما هو مقدم عليه ، وتذاكرروا مأساة جدهم الحسين : بيعة أهل الكوفة له  
ثم تخلبهم عنه .. ثم قتله هروباً من معه على أرض كربلاء !

على أن الناس تداعوا إلى بيته حتى وصلوا أربعين ألفاً في السلاح والعتاد

وقال له أحد أولاد عميه من خلال الدمع إشفاقاً عليه :

«يا بن عم .. إن هؤلاء يفرونك عن نفسك . أليس قد سذلوا من كان أعز عليك منهم ؟ جدك على

ابن أبي طالب حتى قتل ، والحسن من بعده بايعوه ثم وثبوا عليه ؟ أو ليس قد أخرجوا جدك الحسين ، وحللوا له وخذلوه وأسلموه ، ولم يرضوا بذلك حتى قتلوه ؟ فلا ترجع إليهم وإنى خائف إن رجعت إليهم إلا يكون أحد أشد عليك منهم . وأنت أعلم » ..

ثم أتاه رجل من أصدقائه محبي آل البيت فقال له : « نشتك بالله : » « كم بايتك ؟ » قال زيد : « أربعون ألفا » . فقال الرجل : « فكم بايع جدك الحسين ؟ » قال زيد : « ثمانون ألفا » . فسأله الرجل : « عن عدة من ثبت مع جدك ؟ » . فقال زيد « ثلاثة وثلاثة وأصفاف الرجل إن الزمن الذي مضى فيه جده الحسين كان أفضل من هذا الزمن وإن جده الحسين كان خيرا منه ومع ذلك خذله أهل الكوفة .

ونصح الرجل زيدا أن يعود إلى المدينة فلزمهما فلن يفني له هؤلاء وقد غدروا بجده . فقال زيد : « قد بايوني ووجبت البيعة في عنقي وأعناقهم » .

قضى الأمر فقد هض زيد وما من شيء يمكن أن يقعده بعد !

لقد عزم فليتوكل على الله . ومضى يرد على كل من يعظه أو يحذره بقول الشاعر العربي القديم :

بكترت تخوفنى السنون كائنى  
أصبحت عن عرض الحياة بعزل  
فأجبتها إن السنينة منهـل  
لابد أن أستـقى بكأس المـهل  
فاشتـقـى حـيـاءـكـ لاـ أـبـالـكـ وـاعـلـمـىـ  
أنـىـ أـمـرـهـ سـأـمـوـتـ إـنـ لـمـ أـقـتـلـ

وأتفق زيد مع من بايعوه على أن يخرجوا بجهاد الظالمين في أول صفر سنة ١٢٢ هـ .

ولكن جواسيس الخليفة هشام بن عبد الملك حلوا إليه النبا ، فأرسل إلى والي العراق كتابا يؤنه فيه :

« إنك لغافل . وإن زيد بن علي بالكوفة يبايع له . فالْحَاجُ فِي طَلَبِهِ وَأَعْطَهُ الْأَمَانَ وَإِنْ لَمْ يَقْبَلْ فَقَاتِلْهُ » .

فشنط والي العراق في طلب زيد بن علي ومن معه ، ليثبت للخليفة أنه يقطن لاغفلة به .

وأخذ الوالي يلتمس زيد بن علي في كل البيوت التي يظن أنه ينزل بها فلم يجده، فقبض الوالي على زعماء مؤيديه وضربيهم، ففزع الباقيون، فإذا ذاك ظهر مضطراً من استخفافه.

وعرف بقية زعماء المؤيدين أن الوالي العراقي يوسف الشقفي لن يتركهم، وأنه يدس إلى زيد ويستبحث عن أمره، ويتحرى رؤوس المؤيدين لينكل بهم.

وببدأ زعماء المبايعين يتخاصذلون عن الإمام زيد خوفاً وطمعاً.

ثم اجتمعت جماعة من الرؤوس فقالوا لزيد: «رحمك الله ما قولك في أبي بكر وعمر؟». قال زيد: «رحمها الله وغفر لها، ما سمعت أحداً من أهل بيتي يتبرأ منها ولا يقول فيها إلا خيراً». قالوا: «فلم تطالب إذن بدم أهل البيت إلا أن يكونوا وثباً على سلطانكم فنزعاه من أيديكم؟». فقال لهم زيد: «إن أشد ما أقوله فيما ذكرت إنما أنا أحق بسلطان رسول الله صلى الله عليه وسلم من الناس أجمعين وإن القوم استثاروا علينا به ودفعونا عنه ولم يبلغ ذلك عندنا بهم كفراً. قد ونوا فعدلوا في الناس وحكموا بالكتاب والسنّة». قالوا: «فلم يظلمك هؤلاء إذا كان أولئك لم يظلموك. فلم تدعوا إلى قتال قوم ليسوا لك بظالمين؟». فقال: «إن هؤلاء ليسوا كأولئك. إن هؤلاء ظالمون لى ولكم لأنفسهم. وإنما ندعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم وإلى السنّة أن تحييا وإلى البدع أن تطفأ فإن أجبتمونا سعدتم وإن أبتم فلست عليكم بوكيل».

ففارقوه ونقضوا البيعة، ودعوا الآخرين إلى الانصراف عنه!

ثم إن زيداً جمع من بقى من رؤوس مؤيديه، وأزمع المفروج كما وعدهم في أول صفر، غير أن الوالي العراقي بعث إلى هؤلاء قبل الموعد المحدد بشهر، فحبسهم بالمسجد الكبير بالكوفة، وأغلق أبواب الأسواق على من فيها، واحتارت أوسع أصحاب زيد نفوذًا فضرب عنقه على باب القصر.. وفنى الباقيون. وهكذا اضطر زيد إلى القتال قبل الموعد المحدد بشهر..

وبث في الناس شعار القتال المتفق عليه: «يامنصور أمت» فلم يجبه إلا نحو مائتين وكان قد بايعه من قبل أربعون ألفاً!.. مائتان من الفقهاء والفقيرين الأحرار..

وظل منادى زيد بيناديهم «اخرجوا من الذل إلى العزة اخرجوا إلى الدين، فإنكم لستم في دين ولا دنيا».

فلم يخرج إليه أحد..

وتذكر مأساة جده الحسين!

فقال : « أخاف أن يكونوا قد فعلوها حسينية ، أما والله لأقاتلن حتى أموت » ..

وفي الحق أن أهل العراق فعلوها حسينية ! .

وكان قدره معهم هو قدر جده الحسين .. خذلوه فلم ينخذل .. وقرر أن يقاتل حتى الموت دفاعاً عن حقوق المضطهددين حتى أولئك الذين خذلوه ، وعن قيم الإسلام ، وشرف الإنسان ! ..

وتقدم الإمام زيد الفقيه الفارس يقود نحو مائتين من فرسان الحقيقة ، وهم بلا مدد ، يقاتلون جيشاً كثيفاً موصولاً للأمداد !

وفي بداية المعركة هزموا جناح جيش الأمويين حتى تمزق ، وأوشك الجيش أن ينهزم عنهم ولكن قادتهم أمرهم بأن يرموا زيداً وصحبه بالنبل والسياه عن بعد ، وألا يشتبكوا معهم في قتال !! .. لكيأنهم يخشون مواجهتهم !

ورشقوا جماعة زيد بالنبل ، وخرج رجل على فرس من جيش الأمويين في حمامة السهام وسب فاطمة الزهراء بنت رسول الله (ص) سباً قبيحاً ، فبكى الإمام زيد حتى ابتلت حيته وهو يصيح : « أما أحد يغضب لفاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ أما أحد يغضب لرسول الله صلى الله عليه وسلم ؟

فبرز رجل من أصحاب زيد فقتل الفاجر من على فرسه . وحاول الأمويون قتلها بالسياه ولكن أصحاب زيد حملوا عليهم حلة باسلة حتى أنقذوا الرجل ، وأحدثوا في الأمويين مقتلة عظيمة .. فاحتضنه زيد وقبل ما بين عينيه وهو يقول : « أدركت والله ثأرنا ، أدركت والله شرف الدنيا والآخرة وذرها ». .

ولكن الآلاف من عسكر الأمويين انقضوا يرمون زيداً وصحبه المائتين بالسياه ، حتى نالوا منهم ، وقضوا عليهم . وكان أحد هذه السياه قد أصاب الإمام الفقيه الفارس الطاهر في جبهته ، فمات وصحبه ينتزعون السياه .

وُدفن من بقى من صحبه جثمانه في ساقية وردموها .

ولكن الأمويين نبشوا القبر ومثلوا جثمانه وصلبوه على جذع نخلة .

كانت هذه هي نهاية فقيد عظيم .. نهاية فاجعة كتبت على كثير من آل البيت .. كما كتبت على جده أبي الشهداء الحسين بن علي .

نهاية فاجعة رائعة مهيبة !

وقضى زيداً شهيداً

ولقد كانت ثورته على الظلم والاستبداد هي ثورة الفقهاء المتدينين والشافعيين الأحرار المستثيرين .

قال الإمام الأعظم أبوحنيفة عن ثورة زيد : « لقد ضاحكا (شابه) خروج الرسول يوم بدر » فقيل له : « ولم تختلفت عنه ؟ » فرد أبوحنيفة : « حبسني عنه ودائع الناس ، عرضتها على ابن ليلي فلم يقبل . ولو علمت أن الناس لا يخذلونه كما خذلوا جده لما هاجرت معه لأنه إمام حق ، ولكنني أعتنته بما لي فبعثت إليه عشرة آلاف درهم وقلت للرسول أبسط عذرى »

وبعد أن استشهد زيد بن علي زين العابدين أصبح عميد آل البيت هو جعفر الصادق .. الذي كان يغض الناس على نصرة عمه زيد .. والذي تولى بعده عنباء الإمامة ، وزع من ماله على ورثة زيد وصحبه ..

« لك الله يا جعفر الصادق ! !

ما أفحى هذا الحمل المثقل بالآحزان ! !

« لك الله يا جعفر الصادق ، ،



اللام جحف الصادق



لم يجمع الناس على حب أحد في ذلك العصر كما أجمعوا على حب الإمام جعفر بن محمد  
الذي اشتهر فيهم باسم جعفر الصادق

ذلك أنه كان صاف النفس ، واسع الأفق ، مرهف الحس ، متقد الذهن ، كبير القلب ،  
يلتمس في غضبه الأعذار للآخرين ، حاد البصيرة ، ضاحك السن ، مرضي القسمات ، عذب  
الحديث حلو المشر ، سباقا إلى الخير ، بِرًا ظاهرا .

وكان صادق الوعد ، وكان تقيا .

هو من العترة الطاهرة عترة رسول الله صلى الله عليه وسلم .. جده لأمه هو أبو بكر الصديق  
وجده لأبيه هو الإمام علي بن أبي طالب .. وهو نسب لم يجتمع لأحد غيره !  
ولد في المدينة سنة ٨٠ هـ ومات فيها سنة ١٤٨ هـ .

وخلال هذا العمر المديد أغنى الحياة والفكر بمحسن السيرة ، والعلم الغزير ، وإشراقاته  
الروحية ، واستباطه العقل .

وكان مع جلال هذا الحسب متواضعا لله ، يلتقي في أعماقه علم الصالحين العظيمين وصلاحها  
وحسن بلائهما ، وتراث تقوائهما ، ولا يزدديه على الرغم من ذلك كبر ياء من يجمع في نفس واحدة  
أطراف ذلك الجعد كلها ، وتلك الروعة كلها ! ..

وعى منذ طفولته نصيحة أبيه الإمام محمد الباقر «ما دخل في قلب امرئ شئ من الكبائر إلا نقص  
من عقله مثل ما دخله»

تعهده وهو صغير جده لأمه القاسم بن محمد بن أبي بكر بقدر ما تعهده جده لأبيه على زين العابدين ابن الحسين بن علي بن أبي طالب .. فإذا به هو صبي يحفظ القرآن ويتقن تفسيره ، ويحفظ الأحاديث والسنّة من أوثق مصادرها عن آل البيت ، توالتا عن الإمام على بن أبي طالب كرم الله وجهه وعن الصديق رضي الله عنه وعن سائر الصحابة من رواة الأحاديث الصادقين .

وأتاح له توفر هذه المصادر جيّعاً أن يتقن دراسة الحديث وفهمه ، وأن يكشف ما وضعه المزيفون تزلفاً للحاكمين أو خدمة لهذا الطرف أو ذاك من أطراف الصراع السياسي .

ثم نشر من الأحاديث ما حاول الحكم المستبدون إخفاءه لأنه يزعزع أركان الاستبداد ! فقد كان حكام ذلك الزمان يجهدون في إخفاء ما رواه على بن أبي طالب من السنّة .

وانتهى نظر الإمام جعفر إلى أنه لا يوجد حديث شريف يخالف أو يمكن أن يخالف نصوص القرآن الكريم .. وأن كل ما ورد من أحاديث مخالفًا لكتاب الله فهو موضوع ينبغي ألا يعتمد به .

وكان عصره متورّاً مشوباً بالأسى ، تخضب الرaiات المنتصرة فيه دماء الشهداء من آل البيت ، ويطفئ الأنفاس الفاجع على عربدة الحكماء !

كان عصر الفتوحات الراية ، والفنع العظيم والدموع .

فالدولة الأموية تضع العيون والأرصاد على آل البيت منذ استشهاد الإمام الحسين بن علي في كربلاء ..

وهي تقطّعهم وتضطهد أنصارهم ، وتخشى أن ينهض واحد منهم ليتنزع الخلافة .

استشهد عمه زيد في مقتلة بشعة تشبه ما حدث بجده الحسين أبي الشهداء وبكاه الإمام جعفر أحر البكاء .

وكان الإمام جعفر من بين آل البيت هو الإمام الذي تتطلع إليه الانظار: أنظار الذين يcabدون استبداد الحكماء ، وأنظار الحكماء على السواء !

عرف منذ مطلع صباحه أن الإمام على بن أبي طالب رئيس البيت العلوى يلعن على المنابر في مساجد الدولة في صلاة الجمعة .. وعلى الرغم من أن أم المؤمنين أم سلمة كانت قد أرسلت إلى معاوية تنهى عن تلك البدعة البشعة وتقول له: «إنكم تلعنون الله ورسوله إذ تلعنون على بن أبي طالب ومن يحبه . وأشهد أن الله ورسوله يحبانه» .. على الرغم من تلك النصيحة ، فقد ظل الإمام على يلعن

على المنابر، وتلعن معه زوجه فاطمة الزهراء بنت رسول الله عليه الصلاة والسلام .

وسمع جعفر هذه اللعنات طيلة صباح وجزءاً من صدر شبابه ، حتى جاء الخليفة الأموي العادل عمر بن عبد العزيز فتبرأ إلى الله من هذا العار ، وكان يحمل للإمام علي بن أبي طالب ما يحمل لغيره من الخلفاء الراشدين الثلاثة من إجلال وتقدير .. وأمر الخطيب أن يتلو .. بدلاً من لعن على في ختام خطبة الجمعة - الآية الكريمة التي مازالت تتلى إلى الآن : « إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون »

وطابت نفس جعفر كما طابت نفوس الصالحين وأهل التقوى والعلم بما صنعته الخليفة العادل عمر ابن عبد العزيز وأعلن الإمام جعفر في مجلسه إعجابه بال الخليفة عمر .. سبط عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

وكان الإمام جعفر منذ رأى بطش الحكام بأآل البيت وأنصارهم وبالباحثين عن الحقيقة ويعقاوم الاستبداد ، كان قد أخذ يبدأ التقصية فلم يجهر بالعداء لبني أمية ، اتقاع شره ، وحذر الفتنة ، وهم إذ ذاك غلاظ شداد على من لا يوالوهم .

فأثر أن يهب نفسه للعلم ، وألا يفكر في النهوض والانتقضاض على السلطان الجائر ، حقنا للدماء المسلمين ..

ورأى أن خير ما يقاوم به البغي هو الكلمة المضيئة تثير للناس طريق المداية ، وتنزكيهم وتحركهم إلى الدفاع عن حقوق الإنسان التي شرعها الإسلام وإلى حياة مصالح الأمة التي هي هدف الشريعة .

وكان قد تعلم من جده الإمام علي زين العابدين بن الحسين عن جده الرسول صلى الله عليه وسلم أن طلب العلم ونشره جهاد في سبيل الله ، وأن الله تعالى جعل للعلماء مكانة بين الأنبياء والشهداء .

وكان قد رأى جده الإمام زين العابدين رضي الله عنه يخطوف المسجد حتى يجلس في خلقة أحد الفقهاء من غير آل البيت . فيقول له أحد الحاضرين : « غفر الله لك . أنت سيد الناس . وتأتي تحخطي خلق الله وأهل العلم من قريش حتى تجلس مع هذا العبد الأسود » فيرد زين العابدين : « إنما يجلس الرجل حيث ينفع وإن العلم يطلب حيث كان » .

ولقد وعى الصغير دلالة هذا كله ، وانتفع به طيلة حياته .

ثم إن جديه ماتا وتركاه صبياً ليتولى تثقيفه أبوه الإمام محمد الباقر وهو أعلم زمانه بالقرآن وتفسيره

وبالحديث والفقه فنقل إلى ابنه جعفر كل معارفه ، ونقل إليه توقيرا خاصا للشيفين أبي بكر الصديق وعمربن الخطاب .

وكان أبوه الإمام محمد الباقر يقول : « من جهل فضل أبي بكر وعمر فقد جهل السنة . وأن قوما من العراق يزعمون أنهم يحبوننا ويتناولون أبيا بكر وعمر رضي الله عنها . والذى نفسى بيده لورليت لتقررت إلى الله بدمائهم . لأنتنى شفاعة محمد صلى الله عليه وسلم إن لم أكن أستغفر لها وأترحم عليها . إن أعداء الله عنها لغافلون . »

كما ورث جعفر عن أبيه توقيره لعثمان بن عفان ذى التورين .. وكل صحابة رسول الله رضي الله عنهم .

ولقد مات محمد الباقر وابنه جعفر في خواصيحة والثلاثين ، وقد أتقن معارف آل البيت وأهل السنة وترسبت في عقله نصائح أبيه « إياك والكسل والضجر فإنها مفتاح كل شر . إنك إن كسلت لم تؤد حقا ، وإن ضجرت لم تصبر على حق » .. « إن طلب العلم مع أداء الفرائض خير من الرزء » .. « إذا صحب العالم الأغنياء فهو صاحب دنيا ، وإذا لزم السلطان من غير ضرورة فهو لص » .. ثم وصيته لا يصحب حسنة ولا يخادنهم ولا يرافقهم في طريق : الفاسق والبخيل والكذاب والأحق وقاطع الرحم لأن الفاسق يبيعه بأدنى متعة ، والبخيل يقطع المال حين الحاجة ، والكذاب كالسراب يبعد القريب ويقرب البعيد ، والأحق يريد أن ينفع فيضر وقاطع الرحم ملعون في كتاب الله » .

\*\*\*\*\*

مضى الإمام جعفر الصادق . وقد ورث الإمامة عن أبيه . بكل ما تعلمه من أبيه وجديه يخوض غمرات الحياة المضطربة .. وفي تلك الأيام عرفت المساجد وندوات العلم في المدينة المنورة شاباً ورعاً يستذكر في خلق السموات والأرض بكل ما أتيح له من معرفة وإشراق روحي ، يرفض الاشتغال بالسياسة ابقاء البطش ، على وجهه شعاع من نور النبوة ..

هذا عكوفه على دراسة القرآن والحديث إلى أن واجب المسلم أن يؤمن عن اقتناع وتدبر وتفكير في ظواهر الحياة والكون ، فهي دليله إلى الإيمان بوحدانية الله .

وهذا التفكير إلى الاهتمام بعلوم الطبيعة والكيمياء والفلك والطب والنبات والأدوية لأنها علوم تحقق مصالح الناس ، وتحرر الفكر ، وتهديه إلى الإيمان العميق الحق الراسخ .

وتتلمذ عليه جابر بن حيان ، وكان أبوه شيعيا قتل دفاعا عن الحقيقة وفي حب آل البيت ، فاصطعن الإمام محمد الباقر والد الإمام جعفر ذلك الفتى اليتيم ، وفقهه في الدين حتى إذا ورث جعفر الأمانة أخذ بيده جابر بن حيان وتهده وحثه على دراسة علوم الحياة وذوده بعمل وأمره أن يسر كتاباته لينتفع بها الناس .. وخصص له وقتا في كل يوم يتدارسان فيه علوم الطبيعة والكيمياء والطب ، وكشف له من تبصره بالفقه كثيرا من المعارف العلمية وهذا بالمعارف العلمية إلى التكمن من الفقه .

وعلم وهو في المدينة أن في العراق مذاهب تدعى إلى الإلحاد والزندقة .. فخرج يناقش زعماء هذا الذهب .. لم يقعد مكتفيا بالحكم عليهم بالكفر، أو يصب اللعنة عليهم ، بل نقشهم منطقهم ، ليثبت لهم وجود الله ، وقادهم مما يعلمون إلى ما لا يعلمون .

واشتهر في ذلك الزمان طبيب هندي برع في علوم الطب والصيدلة فحرص الإمام جعفر على أن يلتقي به ويتعرف إلى علمه . وتبادل المعرف معا ثم أخذ يحاوره في الإسلام وفي إثبات وجود الله .

بهذه الحكمة والموعظة الحسنة عاش الإمام جعفر يدعو إلى سبيل ربه فأقنع كثيرا من الزنادقة والملحدين والمنكرين والوثنيين بالإسلام فأسلموا وحسن إسلامهم وأضافوا بفكرهم ثراء إلى الفقه وإلى العلوم في ذلك الزمان ..

آمن بالتجربة والنظر العقلى والجدل طريقا إلى الإيمان وسلحه معرفته الواسعة العميقه بالعلوم فى الاستدلال والإقناع ، وجذب أصحاب المقول المبتكرة إلى الدين .. وهو مع انشغاله بكل ذلك ، كان يتحرى أحوال الناس ، ويحمل على كتفه جرابا فيه طعام وماك فيوزع على أصحاب الحاجة ، دون أن يدع أحدا يعرف على من يتصدق !

ولكم أساء إليه بعض صنائع الحكم الذين خسروا التكافف الناس حوله فما قابل الإساءة إلا بالإحسان وهو يرد قول الله تعالى ! « ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولی حميم » .

وفي الحق انه أستطيع أن يحول كل الذين دُسوا عليه ليسئلوا إليه إلى أولياء حميمين .

كان يزدرى الانتقام و يعلم الناس فضيلة العفو مرددا قول جده رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما زاد عبد بالعفو إلا عزا »

\*\*\*\*\*

ولكن أقارب جعفر لم يتركوه لما هو فيه من علم ودراسه ليؤدي دوره في تنوير العقول .

فقد حاولوا أكثر من مرة أن يقحموا عليه السياسة .

ودعوه إلى الشورة على الدولة الأموية ، واجتمعت عليه الألسنة تلع ليتولى أمر الخلافة ، فرفض وصرفهم عما هم آخذون فيه .

فعادوا يطالبونه بالبيعة لواحد منهم ولكنه لم يوافق ..

وكانت الثورة ضد حكم الدولة الأموية تشتد ، ورمي بن النار خلل الرماد يوشك أن يكون له ضرراً .

وكان بعض المنتسبين إلى الفقه والثقافة وعلوم الدين ، قد صنعوا حكام بني أمية وزينوا لهم الاستبداد وأفتوا لهم بأنهم ظل الله في الأرض ، وأنهم لا يسألون عما يفعلون ! ..

وقد ساء رأى الناس في هذه الفتنة من المنتسبين إلى الفقه والعلم ، لأنهم باعوا شرفهم بالمناصب والجاه .

وكان الصادق من أكثر الناس حرصاً على حماية الأمة من سموم هؤلاء المرتزقة

وفي الحق أن الحكام الأمويين كانوا يحسنون مكافأة هؤلاء المتعلمين ، فيجزلون لهم العطاء ويولون بعضهم .

وكان بعض هؤلاء الولاة يحب أن يدوفقها عالياً على الرغم من جهله المركب ، وقد تعود أحد هؤلاء المرتزقة المنافقين أن يتقرب إلى الخليفة الأموي بلعن الإمام على بن أبي طالب كرم الله وجهه ، وسب فاطمة الزهراء رضي الله عنها .. بعد أن كان الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز قد أبطل تلك الأحداثة الشائنة : سب على وفاطمة !! ولكن عمر بن عبد العزيز كان قد مات بكل عدله وحزم وصفاته ، وما بقي في الدولة من رجال إلا هذا الصنف من الصالين وصناع الضلال !!

وعرف الصادق أن ذلك الفقيه المرتزق الذي كان قد كوفيء بتعيينه واليا ، ما زال يسب علياً وفاطمة وبهد الناس إن خالفوه . والناس قد أسكنتهم الخوف !

وإذ بالامام الصادق يذهب ويستمع له ثم ينتفض مقاطعاً المنافق المرتزق ويكشف للناس جهله ونفاقه ، ويوضح للناس وهو يعظهم أن مثل هذا المنافق الذي يبيع شرفه وضميره بالمنصب أو بالجاه أو المال ، ويبيع آخرته بدنياه ، إنما هو ضال مضلل وهو أبين الناس خسراً يوم القيمة ، وأن محض افتراءاته وكشف جهله واجب .

حقا .. ما كان الإمام الصادق يستطيع أن يسكت عن كل هذا التزيف على أنه ما من شيء كان يوجع الإمام الصادق مثل اخدرار الذين ينتسبون إلى العلم والثقافة والفقه والدين إلى حضيض الفناء ، والمراءة ، والأنباء ، وبيع الفساد !!

وما كان أنشط النخاسين في التقاط من ارتفوا أن يصبحوا عبيدا وإماء .. لقد شعر الإمام الصادق منذ استشهاد عمه الإمام زيد أنه يعيش في نهاية عصر !

إنها نهاية عصر .. حقا .. !

\*\*\*\*\*

وانتهى العصر ..

سقطت دولة بني أمية وأرسل الثوار إلى جعفر الصادق رسالة يطالبونه فيها أن يقبل البيعة ليصبح هو الخليفة

وجاءته الرسالة وهو مشغول في تأملاته ودراساته وتجاربه فأحرق الرسالة ولم يرد ..  
كان يحلق في سماء المعرفة ، يضرب في أغوار العلم ، ويشعر أنه أقوى من الملك .. أى ملك في الأرض !! وأنه باستمراره في دوره العلمي أنسف للناس !

كان يقول : «من طلب الرياسة هلك» على أن الرياسة ظلت تطلب .. وهو يرفض !

وإذ رفض الخلافة .. بايع الناس أبو العباس خفيف عبد الله بن عباس بن عبد المطلب وبنو العباس هم بنو عمومة العلوين وتأمل الإمام الصادق فيما يحيط بالخلافة الجديدة !!

لقد انتهى عصر .. هذا حق ..

انتهى بكل خيره وشره ، وجاء عصر جديد يتطلع فيه الناس إلى الحرية ، والنظافة ، والطهارة والعدل ، فإذا بالمناقفين الذين زيفوا الاستبداد لبعض الأمويين وشرعا لهم العدوان والطغيان يحيطون بأبي العباس مؤسس الدولة الجديدة .. الدولة العباسية .

ومات أبو العباس .. وورثه الخليفة المنصور وإذ بهؤلاء المناافقين يحيطون بالخلافة الثانية في العصر الجديد !! وإذ بهم يوسوسون له بالآراء نفسها ، وإذ بهم يوهونه أنه فوق الحساب لأنه ظل الله في الأرض !! حتى لقد جعلوا المنصور يحمل الناس على تقبيل الأرض بين يديه !! إنهم أشباه رجال اشتهر

عنهم الجهل والتخلُّف والغباء والحمق ووجهوا كل نشاطهم للنفاق !! نفوس كرية زرية مهينة  
محقرة !!

و حكم الصادق على العهد الجديد عن يثلوه و يفيدون منه !!

أى أهل للناس فى الخليفة وقد أصبحت الشورى لنوى الضماير المتهزة والألسنة المستلملكة ؟ لقد  
مضوا يدعون إلى التكشف باسم الإسلام ويحببون الفقر إلى الناس باسم الدين ، لينصرف المستبدون إلى  
جمع المال ، وينصرفوا هم إلى الارتزاق !!

لقد شرعوا للبغى وأحدثوا خرقا في الاسلام !!

لقد أرادوا من الأمة أن تواجه إسراف الطبقة الحاكمة لا باستخلاص الحق المعلوم الذى شرعه الله ،  
بل بالزهد فى كل شيء ! والانصراف عن كل حرق !

ثم وصل فجور هؤلاء المرتزة إلى آخر مدى فوضعوا الأحاديث النبوية خلية الطبقة الحاكمة ! حتى الأحاديث الشريفة لم تسلم من تزيفهم !!

وعلى الرغم من كل هذه المظالم ، وعلى الرغم مما عاناه الإمام جعفر من آلام وهو يعيش حنة خيبة الأمل في النظام الجديد ، فإنه ظل آنذاك بالحقيقة قائلاً : «الحقيقة ديني ودين آبائي» والحقيقة لا يجهر المرء بما يعتقد اتقاء للأذى أو حتى تتحسن الفظروف . والأصل في الحقيقة هو قول الله تعالى : «لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين.. ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء إلا أن تتقوى منهم بقأة» .

卷之三

وكان الخليفة المنصور قد غالى فى القسوة على عماله .. ومنهم بعض آل البيت من العلوين والإمام الصادق يسكت تقية .. ولكنه آثر مع ذلك أن ينصح الخليفة بالحسنى فقال له: «عليك بالحلم فإنه ركن العلم . فإن كنت تفعل ما تقدر عليه كنت أحب أن يذكر بالصولة . واعلم أنك إن عاقبت مستحقا لم تكن غاية ماتوصى به إلا العدل .

وهكذا مرض الإمام الصادق يؤدى دوره في تنوير الناس حكامًا ومحكمين .. والخصوصة تشتجر حول القضاء والقدر، والجبر والاختيار، فيقول الإمام للناس: «إن الله أراد بنا أشياء ، وأراد منا

أشياء .. فـا أراده الله بـنا طـواه عـنـا ، وـما أراده مـنـا أـظـهـرـه لـنـا .. فـا بـالـنـا نـشـتـفـلـ بـمـا أـرـادـه بـنـا عـمـا أـرـادـه  
مـنـا !؟ »

وكان هذا لا يروق للطبقة الحاكمة ، ولا للمنتفعين والمرتزقة من المتسبين إلى العلم والفقه .

ذهب الإمام جعفر الصادق إلى أن القول بالجبر ضد الشرع ، لأنـه لا حـسـاب ولا عـقـاب إـذـا لمـيـكـنـ  
لـلـمـرـءـ حرـيـةـ اـخـتـيـارـ ماـيـفـعـلـ ..

وـإـلـاـ فـنـ أـيـنـ تـبـعـ المـسـؤـلـيـةـ إـنـ لـمـ تـكـنـ لـلـإـنـسـانـ حرـيـةـ الـفـعـلـ ؟

وهـكـذاـ مـضـىـ الإـيمـانـ الصـادـقـ بـكـلـ إـيمـانـهـ بـدـورـهـ ، يـعـلـمـ النـاسـ بـعـضـ مـاـ خـفـيـ عـنـهـ مـنـ تـفـسـيرـ الـقـرـآنـ !!  
وـوـجـدـ أـنـ الـأـمـرـاءـ وـالـوـلـاـةـ يـقـتـرـفـونـ الـظـلـمـ ، وـيـأـكـلـونـ مـاـ لـيـسـ لـهـ مـنـ حـقـوقـ الرـعـيـةـ ثـمـ يـسـتـغـفـرـونـ اللـهـ !!  
وـيـحـسـبـونـ أـنـ اللـهـ سـيـتـوبـ عـلـيـهـمـ !! فـيـضـيـرـونـ مـعـنىـ الـاسـتـغـفـارـ مـفـسـراـ بـعـضـ آـيـاتـ مـنـ سـوـرـةـ نـوـحـ :  
«ـفـقـلـتـ اـسـتـغـفـرـوـاـ رـبـكـمـ إـنـهـ كـانـ غـفـارـاـ يـرـسـلـ السـاءـ عـلـيـكـمـ مـدـرـارـاـ وـيـدـدـكـمـ بـأـمـوالـ وـبـيـنـ وـيـعـلـمـ لـكـمـ  
جـنـاتـ وـيـعـلـمـ لـكـمـ أـنـهـارـاـ»ـ فـالـاسـتـغـفـارـ إـذـنـ يـجـلـبـ السـعـادـةـ وـالـفـنـىـ .

ولـكـنـ الـاسـتـغـفـارـ الـحـقـ لـيـسـ هـوـ تـرـدـيـدـ الـكـلـمـةـ بـالـلـسـانـ ، وـلـكـنـهاـ تـوـبـةـ الـقـلـبـ ، وـإـعـمـالـ الـعـقـلـ ،  
وـالـعـمـلـ الـصـالـحـ الـذـيـ يـحـقـقـ خـيـرـ الـأـمـةـ ..

الـاسـتـغـفـارـ أـنـ تـمـثـلـ لـأـمـرـ اللـهـ تـعـالـىـ بـالـعـدـلـ وـالـإـحـسـانـ .

ذـلـكـ أـنـ الـمـرـءـ يـجـبـ أـنـ يـفـكـرـ فـيـ اللـهـ بـكـلـ مـاـ يـلـكـ الـعـقـلـ مـنـ قـدـرـاتـ ، لـيـعـرـفـ اللـهـ وـيـعـرـفـ كـيـفـ  
يـتـعـيـهـ وـكـيـفـ يـحـقـقـ أـهـدـافـ شـرـائـعـهـ .. وـمـاـ أـهـدـافـ الشـرـائـعـ إـلاـ تـحـقـيقـ الـمـصـلـحةـ لـلـبـشـرـ وـأـعـمـارـ الـأـرـضـ ..

وـلـقـدـ سـأـلـهـ أـحـدـ النـاسـ :ـ يـاـ اـبـنـ بـنـتـ رـسـوـلـ اللـهــ .ـ لـقـدـ قـالـ تـعـالـىـ «ـأـدـعـونـيـ أـسـتـجـبـ لـكـمـ فـاـ لـنـاـ  
نـدـعـوـهـ فـلـاـ يـجـبـ ؟ـ فـقـالـ لـهـ الـإـمـامـ :ـ «ـلـأـنـكـ تـدـعـوـمـ لـاـ تـعـرـفـ ..ـ»ـ

إـنـهـ يـطـالـبـ النـاسـ أـنـ يـفـكـرـوـاـ لـيـعـرـفـوـاـ اللـهـ ..ـ أـنـ يـعـرـفـوـاـ اللـهـ بـعـقـولـهـ لـيـسـتـقـرـإـعـانـهـ عـلـىـ أـسـاسـ وـطـيـدـ .

كـانـ الـإـمـامـ عـلـىـ غـزـارـةـ عـلـمـهـ مـتـواـضـعـاـ رـقـيـقاـ مـعـ كـلـ مـنـ يـعـرـفـ وـمـنـ لـاـ يـعـرـفـ ..ـ وـكـمـ تـلـقـىـ مـنـ  
أـسـاءـاتـ مـنـ بـعـضـ الـحـسـقـىـ وـالـأـغـيـبـاءـ وـذـوـيـ النـفـوسـ الـمـعـقـدـةـ أـوـ الضـمـائـرـ الـعـفـةـ أـوـ ذـوـيـ الـفـاظـةـ ،ـ فـاـ  
قـابـلـهـ إـلـاـ بـالـبـسـامـ أـوـ الصـبـرـ !ـ كـانـ يـتـمـثـلـ قـوـلـ اللـهـ تـعـالـىـ :ـ وـأـعـرـضـ عـنـ الـجـاهـلـينـ »ـ .

وـكـانـ يـكـرهـ الـخـصـومـةـ وـيـسـعـيـ جـهـدـهـ إـلـىـ الـصـلـحـ فـاـنـ عـرـفـ أـنـ هـنـاكـ خـصـومـةـ عـلـىـ مـالـ تـبـعـ مـنـ مـالـهـ  
خـمـيـةـ لـيـعـطـيـ طـالـبـ الـمـالـ ..ـ وـكـانـ يـقـولـ :ـ «ـ لـاـ يـتـمـ الـمـرـفـ إـلـاـ بـثـلـاثـةـ بـتـعـجـيلـهـ وـتـصـغـيرـهـ وـسـتـرـهـ »ـ .

ناضل الإمام الصادق لإقرار التسامع الديني ولإرساء قواعد شريفة للتعامل بين المسلمين وأهل الكتاب من نصارى ويهود ، وكان حربا على التحصّب الذي يسيء إلى الشريعة وإلى إنسانية الإنسان !!

ذلك أنه وجد بعض المتنطعين والأراذل يحاولون أن يسيئوا معاملة المسيحيين ، فأثبتت عليهم مخالفة قواعد الشرع وأوامر الرسول صلى الله عليه وسلم ، لأن الإسلام أمر المسلمين بأن يتعاشوا مع المسيحيين ، إخواناً متحابين ، وألا يكرهوا الناس على أن يكونوا مسلمين ، فلا إكراه في الدين .

يجب أن يترك أهل الكتاب وما يدينون به فقد نهى الإسلام عن إثارة الفتنة في الدين والفتنة أشد من القتل ولقد أمر الرسول عليه السلام باحترام حرية العقيدة واحترام أهل الكتاب فن لم يتعامل معهم كما أمر الرسول صلى الله عليه وسلم فليس من الإسلام في شيء ، ولو زعم في تنطعه وتعصبه أنه رجل شرع أو أنه أفقه الناس !!

ولقد أعادت هيبة الإمام الصادق ، كثيراً من الذين انحرفوا إلى حظيرة الدين .. فتعاش المسلمون والمسيحيون إخواناً متحابين كما أمر الله ورسوله .

\*\*\*\*\*

وهذا التسامع الذي يتبغ من فهم عميق للإسلام كان صفة أصلية في الإمام .. فقد كان يدعوه الله أن يغفر لمن أساء إليه .. وما عرف عنه أنه انتقم من أحد فقد كان يرى في الانتقام مع القدرة ذلا .. وأن الصبر عفو ثاب عليه المرء .. من أجل ذلك ما غضب من إساءة أو من اغتياب ..

وقد امتدت سماحته إلى الذين يخدمونه .. تلك السماحة التي تخالجها الرقة والعذوبة .. كان له غلام كسوبي يحب النوم ، فأرسله يوماً في حاجة فتاب وخشى الإمام أن يكون الغلام قد أصابه مكره ، فخرج يبحث عنه ، فوجده نائماً في بعض الطريق .. فجلس الإمام عند رأسه ، وأخذ يوقظه برفق حتى استيقظ فقال له ضاحكا « تناه الليل والنهر ؟ ! لك الليل ولنا النهار ! »

لكل هذا الصدق والصفاء في التعامل مع الحياة والناس والأشياء .. لكل هذه السماحة والعذوبة والرقابة والتسامح ، والإشراقة الروحى الرائع ، وذكائه المتوفّد الخارق وبمحسنته في الدفاع عن الحق ، وقوته على الباطل ، وبكل ما تمتّع به من طهارة وسمو وخلق عظيم .. التف الناس على اختلاف آرائهم حول الإمام الصادق جعفر بن محمد وكما كان حكماء بنى أمية يراقبون التفاف الناس حوله بفزع ،أخذ الخليفة العباسى « المنصور » يراقب الإمام جعفر متوجساً من جيشان العواطف نحوه ، وإعجاب الناس به !!

كان المنصور يعرف بتجربته الخاصة أن الإمام جعفر بن محمد عازف عن الاشتغال بالسياسة ، وكان يعرف أن الإمام رفض إهابة الشيعة به أن ينهض ، ورفض إلحاهم بالبيعة ، ولكن المنصور مع ذلك ما كان ليستريح لالتفاف الناس حول الصادق في كل مكان . في المدينة حيث يقيم وفي العراق حيث يعلم الناس أو ليحاور الزنادقة والملحدين وأصحاب الآراء الذين يخالفونه في أمور الدين ..

نقل الناس إلى الخليفة أن أحد فصحاء الزنادقة وفجارهم قد التقى بالإمام جعفر، فعجز، الرجل عن الحوار، فسأل الإمام الصادق : « ما يمنعك من الكلام؟ » فقال الرجل إجلالاً لك ومهابة . وما ينطق لسانى بين يديك . فإني شاهدت العلماء وناظرت المتكلمين ، فما دخلتني هيبيتك ». .

أخذ المنصور يتربص بالإمام جعفر. وعرف أن الإمام يحارب الزهاد .. وكانت جماعات الزهاد تحبب إلى الناس الفقر، وتدعوهם إلى العزوف عن الدنيا ، وإلى عدم التفكير في شؤونهم .. وقد شجع حكام بنى أمية هذه الجماعات ليصرفوا الناس عن التفكير في المظالم ، ويصرفوهم عن المقارنة بين غنى الحكام وفقر المحكومين .. وشجع بنو العباس هذا الاتجاه إلى الزهد حتى لقد قويت الدعوة إلى الانصراف عن هموم الحياة ..

ورأى الإمام جعفر أن هذه الدعوة تزيد الأغنياء غنى والفقراe فقرا وأنها ليست من الله في شيء .. فهى تزين للفرد لا يهم بمصلحة الأمة ، وألا يحاسب الحكام ، وتتيح للحكام أن يعطلاw الشورى وهي أساس الحكم في الإسلام .

ولقد اندفع بعض الصالحين بهذا الاتجاه إلى تمجيد الفقر، فنادوا بتحريم الطيبات من الرزق وزينة الحياة التي أحلها الله لعباده ، حتى أن أحد الصالحين من الفقهاء رأى الإمام الصادق في ثوب حسن فأنكر هذا قائلاً : « هذا ليس من لباسك » فقال له الإمام الصادق : « اسمع مني ما أقول لك . فإن خير لك آجلاً أو عاجلاً إن أنت مت على السنة والحق ولم تمت على البدعة . أخبرك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان في زمان مفتر مجذب فأما إذا أقبلت الدنيا فاحذر أهلها لا فجاريها ، ومؤمنوها لا منافقوها » .

ومضى الإمام الصادق يناقش الزاهدين فالزهد كما يفهمه الإمام الصادق هو « الاكتفاء بالحلال لا التجدد من الحلال ». .

ورأى المنصور في الدعوة ضد الزهد والفقر تحريراًضاً لعامة المسلمين على أن يستمتعوا بحقوقهم في المال ، ودعوة إلى إثارة الترد ..

ولكن المنصور سكت وظل يراقب الإمام جعفر بن محمد .. ما عساه يصنع بعد ؟ ! لعله يسكت !!

ولكن الإمام جعفر ظل يناضل بالكلمة دفاعاً عن كل آرائه وعن حرية العقل والإرادة وشرف المثقفين .. ورأى التناقض بعض الطيبين الفقهاء حول الحكم من غير ضرورة ، خوفاً أو طمعاً فقال للناس : « إذا رأيتم الفقهاء قد ركبوا للسلاطين فاتهموه .. » وتخوف كثير من الفقهاء بعد هذا من مخالطة السلاطين والحكام من غير ضرورة .. !

ثم إنه أخذ ينشر من فتاوى الإمام على وأقضيته ما حرص الحكماء والمستغلون على إخفائه .. فأفتي بأنه لا يحق للمسلم أن يدخل أكثر من قوت عام إذا كان في الأمة صاحب حاجة .. حاجة إلى طعام أو مسكن أو كساء أو علاج أو دواء أو ما يركبه !! ..

وأفتى بأن السارق إذا اضطر إلى السرقة لأنّه لا يعلم ، فولي الأمر هو المسؤول وهو الآثم .. فإذا سرق السارق لأنّه لا يحصل على الأجر الذي يكفيه هو وعياله ، فالذى يستغلّه أولى بقطع اليد !

\*\*\*\*\*

وكان استبداد المنصور قد استشرى ، وكما فعل الحكماء الأمويون من قبل ، بطش المنصور بكل من يخالف رأيه ووجه بطشه إلى آل البيت .. فقد ناهضه بعض أقربائه من آل البيت ، فقتلهم شر قتلة .. واتهم جعفر بن محمد بأنه يعرض عليه ، وبأنه يطبع في الخلافة على الرغم من أنه يعلم أن الإمام لا طبع له في الملك ..

وخشى المنصور أن يصنع مع الإمام جعفر كما صنع الخليفة الأموي مع عمّه الإمام زيد بن علي !

وآخر المنصور أن يناقش جعفر فاستدعاه إلى العراق واتهمه بأنه يريد الخلافة .. فقال له الصادق : « والله ما فعلت شيئاً من ذلك ولقد كنت في ولاده بنى أمية وأنت تعلم أنّهم أعدى الخلق لنا ولهم لا حق لهم في هذا الأمر فوالله ما بغيت عليهم ولا بلغتهم عن شيء مع جفائهم الذي كان لي فكيف أصنع هذا الآن وأنت ابن عمّي وأمس الخلق بي رحباً .. »

فقال المنصور : « أظنك صادقاً »

وعاد الإمام الصادق إلى المدينة مكرماً ..

كان ما يغيّط المنصور حقاً هو فكر الإمام الصادق والتناقض الناس حوله ، وتقديرهم إياه ..

والمنصور لا يجهل أن أحد كبار فقهاء العصر دخل على الخليفة وإلى حواره الصادق فما اهتم بالخلافة ، وجعل كل اهتمامه بالإمام الصادق ، وقال الرجل : « أخذنى من هيبة جعفر الصادق ما لم يأخذنى من هيبة الخليفة » .

على أن الصادق عاد إلى المدينة لا ليسكن ، بل ليواصل دوره الثقافي الجليل ومن عجب أن المنصور ، على الرغم من ضيقه بآراء الإمام ما كان يملأ إلا أن يجلة ، وينقول عنه أنه : « بجرأة لا يدرك طرفه ولا يبلغ عمقه » .. ولكن المنصور حاول أن يخرج الإمام الصادق ، فاستدعاها حنيفة النعمان وقال له : « فتن الناس جعفر بن محمد فهي له من المسائل الشداد » .. ثم استدعاها الإمام الصادق وأبا حنيفة وجلس الناس وما انفك أبو حنيفة يسأل الإمام في أربعين مسألة ، والإمام يجيبه عن كل مسألة ، فيقول فيها رأى فقهاء الحجاز ، ورأى فقهاء العراق ، ورأى فقهاء آل البيت ورأيه هو.

وطرب أبو حنيفة وقال عن الإمام جعفر « أنه أعلم الناس فهو أعلمهم باختلاف الفقهاء »

وصحبه أبو حنيفة النعمان بعد ذلك مدة سنتين يتلقى عنه العلم ..

\*\*\*\*\*

ما كان توجس المنصور وشكوكه هو كل ما يعاني منه الإمام الصادق فقد كابد تطرف بعض فرق الشيعة وسبهم للشيوخين أبي بكر وعمر ولعثمان بن عفان ، وشططهم في تمجيد بعض آل البيت وفي تمجيده هونفسه إلى حد العبادة ، وتحلله من التكاليف الدينية .. فأعلن البراءة منهم واتهمهم بالشرك بالله ، وأثبتت عليهم الكفر ودعا الناس إلى نبذهم .. كان هؤلاء من المتعصبين ضعاف العقول ، أو من المندسين لتشويه آل البيت أو من أعداء الإسلام وآل البيت جميعا !

على أن الإمام الصادق على الرغم من شدته على هؤلاء كان رفيقا في تعامله مع الفقهاء الذين يختلفون معه تكن مذاهبهم واتجاهاتهم ، داعيا إلى التقارب بين الآراء ، مقاوماً بأسلا للطائفية ، وكم بذلك من جهد للقضاء على الخصومة في الدين ، وعلى التعصب بكل صوره وأشكاله !

وكان يعتمد في حواره على الأدلة العلمية ، وعلى الاستقراء والاستبطان ، لا على المسلمات ..

نادى بتحكيم العقل حيث لا يوجد حكم في الكتاب أو السنة .. فهنا أن هدف الشريعة هو تحقيق المصلحة للبشر ، وبما أن العقل قادر على معرفة الخير والشر وتمييز الحسن من القبيح ، فإن العقل يهدى إلى ما فيه المفعة والخير فيؤخذ ، وإلى ما فيه الضرر فيترك .

وهو يعتمد على العقل والتدبر ليصل المسلم الى الإيمان .

لقد أمر الله بالعدل والإحسان ونهى عن الفحشاء والمنكر والبغى .. والعقل هو الذي يحدد للإنسان كيف يجري العدل والإحسان ، وكيف يقاوم الفحشاء والمنكر والبغى ، وكيف ينفذ التكاليف الشرعية بما يرضي الله ، وهو الذي يقر الإيمان في القلوب ..

والعقل هو الذي يقود الإنسان إلى معرفة ما هو مباح عندما لا يوجد نص ، وإلى معرفة المصلحة التي هي هدف الشريعة .. ليكون تحقيق المصلحة هو أساس الحكم ومناطه ..

وقد هدأ نظره وتأمله الى القول بحرية الإرادة ، وإلى الدفاع عن حرية الرأى التي هي أساس قدرة الإنسان على تنفيذ أمر الله تعالى بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر! ..

وحرية الإنسان ، هي أساس مسؤوليته .. مسؤوليته أمام الله تعالى ، يحاسبه على ما يفعله لا على قضاء الله فيه .. فالله تعالى يسأل الإنسان « لماذا كفرت ؟ لماذا أذنبت ؟ ولكنه لا يسأله لماذا مرضت ؟ .. »

\*\*\*\*\*

وهكذا عاش الإمام في المدينة يعلم الناس ويجتهد في استنباط أصول الفقه .

وعلى الرغم من أن كل هذه الآراء لم تكن تروق الخليفة المنصور، فقد كان الخليفة حريصاً على أن يقرب منه الإمام جعفر.. ولقد أرسل إليه الخليفة يوماً يسأله: «لم لا تغشانا كما يغشانا الناس؟» فكتب إليه الإمام جعفر: «ليس لنا ما نخافك من أجله ، ولا عندك من أمر الآخرة ما نرجوك له ، ولا أنت في نعمة فنهنئك ، ولا نراها نعمة فنعزيك» .. فكتب إليه المنصور: «تصحبنا لتنصحنا» .. فأجابه الإمام الصادق: «من أراد الدنيا لا ينصحك ومن أراد الآخرة لا يصعبك» .

ولم يرق هذا للمنصور، فاستدعاه واتهمه بأنه يجمع الزكاة وجع الزكاة حق للخليفة وحده فهو إذن يدعى لنفسه! .. وشهد ضد الإمام شاهد زور.. فكذب الإمام أقوال الشاهد ، فطلب المنصور من الإمام أن يخلف بالطلاق ، ولكن رفض فقد كان يفتى بأن الحلف بالطلاق لا يجوز. وقال إنه لن يخلف بغير الله فقال له الخليفة محتدا ، «لا تتفقه على» .. فقال الإمام هادئاً مبتسماً: «وأين يذهب الفقه مني؟ ..» ثم إن الإمام طلب من الشاهد أن يخلف على دعواه فحلف شاهد الزور.. وكان الخليفة قد اقتتنى بأن الإمام صادق في قوله .. فقد عرفه الجميع بالصدق .. وروع شاهد الزور وكسر عليه أن يفترى على هذا الإمام الطاهر ،

وكبر عليه أن يخلف كذبا .. وها هو ذا آخر الأمر يجد الخليفة غاضبا عليه !! فما كسب شيئاً بعد ! وسقط الرجل ميتا .. وحمل عن مجلس الخليفة .. أما الإمام فقد دعا للرجل بالرحمة ، وحطت ذبابة على وجه الخليفة لم يفلح في إبعادها إذ كانت تعود فتحط على وجهه .. فسأل : « لماذا خلق الله الذباب؟ » فقال الإمام : « ليذل به الجبارية » .

فقال له الخليفة متلطفا وجلا : « سر من غدرك إلى حرم جدك إن اخترت ذلك ، وإن اخترت المقام عندنا لم نال في إكرامك وبرك فوالله لا قبلت قول أحد فيك بعدها أبداً »

وخرج الإمام إلى حرم جده في المدينة المنورة .. وهو إذ ذاك شيخ قد جاوز الخامسة والستين .. وأقام بالمدينة لا يبرحها ، يعلم الناس ويفقههم ، ويواصل وضع أصول الفقه ويشرع للفقهاء كيف يستبطون الأحكام عندما لا يجدون الحكم في الكتاب أو السنة .

\*\*\*\*\*

وفي الثامنة والستين مات الإمام الصادق .

وعندما عرف الخليفة المنصور ، أخذ يبكي حتى اخضلت لحيته ، وهو يقول : « إن سيد الناس وعالمهم وبقية الأئمـار منهم توفى .. إن جعفر من قال الله فيهم : ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا .. »

مات الإمام جعفر الصادق إمام الشيعة وشيخ أهل السنة بعد أن ترك ثروة من الفقه والعلم والتأملات ، وأنشأ في الحياة الفكرية تياراً جديداً خصباً أعلى فيه العقل والنظر والتأمل والعلم .. وجع المعرف كلها وعلوم الدنيا والمدين .

عادت النفس مطمئنة إلى ربه راضية مرضية ، وقد خلف الإمام في كل البلاد مئات الفقهاء الستين يرون عنه ويلمون الناس فقهه وشروحه وأراءه ، فضلاً عن فقهاء الشيعة توفى الإمام جعفر الصادق الذي درس عليه الإمام مالك وروى عنه أبوحنيفه النعمان وتعلم منه ، وصحبه ستين كاملين قال عنها أبوحنيفة النعمان : لولا السنستان هلك النعمان .



أبوحنيفة النعمان  
الإمام الشهيد



لم يختلف الناس على رجل كما اختلفت آراؤهم في أبي حنيفة النعمان ..

تغالي البعض في تقديره حتى زعم أنه أوتي الحكمة كلها ، وأنه يتلقى علمه عن الرسول صلى الله عليه وسلم فيما يشبه الرؤيا أو الرؤية !

واشتبط الآخرون في كراهيته ، حتى لقد اتهموه بالمرور عن الدين ، وبالإلحاد والزندة ، وباستيراد المبادئ المدamaة من الديانات الوثنية ومن عباد النار ..

وأعمى العداء آخرين ، فاذاعوا عنه أنه مجوس مدسوس على الإسلام ليحدث خرقا في الإسلام !!

كان هذا التصرف في الأحكام المتناقضة هو طابع العصر الذي عاش فيه أبو حنيفة ، وهو في الوقت نفسه نتيجة سلوك الشيخ وسيرته واقتحاماته الفكرية الجسور ..

ذلك أنه كان يدعوا إلى الأخذ بالرأي لا يبالى في رأيه بأحد ..

فقد كان عارفا بأحوال الحياة ، مستوعبا كل ثقافة من سبقوه ومن عاصروه ، خبيرا بالرجال ، شديدا على أهل الباطل ، مريضا للسخرية بالمزيفين ، لاذعا مع المنافقين من متعاطي الفقه والعلم والثقافة في عصره ..

وهو عصر غريب حقا .. عصر مليء بالتطورات ..

هو ذلك العصر الباهر من الفتوحات والتراث الفكري .. عصر الأئمة العظام : محمد الباقر وزيد بن علي وجعفر الصادق ومالك بن أنس والليث بن سعد .. وهو في الوقت نفسه عصر الصعاليك الكبار ، والمنافقين والمزيفين !! ..

## عصر عاشر بالبطولات والأحلام والخطر والفن الروحي والاقتحام ، والمتاع .. !

عصر يدوى على الرغم من كل شيء بأصداء المأساة ، تفعمه الأحزان ، ملتهب بالأشواق الى العدل وبالحنين إلى الرحمة والصدق والإحسان وبالشجن ! ..

في ذلك العصر ولد أبو حنيفة النعمان بالكوفة سنة ٨٠ هـ من أسرة فارسية ، وسمى النعمان تيمناً بأحد ملوك الفرس ...

من أجل ذلك كبر على المتعصبين العرب أن ييرز فيهم فقيه غير عربي الأصل .. حاول بعض عبيه أن يفتعل له نسباً عربية .. ولكنه كان لا يحفل بهذا كله فقد كان يعرف أن الإسلام قد سوى بين الجميع ، وأن الرسول صلى الله عليه وسلم احتضن سلمان الفارسي وبلاط الحبيشي ، وكأنما من خيرة الصحابة حتى لقد كان الرسول يقول « سلمان من أهل البيت » وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول عن بلاط : « سيدنا بلاط » .

ولقد شهد أبو حنيفة في طفولته فظائع الحجاج والى العراق وبطشه بكل من يعارض الأمورين حتى الفقهاء الأجلاء ، فدخل في نفسه منذ صباه عزوف عن الأمورين واستكثار لاستبدادهم ، ورفض للطغيان .. ثم إنه ورث عن أبيه وأمه حباً لآل البيت فما كان في ذلك العصر رجال ينبذون التفرقة بين المسلمين العرب وغير العرب إلا آل البيت .

وقد تمكّن حب آل البيت من قلبه عندما تعرف على أئمته وتلقى عنهم ، وعندما عاين أشكال الاضطهاد التي يكابدونها في كل نهار وليل ! .. حتى لقد شاهد الإمام الصادق واقفاً يستمع إليه وهو يفتى في المدينة فوقف قائلاً : « يابن رسول الله ، لا يراني الله جالساً وأنت واقف » .

وكان أبوه تاجراً كبيراً فعمل معه وهو صبي ، وأنحدر مختلف إلى السوق ويحاور التجار الكبار ليتعلم أصول التجارة وأسرارها ، حتى لفت نظر أحد الفقهاء فتصححه أن مختلف إلى العلماء فقال أبو حنيفة : « إنى قليل الاختلاف إليهم » فقال له الفقيه الكبير : « عليك بالنظر في العلم وبمحالسة العلماء فإنني أرى فيك يقظة وفطنة » .

ومنذ ذلك اليوم وهب الفتى نفسه للعلم ، واتصل بالعلماء ولم تنقطع تلك الصلة حتى آخر يوم في حياته .. ولكن عانى وعاني منه الآخرون في هذا الميدان الجديد الذي استنفر كل مواهبه وذكائه وبراعته !!

\*\*\*\*\*

وانطلق الفتى الأسمراط طويلاً في النحيل بحلة فاخرة، يسبقه عطره، ويدفعه الظمام إلى المعرفة، يرتاد حلقات العلماء في مسجد الكوفة.. وكان بعضها يتدارس أصول العقائد (علم الكلام)، وبعضها للأحاديث النبوية، وبعضها للفقه وأكثرها للقرآن الكريم ..

ثم مضى ينشد العلم في حلقات البصرة.

وهرته حلقة علماء الكلام، لما كان يثور فيها من جدل مستعر يرضي فتنته.

ولزم أهل الكلام زماناً ثم عدل عنهم إلى حلقات الأخرى.. فقد اكتشف عندما نضج أن السلف كانوا أعلم بأصول العقائد ولم يجادلوا فيها، فلا خير في هذا الجدل. ومن الخير أن يتم بالتفقه في القرآن الكريم والحديث.

وانتهت به رحلاته بين البصرة والكوفة إلى العودة إلى موطنها بالكوفة، وإلى الاستقرار في حلقات الفقه، لمواجهة الأقضية الحديثة التي استحدثت في عصره، ولدراسة طرائق استنباط الأحكام.

وكان أبوه قد مات، وترك له بالكوفة متجرًا كبيراً للحرير يدر عليه ربحاً ضخماً، فرأى أبو حنيفة أن يشرك معه تاجراً آخر، ليكون لديه من الوقت ما يكفي لطلب العلم والتفقه في الدين ولإعمال الفكر في استنباط الأحكام..

ودرس على عدة شيوخ في مسجد الكوفة ثم استقر عند شيخ واحد فلزمته.. حتى إذا ما ألم بالشيخ ما جعله يغيب عن الكوفة، نصب أبي حنيفة شيخاً على الحلقة حتى يعود.. وكانت نفس أبي حنيفة تبازعه أن يستقل هو بحلقة، ولكنه عندما جلس مكان أستاذه سُئل في مسائل لم تعرض له من قبل، فأجاب عليها وكانت ستين مسألة

وعندما عاد شيخه عرض عليه الإجابات، فوافقه على أربعين، وخالقه في عشرين.. فأس丞 أبو حنيفة لا يفارق شيخه حتى يموت.

ومات الشيخ وأبو حنيفة في الأربعين، فأصبح أبو حنيفة شيخاً للحلقة، وكان قد دارس علماء آخرين في رحلات إلى البصرة وإلى مكة والمدينة خلال الحج والزيارة، وأفاد من علمهم، وبادلم الرأى، ونشأت بينه وبين بعضهم مودات، كما انفجرت خصومات.

وزع وقته بين التجارة والعلم.. وأفادته التجارة في الفقه، ووضع أصول التعامل التجاري على أساس وطيد من الدين..

كان أبو بكر الصديق رضي الله عنه هو مثله الأعلى في التجارة: حسن التعامل، والتحمّل،

والربح المعمول الذى يدفع شيبة الربا ..

جاءته امرأة تبيع له ثوبا من الحرير وطلبت ثمنا له مائة .. وعندما فحص الثوب قال لها « هو خير من ذلك » فزادت مائة .. ثم زادت حتى طلبت أربع مائة فقال لها : « هو خير من ذلك » فقالت : أهذا بي؟ فقال لها : « هاتي رجلا يقومه » فجاءت برجل فقومه بخمس مائة ..

وأرادت امرأة أخرى أن تشتري منه ثوبا فقال « خذيه بأربعة دراهم » فقالت له : « لا تسخر مني وأنا عجوز ، فقال لها « إني اشتريت ثوبين فبعت أحدهما برأس المال إلا أربعة دراهم ، فبقي هذا الثوب على أربعة دراهم » .

وذهب إلى حلقة العلم يوما ، وترك شريكه في المتجر ، وأعلمته أن ثوبا معينا من الحرير به عيب خفي ، وأن عليه أن يوضح العيب لمن يشتريه .

أما الشريك فإنه الثوب دون أن يوضح العيب ! ..

وظل أبو حنيفة يبحث عن المشتري ليده على العيب ، ويرد إليه بعض الثمن ، ولكنه لم يجد ، فتصدق بشمن الثوب كله ، وانفصل عن شريكه ..

بهذا الحرج كان يتعامل في تجارة مع الناس ، وفي فهمه للنصوص ، وفي استنباطه للقواعد والأحكام ..

وعلى الرغم من أنه كان يكسب أرباحا طائلة ، فقد كان لا يكزن المال .. فهو ينفق أمواله على القراء من أصدقائه وتلاميذه .

يحفظ بما يكتفيه لنفقة عام ويوزع الباقى على القراء والمعسرين .. فإذا عرف أن أحدا فى ضيق ، أسرع إليه ، وألقى إليه بصرة على بابه ، ونبه إلى أنه وضع على بابه شيئا ، ويسرع قبل أن يفتح صاحب الحاجة الصرة ..

وكان على ورمه وتقواه واسع الأفق مع الخطئين .. كان له جاري سكر فى الليل ويرفع عقيرته بالفناء :

أشاعونى وأى فتى أضاعوا

ليوم كربلة وسداد ثغر

وكان صوت الجار يفسد الليل على أبي حنيفة .. حتى إذا كانت ليلة سكت فيها صوت الجار

السکیر، فلما أصبح الصباح سأله عنده فعلم أنه في السجن متها بالسکیر.. وركب أبو حنيفة إلى الوالى فأطلق سراح السکير.

وعندما عادا معا سأله أبو حنيفة «يا فتى هل أصعناك؟» فقال له «بل حفظتني رعاك الله». وما زال به أبو حنيفة حتى أفلح عن الخمر. وأصبح من رواد حلقات العلم ثم تفقه وصار من فقهاء الكوفة.

\*\*\*\*\*

وكان أبو حنيفة يدعو أصحابه إلى الاهتمام بظهورهم .. وكان إذا قام للصلوة لبس أفحري ثيابه وتعطر، لأنه سيف بين يدي الله.

ورأى مرة أحد جلسائه في ثياب رثة ، فدس في يده ألف درهم ومس : أصلح بها حالك «فقال الرجل» لست أحتاج إليها وأنا موسر وإنما هو الزهد في الدنيا فقال أبو حنيفة : أما بلغك الحديث : إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده؟

وكان شديد التواضع ، كثير الصمت ، يقتصر في الكلام ، ولا يقول إلا إذا سُئل ، وإذا أغاظه إليه أحد أثناء الجدال صبر عليه . وإذا دخلت إليه امرأة تستفتنه قام من الحلقه وأسدل دونها سترا ، ليحفظها من عيون الرجال ، وأجابها بما تأسّل .. نبع هذا التقدير الكبير للمرأة من حبه العميق لأمه ، وحرصه الدائب على أن يرضيها ، ثم من فهمه الواعى للإسلام ، واتباعه اليقظ للسنة ، واجتهاداته الذكية .. وقد قاده اجتهاده إلى الإفشاء بأن الإسلام يبيح للمرأة حق تولى كل الوظائف العامة بلا استثناء .. حق القضاء !

ولقد كان في حرصه على إرضاء أمه . يحملها على دابة ، ويسير بها الأميال ، لتصلى خلف أحد الفقهاء يرى هون نفسه أن أبي حنيفة أفضل منه ، لأن الأم كانت تعتقد بفضل ذلك الفقيه !

وكانت الأم لا ترضى بفتوى ابنها أحيانا ، فتأمره أن يحملها إلى أحد الوعاظ ، فيقودها إليه عن طيب خاطر .. ولقد قال لها الواقع يوما : «كيف أفتوك ومعك فقيه الكوفة؟»

ومع ذلك فقد ظلل أبو حنيفة حريضا على إرضائهما ، لا يرد لها طلبا ، حتى إذا عذب في سبيل رأيه ، طلبت منه أمه أن يتفرغ للتجارة وينصرف عن الفقه وقالت له : «ما خير علم يصيّبك بهذا الصياع؟» فقال لها : «إنهم يريدونى على الدنيا وأنا أريد الآخرة وإننى اختار عذابهم على عذاب الله ..»

ولكم تحمل أبو حنيفة من عذاب !!

كان مخالفوه في الرأي يغرون به السفهاء والمعصبين والمتوسين ويدفعونهم إلى اتهامه بالكفر، وإلى التهجم عليه ، فيقابلهم بالابتسام .

ولقد ظل أحد هؤلاء السفهاء يشتمه ، فلم يتوقف الإمام ليرد عليه ، وعندما فرغ من درسه وقام ، ظل السفيه يطارده بالسباب ، والإمام لا يلتفت إليه ، حتى إذا بلغ داره توقف عند باب الدار قائلاً للسفيه : « هذه داري فأتم كلامك حتى لا يبقى عندي شيء أو يفوتك سباب فانا أريد أن أدخل داري » ..

\*\*\*\*\*

كان خصوم أبي حنيفة صنفين : بعض الفقهاء من وجدوا انصراف الناس عن حلقاتهم إلى حلقة أبي حنيفة ، وحكام ذلك الزمان .

أما أعداء أبي حنيفة من الفقهاء فقد كان على رأسهم ابن أبي ليلى وتابعه شبرمة .

كان أعداؤه فقهاء للدولة في العصر الأموي ، حتى إذا جاء العصر العباسى تحولوا إلى الحكام الجدد ، واحتالوا عليهم بالتفاق حتى أصبحوا هم أهل الشورى ، يزبون للحكام الجدد كل ما زبناه للحكام السابقين من طغيان وعدوان وبني واستغلال وبطش بالمعارضين .. واصطنعوا من الآراء الفقهية ، وقبلوا من الأحاديث الضعيفة أو الم موضوعة ما يستند الطبقة الحاكمة والمستغلين ، وما يصرف الناس عنهم عن أمور الدنيا ، وعن سياسة حياتهم ، لينقطع الناس إلى التكشف ، ويتركوا مستغلين يستبدون ويعملون !

وكان أبو حنيفة يحتفظ باستقلاله أمام الحكام فيحترمه الحكام .. وهو يلبس أغلى الفراء في الشتاء ، ويتحلى طوال العام بشياب فاخرة ، ويتعطر ، ويتنعم بالطيبات من الرزق ، وبزينة الحياة التي أحلها الله لعباده ..

وكان يقاوم كما قاوم أستاذه وصديقه الإمام جعفر الصادق من قبل بدعة تزيين التكشف والانصراف عن هموم الحياة ، وترك الأمر كله لطبقة بعينها تملك وتستغل وتحكم وتستبد !

على أن ميل أبي حنيفة إلى الأئمة من آل البيت أو غير عليه صدور الأمويين والعباسيين على السواء .

ففي العصر الأموي قالوا « أَنْ تَكُونَ كَافِرًا أَوْ مُشْرِكًا خَيْرٌ مِّنْ أَنْ تَكُونَ عَلَوِيًّا » ..

وفي العصر العباسي تولت المحن على العلوين ، وأبو حنيفة يفتى بأن العلوين أصحاب حق ..

على أنه مال إلى العباسيين أول الأمر ، وتوسم فيهم الخير ، ولكنه إذ وجد الفقهاء الذين نافقوا الأمويين وزينوا لهم العدوان ، هم الذين يشيرون على الخلفاء العباسيين ، أصابته خيبة الأمل فيهم .. ثم إن العباسيين بطشوا بأبناء عمومتهم العلوين ، فساء رأى أبي حنيفة في العباسيين .

وأبو حنيفة على الرغم من سماحته لا يسكت عن خطأ الفقهاء من الذين جعلوا كل مهم نفاق الحكام وإرضاءهم .. كان بعضهم يفتى في المسجد إلى جوار حلقة أبي حنيفة ، فإذا أخطأ أثيري له أبو حنيفة يكشف ذلك الخطأ ، ويعلن الصواب على الناس .

وكان ينتقد أخطاء ابن أبي ليلي نقداً أو غير عليه صدر الرجل .. حتى نقد حكماً فاحش أخطأ فانفجر غضب ابن أبي ليلي .. « وذلك أن امرأة معنونة قالت لرجل : « يا بن الزانين » فأقام عليها ابن أبي ليلي الحد في المسجد ، وجلدتها قامة ، وأقام عليها حدين حداً لقذف الأب وحداً لقذف الأم .

وبلغ ذلك أبو حنيفة فقال : أخطأ ابن أبي ليلي في عدة مواضع : أقام الحد في المسجد ولا تقام الحدود في المساجد . وضرها قامة والنساء يضر بن قعودا . وضرب لأبيه حداً ولأميه حداً ولو أن رجالاً قدف جماعة كان عليه غير حد واحد ، فلا يجمع بين حدين . والمعنى ليس عليها حد . وحد لأبويه وما غائبان ولم يحضرنا فيدعيا ..

وذهب ابن أبي ليلي إلى الخليفة يشكوا أبو حنيفة ، واتهمه بأنه لا يفتا به ، ويظهره للناس بمظهر الجاهل ، وفي ذلك إهانة للخليفة نفسه لأن ابن أبي ليلي إنما عن الخليفة في القضاء وحكم بين الناس .. !

وأصدر الخليفة أمراً بمنع أبي حنيفة من التعليق على أحكام القضاة ، وبنعمه من الفتوى .. حتى إذا احتاج الخليفة إلى رأي في أمر معقد لا يطمئن فيه إلى فتاوى الفقهاء من متلقيه ، أرسل يستفتني أبو حنيفة ، فامتنع عن الفتوى إلا أن يأذن الخليفة له في أن يفتى للناس جميعاً . فأذن له .

وعاد يفتى ، وعاد ينتقد الأحكام ! .

وأراد الخليفة المنصور أن يكتب عقداً محكماً فلم يسعده الفقهاء الذين يصانونه ، فلجأ إلى أبي حنيفة فأملأ العقد من فوره فأزرى الفقهاء من بطانة الخليفة بما صنعه حسداً من عند أنفسهم . ولكن الخليفة زجرهم ، وصرح بأن أبو حنيفة هو أفقه الجميع ، وإن كان ليكره موافقه وآراءه .

وعندما وقع خلاف بين الخليفة المنصور وزوجته لأنه أراد أن يتزوج عليها ، أراد أن يعتنكا إلى

فقيه ، فرفضت الزوجة الاحتكام إلى قاضى القضاة ابن أبي ليلى أو إلى تابعه شبرمة أو إلى أحد الفقهاء من بطانة المنصور !

وطلبت أبا حنيفة .

وعندما حضر أبا حنيفة أبدي الخليفة رأيه أن من حقه الزواج لأن الله أحل للمسلم الزواج بأربع ، والتنوع بين يشاء من الإمام مما ملكت يمينه .

فرد أبو حنيفة : « إنما أحل الله هذا لأهل العدل . فمن لم يعدل فواحدة . قال الله تعالى : ( فإن نحتم لا تعدلوا فواحدة ) . فينبغى علينا أن نتأدب بأدب الله ونتعظ بمعاقبه .

وضاق الخليفة بفتواه . ولكته أخذها .

ونخرج أبو حنيفة إلى داره . فأرسلت له زوجة الخليفة خادمها ومعه مال كثير وأعمال من الشياب الفاخرة النادرة ، وجارية حسناء ، وحمار مصرى فاره هدايا لأبى حنيفة .

فقال أبو حنيفة للخادم : « أفرتها سلامى . وقل لها إننى ناصلت عن دينى وقت بذلك المقام لوجه الله . لم أرد بذلك تقربا إلى أحد ولا التمست به دنيا . ورد الجارية الحسناء والشياب والمال والحمار المصرى جيئا .

كان أبو حنيفة لا يقف عند النصوص ، وإنما يبحث فى دلالاتها ، ويحاول أن يواجهه بالأحكام ما يقع من أحداث ، وما يتوقع حدوثه من الأقضية والحالات .

الواقع المتوقع هنا ما كان يعني باستنباط الأحكام لمواجهتها إن لم يجد نصا فى الكتاب أو السنة أو الإجماع

وكان يناظر الفقهاء ببدىءة حاضرة يقلب الرأى على وجهه ، ويفترض ، ويستقرىء ويستنبط ، ومحسن الخلاص إلى الغاية ، والخلاص من المأرق ، ويلزم المناظر الحجة .

وهو مع ذلك يقول : « ربما كان ما قلته خطأ كله ، لا الصواب كله » .

ولقد اقتحم عليه الحلقة فى يوم عدد من الخوارج على رأسهم قائدتهم وفقيههم ، وكان الخوارج يقتلون مخالفتهم . وكانوا يقتلون من أقر على بن أبي طالب على التحكيم . وكان أبو حنيفة يؤيد علية و يقره على التحكيم . وخيرة شيخ الخوارج بين التوبة أو القتل ، فسأله أبو حنيفة أن يناظروه ، فرضى ،

فقال له «فإن اختلفنا؟ قال الخارجي تحكم بيننا رجلاً.. فضحك أبوحنيفة قائلاً: أنت بهذا تحيز التحكيم».

فانصرف عنه الخوارج وتركوه سالماً.

\*\*\*\*\*

وكم من مرة خرج من المأذق بسرعة بديهته وسعة حيلته وقوه حجته .. !  
ولكنه لم يستطع أن يفلت من مصائد أعدائه من المرتزقة في بلاط النساء ..  
كانت صلابتة ، واحترام الحكم له ، وإيهارهم إيمان على الفقهاء المرتزقة من بطانتهم ، تثير هؤلاء الفقهاء وتحرك حسدهم .. فأوغروا صدور الحكم حتى أوقعوا به . وحاولوا أن يقتتصوه بفضائله .  
إنه لشجاع في الحق .. فإذا ذُلت فلينصبوا له شركا من جسارتة وتقواه ..!  
إن موافقه في تأييد آل البيت لتوجّح غضب الحكم عليه .

ثم كانت آراؤه تزيد سخطهم عليه اشتعالاً : فقد نادى بالرأي إن لم يكن هناك نص في الكتاب أو السنة ، واتجه في استنباط الأحكام إلى إلحاد الأمور غير المنصوص على أحکامها بما نص على حكمه في حدود ما يحقق مصلحة الأمة و يتسمق مع عرف البلد وعاداته ، إن لم تختلف هذه العادات والأعراف روح الشريعة أو نصوصها .

أما عن موافقه في تأييد آل البيت فقد أعلن أن العلوين أولى بالحكم من العباسين ، وجاهر بالانحياز إلى العلوين . ولم يكتم هذا الميل قط ، وظل يذيعه بلا تهيب !

على أن الموقف ليس جديداً عليه . فقد أيد ثورة الإمام زيد بن على زين العابدين بن الحسين أيام الحكم الأموي . وسمى خروج زيد جهاداً في سبيل الله ، وشبهه يوم بدر وحاول أن يخرج مع الإمام زيد ، ولكن كانت لديه وداعٌ للناس أراد أن يسلّمها لابن أبي ليلٍ فرفض . ولم يجد أبوحنيفة إلا ماله يجاهد به فأرسل إلى الإمام زيد مالاً كثيراً يمير به جيشه ويعوّيه .

وحين ولـى العباسيون أيدـهم أولـ الأمر ، ولكنـهم بـطـعوا بـعـارـضـيـمـ ، وـصـادـرـوا بـحرـيةـ الرـأـيـ ، وـنـكـلـوا بـالـعلـويـنـ ، وـنـكـلـوا بـعـدـ العـدـلـ الذـىـ بـايـهـمـ عـلـيـهـ ، فـأـعـلنـ عـدـ رـضـاهـ عـنـهـمـ فـيـ حلـقـاتـ الدـرـوـسـ .. وـكانـ المنـصـورـ قدـ جـمـعـ رـؤـسـ الـعـلـويـنـ وـسـجـنـهـمـ . وـصـادـرـ أـمـوـالـهـ وـأـرـاضـيـهـ ،

ثار العلويون بقيادة محمد النفس الزكية وأخيه إبراهيم بن عبد الله ، فبعث المنصور جيشاً ضخماً

ليحصد العلوين .

أعلن أبو حنيفة تأييده للثورة ، وبكى مصائر العلوين بعد أن نجح المنصور في إخماد الثورة والقضاء على قائدتها وفتاك بأهل المدينة المنورة الذين أيدوا الثورة ..

وكان عبد الله بن الحسن شيخ أبي حنيفة والد محمد النفس الزكية وإبراهيم في سجن المنصور يعذب حتى الموت ،

وгин مات أعلن أبو حنيفة في حلقته أن واحدا من أفضل أهل الزمان قد استشهد في سجنه .  
وبكاه وأبكى عليه .

وأما آراؤه التي أشعلت سخط الحاكم وحاشيته عليه فهي تلك التي استتبعها بالقياس حتى لقد اتهمه بعض الفقهاء من خصومه بأنه يفضل القياس على الحديث .

وما كان هذا صحيحا فقد رأى أبو حنيفة ظاهرة خطيرة ، فأراد أن ينجو بيته منها ، وينجح معه الناس : ذلك أنه خلال الصراعين السياسي والاجتماعي ، انتشر وضع الحديث خدمة لهذا الجانب أو ذلك ، وتأييدها هذه المصلحة أو تلك ، فوقف أبو حنيفة من الحديث موقف أستاذة وصديق الإمام جعفر الصادق .. تحرى الرواية وصدقهم ، وتحرى معانى الأحاديث ، ورفض منها ما يشك في صدق رواتها وتقواهم ، أو ما يخالف نصاً قرآنياً ، أو سنة مشهورة ، أو مقاصداً واضحاً من مقاصد الشريعة . وقد فحص الأحاديث الموجودة في عصره وكانت عشرات الآلاف فلم يصح في نظره منها إلا نحو سبعة عشر .

وذهب إلى أن القياس الصحيح يحقق مقاصد الشارع ، ويجعل الأحكام أصوب وهو خير من الاعتماد على أحاديث غير صحيحة .. وللقياس ضوابط هي تحقيق المصلحة وهذا هو هدف الشريعة .

لقد كان تخرج أبي حنيفة وذمته وتقواه هي العوامل التي دفنته إلى الخدر في قبول الأحاديث إذا شك في صحتها على أي نحو ، وكان عليه إذن أن يجد طريقا آخر لاستبطاط الأحكام الجديدة قياساً على أحكام ثابتة في القرآن الكريم أو السنة الصحيحة أو أقوال الصحابة السابقين من أهل الفتيا كعمرو ابن الخطاب وعلى بن أبي طالب وعبد الله بن مسعود .. وكان عبد الله بن مسعود يفضل أن يفتى براجتهاده بدلاً من أن يسند إلى الرسول صلى الله عليه وسلم حديثاً لا يرى عين اليقين أنه حديث صحيح .

وقد جد في عصر أبي حنيفة كثير من الحوادث والأقضية والأحوال ، بعد اتساع الدولة وتشابك الأمور ، وظهور ألوان كثيرة خصبة من النشاط التجاري والاجتماعي ، وواجه الإمام هذا كله بالاجتهداد

## لاستنباط الأحكام التي تضبط العلاقات

وما كان يبتعد في قياسه كما رماه خصوصه ، وما كان يهدى السنة كما حاول ابن أبي ليلى وتابعه شبرمة أن يصوراه كيدا له ، بل كان منهجه هو قياس « المسألة على أخرى ليردتها إلى أصل من أصول الكتاب والسنة واتفاق الأئمة .. فيجتهد ». وقد لخص هو منهجه في استنباط الأحكام في وصية لأحد تلاميذه من تولوا القضاء .. قال : « إذا أشكل عليك شيء فارحل إلى الكتاب والسنة والإجماع ، فإن وجدت ذلك ظاهرا فاعمل به ، وإن لم تجده ظاهرا فرده إلى النظائر واستشهد عليه بالأصول ، ثم اعمل بما كان إلى الأصول أقرب وبها أشبه » .

\*\*\*\*\*

وقاده هذا الاجتهد إلى عديد من الآراء الخرة: الدعوة إلى المساواة بين الرجل والمرأة ، في عصر بدأت المرأة فيه تحول إلى حرم للمنتاع !

فأفتى بأن للبالغة أن تزوج نفسها .. وهي حرة في اختيار زوجها  
كما أفتى بعدم جواز الحجر على أحد ، لأن في الحجر إهدار للأدمية وسحقا للإرادة ..  
وأفتى بعدم جواز الحجر على أموال المدين ، حتى لو استغرقت الديون كل ثروته . لأن في هذا مصادرة لحرية ..

وفي كل أمر من أمور الحياة تتعرض فيه حرية الإنسان لأى قيد ، أفتى الإمام أبو حنيفة باحترام الحرية وكفالتها ، لأن في ضياع حرية الإنسان أذى لا يعدله أذى ..

لقد أفتى بكل ما ييسر الدين والحياة على الإنسان فذهب إلى أن الشك لا يلتفى اليقين ، وضرب لذلك مثلاً بأن من توضأ ثم شك في أن حدثاً نقض وضوئه ، ظلل على وضوئه ، فشككه لا يضيع يقينه .  
وأفتى بأنه لا يحق لأحد أن يمنع المالك من التصرف في ملكه .

ولا يحق لأحد أن يحكم على مسلم بالكفر ما ظلل على إيمانه بالله ورسوله حتى لو ارتكب المعاصي .  
ومن كفر مسلما فهو آثم .

وأفتى بأن قراءة الإمام في الصلاة تغنى عن قراءة المصلين خلفه ، فتصبح صلاتهم دون قراءتهم  
إكتفاء بقراءة الإمام وحده

ولقد أشار هذا الرأى بعض الناس ، فذهبوا إلى الإمام ليحاوروه في رأيه فقال لهم « لا يمكننى مناظرة الجميع فولوا أعلمكم » فاختاروا واحداً منهم ليتكلّم عنهم . وأسلم أبو حنيفة إن كانوا يوافقون على أنه إذا ناظر من اختاروه يكون قد ناظرهم جميعاً ، فوافقوا ، فقال لهم أبو حنيفة : « وهكذا نحن اختربنا الإمام فقراءته قراءتنا وهو ينوب عنا » فانصرفوا مقتتنعين .

ودعا إلى ضرورة العفو عن المخطئ إن لم تثبت عليه أدلة الإدانة ثبتوها قطعياً لا يشوبه الشك أو الظن ، إعتماداً على أن الرسول صلى الله عليه وسلم أمر بدرء الحدود قدر المستطاع .. فالحدود تدرأ بالشبهات « فإن كان للمذنب خرج أخلى سبيله . وأن ينطئ الإمام في العفو خير من أن ينطئ في العقوبة » .

وهو يطالب الناس بأن يسألوا في العلم بلا حرج ، على أن يحسنوا السؤال . وكان يقول : « حسن السؤال نصف العلم »

وهو في اجتهاده يعرف مكانته ، إن كان واثقاً بنفسه ، معترضاً بكبريائه العلمي على الرغم من تواضعه الشديد .

ولقد سُئل : « إذا قلت قولًا وظهر خبر لرسول الله يخالف قولك؟ قال : « أترك قولى بخبر رسول الله وكل ما صح عن رسول الله فهو على العين والرأس . فقال السائل : فإذا كان قول الصحابي يخالف قولك؟ ». قال : أترك قولى بقول الصحابي « فقال السائل : » فإذا كان قول التابعى يخالف قولك؟ ». قال أبو حنيفة : « إذا كان التابعى رجلاً فأنا رجل ». .

ويروى عنه أنه ذهب إلى المدينة المنورة فجادل الإمام مالك بن أنس يوماً في أمور اختلفا عليها وحضر المنازرة الإمام الليث بن سعد إمام مصر وهو الإمام الذي عاش في عصر الإمام جعفر الصادق وأبي حنيفة والإمام مالك وقال عنه أحد الفقهاء المتأخرین إنه حقاً أفقه الناس ولكن المصريين أضاعوه فلم يحفظوا فقهه واستمرت المنازرة طويلاً حتى عرق الإمام مالك . وعندما خرج أبو حنيفة قال مالك لصديقه الليث : إنه لفقيه يا مصرى !

\*\*\*\*\*

قام فقه الإمام أبي حنيفة على احترام حرية الإداراة ذلك أن أدنى ضرر يصيب الإنسان هو تقييد حريته أو مصادرتها .. وكل أحكامه وآرائه قائمة على أن هذه الحرية يجب صيانتها شرعاً ، وأن سوء استخدام الحرية أخف ضرراً من تقييدها !

فإساءة الفتاة البالغة في اختيار زوجها أخف ضرراً من قهرها على زواج من لا تريده . وسوء

استخدام السفهية ماله ، يمكن علاجه بإبطال التصرفات الضارة به ، أما الحجر على حر يته فهو إهانة ل الإنسانية ، وهو ضرر لا يصلحه شيء !! وعلى أية حال فأذى الحجر أخطر من أذى ضياع المال — فالحجر إيداء للنفس ، وإهانة للإرادة ، واعتداء على إنسانية الإنسان !!

وأبو حنيفة لا يجيز الوقف إلا للمساجد لأن الوقف أو الحبس يقيّد حرية المالك في التصرف .. بل إن الإمام إمعانا منه في الدفاع عن الحرية لا يجيز للقاضي أن يقيّد حرية المالك ، حتى إذا أساء التصرف على نحو يهدد الغير .. وهو يطالب بأن يترك هذا كله للشعور بالتعاون الاجتماعي الذي يجب أن يسود أفراد الأمة .. فيحترم كل منهم حرية الآخرين ، ويمارس حريته بما لا يمس مصالح الغير أو حريته هذا أمر يجب أن يترك للناس فيما بينهم ولا سبيل للحاكم أو القضاء إلى التدخل لقيود حرية المرأة في التصرف منها يكن من شيء !

ولقد جاءه رجل يشكو جاره لأنه حفر بثرا بجوار جداره مما يؤثر في بيت الشاكي ، فطلب أبو حنيفة من الشاكي أن يحدث جاره ليرمي البئر ، ويخفرها في مكان آخر ، فقال الرجل : « حدثته فامتنع ظلما » . فقال أبو حنيفة : « فاحفر في دارك بالوعة في مقابل بثره » وفعل الرجل ، فاندفع ماء البئر إلى البالوعة ، فاضطر الجار أن يرمي البئر ، ويخفرها في مكان بعيد عن جدار الشاكي .

وهكذا مضى أبو حنيفة يوضح للناس ما في تعاليم الإسلام من احترام للحرية والإرادة ، معتمدا على الكتاب ، والسنّة الصحيحة ، والرأي الذي يستبطنه بالقياس ، مراعيا تحقيق المصلحة ، أو الأعراف التي لا تتعارض مع قواعد الإسلام ومبادئه .

وقد أعتبرت آراءه في الفقه وجدان الناس ، وأيقظت ضمائرهم ، وحركتهم للدفاع عن حرياتهم في التصرفات ، متمسكون في ممارستهم للحرية بمبادئ الدين وأصوله ..

وكانت هذه الآراء كلها تناقض روح العصر الذي عاش فيه وهو عصر يقوم نظام الحكم فيه على تكفير الخصوم ، وإهانة دمائهم ، وقيود الحريات ، وإطلاق يد الحاكم ، وتمكن ذوي السلطة من الضعفاء .

من أجل ذلك اتهمه خصومه من الفقهاء أصحاب المناصب بالخروج عن الإسلام ...  
ثم إنه أفقى بتحريم الخروج لقتال المسلمين والفتكت بهم .

وبهذا صرف بعض قواد الجيش في عصره عن حرب العلوين وخصوم الحكام ومعارضي آرائهم ..!

ومن ذلك أن الحسن بن قحطبة أحد قواد المنصور دخل على أبي حنيفة يسأله : « أتوب الله على؟ »

وكان الحسن هذا قد قاد جيوشاً للمنصور فقتل العلوين وخصوم العباسين فقال له أبو حنيفة : «إذا علم الله تعالى أنك نادم على ما قلت ، فلو خيرت بين قتل مسلم وقتل نفسك لاخترت ذلك على قتله ، وتجعل مع الله عهداً على ألا تعود لقتل المسلمين ، فإن وفيت فهـي توبتك» ، فقال القائد إنـي فعلـت ذلك وعاهـدت الله عـلـى أـلـا أـعـودـ إـلـى قـتـلـ مـسـلـمـ » ثم ثـارـ العـلـوـيـونـ فـأـمـرـ المـنـصـورـ القـائـدـ أـنـ يـفـتـكـ بهـمـ ، فـجـاءـ القـائـدـ إـلـى أـبـيـ حـنـيـفـةـ يـسـأـلـ الرـأـيـ فـقـالـ لهـ أـبـيـ حـنـيـفـةـ «فـقـدـ جـاءـ أـوـانـ تـوـبـتـكـ .ـ إـنـ وـفـيـتـ بـهـ عـاهـدـتـ فـأـنـتـ تـائـبـ وـلـاـ أـخـذـتـ بـالـأـوـلـ وـالـآـخـرـ» .

فامتنع القائد عن تنفيذ أمر المنصور ، وسلم نفسه إلى العقاب وهو القتل ، إذ دخل على المنصور فقال انه لن يقتل المسلمين بعد ! فغضب الخليفة عليه وأمر بقتله ، حتى استشفع له أخوه قائلـاً «إنـا لـنـنـكـرـ عـقـلـهـ مـنـذـ سـنـةـ ،ـ وـأـنـهـ قـدـ جـنـ»

وسائل الخليفة من يخالط القائد المتمرد فقيل : إنه يتربـدـ علىـ أـبـيـ حـنـيـفـةـ !

وأسرـهاـ الخليـفـةـ لأـبـيـ حـنـيـفـةـ .

علىـ أـنـ خـصـومـ أـبـيـ حـنـيـفـةـ اـنـتـزـواـ الفـرـصـةـ فـأـوـغـرـواـ صـدـرـ الـخـلـيـفـةـ وـأـوـحـواـ إـلـيـهـ أـنـ يـقـضـيـ عـلـىـ أـبـيـ حـنـيـفـةـ وـاتـهمـهـ بـإـثـارـةـ الـفـتـتـةـ ،ـ وـتـبـيـطـ قـوـادـ الـجـيـشـ ،ـ وـتـأـلـيـبـ الـعـامـةـ عـلـىـ وـلـىـ الـأـمـرـ ،ـ وـتـكـوـيـنـ حـلـقـةـ مـنـ الـفـقـهـاءـ كـلـهـمـ يـدـعـوـ إـلـىـ الشـوـرـةـ عـلـىـ الـخـلـيـفـةـ .

وـكـانـ مـنـ هـؤـلـاءـ الـخـصـومـ فـقـيهـ أـفـقـيـ للـنـاسـ بـأـنـ تـلـامـيـذـ أـبـيـ حـنـيـفـةـ خـارـجـونـ عـلـىـ وـلـىـ الـأـمـرـ وـمـرـتـدـونـ عـنـ الـإـسـلـامـ فـأـنـ يـقـالـ إـنـ بـالـحـلـ خـتـارـاـ خـيـرـ مـنـ أـنـ يـقـالـ إـنـ فـيـهـ أـحـدـ مـنـ أـصـحـابـ أـبـيـ حـنـيـفـةـ ..

وـكـانـ مـنـهـمـ فـقـيهـ آخـرـ عـرـفـ وـهـوـ فـيـ الـحـجـ أـحـدـ أـصـحـابـ أـبـيـ حـنـيـفـةـ سـيـصـلـىـ بـالـنـاسـ فـلـمـ يـسـطـعـ كـظـمـ غـيـظـهـ وـصـاحـ :ـ «ـالـآنـ يـطـيـبـ لـىـ الـمـوـتـ»ـ ..ـ

\*\*\*\*\*

ورفضـ أـبـيـ حـنـيـفـةـ أـنـ يـقـبـلـ الـمـاـنـصـبـ ..ـ عـرـضـ عـلـيـهـ الـأـمـوـيـونـ مـنـصـبـ الـقـاضـيـ ،ـ فـرـفـضـهـ فـسـجـنـوـهـ وـعـذـبـوـهـ فـيـ السـجـنـ ..ـ وـظـلـلـوـاـ يـفـسـرـ بـوـنـهـ كـلـ يـوـمـ بـالـسـيـاطـ حـتـىـ وـرـمـ رـأـسـهـ ..ـ وـمـعـ ذـلـكـ فـلـمـ يـقـبـلـ الـمـنـصـبـ ..ـ لـأـنـهـ كـانـ يـرـىـ أـنـ تـحـمـلـ الـمـسـؤـلـيـةـ فـيـ عـهـدـ يـعـتـبـرـهـ حـاـكـمـيـهـ ظـالـمـيـنـ مـغـتـصـبـيـنـ ،ـ إـنـاـ هـوـ مـشـارـكـةـ فـيـ الـظـلـمـ وـإـقـرـارـ لـلـاغـتصـابـ ..

وـفـيـ السـجـنـ تـذـكـرـ أـمـهـ الـحـزـينـةـ فـبـكـيـ ..ـ وـسـأـلـهـ جـارـهـ فـيـ السـجـنـ عـاـيـيـكـيـهـ وـهـوـ فـقـيهـ الـجـلـيلـ الـصـلـبـ ،ـ فـقـالـ مـنـ خـلـالـ دـمـوعـهـ :ـ «ـوـالـلـهـ مـاـ أـوـجـعـتـنـيـ السـيـاطـ .ـ بـلـ تـذـكـرـتـ أـمـيـ فـأـلـمـتـنـيـ دـمـوعـهـ .ـ»

وساءت صحته في السجن . وبدأت الثورة تجتمع ضد الخليفة الأموي احتجاجا على ما يحدث  
لأبي حنيفة فأطلق سراحه

ولم يعد له مقام في الكوفة التي شهدت عذابه .. فترك مسقط رأسه ، ومرح شبابه ، بكل ما فيها من  
ذكريات عزيزة وأعمال عذبة ، وأقام بالمحجاذ حتى سقطت الدولة الأموية ، فعاد إلى موطنه !

ولكن العباسين لم يستر كوه .. فنذر شعر بخيبة الأمل فيه لبغيم واضطهادهم للعلويين ،  
واصطناعهم المرتزقة من الفقهاء ، بدأ يجهز برأيه في استبدادهم وطغيانهم .

ورفض كل هداياهم ، كما رفض هدايا الأمويين من قبل .

وعرضوا عليه منصب قاضي القضاة فأبى .. وتمسك بالترغب للعلم

قالوا له أنه قد حَصَّلَ من العلم ما يجعله في غنى عنه فرد : «من ظن أنه يستغني عن العلم فليثبت  
على نفسه .

بعد أن فرغ من بناء بغداد ، وأقام فيها معتزا بها ، حرص على أن يجعل أكبر فقهاء العراق قاضي  
القضاء فيها . وكان أبو حنيفة قد أصبح أكبر الفقهاء بالعراق حتى سماه أتباعه ومربيه : الإمام  
الأعظم . ولكن الإمام صمم على الرفض .

كان يعرف ما ينتظره .. فابن أبي ليلى لا يكف عن الكيد له ، وهو لا يغفر لأبي حنيفة ما يوجهه  
من نقد لاذع لأحكامه .

وقد ضم ابن أبي ليلى إليه حاجب الخليفة ووزيره الأول ، وكان أبو حنيفة قد أخرجه وكشف  
اكاذيبه أمام الخليفة في معاورته حاول فيها الوزير الأول أن يوقع بالإمام فقضاه الإمام وأفسد حيلته .

وقد أفتى أبو حنيفة بأن الوزير لا تصح شهادته لأنه يقول للخليفة أنا عبدك «فإن صدق فهو عبد  
ولا شهادة له . وإن كذب فلا شهادة لكاذب» !!

وقد أخذ أحد تلاميذ أبي حنيفة بهذا النظر فيما بعد حين ولى القضاء فرد شهادة الوزير الأول الخليفة  
آخر ، لأنه قبل الأرض بين يدي الخليفة قاتلا له : أنا عبدك !

\*\*\*\*\*

اتسعت الفتوحات حتى أصبح البحر الأبيض المتوسط بميرة إسلامية ، وحتى ارتفعت الراية  
الإسلامية فوق شرق أوروبا وجنوبها والأندلس ، وكل بلاد العالم التي عرفها إنسان ذلك العصر ..

وعلى الرغم من ازدهار الحضارة ، فقد شغل رجال الحاشية بالكيد لأبي حنيفة يظاهرونهم بعض الفقهاء أصحاب المناصب وأهل الحظوة عند الخليفة .

وأخذ الوزير الأول يكيد عند الخليفة لأبي حنيفة . وانتهز فرصة خروج أهل الموصل على الخليفة ، وكانوا قد شرطوا على أنفسهم إن هم خرجوا على الخليفة أن تبايع دمائهم وأموالهم . وأرسل الخليفة إلى ابن شبرمة وابن أبي ليلي ليأسأهما رأى الدين في أهل الموصل ، وكان قد أعد جيشاً لفتوك بهم . واقترب الوزير الأول على الخليفة أن يدعوه أبو حنيفة وكان يعرف أن تقواه وشجاعته وكل فضائله ستقوده إلى مخالفة رأى الخليفة . وحضر الفقهاء الثلاثة فسألهم عن حكم الشرع في أهل الموصل . وسكت أبو حنيفة وأفتش الآخرين بأن أهل الموصل يستحقون الفتوك بهم ! ..

وأفتش أبو حنيفة بأن الخليفة لا يحق له الفتوك بأهل الموصل ، لأنهم بآياتهم أرواهم وأموالهم إنما أباحوا ما لا يملكون .

وسأل : « لو أن امرأة أباحت نفسها بغير عقد زواج أتعلم من وهبته نفسها ؟ فقال له الخليفة « لا » .. فطلب الإمام أبو حنيفة منه أن يكف عن أهل الموصل فلدمهم حرام عليه ، وأن يوجه الجيش إلى حياة الشغور ، أو إلى فتح جديد لنشر الإسلام ، بدلاً من أن يضرب به المسلمين .

وضاق به الخليفة وأمره أن ينصرف .. ومن حول الخليفة أعداء الإمام يستفزونه للبطش به وفي مقدمتهم ابن أبي ليلي قاضي القضاة وتابعه شبرمة

ومضى أبو حنيفة إلى داره وهو يقول لصاحبه : « إن ابن أبي ليلي ليستحل مني مالاً أستحله من حيوان ! »

وفى الحق أن ابن أبي ليلي وشبرمة والعصبة المعادية لأبي حنيفة فى قصر الخليفة زينت لل الخليفة أن يقهر أبو حنيفة على قبول ما يعرضه عليه من مناصب ، فإذاً أبى فقد امتنع عن أداء واجب شرعى فحق عليه العقاب ، ووجب أن يشهر به فى الأمة ، لأنه يتخلى عن خدمتها !

واقترحوا على الخليفة أن يبدأ فيمتحن ولاه ، فيرسل إليه هدية

وكانوا يعرفون سلفاً أن الإمام أبو حنيفة لن يقبل المدية .. !

· وأرسل له الخليفة مالاً كثيراً وجارية .. فرد المدية شاكراً ..

ثم أرسل الخليفة إليه يلح عليه في ولایة القضاة أو في أن يكون مفتياً للدولة يرجع إليه القضاة فيما يصعب عليهم القضاء فيه .. بما أنه يكثر من لوم القضاة على أحكامهم ، ويكشف للعامة جهل شيخهم

ابن أبي ليلي وتابعه شبرمة !

ورفض أبو حنيفة .. فاستدعاه الخليفة يسأله عن سبب رفضه فقال له : « والله ما أنا بمؤمن الرضا فكيف أكون مأمون الغضب ؟ ولو اتّجه الحكم عليك ثم هددتني أن تفرقني في الفرات أو الحكم عليك لاخترت أن أغرق . ثم إن تلك حاشية يحتاجون إلى من يكرمهم لك ، فلا أصلح لذلك . »

وكانت الحاشية كلها تحيط بال الخليفة ، وعلى رأسها وزيره الأول والفقيران ابن أبي ليلي وابن شبرمة ، فأبدوا التنمر وبان عليهم استنكار ما يقوله الإمام أبو حنيفة ، فقال الخليفة محنقاً : « كذبت ». .

فقال أبو حنيفة في هدوء قد حكمت على نفسك . كيف يجعل لك أن تولى قاضياً على أمانتك وهو كاذب ؟ !

وبعد قليل سأله الخليفة عن سبب رفض هداياء .. فقال له أبو حنيفة أنها من بيت مال المسلمين ولا حق في بيت المال إلا للمقاتلين أو الفقراء أو العاملين في الدولة بأجر وهو ليس واحداً من هؤلاء ! فأمر الخليفة بحبسه . وبضربه بالسياط حتى يقبل منصب قاضي قضاة بغداد .

وها هو شيخ في السبعين أثقلته المعارك والدسائس والمهموم ، ومكابدة الفقه والعلم والتحرّج .. ها هو ذا يضرب ، ويظل يضرب بالسياط في قبوسجين مظلم ، ورسل الخليفة يعرضون عليه هداياء الخليفة ، ومنصب القضاء والإفتاء .. وهو يرفض .. فيعاد إلى السجن ليذهب من جديد .. ويكررون العرض ، وهو يكرر الرفض داعياً الله : « اللهم أبعد عن شرم بقدرتك ». .  
وظل في سجنه يعرضون عليه الجاه والمنصب والمال فيأتي .. ويذهب من جديد !

وتدهرت صحته ، وأشرف على الملاك .

وخشي معدبوه أن يخرج فيروي للناس ما قاسي في السجن ، فيثير الناس ! .

وقرروا أن يتخلصوا منه فدسوا له السم ،

وأخرجوه وهو يعاني سكرات الموت ، وما عاد يستطيع أن يروي لأحد شيئاً بعد !!

وحين شعر بأنها النهاية أوصى بأن يدفن في أرض طيبة لم يغتصبها الخليفة أو أحد رجاله . وهكذا مات فارس الرأى الذي عرف في السنوات الأخيرة من حياته باسم الإمام الأعظم .

وشييعه خمسون ألفاً من أهل العراق واضطرب الخليفة أن يصل إلى الإمام الذي استقر إلى الأبد في ركن هادئ من الدنيا لم يشبه غصب ، وال الخليفة يهمهم : « من يغدرني من أبي حنيفة حياً وموتاً؟ ». .

وهكذا مضى بطل الفكر الشجاع شهيداً حرية الرأي في مخنة من العذاب لم يعرفها أحد من الفقهاء من بعده حتى كانت مخنة الإمام أحمد بن حنبل إمام أهل السنة .. في عصر زرئ كذلك العصر .. عصر تحكمه الدسائس والسموم وسباط الجلادين ، على الرغم من روعة الفتوحات العسكرية ، وانتصارات العقل الإنساني ، وبيطش فيه المزيفون برهبان الحرية وفرسان الفكر ..

وتظل المنارات الشامخة فيه مضيئة على الرغم من كل شيء ، تقدم للإنسانية جيلاً بعد جيل عطاء خالداً من شعاع المعرفة ، والقوة ، وجسارة الكلمة الصادقة الأبية الفاضلة .. !

مَالِكُ جَنْ أَنْسٍ

عاشقُ الْمَدِينَةِ .. وَأَمَامُ الْحَرَمَيْنِ



اجتمعت الأسرة الصغيرة ذات مساء ، كما تعودت بعد كل صلاة عشاء ، تذاكر أمر الحياة والدين ، فيبحى الأب عما صادفه وجه الها فى متجره الصغير الذى يبيع فيه الحرير ، وعها عرض له خلال البيع والشراء من واقعات ، ويشرح لأولاده ولأم البنين ما حفظه عن أبيه عن جده الصحابى من أحاديث وأثار ، ويأخذ الأسرة باستيعاب ما يقول .

وفى تلك الليلة ألقى الأب سؤالاً فى الدين على أفراد أسرته فأحسنوا الإجابة إلا وله الأصغر مالكا ..

كان فى نحو العاشرة ، قد حفظ القرآن وبعض الأحاديث ، وامتلأت آفاقه بنور الكلمات ، ولكن عقله لم يكن قد استطاع أن يعنى ما فيها .. وكان مالك لنضارة سنه يحب أن يرتعن ويلعب .

وغضب أنس على وله الصغير مالك لأنه أخطأ في الإجابة على سؤال في الدين ، ونهره لأنه مشغول باللعب مع الحمام ، وهذا يلهي عن العلم ١ .

وبكى الصبي كما لم يبك من قبل ، وفرغ إلى أحضان أمه يسألها الحماية والتوصية ، ويستعينها على ما هو فيه .

ونشطت أمه من غدراً بعد صلاة الفجر فأدخلته الحمام ، وطبيته وألبسته أحسن ثياب وعماته ، ودفعت به إلى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلتقي العلم ، واختارت له حلقة « ربيعة » من بين سبعين حلقة تلتف حول أعمدة المسجد النبوى يقوم عليها سبعون من أساطين العلم .. « وربيعه » هو حينذاك أكبر فقيه يجتهد رأيه ليستبط الحكم عندما لا يجده في نص قطعى الدلالة .. وهو أكثر العلماء دعوة إلى الإجتهد والأخذ بالرأى من أجل ذلك سمي ربيعة الرأى .

ويتعود الصبي بعد ذلك طيلة حياته أن يستحم و يتطيب و يلبس خير ثيابه كلما جلس يتعلم أو ليعلم :

ولكم عجب رواد المسجد لذلك الصبي الأشقر يفوح منه الطيب في عمامة الشيوخ وهو يمسك بلوح يكتب فيه كل ما يقوله «ربيعة» ويشرب بعينيه وأذنيه مسائل صعبة من اجتهاد ربيعة الذي لم يكن يروى أحاديث يمكن أن تحفظ ، بل يلقى بفتاوی واستنباطات يحتاج فهمها إلى عقل ناضج ، ورأس كبير جدير بالعمامة التي يحملها .

ومنذ ذلك اليوم من أوائل القرن الثاني للهجرة أخذ مالك نفسه بالمشقة في طلب العلم ..

نصحته أمه أن يذهب إلى المسجد النبوى ، فيجلس إلى «ربيعة» ليأخذ من علمه قبل أدبه .. وكان ربيعة مشهورا في المدينة بفقه الرأى .. ولكن الصبي لم يعطف على ربيعة وحده ، فقد بهره ما في الحلقات الأخرى من فنون المعرف .. فتقل بين حلقات الفقهاء .. يحفظ القرآن ويصنف إلى تفسيره في هذه الحلقة أو تلك .. ثم ينتقل إلى حلقات أخرى فيحفظ منها أحاديث النبي و يسترجع تأويل الأحاديث . و يتلقى فتاوى الصحابة من شيخ ، والرد على ما يشار من أفكار وأراء في العقائد من شيخ آخر .. ثم يعود إلى ربيعة او غيره من الشيوخ الذي يجد لديهم علما أغزر .

كان يحمل معه حشيه تقىه برد المسجد إذا كان الشتاء ، وما كان يكتفى بما يتعلم في المسجد بل يلتمس الشيوخ دورهم يستزيد من علمهم و يصبر على ما في بعضهم من حدة .. ولقد ينتظر أحد الشيوخ في الطريق ساعات ما يجد فيها شجرة تقىه الماجرة حتى إذا رأى الشيوخ يعود إلى داره انتظر لحظة ثم قرع عليه بابه . ولقد يلاً أكمامه بالتربيديه بلخارية أحد الفقهاء لتكونه من الخلوص الى المعلم المشود .

وكان مالك إذا جلس ليستمع للأحاديث وهو صبي يحمل معه خيطا فيعقد مع كل حديث عقدة .. حتى إذا كان آخر النهار ، أعاد على نفسه الأحاديث وعد العقد ، فإن وجد نفسه قد نسي شيئاً قرع بباب شيخه الذي سمع منه الأحاديث فيحفظ منه ما نسى .

انقطع مالك لطلب العلم ، ومات عائله وشب الفتى وأصبح عليه أن يعول نفسه وزوجته وبنته .. وكانت به تجارة بأربعمائة دينار ورثها عن أبيه ، ولكنه كان مشغولا عنها بطلب العلم فكسد تجارتة ، واضططر إلى أن يبيع خشبا من سقف بيته ليعيش هو وأسرته بشمنه ، وكان الجوع يعشه وبعض زوجه وابنته فتصرخ الطفلة من الجوع طيلة ليتها . فيدير أبوها الرحى ولا يسمع الجيران صراخها ..

ولما قد بلغ أوج شبابه ، وجد نفسه عاجزا عن توفير ما يكفي أهل بيته إلا أن يضحي بطلب العلم ..

فانفجرت أول صرخاته اجتهاده وناشد الحاكمين أن يمكّنوا أهل العلم من التفرغ للعلم ، وأن يجرؤ عليهم رواتب تكفل لهم الحياة الكريمة ..

غير أن أحدا لم يلتفت إليه ، فقد كانت الدولة الأموية التي عاش شبابه في ظلها مشغولة بثبيت أركانها ، وتألف قلوب شيوخ أهل العلم دون شبابهم .

والتقى به فى تلك الفترة طالب علم شاب من أهل مصر هو الليث بن سعد .. كان قد ألف أن يجع ما بين عام وعام ويزور المدينة ويجلس إلى حلقات الفقهاء في الحرم النبوى ، وقد أعجب كل واحد منها بذكاء صاحبه ونشأت بينها علاقة احترام متبادل ، وألقى الله فى قلبه مودة ورحمة ... للاحظ الليث بن سعد أن صديقه - على الرغم من أناقة ثيابه ونظافتها ، وعلى الرغم من رائحة المسك والطيب التي تسبقه فقير جهد الفقر ، وإن كان ليدارى فقره تعففا وإباء ! ..

وكان الليث واسم الغني ، ففتح صاحبه مالاً كثيراً وأقسم عليه أن يقبله .

وعاد الليث إلى وطنه مصر وظل بها يصل صاحبه مالك بن أنس بالهدايا بالمال ، حتى أصلح الله حال مالك ووحد من الخلفاء من يستعجِّب إلى ندائِه المتصل أن تجري الرواتب على أهل العلم .

ولقد سئل مالك عن عدم السعى في طلب الرزق والانقطاع إلى العلم فقال :  
«لأيبلغ أحد ما يريد من هذا العلم حتى يضر به الفقر و يؤثره على كل حال . ومن طلب هذا  
الأمر صر عليه » .

وفي الحق أنه ظل طالب علم بعد أن أصبح فقيها كبيرا يسعى إليه الناس من كل أقطار الأرض والآن، أن توفي سنة ١٧٩هـ وهو في نعو السادسة والثمانين

ولقد ظل يعلم الناس ، عندما جلس للعلم ، أن يتخرجوه في الفتيا وفي إبداء آرائهم ، فإذا كان الفقيه غير مثبت لما يقول فعليه في شجاعة أن يعترف بأنه لا يدري . ذلك أن الفتيا لون من البلاء لأهل العلم .

فن حسب نفسه قد أوتى العلم كله ، فهو الجاهل حقا .. وشر الناس مكانا هون من يضع نفسه في مكان ليس ، أهلا له . وإن رأى الناس غير ذلك ، فصاحب العلم أدرى بنفسه ، وللرأي أمانته .

ويحکى أن رجلا جاءه من أقصى الغرب موفدا من أحد فقهائهم ، ليسأل مالك بن أنس عن مسألة .. فقال مالك : «أخبر الذى أرسلك ألا علم لي بها» »فأنبأه الرجل أنه جاء من مسيرة ستة أشهر لسؤال عن هذه المسألة . فقال مالك : «ما أدرى وما ابتنينا بهذه المسألة فى بلدنا وما سمعنا

أحدا من أشياخنا تكلم فيها ولكن تعود غدا ». وظل مالك يفكر في المسألة ويقرأ ما يمكن أن يتصل بها حتى إذا كان الغد جاءه الرجل فقال له مالك : « سألتني وما أدرى ما هي » فقال الرجل « ليس على وجه الأرض أعلم منك وما جئتك من مسيرة أشهر إلا لذلك » فقال مالك : لا أحسن .

بهذه الأئمة والترجح كان مالك يعالج الفتيا .

ولقد عاش، في المدينة المنورة طيلة حياته منذ ولد فيها خلوة سنة 93 هـ إلى أن ثوى تحت ثراها آخر الدهر. لم يبرحها قط إلا لحج أو عمرة ..

كان مالك يجد في المدينة ربيع النبوة، ونفحات علوية من أنفاس الرسول حتى لكانه يستنشق كل خفقة من أنسام مدينة الرسول جلال الأيام الباهرة الحالية : أيام النور والوحى والبطولات والفرقات .

ومازال أهل المدينة يصفون كما كانوا يصفون في زمان رسول الله « صلى الله عليه وسلم » والصحابة الأولين .. إنهم ليتوارثون سنته الشريفة في القول والعمل الآباء عن الاجداد ..آلاف عن آلاف حتى لقد صبح عنده أن عمل أهل المدينة في عصره سنة مؤكدة ، وأنه أولى بالاعتبار عند الفتايات والقضاء من أحاديث الآحاد ..

إنه لعاشق لمدينة رسول الله كما لم يعش أحد مدينة من قبل ولا من بعد ، يكاد يجعل لها من التعظيم ما يحمله للرسول « صلى الله عليه وسلم » نفسه ولصحابته . حكى الشافعى أنه رأى على باب مالك هدايا من خيل خراسانية وبغال مصرية فقال الشافعى « ما أحسن هذه الأفراح والبالغ » فقال مالك : « هى لك فخذها جيما » قال الشافعى : « ألا تبقى لك منها دابة تركبها ؟ » قال مالك : « إنى لأشتري من الله تعالى أن أطأ تربة فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم بمحافر دابة » .

وفي الحق أن الحياة في المدينة كانت تناسب طبيعة مالك .. فقد ظلت المدينة بعيداً عن مضطربة التيارات الفكرية التي تصطحب غيرها من مذاهب المسلمين ، فهي تعيش على السنن المتوارثة وتنأى بنفسها عن صراع العقائد ، والجدل الفلسفى ، وكلام الباحثين فيما وراء الغيب ، وكل ما انتجه ترجمة الفلسفات اليونانية وال الهندية والفارسية إنها حقاً قرية مؤمنة ورب غفور .. ومالك بن أنس رجل يحب الدعوة وينشد السكينة ، ويعكف على الدرس المطمئن . وهو يكره الجدل واللجاج والصخب والمناظرة ، والكلام فيها لا ينفع الناس في حياة كل يوم .

وكان يقول لمن سافر لمن يريدون الجدل في العقائد « تجادلوا .. وكلما جاء رجل أجدل من

رجل تركنا مانزل به جبريل ، وغير الإنسان دينه ».

وكان مالك لا يحب أن يخوض غمرات الصراع السياسي .. وكانت المدينة بالقياس إلى غيرها من بلاد المسلمين أكثرهن بعدها عن الثورات والفتن ومناهضة الحكم .

ولقد بلغ نفوره من الجدل حدا جعله يصد عنه هارون الرشيد عندما لقيه في المدينة وطلب منه أن يناظر أبا يوسف صاحب أبي حنيفة .

فقال مالك مغضبا : « إن العلم ليس كالتحريش بين البهائم والديكة » ..

كان مالك يعتقد أن الجدل في الدين مفسدة للدين . وقال : « إن الجدل يبعد المتعادلين عنحقيقة الدين . إن المرأة والجدل في الدين يذهبان بنور العلم من قلب المؤمن » وسئل « « رجل له علم بالسنة لا يجادل عنها ؟ فقال « يخبر بالسنة فان قبل منه ، والا سكت . »

على أن الأفكار الجديدة اقتحمت على مالك وأهل المدينة حياتهم ، وفرضت عليهم النظر فيها ، فقد كان أصحابها يذهبون إلى الحجاز للحج والعمرة وللزيارة .. وكان على مالك وأهل العلماء في المدينة ان يناظروا فيها هو مطروح من أفكار وكلام . صفات الله . كيف يرى يوم القيمة وخلق القرآن .. والقدر والجبر والاختيار . وفرضت القضايا نفسها على فقهاء الحجاز ... أما مالك فقال : « الكلام في الدين أكرهه وأهنى عنه ولم يزد أهل بلدنا (المدينة) يكرهونه وينهون عنه .. نحو الكلام في القدر والجبر ونحو ذلك ولا أحب الكلام الا فيما تحته عمل . » وما تمحته عمل من الدين هو ما يفيد الناس في دنياهم وآخرتهم .. هو الفقه الذي يحكم أعمال الناس ويرد الفروع إلى الأصول . أما العقائد فقد نهى عن الجدل فيها وقد فسر مالك كل آية تتحدث عن العداوة - والبغضاء التي تقع بين عباد الله ، بأنها الخصومات للجدل في الدين .

وكان مالك يتساءل عن جدواي هذه الأفكار المبتعدة عن ذات الله وصفاته والجبر والاختيار ؟  
وخلق القرآن ؟

وما عساها تحقق من مصالح أو تدفع من مضار ؟

إنه لأولى بأهل العلم أن يستغلوا بالحكمة ... والحكمة التي جاءت كثيرا في القرآن هي - في رأي مالك - في دين الله والعمل به ..

ولقد أطلق مالك على أصحاب الكلام في العقائد والجبر ونحو ذلك من أصحاب بدع وقال عنهم إنه

ما عرف أشد منهم سخفاً ولا حقاً .. فما جدوى الكلام فيما يتكلمون فيه؟ ماذا يتحقق جدل كهذا من مصالح للعباد؟ ..

إن المعتقدات يجب أن تكون موضع كلام وعلى المسلم العاقل أن يسلم بها تسلياً مطلقاً ، وإن يجعل هذه إلى ما وراء ذلك مما ينفع الناس ، ويكتفى الأرض يدفع عنهم الضرر والمفاسد ، ويضبط لهم علاقتهم وحياتهم ومعاشرهم بما يستتبعه من أحكام الشريعة

فليسأل أهل العلم أنفسهم ما هو مقصد الشريعة الإسلامية وما هدفها؟ ..... وليتقوا الله حق تقاته وهم يجيبون على هذه المسألة ... أهوفى الشريعة الإسلامية أن يتخاصم الناس ويتمارون حول القدر وخلق القرآن ورؤيه الله والجبر والاختيار؟ ... وهذا تصرف العقول عن التفكير فيما ينفع الناس؟ .. لابل إن هدف الشريعة هو إقامة العمران في هذا العالم وتحقيق مصالح العباد في الدنيا والآخرة ..

من أجل ذلك فقد وجب على العلماء والفقهاء أن يبصروا الناس بما يتحقق المصلحة ويفيم عمارة العالم . وبما يدرأ عنهم المفاسد وبما يضبط أمورهم على اركان ركبة من العدل والتقوى وصلاح الأمور.

والأحكام التي تحقق مقاصد الشريعة منصوص عليها في القرآن والحديث ، و يجب التعرف عليها بكل طرائق الفهم والتفسير ، وتدبّر ما وضح وما خفي من دلالات النصوص ، فإن لم يسعف النص في مواجهة ما يستجد من أحداث ، فلينظر الفقيه في إجماع الصحابة ليتخلص من الحكم ، ففي إجماع الصحابة حجة كالسنة المؤكدة ، فإن لم يجد الفقيه ما يشفي فلينظر في عمل أهل المدينة لأنهم تلقوه آلـافاً عن آلاف عن الرسول صلى الله عليه وسلم وصحابته .. فإن كان ما استجد من قضايا لا حكم له عند أهل المدينة فلي quis الفقيه ليطبق على القضية الجديدة حكم قضية سابقة واورد به نص إن توفرت العلة في القضيتين فإن تعارض هذا القياس مع مصلحة فليفضل الحكم الذي يتحقق المصلحة استحساناً له .. فهو الأحسن . وإن لم يسعفه القياس فلينظر في عرف الناس وعاداتهم إن لم يكن مخالف لما أحله .. فإن لم يجد فلينظر أين المصلحة .. ول يجعل تحقيق المصلحة هو مناط الحكم .

على أن مالك بن أنس لم يوفق إلى هذه الأفكار ويدلى إلا بعد أن أصبح صاحب حلقة يدرس فيها ..

فها هوذا مالك بن أنس تجرى به السنون لتعدو الأربعين ، وقد يلزم الفقهاء نحو ثلثين عاماً ، فتلقى عنهم الأحاديث النبوية ، ومحصها وحققت إسنادها وتدارس معهم ما ينبغي لاستنباط الأحكام -- التي تواجه قضايا لم ت تعرض من قبل ، وتعلم منهم الكتاب والحكمة ، وتفكر في خلق السموات والارض وأحوال العباد ، وتدارس معاملات الناس ، فتكون له رأي خاص ، واستقل بنظره في كل أمور الدنيا

والآخرة اتبع في بعضه السنة وأفكار السلف الصالح وعمل أهل المدينة وأعرافها وعاداتها .

واستنبط الأحكام في بعضه الآخر بما يحقق المفعة ويدرأ المفسدة .

جاء الوقت الذى ينبغى له فيه أن يجلس إلى أحد أعمدة الحرم النبوى ، ويجعل له حلقة خاصة يفتى فيها للناس و يعلمهم ما علم رشدا و يطرح عليهم ماتكون له من فقه وما استقر عنده من تأويل الأحاديث .

وكان مالك قبل أن يجلس ليعلم الناس ويفتيهم ، قد اختلف مع استاذه ربعة ، فرأى مالك أن يستقل بحلقة ، اقترحاها عليه مشايعوه ، غير أنه لم يفعلها من فوره بل طلب على سبعين من أصحاب الحلقات والشيخ في المسجد النبوي ، يعرض عليهم فقهه ، ويستأذنهم في أن يجلس ليعلم الناس .

وأجازه له أساتذته لم يختلف على إجازته أحد ، اختار المكان الذي كان يجلس فيه عمر بن الخطاب ليستروح منه جلال الأيام الرائعة الماضية ، حين كان كل الصحابة يعيشون في المدينة . المنورة .. أمسكهم فيها عمر لا يرحوها إلا بإذنه ، لكي يعلموا الناس ، ولكي يستشيرهم إذا احتاج الأمر ، ولكيلا يفتن بهم أهل الأقطار الأخرى من حديث العهد بالإسلام .

وكان أنس بن مالك من مالك من قبل قد اختار سكنا له دار الصحابي عبد الله بن مسعود ، ليتحقق منه القلب بنبضات عصر النبوة .. ذلك العصر المضيء بنور الإيمان والمعرفة والشوق المقدس العظيم إلى صياغة عالم جديد من الطهارة والإخاء والتبليغ والعدالة والحرية والسكينة والنعيم ..

ولقد أثث مالك بن أنس داره بأجل أثاث ، وزينها بأحسن زينة وملأ أجواءها بعرف البخور المعطر . ذلك أن الحياة أقبلت عليه .. فتال راتباً كبيراً من بيت المال ، ثم توالى عليه هدايا الخلفاء فقد اقتنع الخلفاء برأيه في أن أهل العلم يجب ألا يشغلوا عنه بالسعى في طلب الرزق ، بل يجب أن يكون لهم نصيب من بيت المال ، فبنالوا منه رواتب منتظمة كبيرة ، كما ينال قواد الجيش الذين يقومون على حماية الأمة وسد الثغور ... فنشر العلم سد للشغور الروحية أمام الجهل ، والتوفير على نشر العلم جهاد . وإن فينبغي أن يكون لكل من العالم وطالب العلم جزاء المجاهدين كل بقدر ما يكتفيه .

إن العلماء ليحمون أرواح الناس وعقولهم من الضلال ، فمن واجب ولـى الأمر أن يوفر لهم من المال ما يكفل لهم الحياة الكريمة والمظهر اللائق الحسن كخير ما ينعم به الولاية والأمراء وحـة الشغور.

على أنه كان يغدق من راتبه وما يتلقى من هدايا على الفقراء من طلاب العلم يعطيهم ماتيسرا من المال ويطعمهم أشهى طعام .. وكان حفيا بما كله يختار الأطعمة من كل صنف وكان مولعا بالفاكهه وخاصة الموز ويقول عنه : «لا شيء أكثربها بشرفات أهل الجنة منه ، لا تطلبه في شتاء ولا صيف إلا

وَجَدَتْهُ .. قَالَ تَعَالَى «أَكَلُوهَا دَائِمًا وَظَلَلُوهَا» .

وَكَانَ يَعْضُ تَلَامِيذهُ عَلَى الْإِهْنَامِ بِحُسْنِ التَّغْذِيَةِ ، فَالغَذَاءُ الْجَيْدُ يَبْنِي الْجَسْمَ السَّلِيمَ ..  
وَالْعُقْلُ السَّلِيمُ فِي الْجَسْمِ السَّلِيمِ . وَمَكَابِدُ الْعِلْمِ تَحْتَاجُ إِلَى عُقُولٍ نَشِطَةٍ تَصْوِنُهَا أَجْسَادَ قُرْبَيْهِ ..  
وَهَكُذا عَاشَ مِنْذَ بَدَأَ يَجْلِسُ لِلْإِفْتَاءِ وَالتَّدْرِيسِ : جَسْدٌ قَوِيٌّ ، وَعُقْلٌ نَفَاذٌ .. طَعَامٌ حَسْنٌ  
وَمَسْكُنٌ جَيْدٌ وَثِيَابٌ أَنِيقَةٌ بِيَضْاءِ مِنْ خَيْرٍ مَاتَتْجَهُ مَصْرٌ وَخَرَاسَانٌ وَعَدَنْ .

وَالْفُلُّ النَّاسُ كُلُّهُ دَخَلُوا الْمَسْجِدَ النَّبَوِيَّ بَعْدَ صَلَةِ الْفَجْرِ أَنْ يَجْدُوا رِجَالًا مُهِبِّيَا طَوِيلَا أَشْقَرَ ،  
أَبْيَضَ الْوَجْهِ ، وَاسِعُ الْعَيْنَيْنِ ، أَشْمَانِ الْأَنْفِ ، كَبِيرُ الْلَّحِيَّةِ ، مَفْتُولُ الشَّارِبِ ، يَتَحَذَّذُ مَكَانَهُ فِي هَدْوَهُ ،  
وَيَتَحَدَّثُ فِي صَوْتٍ عَمِيقٍ صَادِقٍ مُسْتَنِداً إِلَى عَمُودٍ وَمِنْ حَوْلِهِ حَلْقَةٌ مِنْ تَلَامِيذهُ ، كَأَنَّ عَلَى رُؤُسِهِمْ  
الْطَّيْرِ . فَإِذَا دَخَلَ غَرِيبٌ وَأَلْقَى السَّلَامَ لِمَ يَرِدُ عَلَيْهِ أَحَدٌ إِلَّا هُمْ سَا .. فَإِذَا سُئِلَ مَا هَذَا؟ قِيلَ لَهُ فِي صَوْتٍ  
خَفِيفٍ إِنَّهُ الْإِمَامُ مَالِكُ بْنُ أَنَسٍ .

فَقَدْ كَانَ يَفِيَضُ إِذَا تَكَلَّمَ ، وَيَنْفَذُ بِصَدِقَتِهِ إِلَى الْقُلُوبِ .. وَلَمْ يَكُنْ جَهِيرُ الصَّوْتِ ، فَكَانَ تَلَامِيذهُ  
يَكَادُونَ يَمْسِكُونَ بِأَنفَاسِهِمْ لِكِيلَا يَفْوَتُهُمْ حَرْفٌ مَا يَقُولُ .

وَكَانَ قَدْ خَصَصَ أَيَّامًا لِشُرْحِ الْأَحَادِيثِ النَّبَوِيَّةِ الشَّرِيفَةِ ، وَأَيَّامًا لِلْمَسَائلِ وَالْفَتِيَّا .. فَإِذَا سُأَلَ  
أَحَدُهُ فِي أَمْرٍ لَمْ يَقُعْ وَلَكِنَّهُ مُتَوْقَعٌ ، قَالَ لَهُ : «سُلْ عَمًا يَكُونُ وَدْعُ مَا لَا يَكُونُ» .

ذَلِكَ أَنَّهُ كَانَ يَرِى أَنَّ كُثْرَةَ الْفَرَوْضِ مُفْسِدَةٌ ، وَفِيهَا يَقْعُدُ مِنَ الْحَوَادِثِ وَالْقَضَائِيَّاتِ الْجَدِيدَةِ  
مَا يَكْفِي وَمَا يَغْنِي عَمَّا هُوَ مُتَوْقَعٌ ..

وَعِنْدَمَا تَقْدَمَتْ بِهِ السَّنُّ ، عَقَدَ حَلْقَاتَ الدِّرْسِ فِي بَيْتِهِ الْوَاسِعَةِ ذَاتِ الْأَثَاثِ الْفَاخِرِ .

تَرَكَ مُجَامِلَةَ النَّاسِ الَّتِي اشْتَهِرَ بِهَا «وَتَرَكَ حُضُورَ الْجَنَازَاتِ ، فَكَانَ يَأْتِي أَصْحَاحَهَا فَيَعْزِّزُهُمْ ، ثُمَّ  
تَرَكَ ذَلِكَ كُلَّهُ ، فَلَمْ يَكُنْ يَشَهِدُ الصلواتِ فِي الْمَسْجِدِ وَلَا الْجَمَعَةِ» وَكَانَ إِذَا عَوَّتَ فِي ذَلِكَ  
قَالَ : «لَيْسَ كُلُّ النَّاسِ يَقْدِرُ أَنْ يَتَكَلَّمَ بِعَذْرَهِ» .

ذَلِكَ أَنَّهُ لَمْ يَفْضِ لِأَحَدٍ بِسِرِّ مَرْضِهِ الَّذِي أَعْدَهُ عَنِ الْمَسْجِدِ وَالنَّاسِ إِلَّا فَرَاشَ الْمَوْتِ وَكَانَ مَرْضُهُ هُوَ  
سَلْسُ الْبَوْلِ . وَعِنْدَمَا اشْتَدَ عَلَيْهِ الْمَرْضُ بَعْدَ أَنْ جَاوزَ الْمَائِنَيْنِ كَرِهَ أَنْ يَخْرُجَ مِنْ دَارَهُ .

وَكَانَ لَهُ فِي بَيْتِهِ مُجَلَّسًا فِي السَّنَوَاتِ الْمَائِنَيْنِ الْآخِيرَةِ مِنْ حَيَاتِهِ : فَقَالَ أَحَدُ تَلَامِيذهُ : «إِنَّهُ كَانَ  
عِنْدَمَا اتَّقَلَ دَرْسَهُ إِلَى بَيْتِهِ ، إِذَا أَتَاهُ النَّاسُ تَخْرُجَ لَهُمُ الْجَارِيَةَ فَتَقُولُ لَهُمْ : يَقُولُ لَكُمُ الشَّيْخُ أَنْرِيدُونَ  
الْحَدِيثَ أَمِّ الْمَسَائلِ؟ فَإِنْ قَالُوكُمْ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ فَاقْتَاهُمْ ، وَإِنْ قَالُوكُمْ حَدِيثًا قَالُ لَهُمْ اجْلِسُوا ، وَدَخُلُ

مضلله فاغسل وتطيب ، ولبس ثيابا جددا ، ولبس ساجه ( وهي غطاء للرأس كالثاج ) وتعمم ، فتلقى له المنصه . فيخرج إليهم وقد لبس وتطيب وعليه الخشوع ، ويوضع عود فلا يزال يبخر حتى يفرغ من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم » .

ولكم كان حريصا على أن ينتقى الأحاديث .

وعلى الرغم من كثرة الأحاديث التي حفظها ، فلم يكن يحدث بهن جيما .. ولقد قيل له إن أحد الفقهاء يحدث بأحاديث ليست عندك فقال مالك لو أني حدثت بكل ما عندي لكأني إذن لأحق ثم أضاف : لقد خرجت مني أحاديث لوددت لو أني ضربت بكل حديث منها سوطا ولم أحدث بها « من أجل ذلك قال عنه تلميذه الشافعى : إذا جاء الحديث فاللهم النجم الثاقب » .

وهذا الخرج في الحديث كان يتخرج في الفتوى .. فلا يقول هذا حلال وهذا حرام إلا إذا كان هناك نص قطعي الدلالة .

وفيما عدا هذا يقول : أظن ثم يعقب فتواه مستشهادا بالآية الكريمة : « إن نظن إلا ظنا وما نحن بمستيقنين » .

ولقد عاتبه بعض تلاميذه على تحرجه في الفتوى ، فاستعبروه بكى وهو يقول : إنى أخاف أن يكون لي منها يوم وأى يوم . وقال يوما لأحد تلاميذه : ليس في العلم شيء خفيف . أما سمعت قول الله تعالى : « إنا سنلقى عليك قوله ثقيلا ؟ فالعلم كله ثقيل وخاصة مايسأل عنه يوم القيمة . »

ولقد عاتبه بعض الناس في عنایته الفائقة بتأثيث البيت ، وعلبته ومامكه فقال : « أما البيت فهو نسب الإنسان . ثم إنى لا أحب لأمرئ أنعم الله عليه إلا يرى أثر نعمته عليه وخاصة أهل العلم ». كان يرى في أن البيت الجيد راحة للنفس والبدن ، وأن الطعام الجيد يعين على نشاط الذهن ، وأن حسن الشياب يكسب المرء ثقة بالذات وإحساسا بالسعادة .

وهكذا عاش يستمتع بزينة الحياة الدنيا التي أحلها الله لعباده والطيبات من الرزق ، نائيا بنفسه عن السياسة ، راغبا عن مصاولة الحكم وإن كانوا ظالمين حتى لقد أفتى بوجوب الطاعة للحاكم حتى إن كان ظالما . ولا ينبغي الخروج عليه بالفتنة بل يسعى إلى تغييره بالموعظة الحسنة وبالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر لأن ظلم ساعة خلال الفتنة شر من جور حاكم ظالم طيلة حياته . والحاكم ظالم يسلط الله عليه ما هو شر منه والله يرمي ظالما بظلم .

وعلى هذا سار أيام الأمويين ، ثم في دولة العباسين .. يحاول جهده أن يكون على الحياد .

ولكنه على الرغم من كل شيء لم يعش بنجاه عن بطش الذين أفتى بوجوب — طاعتهم من الحكام  
مهمها يظلمون .

لم يهاجم الأمويين فأصابه منهم خير كثير ثم جاء العباسيون فزادوه من الخيرات .. وأصبح الإمام  
مالك رجلاً غنياً ، يعيش في دعة وسعة وينبح كل وقت للعلم . ذلك أنه لم يمدح على بن أبي طالب ولم  
يساند حقه في الخلافة .. وكان مدح على هو ما يغطي الخلفاء الأمويين العباسين .

وآخر الحياد ، وترك السياسة ، وأشفق على نفسه وعلى أهل المدينة بما رأى في شبابه من مذابح بعد  
ثورة الخوارج ونهاية الإمام زيد بن علي زين العابدين ، على أن السياسة لم تتركه ولم ينفعه حياده .

ولهذا يشرح في المسجد الحديث الشريف : ليس على مستكره يمين .. « ويبين للناس أن من طلق  
مكرها لا يقع منه طلاق ، إذ بأحد أحفاد الحسن بن علي وهو محمد النفس الزكية ، يشور على الخليفة  
النصرور ، لأنَّه أخذ البيعة لنفسه قسراً فبایعه الناس مستكريهين .

وإذ بعض الناس في المدينة يتقصى بيته للمنصور وينضم لحمد النفس الزكية إعمالاً  
لهذا الحديث وتطبيقاً للسنة .

وأرسل والي المدينة إلى الإمام مالك أن يكف عن الكلام في هذا الحديث ، وأن يكتمه عن  
الناس ، لأنَّه يحرضهم على الثورة ونقض البيعة .

ولكن الإمام مالك أبى أن يكتم هذا العلم ، فكان العلم ملعوناً وظل يفسر الحديث غير آبه  
بتهديد والي المدينة ، وأطلق الحكم الذي جاء به الحديث على كل صور الإكراه في المعاملات  
والحياة .

فأمر والي المدينة رجاله فضرروا مالكاً أسوأ مما كان عليه ، ثم جذبوه جداً غليظاً من يده ، وجروه منها  
فانخلع كتفه .. ثم أعادوه إلى داره وألزموه الإقامة بها . لا يخرج منها حتى للصلوة ولا يلقى فيها  
أحد .

وفزع الناس في المدينة إلى الله يشكرون الظالم ، وثار سخطهم على الوالي والخليفة نفسه  
وغضب الفقهاء والعلماء من كل الأنصار والأقطار . فها هؤلاء عالم يلتزم الحياد ، يتأى بنفسه عن  
السياسة ودوران دولتها ، ويعرف على العلم ويشرح للناس حديثاً نبوياً صحيحاً ، ويصر لهم  
بأحكام هذا الحديث فإذا بالدولة بكل قوتها تبطرش به ، وهو عالم لا يملك إلا قوة العلم  
ومما يستطيع بعد كتمان هذا العلم ؟ ..

وأخذ الناس يلعنون والي المدينة والخليفة المنصور الذي ولاه .. ويتهمنون الخليفة نفسه .

وقع المنصور ثورة النفس الزكية ، وقتله هو وأل بيته وصحبه وأتباعه شر قتلة ومثل بأجسادهم .. واستقر له الأمر.

فاستقدم الخليفة المنصور مالكا ليسترضيه ولكن مالكا لم يقم ولم يريح محبسه في منزله .

فأمر المنصور والى المدينة فأطلق سراح مالك .. ثم جاء المنصور بنفسه من العراق إلى الحجاز في موسم الحج ، واستقبل الإمام مالك بن أنس . وقال الخليفة معتذرا : « أنا أمرت بالذى كان ولا عملته . انه لا يزال أهل الحرمين بخير ما كنت بين أظهرهم ، وإنى أخالك أمانا لهم من عذاب ، ولقد رفع الله بك عنهم سطوة عظيمة فإنهم أسرع الناس إلى الفتنة ». .

ثم أضاف الخليفة أنه استحضر والى المدينة مهانا وحبسه في ضيق ، وأمر بالإيغال في إهانته ، وأن ينزل به من العقوبة أضعاف مثال منها الإمام مالك بن أنس .

فقال الإمام مالك : « عافى الله أمير المؤمنين وأكرم مثواه فقد عفت عنه لقرباته من رسول الله صلى الله عليه وسلم ومنك . » قال الخليفة المنصور : « فعفا الله عنك ووصلك » .. وهب المنصور مالا كثيرا وهدايا ثمبيه ثم أضاف :

« إن رابك رب من عامل (والى) المدينة أو مكة أو عمال (أى ولادة) الحجاز في ذاتك أو ذات غيرك ، أو سوء أو شر بالرعاية فاكتبه إلى أنت بهم ما يستحقونه . »

على أن الإمام مالك بن أنس لم يكتب إلى الخليفة ، على الرغم مما سمع وعاين من شر بالرعاية في جميع أنحاء الحجاز ، بل اكتفى بتوجيه النصائح والوعظة الحسنة إلى هؤلاء الولاء .

على أن الخليفة المنصور لم يترك الحجاز حتى طلب من الإمام مالك أن يضع كتابا يتضمن أحاديث الرسول وأقضية الصحابة وأثارهم ، ليكون قانونا تطبقه الدولة في كل أقطارها بدلا من ترك الأمر لخلافات المغتدين والفقهاء .. وكان ابن المقفع الكاتب قد أشار على الخليفة من قبل بإصلاح القضاء وتوحيد القانون في كل أرجاء الدولة ...

قال المنصور للإمام مالك : « ضع للناس كتاباً أحل لهم عليه » فحاول مالك أن يعتذر عن المهمة ولكن المنصور ألح : « ضعه فما أحد اليوم أعلم منك » فقال مالك : « إن الناس تفرقوا في البلاد فأفتقى كل مصر « أى قطر » بما رأى فلأهل المدينة قول ، ولأهل العراق قول تعددًا فيه طورهم » فقال الخليفة المنصور : « أما أهل العراق فلا أقبل منهم ، فالعلم علم أهل المدينة » فقال مالك : « إن أهل العراق لا يرضون علمنا » فقال المنصور : « يضرب عليه عامتهم بالسيف وتقطع عليه ظهورهم بالسياط »

واقتضى مالك برأى الخليفة ، لأنه هو نفسه كان فكر من قبل ، أن يجمع الأحاديث النبوية في كتاب يضم مع الأحاديث آثار الصحابة ، ليجتمع المجتهدون والفقهاء والقضاء على رأي واحد وانقطع الإمام عاكفاً على إعداد الكتاب وأخذ يكتب وينقح ويحذف أضعاف ما يثبت ، وينفع ما يثبت وأسمى كتابه الموطأ .

والموطأ لغة هو المنقح .

ولبى ينفع في الكتاب سنتين عدداً ، وخلال تلك السنتين أخرج منافسوه من علماء المدينة كتاباً كثيرة في الأحاديث وآثار الصحابة أسموها الموطأ ، وسبقوه بها .. فقيل مالك : شغلت نفسك بعمل هذا الكتاب وقد شررك فيه الناس وعملوا أمثاله . وأخرجوا ماعملوا فقال : « إنئوني بما عملوا .. فأتوا بها فلما فرغ من النظر فيها – قال : » لا يرتفع إلا ما أريد به وجه الله . أما تلك الكتب فكأنما أقيمت في الآبار وما يسمع بشيء منها يذكر بعد ذلك ..

وفي الحق أن شيئاً من تلك الكتب لم يذكر بعد ، وكأنما أقيمت في الآبار ..

أما كتاب الموطأ فقد أبغزه مالك بعد أن قضى المنصور وجاء بعده خليفة و الخليفة ثم جاء هارون الرشيد فأراد أن يعلق كتاب الموطأ في الكعبة ولكن الإمام مالك بن أنس أبي .

والإمام مالك بن أنس من أفقه الناس بالحديث وآثار الصحابة .. والرأي عنده سنة فقد وعى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله : أنا أقضى بينكم بالرأي فيما لم ينزل فيه وحي .. ونقل الإمام مالك عن الرسول عليه السلام كان يشاور أصحابه ويأخذ برأيهم .. ونقل من آرائه أن قبلة الصائم لانفطر ، فقد سئلت زوجة أم المؤمنين أم سلمة عن قبلة الصائم فقال لها هل اخبرتني أقبل وأنا صائم؟ .. وحفظ الإمام مالك من آراء الرسول صلى الله عليه وسلم أنه ذهب إليه رجل ينكر ولده لأن امرأته جاءت به أسود والأب أبيض والأم بيضاء ، فقال له الرسول عليه السلام هل لك إبل؟ قال : نعم قال : فما ألوانها قال : « حمر » فسألها عنها إن كان فيها « رمادي » فقال الرجل : « نعم فسألته الرسول صلى الله عليه وسلم » من أين؟ فقال الرجل : « لعله نزعة عرق » . فقال الرسول عليه السلام وهذا لعله نزعة عرق ». .

وعلى مالك هذا الاجتهد من الرسول ، ووعى صوراً عربية أخرى من أخذته بشورة الصحابة فيما لم ينزل فيه وحي ، فاجتهد مالك هو الآخر معتمدًا على حسن الفقه بالقرآن الكريم ، وعمق العلم بالواسع والمنسوخ ، ودلائل النصوص ظاهرها وخفتها ، وأسرار الأحكام في القرآن ، وحسن معرفة الأحاديث وآثار الصحابة ..

وقد عرف كل آثار الصحابة إلا فقه الإمام على بن أبي طالب ، إذ صادره الأمويون وحجبوه ، وطارده العباسيون .. غير أن ذلك الفقه كان في حدود آل البيت وشيعتهم ، وفي كتب يتناولونها خفية .

ولقد أتيح للإمام مالك أن يعرف الإمام جعفر الصادق صداقة وتدرس معا .. وعمل كل واحد منها تقديرًا عظيمًا لصاحبه .

وفي الحق أن الإمام مالك قد أفاد من صحبة الإمام جعفر الصادق — وأخذ الاعتماد على العقل فيما لم يرد فيه نص — غير أنه أسماه بالاستحسان أو المصلحة المرسلة — فقضى بما يحقق مقاصد الشريعة من توفير المصلحة وجلب النفع ودفع الضرر وبما إلى الحرام .. واعتبر المصلحة العامة فوق المصلحة الخاصة ، ووازن بين الصالح وماً لا ينفعها بالرعاية لتكون هي مناط الحكم .

وكما أعطى أعمال العقل لفقه الإمام الصادق ثراءً وتجددًا ، فقد أثرى الفقه المالكي باعتماد المصلحة أساساً للحكم حيث لانصر ..

ويقول الإمام مالك عن علاقته بالإمام جعفر الصادق : « كنت آتني جعفر بن محمد ، وكان كثير المزاح والتقبسم فإذا ذكر عنده النبي صلى الله عليه وسلم أخضر وأصفر . ولقد اختلفت إليه زماناً فما كنت أراه إلا على ثلاث خصال : إما مصلياً وإما صائماً وإما يقرأ القرآن ، وما رأيته قط يحدث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا على الطهارة ولا يتكلم فيما لا يعنيه . وكان من العلماء الزهاد العباد الذين يخشوون الله . وما رأيته قط إلا يخرج الوسادة من تحته ويجعلها تحتي » .

أفاد الإمام مالك من صحبة الإمام جعفر وأخذ عنه كثيراً من طرق استنباط الحكم ووجوه الرأي وأخذ عنه بعض الأحكام في المعاملات ، وأخذ الاعتماد على شاهد دون شاهدين ، إذا حلف المدعى اليدين وكما أخذ من الإمام الصادق جعفر بن محمد أخذ من أبيه الإمام محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب ..

لزم مالك مجلس الإمام محمد الباقر وابنه الإمام جعفر وتعلم منها على الرغم من أن رأيه في الإمام على بن أبي طالب كرم الله وجهه لا يرضي آل البيت وشيعتهم .. فقد فضل عليه أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب وعثمان بن عفان رضي الله عنهم وجعل الإمام علياً كرم الله وجهه ورضي الله عنه كسائر الصحابة ..

ولئن أغضب هذا الرأى آل البيت والشيعة جيئ ، انه ليرضى الخلقاء الأمويين الذين أنكروا حق على ونازعوه الخلافة واغتصبوا منها ، وذبحوا الحسين والله في كربلاء ، وذبحوا كل من ثار من آل البيت

كزير بن على بن الحسين .. افى هذا الرأى يرضى الخلفاء الأمويين كما أرضى من بعدهم الخلفاء العباسين الذين رأوا أن الخلافة تحق لبني العباس عم النبي صلى الله عليه وسلم ولا تحق لبني على وفاطمة .. وأغرى أحد الشعراء بأن يقول إن بني البنات (يعنون فاطمة الزهراء رضي الله عنها) لا يرثن بل يرث الأعمام (يعنون العباس) : أنى يكون وليس ذلك بكائناً لبني البنات وارثة الأعمام .

وقد كان رأى مالك بن انس حر يا ، بأن يعطف عليه قلوب الخلفاء الأمويين والعباسين وهذا مكان .

غير أن الإمام مالك بن أنس لم ينافق الخلفاء ، وإذا كان لم يجهر بالاحتجاج على مظالمهم ، فقد اختار أن يوجه إليهم الموعظة الحسنة كلما اقتضى – كلما لقيهم في موسم الحج أو في زيارة الحرم النبوي . وأنكر عليه أحد تلاميذه أنه يتصل بالأمراء وبالخلفاء لأنهم ظالمون وماينبغى أن يتصل بهم رجل صالح كالإمام مالك بن أنس .. فرد مالك : « حق على كل مسلم أو رجل جعل الله في صدره شيئاً من العلم والفقه أن يدخل على ذي سلطان يأمره بالخير وينهى عن الشر » وربما يستشير السلطان من لاينبغى فخير أن يدخل عليه العلماء الصالحون ..

وعندما ألح عليه تلاميذه في إنكار علاقاته بالخلفاء وال أمراء قال : « لو لا أنى آتتكم مارات للنبي صلى الله عليه وسلم في هذه المدينة سنة معمول بها ». .

وفي الحق انه كان يعظهم أحسن موعظة ، الموعظة الحسنة لأولى الامر خير من التوره عليهم واشتعال الفتنة التي لا تصيب الذين ظلموا خاصة فقد تلتهم الظالمين والفسحياء والأبراء جميعا .

كان مالك .. يسر النصيحة إلى ولی الأمر بحيث لا يخرجه أمام الرعية ويصوغها بحيث تقع موقعا حسنا .

رأى أحدهم يذهب إلى الحج في موكب فخم وسرف الترف باد عليه فقال له : كان عمر بن الخطاب على فضله ينفع النار تحت القدر حتى يخرج الدخان من لحيته وقد رضى الناس بذلك بدون هذا .

وقال لآخر : « افتقد أمور الرعية ، فإنك مسئول عنهم ، فإن عمر بن الخطاب قال والذي نفسي بيده لو هلك جل بشاطئ الفرات ضياعا لظننت أن الله يسألني عنه يوم القيامه ». .

وكتب خليفة آخر : « احضر يوما لا ينجيك فيه إلا عملك وليكن لك أسوة بن قد مضى من سلفك « وعليك بتقوى الله ». .

وكان أحد الولاة يزور الإمام مالك بن أنس في بيته ، ويسأله النصيحة .. فأنهى على الوالي بعض الحاضرين ، فغضب مالك ، وكان بعيد الغضب ، وصاح في الوالي - وقلما كان يصيح - : «إياك أن يغرك هؤلاء بثنائهم عليك ، فإن من أثني عليك وقال فيك من الخبر ماليس فيك ، أوشك أن يقول فيك ، من الشر ماليس فيك .. إنك أنت أعرف بنفسك منهم .. ولقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «احثوا التراب في وجوه المداحين» .

وكان عليه الصلاة والسلام يعظ صحابته ان كثرة المدح تضيع المدح .

وعندما بلغ مالك من الكبر عتياً كانت شهرته طبقة الآفاق حقاً ، وكان يلزم بيته في السنوات الأخيرة لا يخرج إلا نادر وأضطر إلى أن يتخذ له حاجباً ينظم دخول الناس كما يصنع الخلقاء ، وقد اتخذ له بيته آخر واسعاً غير دار بن مسعود فيه عدد من الجواري الحسان والخدن .

وكان يمرجه أن يرفض استقبال أحد ، وله أصدقاء كثير . واستخلص العبرة من كل حياته الماضية وأقضى بنصيحة إلى أحد تلاميذه ليبيتها في الناس من بعده :

«إياكم ورق الأحرار» .

سأله تلميذه : «ومارق الأحرار؟» قال الإمام مالك «كثرة الإخوان .. فإن كنت قاضياً ظلمت أو اتهمت بالظلم ، وإن كنت عالماً ضاع وقتلك» .

وكان مالك يشكو كثرة الأصدقاء ، إذ لا سيله له معهم ، فلا هو يستطيع أن يردهم عنه ، ولا هم يتركونه يعمل أو يعتكف في داره للعلم كما يبغى له ..

ومهما يكن من أمر فقد أغنى مالك الفقه الإسلامي برأيه في المصلحة وجعلها مناط الأحكام وأساسه فيما لم يرد فيه نص ملزم بالإباحة أو المنع ، وفي أخذه بالذرائع فـا يؤدى إلى الحلال حلال ، وما يؤدى إلى الحرام حرام .. فأنت حر في ملكك ولكنك في حر يتك يجب لا تضر غيرك فإذا حفرت بشرًا خلف بابك يؤدى إلى سقوط الداخل إليك وهلاكه فهذا حرام .. لأن حفر البئر ذريعة لإهلاك الغير فهو ممتنع . والبيع باقساط ترفع الثمن الأصلي الذي تدفعه معجلًا ذريعة إلى الربا فهو حرام ويجب على ولی الأمر منعه .. فالاقساط يجب أن تكون ذريعة للتيسير على المشترى لا ذريعة لتها على اقتراف الربا ، وحمله على دفع ثمن أكبر .

وبهذا النظر حرم الاحتكار لأنّه يحقق مصلحة لفرد أو لأفراد قلائل وبجلب الضرر على الآخرين .. فما يكتدر يفالى في السعر كيفما شاء ، وعامة الناس مضطرون إلى قبول ما يفرضه وفي هذا ضرر بهم كبير والمحظى ملعون ، بنص الحديث الشريف .

ومن أخذ الإمام مالك في فتاواه وآرائه بالقرآن والسنّة والإجماع وعمل أهل المدينة ورعايـة المصالح  
أفـتـى بأمور كثـيرـة خـالـفـهـ فيها بـعـضـ الـعـلـمـاءـ وـالـفـقـهـاءـ وـالـجـهـدـينـ .

فقد أفتـىـ مـالـكـ بـعـقـ الزـوـجـةـ فـىـ الطـلاقـ إـذـاـ لمـ يـنـفـقـ عـلـيـهاـ زـوـجـهاـ ،ـ اوـ إـذـاـ ظـهـرـ هـاـ عـيـبـ فـيـهـ لـمـ  
تـكـنـ تـعـرـفـهـ وـقـتـ العـقـدـ ..ـ عـيـبـ أـىـ عـيـبـ جـسـديـاـ كـانـ أـمـ حـقـيقـيـاـ ..

وأـفـتـىـ أـنـ دـيـونـ اللـهـ ..ـ كـالـزـكـاـةـ وـنـخـوـهـاـ وـماـ يـكـنـ أـنـ نـسـمـيـهـ بـالـضـرـائـبـ فـىـ أـيـامـاـ هـذـهـ لـاـ تـؤـخـذـ  
مـنـ التـرـكـةـ إـلاـ إـذـاـ اـعـتـرـفـ الـمـوـرـثـ بـهـ قـبـلـ وـفـاتـهـ ..ـ وـحـتـىـ إـذـاـ ثـبـتـ هـذـهـ الـدـيـونـ بـأـىـ طـرـيـقـ آـخـرـ  
مـنـ طـرـقـ الـإـثـيـاتـ ،ـ فـدـيـونـ الـعـبـادـ مـقـدـمـةـ عـلـيـهـاـ ..ـ لـأـنـ الـعـبـادـ «ـوـالـأـفـرـادـ»ـ يـضـارـوـنـ بـعـدـ دـفـعـ  
دـيـوـنـهـمـ أـكـثـرـ مـنـ الدـوـلـةـ ..ـ أـمـاـ عنـ دـيـوـنـ اللـهـ ..ـ كـالـزـكـاـةـ فـالـلـهـ غـفـورـ رـحـيمـ .

وأـفـتـىـ بـأـنـ الـحـمـلـ قـدـ يـسـتـمـرـ فـىـ بـطـنـ أـمـهـ ثـلـاثـ سـنـوـاتـ ..ـ وـلـقـدـ سـخـرـ مـنـهـ بـعـضـ خـصـومـهـ  
وـزـعـمـواـ أـنـهـ يـشـجـعـ عـلـىـ الـفـسـادـ نـسـاءـ غـيرـ صـالـحـاتـ مـنـ الـمـطـلـقـاتـ أـوـ مـنـ يـغـيـبـ أـوـ يـمـوتـ عـنـهـ  
الـأـزـوـاجـ .

وأـفـتـىـ بـأـنـ مـنـ يـبـنـىـ جـدـارـاـ فـىـ مـلـكـهـ يـمـنـعـ الشـمـسـ وـاهـوـاءـ عـنـ جـارـهـ ،ـ مـعـتـدـ آـثـمـ يـجـبـ هـدـمـ  
جـارـهـ ،ـ وـإـنـ زـعـمـ أـنـهـ يـقـصـدـ حـيـاةـ أـهـلـ بـيـتـهـ مـنـ أـعـيـنـ الـجـيـرانـ .

وأـفـتـىـ بـعـدـ جـوـازـ صـيـامـ سـتـهـ مـنـ شـوـالـ (ـوـهـىـ مـاـ نـسـمـيـهـ بـسـتـهـ الـأـيـامـ الـبـيـضـ)ـ .ـ وـرـفـضـ الـاعـتـرـافـ  
بـالـحـدـيـثـ الـخـاصـ بـهـذـاـ الصـيـامـ وـأـنـكـرـهـ ..

وصـيـامـ سـتـهـ أـيـامـ مـنـ شـوـالـ ،ـ يـؤـدـىـ إـلـىـ زـيـادـةـ رـمـضـانـ .

وـهـذـاـ الـامـتنـاعـ عـنـ صـيـامـ سـتـهـ مـنـ شـوـالـ هـوـمـاـ يـعـمـلـ بـهـ أـهـلـ الـمـدـيـنـهـ ..ـ سـنـةـ عـنـ الرـسـولـ  
اخـذـوـهـاـ آـلـافـ أـلـافـ أـلـافـ أـلـافـ بـالـاتـبـاعـ مـنـ حـدـيـثـ نـقـلـهـ آـحـادـ عـنـ آـحـادـ

وـأـفـتـىـ مـالـكـ بـوـجـوبـ وـضـعـ ضـوـابـطـ لـحـقـ الرـجـلـ فـىـ الطـلاقـ وـفـىـ الزـوـاجـ بـأـكـثـرـ مـنـ وـاحـدةـ  
بـحـيـثـ لـاـ تـضـارـ الزـوـجـةـ اوـ الـأـوـلـادـ ،ـ وـبـحـيـثـ تـكـوـنـ مـصـلـحـةـ الـأـسـرـةـ هـىـ الـعـلـةـ وـالـأـسـاسـ وـالـأـجـدرـ  
بـالـرـعـاـيـةـ .

وـأـفـتـىـ مـالـكـ بـأـنـ الـأـعـرـافـ وـالـعـادـاتـ يـجـبـ اـحـتـرـامـهـاـ فـىـ اـسـتـبـاطـ الـأـحـكـامـ مـاـلـمـ تـعـارـضـ مـعـ  
نـصـ صـرـيـعـ قـطـعـيـ الدـلـالـةـ .

وـأـفـتـىـ بـأـنـ الـمـحـظـورـ يـجـوزـ أـنـ يـقـرـفـ لـأـنـ فـيـهـ دـفـعـ لـمـضـرـةـ أـكـبـرـ ..

إنه لبى الشريعة مبنية على جلب المنافع والبعد عنها يكون طريق إلى المفاسد .. فكل وسيلة من وسائل العمل يجب أن ينظر إلى نتائجها فإن كانت النتيجة مصلحة فالعمل مباح وإن كانت فساداً وجب منع هذا العمل.

ولقد ذاع فقهه مالك في كل الأمصار والأقطار، وكان في هذا الفقه ما يحمل له عناصر التجديد كالأخذ بمراعاة تحقيق المصلحة إن لم يوجد نص يبيح أو يمنع ، وهو نظر أخذته من فقه الإمام جعفر الصادق بإعماله العقل في استنباط الحكم حيث لا يكون نص ، وحكم العقل يقضى بالبحث عما يجلب المنفعة ويبعد الضرر . تحقيقاً مقاصد الشريعة .

وقد نما فقهه مالك واتبعه وأغناء كثير من المفكرين والمجتهدين والفقهاء من بعده منهم فيلسوف الأندلس ابن رشد ..

غير أن بعض معاصرى مالكعارضه معارضة عنيفة وخالقه ونقده بعض أصحابه منهم الليث بن سعد فقيه مصر ، وتلميذه الشافعى ..

ولقد أرسل إليه صاحبه الليث بن سعد رسالة طويلة ذكره فيها بأن عمل المدينة لم يعد سنة بعد ولا يمكن اتباعه بعد عصر الرسول والخلفاء الراشدين فالصحابه خرجوا من المدينة بعد مقتل عمر ، وتفرقوا في الأمصار ، وبثوا فيها فقههم ..

لقد كان أولى أهل المدينة في زمن الرسول عليه السلام هم خير الأوائل أما أواخرهم في زمن مالك ، فلم يعودوا كذلك بعد .. ولم ينس الإمام الليث بن سعد فقيه مصر أن يسأل صاحبه الإمام مالك بن أنس إن كان في حاجة إلى مال !

ومهما يكن من أمر الخلاف بين مالك وتلاميذه ، فقد عاش مذهب الإمام مالك وتجدد حتى لقد أخذت قوانين الأحوال الشخصية في مصر منذ مطلع هذا القرن الميلادي حتى القوانين الأخيرة ١٩٧٩ ميلادية من هذا المذهب .

على أن الذين خالفوا الإمام مالك بن أنس من صحبه وتلاميذه كانوا يحملون له كل الإجلال والتقدير والاحترام ..

قال عنه تلميذه الشافعى : إذ ذكر الحديث فالملك هو النجم الثاقب .

أما صاحبه الليث بن سعد الذي صاحبه عمرا طويلا ، وراسله ، ووصله بماله وأهدايا ، واختلف معه آخر الأمر ، فقد قال عنه أثناء الخلاف وعلى الرغم من الخلاف «مالك وعاء العلم ..»



الليث بن سعد  
فقيه أهل مصر والنوبة



في ليلة النصف من شعبان المكرم من العام الثالث والتسعين للهجرة (٩٣ هـ). ولد الليث بن سعد في قرية قلقشندة، من أعمال مركز طوخ، بمحافظة القليوبية على مقربة من عاصمة مصر.

المصريون يعتبرون ليلة النصف من شعبان ليلة مباركة، وإذا فقد تفاصيل أهل الوليد يقدمه في تلك الليلة، وتفاصل أهل القرية جميعاً بهذا القدر الجديد ابن عميد الأسرة الغنية الذي كان يفيض بكرمه على كل من حوله.

ويشاء الله أن يتوفى الليث في ذات الليلة المكرمة.. ليلة النصف من شعبان سنة مائة وخمس وسبعين للهجرة (١٧٥ هـ) بعد أن ملأ الدنيا من حوله، بالخير، والعلم، والمعرفة، وأداب السلوك، وأسباب الحبة، على مدى اثنين وثمانين عاماً.

وما بين سنة ٩٣ هـ وسنة ١٧٥ هـ، عرفت مصر دولات وحكاماً، وابتليت، بالطغاة من خلفاء ولادة، وأنعم الله عليها فيها أنعم بخلافة عمر بن عبد العزيز، ابن حلوان من ضواحي الفسطاط،

وهو الذي عرف بالعدل، والحكمة، وحسن سياسة الأمور، وتقوى الله، حتى لقد كان يلقب بخامس الخلفاء الراشدين بعد أبي بكر وعمر وعثمان وعلى رضى الله عنهم.

ولقد شهد الليث منذ طفولته مظاهر الجور، وبطش الولادة، حتى لقد استقر في نفس الصبي كره للحكم والحكام.. ثم شهد وهو دون العاشرة عدل الخليفة الرشيد عمر بن عبد العزيز، وصور الرخاء التي عمت مصر، حتى لم يعد فيها من يستحق أن تصرف عليه الزكاة،

فنهضت الحكومة بتكاليف زواج الشباب ، من مهور ومتازب واحتفالات ، لا تفرق في ذلك بين المسلمين وغير المسلمين من أهل الكتاب .

وكانت قلقشندة ككل قرى دلتا النيل ، بلدا طيب الماء ، خصب الأرض ، غنيا بالثمار والخيرات ... تشتهر بجودة الفاكهة .

تفتحت عين الصبي منذ وعي الحياة على خصبة الأرض ، وانسياب النهر ، وروعة الحقول والبساتين ، والحدائق ، وامتلأت رئته الصغيرة بعقب الأزهار ، فنشأ يحب الجمال .

ولعله من أجل ذلك عندما شب وتعلم القرآن الكريم وحفظ الحديث ، روى أول ماروى من أحاديث : « إن الله جليل يحب الجمال » أكسبته مراهق الجمال في قريته صفاء العقل والذوق والنفس ، وحبا للحياة والناس .

فما مد بصره قط وهو صغير إلا رأى انساح الأرض أمامه بألوان الزرع والزهر ، حيث يستلقى الأفق على خصبة الحقول أو غابات الشجر والتلال ، وما ألقى السمع قط إلا ليسمع همس الطبيعة وأصوات الماء والشجر ، وشدو الطيور عليها . كان يصحو ليستقبل النهار مع شعاع كل يوم جديد .. وما استشق إلا العبر لم يعرف ألم الحاجة طيلة حياته ، ولم يمسسه قرح من مطالب الدنيا ، وعاش ما عاش ممتعا بكل ما أحله الله من متاع في هذه الأرض .

كان أبوه واسع الغنى ، يملك في قلقشندة وما حولها ضيعة واسعة خصبة ، تنتفع بغير الثمرات من زرع وفاكهه .. لديه المال والبنون ، زينة الحياة الدنيا .

وكان الأب يدرك أن العلم هو خير ما يزين الرجل العاقل .. وقد نال الأب قسطا من التعليم ، ولكنه قرر أن يجعل ابنه زينة الحياة الدنيا بحق ، فوفر له كل ما يتاح من علوم ذلك الزمان .. !

وعائلة الليث مصرية تنحدر من المصريين القدماء .. وقد دخلت في الإسلام وتلمنت اللغة العربية منذ الفتح الإسلامي .

وأخذ الأجداد أبناءهم وأحفادهم بالتفقه في الإسلام ، وبإتقان لغة الدين الجديد الذي دخلوا فيه .. حتى لقد اشتهرت عائلات كثيرة منها عائلة الليث بمحفظ القرآن والحديث والشعر والأخبار وفصاحة اللسان .

وكان العرب يطلقون على الذين أسلموا من أبناء البلاد المفتوحة اسم « الموالي » أما الذين لم يسلموا من أهل الكتاب فهم النميين أو أهل النمة ..

وعلى الرغم من أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد ترك صوتاً عظيماً يعظ ويعلم حسن السيرة بين الناس منذ قال لهم: «الناس سواسية كأسنان المشط ولا فرق بين عربي ولا أعمى إلا بالتقوى».

وعلى الرغم من وضوح هذه التعاليم ، فقد كانت العصبية القبلية تملأ أحياناً على بعض الولاة إيثار المسلمين العرب الفاتحين على المسلمين من أهل البلاد المفتوحة .. أي الموالى .

وهو إيثار لا يرد في توزيع الأموال أو رعاية الحقوق .. ولكن يفلت عفو الخاطر في التقدير الأدبي .

وما كان يمكن أن يرد هذا التمييز في توزيع الثروات ، لأن عمر بن الخطاب أخذ بشورة على بن أبي طالب فوزع الأرض في البلاد المفتوحة على من يزورونها ، وأخذ منهم نصيب الدولة .. وهكذا كان من بين الموالى أغنياء ، ومنهم أسرة الليث ..

وما كان يمكن أن يرد هذا التمييز في الحقوق والواجبات ، لأن مثل هذا التمييز يخالف مبادئ الإسلام كما أورتها نصوص القرآن والستة . ولكنها مشاعر تفلت على نحو ما في تقلب القلوب .

من أجل حرص بعض الموالى على أن يتتفوقوا .. ولقد تفوقوا حقاً .

ولكم ضياق خلفاء بنى أمية بتفوق الموالى على العرب حتى في اللغة والفقه !

وكان على وبنوه يحسنون تقدير الموالى . وكان من أبرز هؤلاء الموالى الليث بن سعد الذي حفظ القرآن في قريته ، وهو صبي ، وحفظ كل ما وصل إليه من أحاديث نبوية وكل ما عرفه العصر من تراث الشعر العربي وعلوم اللغة العربية وأنوار الأخلفاء .

حتى إذا كان في مطلع الشباب وقد استوعب كل ما يمكن أن يصل إلى قريته من معرفة ، وجهه أبوه إلى الفسطاط ليعلم علمها ويتقن نفسه بمعارفها ..

زوده أبوه بكل ما ينبغي أن يتزود به طالب علم يجب أن يتفرغ نهاره وليله للعلم ، ولا يشغله عنه شاغل من هموم الحياة والعيش !

وها هو ذا فتى فارع القامة مليح الوجه وتضيء الابتسامة في سمرة محباه ، مطمئن النفس ، ناعم البال ، في ثياب جميلة . يفوح منه العطر والطيب ، تغشى سكينته توترات الشوق إلى المعرفة ، نشيط الخطىء ، مرح ، حسن الصوت ، مشتعل الأعمق ، متقد الذهن ، يختليج على الرغم من الدعة بالرغبة الجائحة إلى اقتحام المجهول ، واستيعاب كل ما تخفيه الحياة والكلمات من الأسرار... ها هو ذا بكل

فتوره التي تشب به من الصبا إلى الشباب ، فتى من القرية يغوص ليل المدينة الكبيرة المصلى بالثقافة ، والمعروفة .

واتجه إلى جامع عمرو وهو أول مسجد جامع أنشأ المسلمين في أفريقية ، وجامع عمرو منارة للعلم ، مازال يشع منها ما درسه فيه أبوذر الغفارى وعبد الله بن عمرو ، وسائر الصحابة الذين جاءوا إلى مصر منذ الفتح الإسلامي ، وعلموا الناس أمور الدين وفقههم بالقرآن والسنة . وما زال يتعدد في جنبات هذا الجامع الكبير أسلوب مصرى لتلاوة القرآن مختلف عن أساليب التلاوة فى العواصم الإسلامية الأخرى .

وفى جامع عمرو حلقات كثيرة لدراسة القرآن وتفسيره ، ودراسة الأحاديث والسنة والفقه ، ترك فيها كل صحابي أثرا ..

وفى الجامع إلى جوار ذلك حلقات لدراسة علوم اللغة العربية .. وعلوم اللغة هي أدوات فهم القرآن والحديث ، وفي الفسطاط حلقات أخرى لدراسة كل ما كان فى مصر من معارف الأقدمين : من مصرىن ويونان ورومأن وفرسان وهنود ، وكل معطيات الحضارات التى تزخر بها مصر ..

ويهذا تميز عاصمة مصر عن سائر مدن الأرض .

وأتيح للشاب المتطلع إلى المعرفة أن ينهل من الثقافات المختلفة كما لم يتع لفقيه آخر من معاصريه خارج مصر.

كانت اللغة القبطية لا تزال حية ، وإذا كانت تطورا للغة المصرية القديمة (الميروغلو فيه ) ، فقد نقلت كل الإعجاز المصرى القديم فى علوم الفلك والطب والرياضيات والطبيعتيات وأهندسة ونقلت تراث اليونان والرومأن وغيرهم .. ولقد نقل بعض هذا التراث إلى اللغة العربية فأتيح لطلاب العلم أن يعرفوا ، وما ظل من تلك المعرف ففى اللغة القبطية كانت معرفته ميسرة للمثقفين المصريين من مسلمين وأقباط الذين أصبحت اللغة العربية لسانهم بحق ، ولكنهم ظلوا على معرفة باللغة المصرية التى كانت لغتهم قبل الفتح الإسلامي .

كانت اللغة العربية لم تنشر فى مصر بعد ، فاللغة القبطية هى السائدة ، وكان الليث يتقن اللغتين . العربية لغة الإسلام ، والقبطية لغة آباء الأولين ، وكان إلى هذا يتقن اليونانية واللاتينية ، وهما من لغات الميراث الحضارى .

وقد أتاح التعرف إلى ميراث علوم الأسلام ، واستيعاب معطيات الحضارة المطروحة على العقل المصري .. أتاح هذا كله للشاب غنى فريدا في الثقافة . !

حتى إذا أحس أنه قوى مكين ، عكف على كل الحلقات في جامع عمرو يتلقى التفسير والحديث والفقه .

وكان الصحابة الذين جاءوا إلى مصر أحد رجلين : رجل يتمسك بالقرآن والسنة ، ويفتي الناس في أمور دنياهم بما يجد في القرآن والسنة ، فإن لم يجد أثرا لا يفتني على الإطلاق .. ورجل آخر كان يجتهد رأيه وهو يواجه أمورا جديدة في بيته جديدة وحالات لم يرد لها حكم في القرآن أو السنة

وتلقى أتباع هؤلاء الصحابة عنهم .. وأخذوا هذا العلم بقوه .. فاشتد بعضهم في التمسك بالنصوص ورفض الاجتihad بالرأي . ! وغالب الآخرون في الاعتماد على الرأي ، وافتراضوا قضايا لم تحدث واستبطوا لها أحكاما ، حتى لقد وقعوا في شواد الفتيا . !

والطالب الشاب يعكف على حلقات هؤلاء وهؤلاء ليتقن علوم القرآن والحديث ، ويعنى بأسرار اللغة عنابة خاصة فائقة ، لأنه يدرك أنها هي الأداة لحسن نصوص القرآن والأحاديث

وفي الحق أنه في مجده الظامئ عن الحقيقة وأسرار المعرفة ، كان قد ضاق بخلافات شيوخ الحلقات . ورأى غلوا في كلا الحزبين .. فالمتمسكون بالنصوص لا يغرسون عنها .. متشددون تشددوا قد يستحيل معه مواجهة الحالات المستحدثة التي لم يرد في حكمها نص قطعي .. ! وأصحاب الرأي يتساهلون تساهلا قد يدعوه إلى الخطأ في الحكم ، أو إحداث الاضطراب في الشريعة !

ورأى الطالب الشاب أن يستقل بالنظر فالمتشددون في التمسك بالنصوص يعتمدون على الآية الكريمة : «ولوردوه إلى الله والرسول وإلى أولى الأمرائهم لعلمه الذين يستبطونه منهم . . .» ، هذا حق .

وأصحاب الرأي يقولون إن الرسول صلى الله عليه وسلم قد اجتهد رأيه فيما لم ينزل فيه قرآن .. وصحابته قد اجتهدوا في حياته وأفقرهم على اجتهدتهم .. وهذا كله حق أيضا .. ! فما الغلو إذن في الاقتصار على النص أو الاعتماد على الرأي .. ! ..

على أن الليث ادرك أن النصوص ليست ظاهرا فحسب .. ليست كلمات .. بل هي روح .. لها دلالات وفحوى وعمل . وإن فالذى يتلقى اللغة العربية ، ويتقن معرفة أسرار بلاغتها

حرى بأن يفهم النصوص ظاهرها وروحها .. ثم إن الأحاديث النبوية تفسر كثيرة من نصوص القرآن .. وفي السنة تفصيل لما أجمله القرآن .. وبيان لما خفى منه عن المدارك ..

وفهم الأحاديث النبوية يقتضي أيضاً حسن فهم أسرار اللغة العربية وروحها .. وليس كل عربى ب قادر على إدراك معانى الأحاديث ، أو فهم ما أنزله الله بلسان عربى مبين . فهذا الأمر يستلزم إتقاناً خاصاً وتدوقاً خاصاً للغة .

من أجل ذلك عكف الليث – بعد أن حفظ القرآن والأحاديث – على حفظ الشعر العربى الذى قيل قبل نزول الوحي بالقرآن وخلال نزوله ، ليدرك أسرار اللغة جيداً .. ولقد كان يروقه أحياناً بعض أبيات من الغزل فيتغنى بها .. ولقد سمعه أحد شيوخه فقال له :

«هذا مباح ولكن لا تفعله فسيكون لك فى الفقه شأن» ولكننى عاش يتغنى بما يروق له من شعر . وكان جليل الصوت .. على أنه قرر وهو يحضر حلقات فى جامع عمرو وأن يتخذ له مذهباً وسطاً بين أهل النصوص وأهل الرأى .

ومر عام وهو عاكف على درسه ، يحفظ ويتأمل وينظر في روح كل نص حفظه .. وقد ترك لحنته لتكبر ، عسى أن يدارى بكبر اللحنة صغر السن .. !

وأخذ يذيع مذهبته بين زملائه الطلاب في مواجهة أساتذته من أصحاب الحديث وأصحاب الرأى .

وكان عجباً أن يهتم شاب في نحو السادسة عشرة من عمره إلى نظر مستقل بين أهل الحديث وأهل الرأى .. ! ولقد ناقش في ذلك أحد شيوخ الحلقات من أهل الحديث فنهره !

وناظر غيره فنهره جيداً ، وألزموه التسليك بالحديث والعدول عن الرأى فقال : «تعلموا الحلم قبل العلم ! وظل طوال حياته كلما جادل أهل الحديث يكرر عليهم هذا القول ..

وأعجب به زملاؤه الطلاب ، وببدأوا يلتفون حوله ، وشجعته حاستهم له ، وكلما زادوه تشجيعاً ، زاد عكرفاً على العلم والنظر فيه ..

وكان زملاؤه يلقون عليه المسائل ، فيظل يعن النظر حتى يجد جواباً . وكانت إجاباته تبهرهم .. وما كا يعدل للإجابة بل يترى ثناها .

وفي الحق أنه تألف قلوبهم بحسن أدبه ، وظرفه ، ودماثة خلقه ، وسعة علمه .. وبكرمه !

فإذا لاحظ فقر أحد زملائه وصله بالمال سرا ، ولقد يلاحظ بقع الخبر على ثوب زميل آخر فيهديه ثوباً جديداً .

وإن وجد فيه من يبعد مسكنه عن جامع عمرو وبجهده السير إلى حلقات الدرس أهداه دابة .. ولكن لا يخرج المحتاج من زملائه كان يزعم لهم أنه يقدم للواحد منهم قرضاً حسناً يرده عندما يكبر ويتكسب !

وأغراه زملاؤه بأن يتتخذ لنفسه حلقة ولكنه حيب أن مجلس مجلس الأستاذ . ولقد علم أحد أشياخه أن الناس يستفتونه ، فيفتني ، ويرضون عن فتياه .. فناداه الشيخ وشجعه على الإفتاء .

ولكن الليث استحسن لأنه صغير السن ، ثم لأنه من الموالي ، وهذا الأمر يحب أن يكون للعرب !

وإذ ذاك قال له الشيخ أما سمعت لها كأن بين الخليفة هشام بن عبد الملك وبين الفقيه شهاب الزهرى ؟ فقال الليث «لا»

فقال الشيخ إن الخليفة سأله الزهرى وهو أفقه أهل هذا العصر ، عن العلماء الذين يسودون أهل الحجاز وأهل البين وأهل الشام وأهل مصر وأهل خراسان

فذكر له الزهرى أسماءهم . وال الخليفة يسأل عن كل واحد من العرب هوأم من الموالي . فيقول الزهرى من الموالي فقال الخليفة مفضلاً : « والله لتسودن الموالى على العرب حتى يخطب لها على المنابر والعرب تحتها . »

فقال شهاب الزهرى : إنما هو أمر الله ودينه فمن حفظه ساد ومن ضيئه سقط ! هذا هو رأى الزهرى وليس له في العلماء نظير

ولكن الليث لم يجلس للإفتاء ، وصمم على لا يجلس حتى يبلغ من السن مبلغاً يؤهله لذلك ، وحتى يصل من العلم ، واستقلال النظر إلى ما يقنع به فقهاء العرب والموالى على السواء .. إنه لم يتعلم من أفقه العصر خارج مصر بعد .. ولكنكم يتعيّن الشوق إلى معرفة ما عندهم .. ولقد أغراه ما سمعه من أستاذته عن الزهرى بالسفر إليه ليتعلم منه ولكنه فوجيء بهوت أبيه . عليه الآن أن ينهض بأمور الأسرة بعد أبيه . وأن يدير أمور ثروته الواسعة ..

وعاد إلى قريته فإذا بالموالي قد أمر بهدم بيت الأسرة ! فأعاد الليث بناء البيت ، فهدم الموالي الدارمرة أخرى . وبناتها الليث فهدمها الموالي مرة ثالثة ..

وبات الشاب مهموماً.. أنه ليحمل على منكبيه أعباء الأسرة، وإدارة الضياعة التي ورثها .  
وهيوم العلم والمذهب الجديد الذى ي يريد أن يصوغه حكماً وسطاً بين أهل الرأى وأهل  
الحاديـث .. كل هذا ، واضطهاد الوالى أيضاً .. ولكن لماذا يضطهده الوالى العربى إلى  
هذا الحد؟! لأنـه خرج عن طاعة بعض الشيوخ من أهل السنة من ينحازـهم الوالى؟ .. أم  
لأنـ الوالى كان عدواً لأبيه ، ولم يستطعـ أن ينالـ من الأب فى حياته؟

أم لأنـ الليـث أحدـ المـوالـى الذين يوشـكونـ أنـ يـظهـروا ويـغـلـبـوا بـعلـمـهم فـقهـاءـ العـربـ؟!  
أم لأنـ الليـث تمـيلـ إلىـ عـلـىـ بنـ أـبـىـ طـالـبـ .. والـوالـى يـصـانـعـ الـخـلـيفـةـ عـدـوـ عـلـىـ؟! ولـكنـ  
مـصـرـ كـلـهاـ تـمـيلـ إلىـ عـلـىـ بنـ أـبـىـ طـالـبـ كـرـمـ اللهـ وـجـهـ ..

إنـ هـذـاـ السـلـوكـ مـهـماـ يـكـنـ سـبـبـهـ يـجـافـىـ رـوـحـ الـإـسـلـامـ .. إنـ هـذـاـ الوـالـىـ لـيـسـ مـنـ اللهـ فـىـ  
شـئـ .. فـىـ الـحـيـلـةـ مـعـهـ؟! ..

ثلاثـ لـيـالـ متـتـالـيـاتـ .. كـلـمـاـ أـصـلـحـ الـلـيـثـ بـنـاءـ دـارـهـ أـرـسـلـ الـخـلـيفـةـ فـىـ الـلـيـلـ مـنـ يـهـدمـهـ؟! إنـ الوـالـىـ  
ليـسـ تـضـعـفـ الـلـيـثـ حـتـاـ! وـثـقـلتـ عـلـيـهـ الـمـهـمـ ، فـجـاءـهـ فـىـ الـنـاسـ مـنـ يـقـولـ لـهـ: «قـمـ يـالـيـثـ فـاقـرـأـ قـوـلـهـ  
تعـالـىـ: (وـنـرـيدـ أـنـ فـنـ عـلـىـ الـدـيـنـ اـسـتـضـعـفـوـاـ فـىـ الـأـرـضـ وـنـجـعـلـهـ أـثـمـ وـنـجـعـلـهـ الـوـارـثـينـ)ـ .

فـأـصـبـحـ الـلـيـثـ وـقـدـ أـصـبـ الـوـالـىـ بـالـفـلـجـ ، فـأـوـصـىـ كـلـ مـنـ حـولـهـ بـالـأـيـظـلـمـوـاـ الـلـيـثـ ، وـأـنـ  
يـخـسـنـوـاـ صـحـبـتـهـ .. وـمـاتـ الـوـالـىـ بـعـدـ أـيـامـ قـلـائلـ ..

وـتـسـامـعـ النـاسـ الـقـصـةـ ، وـأـمـتـلـأـتـ بـهـ أـرـوـقـةـ جـامـعـ عـمـرـوـ ، وـأـنـتـشـرـتـ فـيـ الـأـسـوـاقـ ، وـقـالـ بـعـضـ  
زـمـلـائـهـ الطـلـابـ وـبـعـضـ شـيـوخـهـ الـذـيـنـ غـاضـبـوـهـ مـنـ قـبـلـ: «لـقـدـ دـافـعـ اللـهـ عـنـ الـلـيـثـ .. إـنـ اللـهـ يـدـافـعـ عـنـ  
الـذـيـنـ آـمـنـواـ ..»

وـفـىـ الـحـقـ أـنـهـ كـانـ دـمـثـ الـخـلـقـ ، حـسـنـ السـيـرـةـ بـيـنـ النـاسـ ، وـكـانـ طـيـبـ الـمـعـشـ ، كـرـيـماـ سـخـياـ ..  
وـكـانـ سـرـيـاـ! ..

ولـقـدـ رـآـهـ أـحـدـ شـيـوخـهـ يـتـصـاحـكـ مـعـ زـمـلـائـهـ الطـلـابـ فـىـ خـفـةـ ، وـيـطـلـقـ قـهـقـهـةـ عـالـيـةـ فـىـ رـحـابـ  
الـمـسـجـدـ بـعـدـ الـدـرـسـ ، وـيـضـرـبـ الـأـرـضـ بـقـدـمـهـ .. وـكـانـ هـذـاـ شـيـوخـ مـتـزـمـتاـ ، قدـ غـاصـبـ الـلـيـثـ مـنـ قـبـلـ ،  
لـأـنـهـ يـحاـوـلـ اـبـتـدـاعـ مـذـهـبـ مـوـقـنـ بـيـنـ الرـأـىـ وـالـسـنـةـ ، فـتـقـدـمـ الشـيـوخـ إـلـىـ الـلـيـثـ مـتـوـدـداـ ، وـقـالـ لـهـ نـاصـحاـ فـيـ  
رـفـقـ: «يـاـ بـنـىـ لـاـ تـفـعـلـ هـذـاـ إـلـىـكـ إـمامـ مـنـظـرـ إـلـيـكـ ..»

وـبـعـدـ ثـلـاثـةـ أـعـوـامـ خـرـجـ الـلـيـثـ إـلـىـ الـحـجـ وـالـعـمـرـ ، وـكـانـ فـيـ الـعـشـرـيـنـ مـنـ عـمـرـهـ ، وـزـارـ الـمـدـيـنـةـ بـعـدـ

الحج .. وكان الفقهاء من كل الأمسكار والأقطار يجتمعون في الحج ثم في الحرم النبوي فيتداولون الرأي ..

وهناك بحث للبيت عن شهاب الزهرى ليجلس إليه .. والتلقى به ، وتلقى منه ، وناظره ، وطرح البيت عليه ما انتهى إليه من نظر . ووجد البيت فى الزهرى من عمق الفكر وسعة العلم ودقة الفهم مالم يجد فى أحد فقط ، فأكابر إكبارا شديدا حتى يمسك له بالركاب .. وكانت فى البيت ما فى العلماء من عزة نفس ، فلم يصدق أصحاب البيت أنه يمسك لأحد بالركاب .. وسأله صديق مستنكرا أتمسك برركاب الزهرى فقال البيت : «نعم للعلم . فاما لغير ذلك فلا .. والله ما فعلته بأحد فقط ..»

وفى الحجاز التقى بعدد من فقهاء العصر من أهل السنة وأهل الرأى على السواء ، وجلس إليهم فى حلقة ربعة الرأى تعرف بمالك بن أنس ، وهو فى مثل سنـه ، وتبادل الرأى بعد الحلقة

وكان مالك فى ذلك الوقت طالب علم فى نحو العشرين ، يكابد فى سبيل طلب العلم .. وأدرك البيت أن صاحبه يعاني الفقر ، فأخذ يحتال ليصله بالمال ، ولكنه لم يكن يعرف كيف يبدأ

على أنها تلزما فى حلقة ربعة ، وتلزما بعد الحلقة يتدارسان ، ويتبادلان الرأى فيما حصلـاه ، وألف كل منها صاحبه ، ونشأت بينهما مودة ، فأرسل مالك طبقا فيه رطب إلى البيت ، قبيل البيت المدية شاكرا ، ورد الطبق مملوءا بالدنانير.

وعاد البيت إلى مصر ، واتصلت الرسائل بينه وبين مالك ودعاه لزيارة مصر ولكن مالك ابن أنس لم يستطع . وتمود البيت أن يزوره فى المدينة كلما ذهب للحج أو العمرة وزيارة الحرم النبوى .

وقد ظلل البيت يصل مالك بن أنس بمائة دينار كل عام ، وكتب مالك إليه إن عليه دينار ، فأرسل إليه البيت خمسمائة دينار . والدينار فى ذلك الزمان كان يكفى لكسوة رجل أو لشراء دابة ... ولم ينقطع عطاء البيت مالك حتى أصاب مالك عطاء الخلفاء وأصبح ثريا .. ومع ذلك فقد واصل البيت عن سؤال مالك عن حاجته حتى فى الرسائل التى تضمنت خلافاتها الفقهية .

على أن البيت فى رحلاته العلمية لم يستند على جديدا فحسب بل أفاد أيضا ، ولفت إليه الأنظار .

سأله أحد شيوخ الزمان بعد مناظرة طويلة : «كم عمرك؟» فقال البيت : «عشرون» فقال الشيخ ، ولكنك تحمل علم ابن الستين ولحية ابن الأربعين !

وكان الليث كلما سمع عن فقيه في أى بلد، شد إليه الرجال .. حتى عندما تقدمت به السن ، فقد سافر بعد الستين إلى العراق ينشد العلم عند فقيه أصغر منه سنا .. وسمع عن فقيها آخر نزل بالإسكندرية فركب النيل إليه ولكنه وجده قد مات ، فبكى !

حصل الليث إذن علمه من كل فقهاء عصره لم يألف في ذلك جهدا ، ولم يقعد طول السفر ..

وكان ربه استأثر بأحد هؤلاء الفقهاء سمع عن نافع مولى عبد الله بن عمر فاحتال حتى لقيه بالحجاز .. وكانت في نافع حدة ، ولكنه استراح إلى الليث ، ولزمه الليث لا يبرحه طيلة إقامته بالحجاز ، يحفظ عنه الأحاديث وفتاوي الصحابة ، ويعاوره في الفقه .

وقد لقيه في دكان علاف فتحاورا برهة ، حتى مر بها ابن همزة وهو مصرى من أصحاب الليث - صار فيها بعد قاضيا لمصر - فسأل عن نافع : « من هذا ؟ » فهمس الليث : « هو مولى لنا »

حتى إذا عاد إلى مصر ، جعل الليث يحدث عن نافع ، فسأل ابن همزة منكرا « وأين لقيته ؟ »

فقال الليث ضاحكا : « أما رأيت العبد الذي كان في دكان العلاف ؟ هو ذاك »

وغضب معه ابن همزة ، لأنه أخفي عنه نافعا مولى عبد الله بن عمر

ولكن الليث لم يطعن خصامه ، فنقل إليه ما حفظه عن نافع ، وما دار بينها من حوار في كل أمور الفقه .. ثم إن ابن همزة ولـى قضاء مصر براتب قدره ثلاثة دينارات في الشهر وهو أكبر راتب الوالى . واحتقرت دار ابن همزة وكتبه فغوضه عنها الليث بن سعد بألف دينار !

وعندما عاد الليث إلى مصر بعد أول رحلة للحج ، بني دارا كبيرة في الفسطاط لها نحو عشرين بابا .. وجعل فيها حديقة ملأها بالأشجار والزهور والرياحان ، وكانت الريح تحمل عطرها إلى ما حولها .. وملأ داره بما استطاع الوصول إليه من كتب .. وفتحها لأصحاب الحاجات ولإبداقاته .. كان يدعى أصدقائه إلى الطعام ويضع الدنانير في الفالوذج ، فمن أكل منهم أكثر نال دنانير أكثر ..

كان يقوم الليل إلا قليلا ، حتى إذا أقبل الفجر ، خرج على فرسه إلى جامع عمرو يحضر الحلقات ، ويحفظ ويدرس ، ويتعرى أحوال أصدقائه من له حاجة ، ويفتن الناس من غير أن يجلس في الم筵 أو الأستاذ .. فقد كان ولايزال يهيب هذا المقدد ، على الرغم أنه جمع من العلم ما يؤهله له ..

وبعد العصر كان يرتدى أجمل ثيابه ويتغطر ، ويمشي في الحدائق والأسواق ، أو على شط

النيل ..

وسمع مالك بما يصنعه الليث : تمتعه بأطيب الطعام ، وترزنه بأبهى الثياب ، وخروجه للنزهة في الحدائق والأسواق ، فكتب مالك إليه معاذبا : «بلغني أنت تأكل الرفاق وتلبس الرفاق (أى الثياب الرقيقة الفاخرة) وتمشي في الأسواق» .

فكتب إليه الليث : «قال الله تعالى : قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطبيات من الرزق قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيمة كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون»

وعلى الرغم من نقد مالك ، قد ظلل الليث يأكل الرفاق وما يستطيع من طعام ، ويلبس الرفاق وأبهى الثياب ، ويمشي في الأسواق ، ويتنزه في الحدائق على شاطئ النيل ، ويقتني أغلى الدواب من حير مصر وبغامها وأفراس بلاد العرب ، ويهدي منها أصدقاءه ولقد أهدى مالك بن أنس عدداً منها ، وكان يحتفي بسرورها وبرادعها ويوشي اللجام كما تعود أن يهدى كل عام من أجود كتان مصر ما يكفيه طوال العام .

وكان عند الليث ثياب بعدد أيام السنة ، فما يلبس الثوب يومين متتالين .. ولعل مالك بن أنس افتتح برد الليث فشرع هو الآخر يعني بملبسه وماكله .

على أن الليث لم يستمتع وحده بطيبات الحياة .. فقد كان يوزع على أهل العلم وأصحابه ، وجيرانه ، ومن يعرف أنه صاحب حاجة .. كان يوزع المال ويهدي الطعام والثياب والدواب .. وما أكل وحده فقط

وكان يطعم في كل يوم ثلاثة من الفقراء والمساكين ، غير الصحاب وأهل العلم يطعمهم من أطيب ما يطعم هو الرفاق ، واللحوم ، وحلوي (هرية) بعسل التحل وسمن البقر ، واللوز بالسكر ..

وعاش عمره يعطي السائل أكثر مما يسأل .

طلبت منه امرأة رطلا من عسل ل تعالج ابنها ، في وقت شح فيه العسل ، فأمر كاتبه أن يعطيها مرطا من عسل (والمرط نحو مائة وعشرين رطلا) ، فقال كاتبه : «سألتك رطلا أتعطيها مرطا؟» فقال الليث : «سألتنا على قدرها ونحن نعطيها على قدرنا» ..

كانت له ضيعة بالفرما (قرب بور سعيد) يأويه خراجها ، فلا يدخله داره ، بل يجلس أمام أحد أبوابها العشرين وقد جعل المال في صرر يوزعها جميعاً صرة بعد صرة وكان لا يصدق بأقل

من خمسين دينارا .. ذلك أنه كان يحسن استثمار أرضه الواسعة الخصبة حتى لقد كانت تدر عليه نحو عشرين ألف دينار كل عام ..

وعلى الرغم من هذا الثراء الضخم فما وجبت عليه زكاة فقط .. لما حال الحول عليه وعنه دينار واحد .. إذ كان ينفق كل دخله : بحبا حياة متوفة بما أحل الله له ، ويقتني أغلى الكتب وأندراها ، منها يكلفه الحصول عليها

وكان عقله موسوعة من المعارف من علوم الشريعة والأدب واللغة والفلسفة والطبيعتيات والرياضيات .. وحتى الطب !

وكان يعني بصحته أبلغ عنایة حتى ليبدو أصغر من سنه بأعوام .. ذلك أنه كان يكدر ، ويتبع سنة الرسول عليه الصلاة والسلام في الغنایة بالصحة ، فيعطي بدنـه حقـه من الراحة .. وإن لـبدنكـ عليكـ حقـاـ وـيعطيـ قـلـبـهـ حـظـهـ منـ المـرحـ ،ـ فـإـنـ القـلـوبـ لـتـصـدـأـ وـمـنـ الـواـجـبـ التـرـوـيـعـ عـنـ هـاـ ،ـ وـيـنـعـ عـقـلـهـ وـنـفـسـهـ ماـ يـحـتـاجـانـ إـلـيـهـ مـنـ سـكـيـنـةـ وـهـدـوـءـ .ـ وـقـدـ هـدـاهـ عـلـمـهـ بـالـطـبـ إـلـىـ وـجـوبـ الرـضـاـ بـقـضـاءـ اللهـ وـتـجـنبـ الـانـفـعـالـاتـ فـهـىـ التـىـ تـتـلـفـ الصـحـةـ ..

كان يحب أن يعيش سعيدا ، ويحب أن يسعد الذين يعيشون من حوله . من أجل ذلك ينفق على الآخرين ليسعدهم .. ويرى أن صاحب المال مستخلف فيه لينفقه فيما يرضي الله ورسوله وفيما يسعد الناس .

كان شعاره «أحسن كما أحسن الله إليك ولا تنس نصيبك من الدين» ومحسن فهمه هذه الآية الكريمة تتمتع بالحلال من الطيبات ، وأمتع الآخرين .

من أجل ذلك نادى الليث بأنه ليس من حق أحد أن يحتفظ بمال إلا إذا بلغ الناس حد الكفاية والحكام ولادة الأمور مسئلون أمام الله عن أن يوفرو للناس جميعا حد الكفاية لأحد الكفاف ..

وحد الكفاف هو ما يحفظ للناس حياتهم من الطعام والشراب ، أما حد الكفاية فهو ما يكفي كل حاجات الناس من جودة الطعام والشراب ، والمسكن الصالح المريح ، والدواب التي تحملهم ، والعلم الذي ينقذهم من الضلال ، وسداد ديونهم .. وكل ما يوفر الحياة المرحمة الكريمة للإنسان !

وقد استنبط الليث هذه الأحكام من فهم عميق لنصوص القرآن الكريم والسنة ، ومن إعماله الفكر واجتهاده بالرأي ..

أنكره خلفاء بنى أمية ، وضاقوا بأرائه وكانوا ينحازون للعرب ضد الموالي ، على الرغم من أن

ال الخليفة العربي الأموي عمر بن عبد العزيز كان يقوم الناس على أساس علمهم ، حتى لقد نهر الذين ينكرن على الموالي حق الفتيا قائلاً : ما ذنبي إن كانت الموالي تسمو بآنسها صعداً وأنتم لا تسمون » .

واذ دالت دولة بنى أمية وجاءت دولة بنى العباس ، ظهرت أحاديث نبوية كثيرة كان الناس يتداولونها سرا

وهكذا أذاع العباسيون حديثاً للرسول عليه الصلاة والسلام يقول فيه للعرب : « لا يحيش الناس بالأعمال وتحيئونني بالأنساب » إن أكرمكم عند الله أتقاكم .

ونشر فقهاء الموالي على الناس فضائل بلال الحبشي ، وسلمان الفارسي ، وصهيب الرومي . وكلهم له سابقه .. في الإسلام .. حتى أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يقول بلال سيدنا

وأذاعوا ما كان من الإمام على كرم الله وجهه من تكريم للموالي ، وتقديره للناس بقدر علمهم وصلاحهم وتقواهم ، لذلك أحبه الموالي وشايدهم .. ولعله من أجل تسوية الإمام على بين العرب والموالي ، وجعله العلم والتقوى والصلاح أساس المفاضلة ، لعله من أجل ذلك ، كره بنو أمية الموالي – إلا عمر بن عبد العزيز – كراهية منهم لأشياع الإمام على ، وخيماً منهم للعرب ، حتى لقد صرخ أحد خلفائهم !! أكل علماء الأمصار من الموالي ؟ ! تقاد نفسى تخرج ولا أسمع عن فقيه واحد عربي ! وهكذا شعر الموالي عندما جاء العباسيون ، أن زمن التفرقة قد ولى إلى غير رجعة . احتفى بنو العباس بالموالي وبالغوا في الاحتفاء بهم ..

واذن فقد جاء الوقت الذى يستطيع فيه الليث بن سعد أن يجلس فى جامع عمرو ، ليعلم الناس ، ويفتى لهم فى أمور الدين ، والحياة

وكان قد أخذ مكانته بين فقهاء عصره على الرغم من شبابه .. فما كان قد بلغ الثلاثين ، عندما جلس يعلم ويفتى

وكان فقهاء عصره من جميع الأمصار ، قد التقوا به ، معلمين ومناظرين ، فى رحلاته المتكررة إلى الحجاز حاجاً ومعتمراً ، وزائراً للحرم النبوى ، وطالب علم فى الوقت نفسه .. مناظراً يرعى آداب الملاحظة ، ويخلب المستمعين بفصاحة اللسان ، ون الصاعة البيان ، وعمق الإدراك ، وحسن الخطاب ، مع توقد الذهن ، وسرعة البديهة ، وذكاء الاستبطاط .. حتى لقد كان ربعة الرأى أستاذة لا يحسب حساب أحد من الفقهاء أو التلاميذ إلا الليث بن سعد .. ذلك الوجيه المصرى !

ولقد سمع به الخليفة العباسى المنصور، فاستدعاه ليقابلة فى بيت المقدس وكان للمنصور ولع بالعلم والأدب ، وناظره المنصور، فأعجب به .. وعرض أن يوليه مصر ولكن الليث يريد أن يجيا حياته بعيدا عن هموم المسؤلية السياسية ، متفرغا للعلم !

خجل أن يصرح بمدحه للخليفة ، وتعلل بأنه لا يصلح لهذا فائلا : « يا أمير المؤمنين . إنى أضعف من ذلك إنى رجل من الموالى » فقال المنصور : « ما بك من ضعف معى ، ولكن ضعفت نيتك فى العمل عن ذلك لى .. لقد أعجبتني .. أكثر الله فى الرعية من أمثالك . »

وأجزل له المنصور العطاء ، فوزع الليث كل ما أخذه على المحتاجين قبل أن يبرح ..

وعاد إلى مصر في موكب فخم يصحبه ثناء المنصور عليه .

ولقد نصح المنصور لأهل العلم في العراق وسائر الأمصار أن يذهبوا إلى الفسطاط ، فيتلقوا عن هذا الفقيه المصري الشاب الذي لم يلق المنصور أفقه منه بالشريعة ، ولا أحفظ منه للحديث ، ولا أحد منه بصيرة أو ذكى جنانا أو أفصح لساننا ، ولا أعدل أو أمف ، أو أوسع علما بمعارف الأولين وحكمتهم ، ولا قدرة على الاستنباط ، ولا أسلم منه رأيا .. ثم إن المنصور أرسل إلى والى مصر وقاضيها أن يستشيروا الليث بن سعد في كل أمورها .

وكبر على بعض الفقهاء العرب أن يضع المنصور أحد الموالى في هذه المكانة فوق الوالى العربي والقاضي العربي ، فأخذوا يكيدون للبيث بن سعد حسدا من عند أنفسهم وأرسل أحدهم إلى الخليفة المنصور: أمير المؤمنين تلاف مصر! فإن أميرها ليث بن سعد !!

عسى أن يتوجه الخليفة أن الليث بن سعد يستغل رضا الخليفة عنه ، ليتعالى على الوالى والقاضى ، فأصدر الخليفة أمرا وأعلنه على الملأ أن الليث بن سعد هو أعلم رجال عصره بالشريعة واللغة والشعر ، وهو أكثرهم ثغريا للعدل وتوفيقا لل شبكات خرجا وغفلا .. وهو من أجل ذلك ينصحه كبارا للديار المصرية ورئيسها ، بحيث لا يقتضى فى مصر شئ إلا بهشورته ، ويصبح الوالى والقاضى تحت أمر مشورته ..

ثم إن الخليفة زجر هؤلاء العرب المتعصبين لعروبتهم ، المنكرين على الموالى حسن بلائهم وارتفاع مكانتهم ، واستشهد فى زجرهم يقول رسول صلى الله عليه وسلم : يا أية الناس إن الله قد أذهب عنكم حية الجاهلية ، وتما لهم بأيتها . فالناس رجالان : بر تقي ، كريم على الله ، فاسق شقى ، هين على الله ، والناس كلهم بنو آدم .

هكذا أعلن الخليفة تأييده للموالي ، ودعم الليث بن سعد دعما حاسما

ولكن الليث أحسن استخدام هذه الثقة لإنقاذ الرعية .. فما كان يفرض رأيه على الوالي أو القاضى منها ب المختلف معها ، ولكنه إن وجد فى أوامر الوالى أو قضاء القاضى ما يظلم أحدا كتب إلى الخليفة فيأخذ برأى الليث .

وكان أشد ما يسوء الليث بن سعد من ولادة الأمر أن يقبل أحدهم هدية ، وكان يجهز فى مجالسه أنه إذا دخلت الهدية من الباب ، خرجت العدالة من النافذة .. !

وكان ينصح كل صاحب منصب ألا يقبل هدية من أحد من الرعية ، وإن لم يكن للمهدى حاجة ، فإذا قبل صاحب المنصب النصيحة ورفض المهدى شكره ، أما إذا أبى ، كتب للخليفة فعزله

وقد عاتب أحد المعزولين الليث بن سعد فقال : « نصحتك فلم تنتصر ، ومصلحة الرعية أولى وما صبرى على ظلم الرعية؟ » وكان المعزول لا يملك إلا راتبه ، فأجرى عليه الليث راتبه من ماله الخاص !

وتمضى الحياة بالليث وهو يهب كل وقته للدرس والعلم والفتيا ومواساة الناس .

تعلم من أحد شيوخه ألا يغشى مجالس الولاية ، فكان إذا استدعاه أحد الولاية ليسأله عن شيء من العلم رد عليه الليث بقول شيخه : « أئنتى أنت ، فإن عجيت إلى زين لك ومجئي إليك شين على »

وهكذا كان أولو الأمور يذهبون هم إليه .

وقد أحسن تقسيم وقته بين مشاغله العديدة .. وقسم إلى أربعة مجالس يجلس فيها ، فالمجلس الأول للوالى والقاضى وأولياء الأمور يسألونه المشورة أو يسمعون رأيه فى سيرتهم وأحكامهم . فإذا انتهى هذا المجلس عقد مجلسه الثانى لأهل الحديث ، يسمع منهم ، ويشرح للمستمعين ما يحفظ من أحاديث ويقول : « نحوا أصحاب الحوانيت ، فإن قلوبهم معلقة بأسواقهم ». .

وفى الحق أنه كان حر يضا على أن يكون مجلس الحديث لأهل الحديث وحدهم ، فيتذاكر معهم أسانيد الأحاديث وصحتها ومعانها وروحها وفحواها ، فما كان لغيرهم مكان !

فإذا فرغ من هذا المجلس ، عقد مجلسا للناس كافة ، يسمى مجلس المسائل ، وهو مجلس للفتيا .. يسأله الناس فيما يعرض لهم من أمور الحياة ، فيجيب مستوحيا القرآن فى فتاواه ، فإن لم يجد جائزا إلى السنة ، فإن لم يجد الإجابة فى النصوص ، التمس الجواب فى إجماع الصحابة – وكان من رأيه أن إجماع

الصحابة نادراً، فإن لم يجد ، اجتهد رأيه ، ولجأ إلى القياس وإلى العادات والعرف ما لم تختلف نصا  
أما مجلسه الرابع فكان في داره ، وهو مخصص لحاجات الناس .. وهذا المجلس كان يستهلك إيراده  
السنوي الكبير.

أما استثمار أرضه ، فقد كان له وكيل هو كاتبه يقوم عنه بأمر الأرض

لقد صرخ رأى الليث عندما اعتذر عن ولاية مصر ليتفرغ للعلم .. فقد استقام له الآن فقه خاص ،  
استقل فيه عن فقه ربيعة الرأي ، أستاذه وخالف به فقه أكبر عالمين في عصره وما أبو حنيفة النعمان  
ومالك بنأنس صديقه .

وقد التقى الليث بأبي حنيفة في مجلس مالك بنأنس في المدينة .. ودخل الليث على مالك ذات  
ليلة من الشتاء فوجده يمسح عرقه وقد انصرف من عنده أبو حنيفة فسألته عن سبب هذا العرق والبرد  
شديد فقال مالك « عرقـت مع أبي حنيفة ، إنه لفقيه يامصري » وكان مالك لا يحب الجدل وأبو  
حنـيـفة مولـعـ بـه . وسائلـ الليـثـ أباـ حـنـيـفـةـ عنـ رـأـيـهـ فـأـثـنـىـ عـلـيـهـ أـطـيـبـ ثـنـاءـ .

على أن الليث كان يذكر على أبي حنيفة توسيعه في الأخذ بالرأي وجلوه إلى الحيل لاستنباط  
الحكم ، وإن كان معجباً بذكاء أبي حنيفة ، وسرعة بيته .. وقد سمع به قبل أن يلقاه ، وتمنى أن  
يراه .. ورآه لأول مرة في المسجد الحرام ، قبل أن يلتقي به عند مالك في المدينة .. رأى حلقة عليها  
الناس ، فإذا هي حلقة أبي حنيفة ، مجلس يستمع إليه فأقبل رجل فقال : يا أبا حنيفة إنـيـ رـجـلـ منـ  
أـهـلـ خـرـاسـانـ كـثـيرـ المـالـ ، وإنـ لـىـ أـبـنـاـ لـيـسـ بـالـمـحـمـودـ وـلـيـسـ لـىـ وـلـدـ غـيـرـهـ إـنـ زـوـجـتـهـ طـلـقـ وإنـ سـرـيـتـهـ  
أـعـتـقـ »

(وسريته أى و هبته جارية تعيش معه كالزوجة) وقد عجزت عن هذا فهل من حيلة؟ « فأسرع أبو  
حنـيـفةـ عـجـيبـاـ . اـشـتـرـ لنـفـسـكـ الـجـارـيـةـ التـىـ يـرـضـاـهـ هـوـ ، ثـمـ زـوـجـهـاـ مـنـهـ ، فـإـنـ طـلـقـ رـجـعـتـ مـلـوـكـتـكـ إـلـيـكـ ،  
وـإـنـ أـعـتـقـ أـعـتـقـ مـاـ لـيـلـكـ ». .

ويقول الليث عن جواب أبي حنيفة: فوالله ما أتعجبني قوله بأكثر ما أتعجبني سرعة  
جوابـهـ ..

لقد رأى الليث أن أبا حنيفة ما كان ينبغي أن يحيط بمثل تلك السرعة ، ولا أن يلحاً مثل  
تلك الحيلة !!

اختلاف الليث مع أبي حنيفة في كثير من الآراء ، وأشهر خلاف بينهما هو الرأي في

الوقف .. فقد كان أبو حنيفة لا يحبز الوقف .. لأنه يرى في حبس المال قيداً وضرراً ..

ووهذا الرأى أخذ أحد قضاة مصر، فنبهه الليث إلى خطأ هذا الرأى ، وإلى مخالفته للسنة .. ولكن القاضى ظل يحكم بابطال الوقف .. فجاءه الليث فى مجلس القضاة، فرفع القاضى المجلس ، فقال الليث : إنما جئت إليك مخاصما ، فقال له القاضى : «في ماذا» قال الليث «في أحباس المسلمين (أى أوقافهم) لقد حبس (أى وقف) رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبوبكر وعمر وعثمان وعلى فن بقى بعد هؤلاء ؟

ولم يقتتنع القاضى ، فكتب الليث إلى الخليفة بشأنه : والله إنا لم ننكر عليه شيئا ، غير أنه أحدث أحكاما لا نعرفها !

فأمر الخليفة بعزل القاضى ، فجاء القاضى إلى الليث فى مجلسه ، وأخبره بأمر العزل وأضاف : «والله لو أمرتني بالخروج لخرجت»

قال له الليث بصوت يسمعه الجميع : والله إنك لغيف عن أموال الناس ، ولكنك تختلف الرسول صلى الله عليه وسلم فما تصلح للقضاء .  
وهكذا عاش الليث يصحح ما يراه خطأ من أحكام القضاء ، أو أوامر الحكم ، أو ما استقر في عقول الناس ..

رأى الناس فى مصر ينتقصون عثمان بن عفان رضى الله عنه – ومن مصر انفجرت الثورة على عثمان – فنهى الناس عن ذلك ، وأوضح لهم فضائل عثمان بقيادة ابن أبي بكر وحسن بلاه فى الإسلام ومنزلته عند رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ثم إن أحد ولاة مصر هدم الكنائس .

فكتب إلى الخليفة طالباً عزل الوالي لأنّه مبتدع ، مخالف لروح الإسلام . فعزله الخليفة بمحنته ، وأشار على الوالي الجديد أن يبعد بناء ما هدم من الكنائس ، وأن يبني كنائس جديدة كلما طلب ذلك المسيحيون في مصر ، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «استوصوا بالقبط خيرا» ولأن أكثر الكنائس التي كانت قائمها بمصر إنما بناها الصحابة ، من قادوا جيش الفتح الإسلامي .

وإجماع مثل هذا العدد من الصحابة هو في قوة السنة ، فما كانوا ليجمعوا على أمر إلا لأئمهم تعلمهونه من الرسول .

إن عمر بن الخطاب أبي أن يصلى في الكنيسة ببيت المقدس كيلا يصنعها مسلم بعده ، ولكي تظل للكنائس حرية العبادة فيها ، واستقلالها .

ثم إن عمر بن الخطاب عاهد المسيحيين في بيت المقدس على حماية أنفسهم وأموالهم وعقيدتهم وكنائسهم وأوقاف هذه الكنائس وأموالها ، وأقر الصحابة بالإجماع . فهذا الصنيع حجة على المسلمين إلى آخر الزمان .

ومن قبل عمر ، حذر الرسول صلى الله عليه وسلم من إيذاء أهل ، الذمة . وهم أصحاب البلاد المفتوحة من أهل الكتاب الذين لم يدخلوا الإسلام بل احتفظوا بدينهم . فهم في ذمة الله ورسوله .

وفي الحديث الشريف : «من آذى ذميا حد (عقب) يوم القيمة بسياط من نار» وفي حديث شريف آخر : «من آذى ذميا فأنا خصمه»

ووهذا وجه عمر إلى عمرو بن العاص فاتح مصر : «إحذر أن يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم خصمك»

كما احتاج الإمام الليث على من هدم الكنائس بقوله تعالى «ومن أظلم من منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه وسعى في خرابها» ثم وعيده تعالى «لهم في الدنيا خزي وفي الآخرة عذاب عظيم» والآية نزلت في الروم الذين فتحوا بيت المقدس ، فنعوا الصلوات وأحرقوا الكنيسة ، فلم يوجد نصراني إلا أنه ضربا !

بهذا الفكر المستير انطلق الإمام الليث يعظ المسلمين ، ويوثق العلاقات بين مواطنيه في مصر من مسلمين وأقباط ، ليكونوا رحاء بينهم ، وكانت له هون نفسه مودات وصداقات مع الأقباط .. وعرف الأقباط صدق الأنوية من المسلمين بحسن إسلامهم .

على أن هذا كله أغضب المتعصبين من الفقهاء وصغار الحكام ، وهم قلة حقا ولكنهم كانوا في بعض موقع التأثير .. وما كانوا ليتناولوا من الإمام وهو حي يملأ الحياة من حوله بالمحبة والخير ونور العلم ، فانتظروا حتى إذا مات وثبتوا على ذكره ، وثاروا على فقهه ، وحاولوا أن يطمسوا كل آثاره ، وأن يهيلوا التراب على آرائه وأفكاره !!

أصبح الليث بحق سيد الفقهاء ، اشتهر بحسن الرأي ، ونفذ البصيرة ، وبتفسير القرآن بروح النصوص ، دون الوقوف عند الظاهر .. حتى لقد ألمت بالرشيد ناثة .. لم يجد له أحد من فقهاء العصر مغريا منها إلا الليث ..

روى لؤلؤ خادم الرشيد قال : جرى كلام بين الرشيد وزوجته زبيدة وهي بنت عميه .. فقال الرشيد لها أنت طالق إن لم أدخل الجنة ثم ندم فجتمع الفقهاء فاختلفوا .. ثم أرسل إلى البلدان فاستحضرها علماءها إليه .. فلما اجتمعوا جلس لهم فسألهم ، فاختلفوا وبقي شيخ لم يتكلم ، وكان في آخر المجلس ، وهو الليث بن سعد .. فسأله فقال : إذا أخلى أمير المؤمنين مجلسه كلنته .

فصرفهم ، ثم طلب الليث من الرشيد أن يحضر مصحفا ، فأحضر المصحف . وقال الليث : « تصفحه يا أمير المؤمنين حتى تصل إلى سورة الرحمن فاقرأها . فعل ، فلما انتهى إلى قوله تعالى ولن خاف مقام ربه جستان ، أمسك يا أمير المؤمنين . قل والله .. فاشتد ذلك على الخليفة . قال الليث قل والله إنني أخاف مقام ربى .. فقال ذلك . فقال : يا أمير المؤمنين فيها جستان وليس بجنة واحدة .

وكانت زبيدة تسمع هى وجوارها خلف ستار . فارتفاع التصديق والفرح من وراء الستار . فقال الرشيد : أحسنت والله . فأمر له الرشيد بجوائز وخلع وألاف الدنانير ، وأمرت له زبيدة ، بمثلها وأقطعه الرشيد أرض الجizza كلها ، وهى من أخصب أرض مصر .

فقال الرشيد : يا ليث ما صلاح بلدكم ؟

قال : يا أمير المؤمنين صلاح بلدنا بإجراء النيل وإصلاح أميرها ، ومن رأس العين يأتى الكدر ، فإذا صفا رأس العين صفت الساقى : فقال الرشيد صدقت . فأمر الرشيد ألا يتصرف أحد فى مصر إلا بأمر الليث بن سعد .

عاد الليث بن سعد ، وقد ارتفعت مكانته ، فقد بهر الناس حتى الفقهاء بمحنته وفهمه لروح الآية ، ومحسن تحريره ،

وعاد بإقطاع الجizza فتضاعفت ثروته ، كان دخله عشرين ألف دينار فى العام ، فأصبح نحو مائة ألف .. فازداد تنعمًا وتمتعا بزينة الحياة التى أحلاها الله لعباده والطيبات من الرزق .. وازداد شباباً وعافية ، وازداد سخاء

كان يطعم ثلاثة مسكين كل يوم ، فلما حصل على خراج إقطاع الجizza ، أمر بإطعام ثلاثة مسكين بعد كل صلاة !

قيل له إن سلوكه ذاك إسراف ومجلة للضرر ، فرد ، بأن الله لا يحب المسرفين هذا حق ، وما هذا الذى حصل عليه من الرشيد إلا رزق ساقه الله وفيه حق لكل صاحب حاجة .. والله تعالى يلعن الكاذبين ، وينذرهم بعذاب عظيم ، حيث تکوى وجوهم وجنوهم فى نار جهنم بما

كنزوا من ذهب وفضة .. ثم إنه لا يحيا وحده ، بل في مجتمع يجب أن يكون كل أفراده سعداء ،  
لكى يشعر هو نفسه بمعنى السعادة !! ثم قال لهم : « ولا تنسوا الفضل بينكم وحسبه هو من  
الغنى ما يكفيه هو وعياله ليحيوا حياة موفورة سهلة ممتعة .. أما ما زاد عن ذلك ، فيجب أن  
يوجه لكتف الآخرين وإسعادهم .. ثم ضحك واستشهد بعجزبيت من شعر أمير القيس :  
وحسبك من غنى شبع ورى ! ..

وهكذا أصبح ما يتردد عليه أحد إلا أطعمه ، وقدم إليه الهدايا ، وأدخله في نفقة عياله ، وما  
ينصرف عنه أحد إلا منحه ملا ..

ولم ينس نصيبيه من الدنيا !! روى عنه أحد معاصريه من كانوا يتزدرون عليه .. فقلنا مع  
الليث بن سعد من الإسكندرية وكان معه ثلاث سفائن ، سفينه فيها مطبخه ، وسفينة فيها  
عياله ، وسفينة فيها ضيفه . وكان إذا حضرته الصلاة يخرج إلى الشط فيصلى .

وذهب بعض أصحابه إلى مالك في المدينة يسألونه في بعض مسائل اختلف حولها مع  
الليث ، فلم يقابلهم مالك فقالوا : ليس هذا كصاحبنا « فسمعهم مالك فأمر بإدخالهم  
وسأفهم » : من صاحبكم ؟ قالوا : الليث بن سعد قال مالك : تشبهونني برجل كتب إلى في  
قليل من عصفر مصر نصيبح به ثياب صبياننا فأنفذ إلينا منه ما صبغنا به ثياب صبياننا وثياب  
جيранنا ، وبعنا الفضل بألف دينار ؟ وكان الليث قد أرسل إلى مالك حمل ثلاثة بعيرا !

وكان خلاف الليث ومالك في الفقه مثالاً للحرصن على الحقيقة ، وشجاعة العالم ، في  
مواجهة الخطأ ، وقدرته على الرجوع إلى الحق . قال الليث : أحصيت على مالك سبعين مسألة  
قال فيها برأيه وكلها مخالفة لسنة الرسول صلى الله عليه وسلم .

وقد اعترف بأنه أخطأ في بعضها . من هذه المسائل أن الجنين يستقر في بطن أمه ثلاث  
سنوات وهذا مخالف للعقل ، والعلم والطه .. وليس في الشرع ما يخالف العقل .. ورأى مالك  
هذا يفتح باب الفساد للنساء اللاتي يغيب عنهن الزوج بالطلاق أو الوفاة أو السفر أو لأى  
سبب آخر . وتقبل مالك نقد الليث ولم يعد يفتئ بهذا .

ومن هذه المسائل استغلال الأرض المزروعة بالإيجار ، فالليث يرى أن الرسول عليه الصلاة  
والسلام نهى ذلك فعلى صاحب الأرض أن يعمل فيها أو يستغلها بالزراعة ويقسم الثارات بينه  
 وبين العاملين . فله نسبة منها لا تجحف حق العاملين ولا تظلمهم ..

وقيل ومن هذه المسائل أن مالك بن أنس كان يرى أن ديون العباد في التركة أولى بالأداء

من دين الله كالزكاة ، فحق العباد أولى بالرعاية من حق الله ، دفعا للمضرة ، أما الله تعالى فهو غفور رحيم ، والليث يرى أن الزكاة واجب أولى بالأداء لأنها حق الله والعباد معا .

ومنها الكفاعة في الزواج ، فالملك يعتقد بالنسبة ، فلا يصح زواج القرشى بغير القرشية أو العربى بغير العربية .. أما الليث فالمعلوم عنده على الإسلام .. فكل مسلم كفء لكل مسلمة .. والقول بغير ذلك يخالف القرآن «إن أكرمكم عند الله أتقاكم» ومخالف الحديث : «لأفضل لعربى على أعجمى إلا بالتقوى» .

ولقد كان الإمام الليث بن سعد والإمام مالك بن أنس يتحاوران حول ما يختلفان فيه ، على ضيق مالك بالمناظرة .. وكثيرا ما كانا يتبادلان الرسائل حول المسائل المختلفة عليها .. وقد لا يرد مالك على بعض آراء الليث فيفهم الليث أن صاحبه عدل عن رأيه أو يرسل إليه سائلة عن سبب امتناعه عن الرد .

وقد حفظ التاريخ رسالتين كاملتين ، تصوران التقدير والاحترام والعواطف المتبادلة بين الرجلين ، على الرغم من حدة الخلاف . كتب الإمام مالك إلى الإمام الليث : من مالك بن سعد . سلام عليك .. فإني أشهد الله إليك الذي لا إله إلا هو . أما بعد . عصمنا الله وإياك بطاعته في السر والعلانية وعافانا وإياكم من كل مكره .

واعلم رحمك الله أنه بلغنى أنك تفتقى الناس بأشياء مختلفة ، مخالفة لما عليه الناس عندنا ، وأنت - في أمانتك وفضلك ، ومتزلك من أهل بلدك ، وحاجة من قبلك إليك ، واعتمادهم على ما جاءهم منك - حقيق بأن تخاف على نفسك ، وتتبع ما ترجو النجاة باتباعه فإن الله تعالى يقول : والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهما بإحسان رضي الله عنهم ورضوا عنه وأعد لهم جنات تجري من تحتها الأنهر خالدين فيها أبدا ذلك الفوز العظيم . وقال تعالى : فبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم ألو الألباب .

فإنما الناس تبع لأهل المدينة . إليها كانت المجرة وبها تنزل القرآن ، وأحل ، الحلال ، وحرم الحرام ، إذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أظهرهم يحضرون الوحي والتنزيل ويازيرهم فيطيعون ، ويسن لهم فيتبعونه حتى تفواه الله . واختار له ما عنده . صلوات الله وسلامه عليه ورحمه وبركاته .

ثم قام من بعده اتبع الناس له من أمهاته من ولى الأمر من بعده بما نزل بهم فما علموه أنفسه وما لم يكن عندهم فيه علم سألوا عنه .

ويمضي الإمام مالك يسوق الحجج على أنه لا يجوز لأحد أن يخالف عمل أهل المدينة ، فعمل أهل المدينة بثباته السننة المتوافرة ، وإنذن فلا يتحقق لِإمام في مكانة الليث وفقهه أن يفتى بما يخالف عمل أهل المدينة .

ثم يختتم رسالته : «فانظر رحمة الله فيها كتبت إليك لنفسك واعلم أنى أرجوألا يكون دعائى إلى ما كتبت به إليك إلا النصيحة لله وحده ، والنظر فأنت تعلم أنى لم ألك نصحا . وفقنا الله وإياك لطاعته وطاعة رسوله في كل أمر و على كل حال . والسلام عليكم ورحمة الله .

فرد عليه برسالة طويلة جاء فيها «سلام عليك». فإني أَحَدُ اللَّهِ إِلَيْكَ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ. أَمَّا بَعْدُ.  
عافَانَا اللَّهُ إِلَيْكَ وَأَحْسَنَ لَنَا الْعَاقِبَةَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.. قَدْ يَلْغُنِي كِتَابُكَ تَذَكُّرُ فِيهِ مِنْ صَلَاحٍ حَالَكُمْ  
الَّذِي يَسِّرَنِي، فَأَدَمَ اللَّهُ ذَلِكَ لَكُمْ وَأَتَمَهُ بِالْعُونِ عَلَى شَكْرِهِ وَالزِّيَادَةِ مِنْ إِحْسَانِهِ..»

ثم قال : «بلغك أنى أفتى الناس بأشياء مخالفة لما عليه جماعة الناس عندكم ، وأنى يحق لى الحفوف على نفسي لاعتماد من قبلى على ما أفتتهم به ، وإن الناس تبع لأهل المدينة التى كانت إليها المجرة وها نزل القرآن وقد أصبت بالذى كتبت من ذلك إن شاء الله .. ووقع منى بالموقع الذى تحب ، وما أجد أحداً ينسب إليه العلم أكره لشواذ الفتيا ولاأشد تفضيلاً لعلماء أهل المدينة الذين مضوا ، ولاأخذ لفتياهم فيما اتفقوا عليه مني والحمد لله الذى لا شريك له ». أما ما ذكرت من مقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة ، ونزول القرآن بها عليه بين ظهرى أصحابه وما علمهم الله منه ، وأن الناس صاروا بعما لهم فيه ، فكما ذكرت . وأما ما ذكرت من قول الله تعالى (والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضى الله عنهم ورضوا عنه وأعد لهم جنات تحرى من تحتها الأنهر خالدين فيها أبداً ذلك الفوز العظيم ) .

فإن كثيرا من أولئك السابقين الأولين خرجوا إلى الجهاد في سبيل الله ابتغاء مرضاه الله ، فجندوا الأجناد واجتمع إليهم الناس ، فأظهروا بين ظهرانيهم كتاب الله وسنة نبيه ، ولم يكتموا شيئا علموه ،

وكان في كل جند منهم طائفة يعلمون كتاب الله وسنة نبيه ، ويجهدون برأيهم فيما لم يفسره لهم القرآن والسنة ، وتقديمهم أبو بكر وعمر وعثمان الذين اختارهم المسلمون لأنفسهم ولم يكن أولئك الثلاثة مضيغين لأجناد المسلمين ولا غافلين عنهم ، بل كانوا يكتبون في الأمر اليسير — لإقامة الدين والحد من الاختلاف — بكتاب الله وسنة نبيه ، فلم يتركوا أمرا فسروا القرآن أو عمل به النبي صلى الله عليه وسلم أو اثمروا فيه بعده إلا علموه .

فإذا جاء أمر عمل فيه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بمصر والشام والعراق على عهد أبي

بكر وعمر وعثمان ، ولم يزالوا عليه حتى قبضوا لم يأمر وهم بغierre . فلا نراه يجوز لأجناد المسلمين أن يحدثوااليوم أمرا لم يعمل به سلفهم من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم والتابعين لهم مع أن أصحاب رسول صلى الله عليه وسلم قد اختلفوا بعد في الفتيا في أشياء كثيرة ولو لا أنني قد عرفت أن قد علمتها كتبت بها إليك . ثم اختلف التابعون بعد أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم »

الزهري وربيعة الرأى .. وخلاف مالك والليث وعبد العزيز بن عبد الله مع ربعة أستاذهم .

ثم أخذ الليث يخصى على مالك أخطاءه وأنخطاء أهل المدينة .

« من ذلك القضاء بشهادة شاهد ومين صاحب الحق وقد عرفت أنه لم يزل يقضى بالمدينة به . ولم يقض به أصحاب رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم بالشام ويختص ولا بالعراق ولم يكتب به إليهم الخلفاء الراشدون أبو بكر وعمر وعثمان وعلى . ثم ولى عمر بن عبد العزيز وكان كما قد علمت في إحياء السنن والحمد في إقامة الدين ، والإصابة في الرأى ، والعلم بما مضى من أمر الناس ، فكتب إليه رزيق بن الحكم إنك كنت تقضى في المدينة بشهادة الشاهد الواحد ومين صاحب الحق فكتب إليه إننا كنا نقضى بذلك في المدينة فوجدت أهل الشام على غير ذلك . فلا تقضى إلا بشهادة رجلين عدلين أو رجل وامرأتين .

واستطرد الليث : « ومن ذلك أن أهل المدينة يقضون في صدقات النساء أنها متى شاعت أن تتكلم في مؤخر صداقها تكلمت فدفع إليها ... ولم يقض أحد من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا من بعدهم لامرأة بصداقها المؤخر إلا أن يفرق بينها موت أو طلاق فتقوم على حقها .

ثم مضى يقول : وقد أبلغنا عنكم شيئاً من الفتيا مستكرها ، وقد كنت كتبت إليك في بعضها فلم تجبنى في كتابي ، فتخوفت أن تكون استثلقت ذلك فترككت الكتابة إليك في شيء مما أنكره ، وفيما أوردت فيه على رأيك ... »

ومن فتيا مالك التي بلغت الليث فأنكرها ، أن الشريكين في المال لا تجب عليهما الزكاة ، حتى يكون لكل واحد منها ما تجب فيه الزكاة ، وفي رأي عمر بن الخطاب أنه تجب عليهما الزكاة بالسوية . وبهذا أخذ الليث ، ومن ذلك قول مالك بالجمع بين صلاة المغرب وصلاة العشاء في حالة المطر وخالف الليث معه في جواز الجمع .

ومن ذلك صلاة الاستسقاء ، وما لا يقدم الصلاة على الخطبة ، ورأى الليث أنها كالجمعة تقدم فيها الخطبة والدعاء على الصلاة .

ثم قال له في نهاية الرسالة «فلم يكن ينبغي لك أن تخالف الأمة أجمعين وقد تركت أشياء كثيرة من أشياء هذا . وأنا أحب توفيق الله إليك وطول بقائك ، لما أرجو للناس في ذلك من المنفعة ، وما أخاف من الضيضة إذا ذهب مثلك ، مع استئناسي بمكانتك وإن نأت الدار ، فهذه منزلتك عندي وأرأي فيك فاستيقنه .. ولا تترك الكتابة إلى عن حالك وحال ولدك وأهلك ، وحاجة إن كانت لك أو لأحد يوصل بك . فإني أمر بذلك .. فنسأله أن يرزقنا وإياكم شكر ما أولاكم ، وتمام ما أنعم به علينا . والسلام عليك ورحمة الله .»

في الحق أن الرسالة صورة من أدب الخلاف في ذلك الزمان على أن هناك مسائل فرعية أخرى اختلف عليها الصديقان خلافاً شديداً .

منها أن الإمام مالك بن أنس أجاز ضرب المتهם بالسرقة للحصول على اعترافه ، حماية للأموال ، مما يحقق مصلحة عامة هي أولى بالرعاية من مصلحة المضروب !

وتتساءل الليث فإذا ثبت أن المتهם بريءاً ! إن حماية البريء أولى من عقاب المذنب .. ولأن يفلت عشرة مذنبين خير من ظلم بريء واحد ثم إن الضرب في ذاته عقوبة لا يقضى بها إلا بعد ثبوت الجريمة ، وإلا فالضارب والأمر بالضرب ومن أفتى بجوازه .. كلهم مسؤولون .

كما اختلف الصديقان في حكم الشركاء في جريمة القتل .. فذهب مالك إلى قتل جميع الشركاء كالفاعل الأصلي .. وهذا هو القصاص .. أما الليث فرأى أن هذا يخالف روح آيات القصاص فالمقصود بالقصاص هو الفاعل الأصلي ، وعقابه في جريمة القتل هو القتل . أما الشركاء فقد أخذ فيهم الليث بحكم الإمام على وهو الحبس مدى الحياة حتى الموت .

ولاريب أن أساس كل الخلافات بين الإمام الليث والإمام مالك هو الخلاف بين من يرى كل منها في استنباط الحكم ما لم يكن النص واضحًا قطعى الدلالة .. فالإمام مالك يرد الحديث الذي يرويه صحابي واحد ، ويأخذ بعمل أهل المدينة أو بما يستحسن ويراه محققاً للمصلحة .. أما الإمام الليث فيأخذ بالأحاديث التي يرويها الآحاد ، ويقول إننا لو فتحنا باب الاستحسان والمصالح فما هي الضوابط ؟ . أكلما بدا للمفتى أو القاضي أن رأياماً أحسن أو أرعنى للمصلحة أخذناها ؟ وإذا تناقض الفتوى في المسألة الواحدة ! فلا عاصم إلا ضبط الأحكام التي لم يرد بها نص قطعى بقبول الحديث الذي يرويه الصحابي الواحد مادام هذا الحديث يوافق روح القرآن ، ويوافق روح السنة ، ولا يخالف العقل ، أو يجافي مقاصد الشريعة .

فإذا لم يكن في أحاديث الآحاد أو أقوال الصحابة أحكام تواجه الأمور المستحدثة ، وتنطبق على

الأقضية الجديدة ، فلا غنى عن القياس .. وهو أضيّط المعاير وأحرارها بتحقيق العدل .

وذلك بأن نطبق الأحكام التي أوردتتها النصوص على كل ما يشابهها من أقضية ومسائل وأمور إذا تحدث العلل . وبهذا النظر واجه الليث ما استحدث من قضايا الناس في مصر ومسائلهم .. وهكذا استطاع أن يهدى الطريق الوسط بين فقه السنة وفقه الرأي .

وعلى هذا سار الشافعى من بعده عندما جاء إلى مصر . لم يكن الحواريين الصاحبين بلا جدوى ، وما ضاع سدى ، فقد عدل مالك عن آرائه أو صرحتها .

أما الليث فأخذ نفسه بالبحث عن الأحاديث التي تحض على مكارم الأخلاق والتي ترسم صورة المجتمع الفاضل الذي تسوده العدالة والمودة والرخاء ، ويشعر الإنسان فيه بأنه أخ للإنسان .. !

وكان يجتمع فيه مع الناس في مجلسه بجامع عمرو ، في داره بالفسطاط أو بقريته قلقشنة ، أو على ظهر السفينة وهو بين الفسطاط والإسكندرية .. في كل مكان كان يحدث الناس بهذه الأحاديث التي تدفعهم إلى الجihad من أجل حياة أفضل ، والتي تحض على مكارم الأخلاق .

ولكنه لم يكن يحدث بكل ما يعرف من أحاديث .. بل يختار ما يطمئن إلى صحته ، وما يتثبت هو من صدوره عن الرسول صلى الله عليه وسلم .

ولم يكن يكتب كل ما يتحدث به فقيل له : إننا نسمع منك الأحاديث ليست في كتبك .. فقال – وكان على ظهر مركب – لو كتبت ما في صدرى في كتبى ما وسعه هذا المركب .

ولقد يعدل عن الرأى إذا تبين له أنه خطأ وأن هناك رأياً أوجه منه . تكلم مرة في مسألة فقال له رجل : في كتبك غير هذا .. فقال الإمام الليث .. : «في كتبنا ما إذا مربنا هذ بناه بعقلونا وألسنتنا»

ظل الشيخ يعلم الناس ، ويرعى أهل العلم ويتصدق على ذوى الحاجات ، وي Sadd الدين عن يشقله الدين ، ويعمر البيوت ، ويسعد كما أحسن الله إليه ، ويعين الآخرين .. ولم ينقطع يوماً عن حلقة في مسجد عمرو أو في بيته حتى بلغ الثانية والثمانين ، وهو محتفظ بقوّة البدن وصحّة الفكر .

وأذن الله أن يتوفاه إليه فرض أياماً قلائل لم يرهق خلاماً بمرضه أحداً .. ثم جاءه أمر الله فتوفي في ليلة النصف من شعبان عام ١٧٥ هـ . وكان قد ملا الدنيا بحسن سيرته بين الناس بالعلم والحكمة .

وشيّعت جموع عديدة ما اجتمع به مدينة الفسطاط مثلها من قبل ولا من بعداً . قال طالب علم لأبيه وهو ينصرفان من جنازة الإمام الليث : يا أبا.. كأن كل واحد من هؤلاء الناس صاحب الجنازة : فقال «يا بني .. كان عالماً حسن العقل كثير الأفضال . يا بني لا ترى مثله أبداً» .

قال عنه أحد الفقهاء : « كان الليث أفقه من مالك ولكن الحظوة كانت مالك . ولقد حزن لقد الإمام بن سعد كل فقهاء عصره ، وقال المسلمون في كل أقطار الأرض : « ذهب سيد الفقهاء » .

أما المصريون فقد بکوه أحربكاء ولكنهم أضعاعوه .. ! وذلك بأنهم لم يكتبوا تفسيره للقرآن أو الحديث ولا فقهه ! أما ما كتبه هو فقد عمل حсадه من القضاة والولاة على إخفائه كما أخفى كتبه بعض المتعصبين .. !

وبعد وفاة الإمام الليث بأعوام جاء الإمام الشافعى إلى مصر يعيش فيها ويلتمس فقه الإمام الليث فلم يجد منه ما يريد .. !

قال الشافعى : « ما فاتنى أحد فأسفت عليه كالليث بن سعد » .

ونظر فيها بقى من آثاره فقال : الليث أفقه من مالك إلا أن قومه أضعاعوه وتلاميذه لم يقوموا به » .

ثم ذهب الإمام الشافعى إلى قبر الإمام الليث فصلى .. ودعا له بالرحمة . وقف طويلاً يتأمل في صمت كل تلك الحياة الضخمة العريضة الرازخة .. ذلك العقل الرائع المتوجه الخصب ، وذلك القلب الذي جعل حياة الناس من حوله نعياناً خالصاً ، وبملأها سكينة وأملًا .. الإضطرام ، والمؤدة ، والخير ، والعطاء ، بلا حدود والحب الخالق للبشر ، والرغبة المقدسة في إسعاد الآخرين والتقوى .. لم يبق من كل هذه الروعة شيء .. حتى الذكرى ! .. فما من كتاب واحد يحفظ آثار فكره ، واجتهاداته المضيئة .

واستعبر الشافعى وبكى ، وهو يقول من خلال الدموع : « الله أنت يا إمام ... ! ... لقد حزرت أربع خصال لم يكملهن عالم ، العلم ، والعمل ، والزهد ، والكرم » .

# الإمام الشافعى

قاضى الشریعة - وخطيب الفقهاء



على الرغم من أن الإمام الشافعى لم يكن قاضيا فى مصر فقط ، فإن أهل مصر يسمونه «قاضى الشريعة» .. وما زال العديد من أصحاب الحاجات الذين لم ينالوا حظا من التعليم يتوجهون إلى ضريح الإمام الشافعى فى الحى المعروف باسمه فى القاهرة ، فيقدمون الظلامات ، ويسألون الله تعالى أن يقضى لهم حاجاتهم ، ويرد عنهم الظلم ، متسلين بالإمام الشافعى قاضى الشريعة .

وقد شاع بين أهل مصر أن الإمام الشافعى هو قاضى الشريعة ، منذ قدم إلى مصر عام ١٩٩ هـ ، وهو يخترق إلى الخمسين ، رجلا طويلا مشوق القامة ، فارسا ، أسرم كأبناء النيل ، بشوشًا ضاحك الوجه . مهذب اللحية ، يصبح لحيته وشعره بالحناء اتباعا للسنة ، عذب الحديث ، رخيم الصوت ، يشع البريق من عينيه بصفاء الود لمن يراه ، على الرغم مما ينتقل جفنيه من آثار السهر ، وطول التأمل وإعمال الفكر ، وكثرة التجوال بروحه وجسده بحثا عن حقائق الشريعة !! .. فى ثياب خشنة نظيفة ، متكتئا على عصا غليظة ، كأنه حاج ورع أو جواب آفاق .. !

وفي الحق أن المصريين لم يختلطوا فى إطلاق اسم قاضى الشريعة على الإمام الشافعى ، فما كاد يطأ أرض مصر حتى بحث عن قبر الإمام الليث بن سعد فوقف عليه مستعبرا .. ثم بحث عن آراء الليث وفتنه ، فوجد المتعصبين من أعداء الليث وحساده ، قد أخفوا كل كتبه تحت التراب أو أحرقوها .. ! وظل يبحث عن كتاب «مسائل الفقه» الذي كتبه الليث بيده ، وكتاب التاريخ وكتابه في التفسير والحديث ، وكتبه عن منابع النيل ، وتاريخ مصر قبل الإسلام ، بما حوت من أساطير وروايات تصور تاريخ الفكر المصري ومقومات شخصية أهل مصر ... فلم يعثر الشافعى على شيء من ذلك كله إلا بعض مسائل وآراء واجتهدات حفظها بعض تلاميذه الإمام الليث ، وكان الشافعى قد لقي أحدهم في

المدينة ، وأحدهم في اليمن فتلقى عنهمما بعض فقهه الليث ..

وأدرك المصريون أن هذا الإمام الجديد ، سيعين علم إمامهم الراحل الليث بن سعد الذي كادت آثاره أن تندثر ولما يمض على رحيله غير ثلاثة أو أربعة أعوام ١١

وكان أكثر ما أزعج المصريين من إمامهم الليث حرصه على الشريعة ، بحيث يتحرى في كل فتوى أن يقتبس على نص قرآني ، أو على سنة ثابتة ، أو إجماع صحيح إن لم يجد ما يطلب في النصوص أو الإجماع ، بحيث يسد الطريق على من يستنبطون الحكم بما يستحسنون أو بما يرون محققًا للمصلحة .. ويشرعون بهذا السلوك في الفتيا للولاة أو القضاة الظالمين أن يحكموا بالهوى .. ١٢

ها هو ذا إذن إمام جديد يريد أن يعيي آثار الليث ، وأن يلزم أصول الشريعة فيما يستنبط من أحكام ، وهو يضيف إلى فقه الليث اجتهاده الخاص ، ويجادل عن الشريعة ويعلن للناس منذ العاد مجلسه للفتيا في جامع عمرو بالنسطاط أن القرآن فيه حكم كل شيء ، وأن السنة تفصيل وبيان لما في القرآن بكل أوجه البيان ، فعلى من أراد أن يجتهد أن يكون عليهما بالقرآن والسنة ، وقضايا الصحابة وإجماعهم ، فقيتها باللغة العربية ، وبأسار البلاغة فيها ، ويقواعد نحوها . ولن يبلغ هذا العلم حتى يكون قد حفظ الشعر الذي قاله العرب قبل الإسلام ، وبالعربية التي كان يتحدث بها البدو وقت نزول القرآن .

فقد اعترف ابن عباس وهو عليم بالتفصير أنه لم يفهم قول الله تعالى : « فاطر السموات والأرض » حتى سمع بدوية تقول عن ولیدها : « أنا فطرته » ، تعنى أنشأته وأوجده .. فعلم أن كلمة فاطر تعنى : منشئ ، أى خالق . فإذا اجتمع لرجل علم ذلك كله من قرآن وسنة وأقوال الصحابة ، وفقه اللغة العربية حق له أن يجتهد !

والاجتهد هو بذل الجهد ، ففيه مشقة .. فإذا اجتهد العالم ليجد حكما أو ليصدر فتوى فليبحث أول الأمر في الكتاب والسنّة ، لأن الكتاب - وما السنّة إلا بيان له - فيه كل الأوامر والتواهـ ، وما كان يركـ ليترك الناس سـى بلا أمر ولا نـهى .. فإن اجتهد العالم فهو عـالم وفقـيه .. فإن لم يجد الفـقيـه فيـ الكتاب والـسنـة أوـ إجماعـ الصـحـابـة حـكـما يـنـطـقـ علىـ الأمـرـ الـذـي يـعـرـضـ لـهـ فـعـلـيـهـ بـالـقـيـاسـ .. وـلاـ قـيـاسـ معـ نـصـ قـيـاسـ إـلـاـ عـلـىـ نـصـ .. وـلاـ سـبـيلـ غـيـرـ الـقـيـاسـ إـلـىـ اـسـتـنـبـاطـ الـأـحـكـامـ الـتـيـ تـواـجـهـ الـأـمـرـ الـمـسـتـحـدـثـةـ الـتـيـ لاـ نـصـ عـلـىـ حـكـمـها ..

بهذا النظر جاء الإمام الشافعى إلى مصر ..

على أن الحياة في مصر طالعته بفقهه جديد مما أشر على الليث بن سعد ... واجهته بكثير من الأمور

المستحدثة التي لم يواجه مثلها من قبل ..

وكان الشافعى حين قدم إلى مصر وأقام بها حتى توفي فيها سنة ٤٢٠ هـ ، كان عالماً ومحفظ القرآن والحديث ويعرف إجماع الصحابة ويتقن اللغة العربية وعلومها وأدابها .. كان كل أولئك ، وكان بعد رجلاً عرك الحياة وبلاها ، وتموج في كثير من البلاد ، واجتهد وأصبح صاحب مذهب ، ونشأت له من خلال هذه التجارب كلها مودات وعداوات .. كثير الأسفار ينتقل هنا وهناك ليتعلم هو ويلم الآخرين ..

عرف الحياة منذ ولد جهاداً متصلة في سبيل العيش وفي سبيل العلم ..

ومن الحق أنه قدم مصر وله مذهب في الفقه ولكنه لم يكدد يقيم في مصر ، حتى غير كثيراً من آرائه ، وأعاد كتابة كتبه

فقد عرف في مصر مالما ي يكن قد عرفه من قبل .. صحت عنده أحاديث كثيرة سمعها لأول مرة في مصر ، نقلاب عن الإمام الليث .

وظهر ما استطاع أن يصل إليه وأن يتعلمه من فقه الإمام الليث وآرائه وفتواه

وعرف آراء جديدة للإمام علي بن أبي طالب لم يتع له الاطلاع عليها من قبل ...

ثم أنه عرف حضارة وتقاليد وأعرافاً كلها جديدة عليه ، ليس كمثلها شيء مما رأى في مكة أو المدينة أو اليمن أو سوريا أو العراق ..

عاين انطلاقاً في الفكر مع التسلك بروح الشريعة ، وتحرراً في الرأي مع التزام مقاصد الشارع ، ورأى أن مالك بن أنس يخالفه بعض الفقهاء في مصر متأثراً بآرائهم اللهم الليث بن سعد ، وما كان يعرف أن الإمام مالك بن أنس يخالفه أحد من قبل إلا في ست عشرة مسألة . خالفه فيها أهل الرأي بالعراق ..

وناظر بعض تلاميذ الليث في خلاف أئمته مع أستاذه مالك وأقنعه رأى الليث ، وهاله مرارى وسمع من تعصب بعض أتباع مالك في مصر وما يليلها من المغرب العربي كله والأندلس للإمام مالك ، حتى لقد كان الناس في المغرب والأندلس يتبركون بملابس الإمام مالك أخذها منه أحد تلاميذه ، فكانوا إذا دهمهم الجحاف وتأنّر المطر ، وصلوا صلاة الاستسقاء اتجهوا إلى قلنسوة للإمام مالك يستسقون بها .. !

ورأى الشافعى في مصر أتباع الإمام الليث يسخرون بهذا كله ، ويتهمن صانعيه بإحياء الوثنية ، وبالشرك بالله تعالى ...

وسمع سخرية أتباع الإمام الليث من أتباع الإمام مالك حين ينتظرون .. إذ يروى أتباع الإمام الليث الحديث الشريف عن سنته إلى أن يقولوا قال رسول الله صلي الله عليه وسلم ، فيرد أتباع الإمام مالك «قال أستاذنا وشيخنا الإمام مالك» .. فيقول أتباع الليث : «نقول لكم قال الرسول عليه الصلاة والسلام فتقولون بإزائه قال الإمام مالك ؟ أجعلتموه في مقام الرسول المصطفى صلى الله عليه وسلم ؟ .. لو كان الإمام مالك رضي الله عنه حيا لأفتق بأنكم ارتدتم عن الإسلام» .

كان المصريون يجلون الإمام مالك بن أنس ، على الرغم من أنهم يأخذون بآراء إمامهم الليث بن سعد في خلافه مع الإمام مالك .. ولكنهم كانوا يضيقون بتعصب بعض أتباعه ، ويعتبرون تعصبهم وشططهم خروجا على منهج الإمام مالك ، وإساءة لذكره ، وهو الذي عاش يحمل في بكل سيرته تقاليد السماحة الإسلامية وتراث الحكمة والوعظة الحسنة ..

رأى الشافعی عناصر جديدة من الرأی والفكر والحضارة في مصر ، واطلع على ما أنتجه المدرسة المصرية في الفقه بزعامة الإمام الليث سيد الفقهاء ، فبدأ يعيد النظر في كثير من آرائه .. وبصفة خاصة تلك التي اتبع فيها أستاذه مالك .. أو التي تأثر فيها بفقه أهل المدينة وإمامها مالك .. فألف كتاباً فيما اختلف فيه مع مالك .. ولكنه استحب أن يصدره . وما زال قریب العهد من الجلوس إلى مالك مجلس التلميذ .. وأبقى الكتاب ينظر فيه ويعدل عاماً بأسره ثم أصدره .. وعندما عותب في هذا قال : «إن أرسطو تعلم الحكمة من أفلاطون ثم خالفه قاتلاً إن أفلاطون صديقي والحق صديقي فإذا تنازعنا فالحق أول بالصدقة» .

بهر الشافعی إذن بما شاهد في مصر من مظاهر الحضارة والتقدم والتزارج الفكری بين الإسلام ومعطيات الحضارات التي تشكل الوجودان المصري : الحضارات القبطية والمصرية القديمة واليونانية . وهو مالم يعرفه من قبل .. ثم الفهم العميق لروح الشريعة الإسلامية ، وتطويع الأحكام لكل مقتضيات الحاجة الإنسانية المشروعة ، مما يقيم المجتمع الفاضل الذي هو هدف الشريعة ومقصدها الأسمى ..

حتى إذا انتهى الإمام الشافعی من إعادة صياغة كتبه وتصحيح آرائه على أساس العنصر الجديد الذي تدخل في صياغة وجدانه وعقله . أعلن للناس أن آرائه ليست إلا التي كتبها في مصر . أما كتبه السابقة فلا يحق لأحد أن ينسبها إليه .. وكتب بذلك إلى أقرب أصحابه وتلاميذه إليه أحمد بن حنبل فكان الإمام أحمد يقول : «خذوا عن أستاذنا الشافعی ما كتبه في مصر» .

ولكن الشافعی لم يصل إلى ماوصل إليه إلا بعد مشقات جسام عبر رحلة عمر كابد فيها الأهواء ، حتى لقد رأى الموت رأى العين ذات مرة .

و قضى عمره كله في العيش الضنك على الرغم من ارتفاع همته ولقد عبر عن ذلك بقوله :

وأحق خلق الله باهتم امرؤ

ذو همة يبلل بعيش ضيق

ولد الشافعي سنة ١٥٠ هـ في غزة وهي السنة التي توفي فيها أبو حنيفة إمام أهل الرأي في العراق وفي هذا تمازج أحد الفقهاء من المذهب الحنفي وفقهه من المذهب الشافعي قال الحنفي «إمامكم كان مخفيا حتى ذهب إمامنا» فقال صاحبه : «ونحن الشافعية نقول لما ظهر إمامنا هرب إمامكم» .

ولد في عصر كثري فيه الجدل بين أهل الحديث وأهل الرأي . وتعصب كل فريق ضد الآخر ، فكان من أهل الحديث من يرفض الرأي إطلاقا ، ومن أهل الرأي من لا يتقن حفظ عدد صالح من الأحاديث ..

وهو عصر ميز بين العالم والفقهاء ، أو بين العلم والفقه : فالعلم هو حفظ القرآن والأحاديث وآثار الصحابة ... أما الفقه فهو إعمال الفكر والاجتهد والتأمل وشحذ العقل لاستنباط حكم شرعى فيها لانص فيه .. وقد يجمع الرجل الواحد بين العلم والفقه وهؤلاء هم الأئمة العظام والفقهاء

وقد روى عن أحد التابعين قوله : «مارأيت أفقه من ابن عمر ، ولا أعلم من ابن عباس»

وكان أهل الحديث يقفون عند النصوص لا يعدونها فإن لم يجدوا حكما فيها ، لا يفتون .

وأما أهل الرأى فقد نظروا في عطل الأحكام ، واستنبطوا من النصوص أحكاماً لما لم يرد نص على حكمه ، إعمالاً للعقل ، وإلحاقاً للأمور بأشباهها ونظائرها إذا توفرت علة الحكم .

وقد بلغ من وقوف بعض أهل الحديث عند ظاهر النص حداً أثار بهم سخرية أهل الرأي ، وبلغ من انطلاق أهل الرأي في استنباط الأحكام حداً جعل أهل الحديث يتهمونهم !

وقد سأله أحد أهل الرأي واحداً من أهل الحديث في أمر طفل وطفلة رضعاً معاً من ضرع شاة ثم كبراً ، أيجوز لها الزواج .

فقال صاحب الحديث : ثبت بينهما حرمة الرضاع «فسأله صاحب الرأي : «بأى نص» فقال صاحب الحديث : «بقوله صلي الله عليه وسلم كل صبيان اجتمعوا على ثدي واحد حرم أحد هما على الآخر» ف قال صاحب الرأي ضاحكاً : «قال الرسول صلي الله عليه وسلم اجتمعوا على ثدي واحد لا على ضرع واحد» إنما يثبت الحديث بين الآدميين لا بين شاة وأدمى . فلو أنك أعملت العقل والرأي ما أخطأت . وما سويت بين المرأة والنعجة !

وكان أصحاب الرأي يتهمون أصحاب الحديث « بالعجز عن النظر ، وبأنه كلما أورد عليهم أحد من أصحاب الرأي سؤالاً أو إشكالاً بقوا متغيرين ». ومن أجل ذلك فهم ليسوا أنصاراً للسنة ، بل إن أهل الرأي أكثر انتصاراً للسنة واتبعاً لها من هؤلاء الذين يزعمون أنهم أهل السنة !

أما أهل الحديث فاتهموا أهل الرأي بأنهم يأخذون بالظن ..

على أن مالك بن أنس إمام أهل الحديث لم يكن يرى هذا الرأي في الإمام أبي حنيفة إمام أهل الرأي فقد قال فيه : « اجتمعنا مع أبي حنيفة وجلسنا أوقاتاً وكلمته في مسائل كثيرة فرأيت رجلاً أفقه منه ولا أغوص منه على معنى وجهه .

« ولكن أتباع الإمامين كان فيهم من يتغطرف لشيخه ، ومن هؤلاء الأتباع من كان يشغب على الآخر .. حتى لقد عيروا أبي حنيفة ببعض حيله ، وإن كان مالك ليضحك كلما ذكرها ، ذلك « أن المولى وهم المسلمون من أهل البلاد المفتوحة » قدموا الكوفة وكان لرجل منهم امرأة فائقة الجمال ، فتعلق بها رجل كوفي . وادعى أنها زوجته ، وادعى المرأة أيضاً ذلك : وعجز المولى زوج المرأة عن البيينة ، فعرضت القضية على أبي حنيفة .. وكان من رأي أهل الحديث أن المرأة للكوفي ولكن أبو حنيفة لم يطمئن إلى الأخذ بهذا الظاهر كما صنع أهل الحديث .

ورأى أن يتحقق الأمر بنفسه .. وشك في ادعاء الزوجة والكوفي فأخذ جماعة من الناس ومعهم بعض أهل الحديث ، وذهبوا إلى حيث كان ينزل المولى فبحثت كلابهم وهبت أن تهاجهم كما تفعل مع الغرباء .. ثم عاد أبو حنيفة وأخذ الزوجة ومعها شهود من أهل الحديث ، وأمر الزوجة أن تدخل وحدها إلى منازل المولى . فلما قربت بصبع الكلاب حولها . كما تفعل بأصحابها فقال أبو حنيفة : « ظهر الحق ». فانقادت المرأة للحق واعترفت أنها كذبت .. وعادت إلى زوجها . وسخر أهل الرأي من أهل الحديث في هذه القضية ...

على هذا النحو كان الخلاف بين أهل الحديث وأهل الرأي .. حتى أن الشافعى عندما بدأ يطلب العلم في مجالس أهل الحديث ، جلس بعد الدرس فى بيت صاحب له يتناول الشعر ، فأتى الشافعى على شعر المذليين وقال لصاحب : « لا تعلم بهذا أحداً من أهل الحديث فإنهم لا يحتملون هذا » ذلك أن أهل الحديث كان فيهم من يغلوفى في حفظ الشعر ودراسة الأدب عليها غير نافع .. فالعلم النافع عند هذا النفر هو القرآن والحديث وآثار الصحابة فحسب ..

أخذ الشافعى ينطح هذا كله .. ويقاوم التغطرف للحديث وللرأى جيلاً ..

ليكون هدف المنااظرة هو الوصول إلى حقائق الشريعة ، لأنّية المنااظر على خصمه ..

ولكنه على الرغم من ذلك انحاز إلى أهل الحديث أول الأمر، وخاصم فيهم أهل الرأي ، حتى إذا استقر به المقام في مصر تلك السنوات الأخيرة من حياته القصيرة (١٥٠ - ٢٠٤ هـ) تعلم أن الإمام الليث كان قد اهتدى إلى مذهب وسط بين أهل الحديث وأهل الرأي ، معتمدا على استيعاب يقظ لروح الشريعة ومقداصها ، فأعجب بأصول مذهب الليث وفروعه وزاد عليه وأضاف ، ونفع في خمس سنوات عاشها في مصر كل ما كان قد كتبه طيلة حياته من قبل . وعرف ماكتبه في مصر باسم «المذهب الجديد»

والشافعى هو محمد بن أدریس بن العباس بن شافع (وقد نسب إلى هذا الجد) ابن السائب بن عبيد بن عبد يزيد بن المطلب بن عبد مناف ..

المطلب هو شقيق هاشم بن عبد مناف .. وهاشم هو أبو عبد المطلب جد النبي صلى الله عليه وسلم وكان هاشم يقود رحلة الشتاء إلى الشام بقافلة قريش في الجاهلية ومات ودفن بغزة .

أما والدة الشافعى فهي خديدة أخت السيدة فاطمة أم الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه .

وكان الشافعى يقول : «علي بن أبي طالب ابن عمى وابن خالى .

فهو قرشي الأب والأم وكان أبوه فقيرا خرج من مكة يتبع سعة من العيش في المدينة . ولكن لم يجد ما يربى ، فخرج بأهله إلى غزة ، ومات بها بعد مولد ابنه محمد بن حنوح عامين .

ولم تطق الأم المقام في غزة بعد وفاة زوجها ، فحملت وليدها عمدا إلى عسقلان وهو ابن عامين ، وكان يرابط بها جيش من المسلمين ، وكانت عسقلان تسمى إذ ذاك (عروض الشام) «ونغيرها دافق والعيش بها رائق»

غير أن العيش لم يرق للأرملة الصغيرة في عسقلان ، فحملت ابنها عمدا إلى مكة موطن آبائه وأجداده ، ليعيش في قومه قريش ، ولينال نصيبه من المال ، وهو سهم ذوى القرى ولكن حظه من هذا المال كان ضئيلا لم يسمح له ولأمها إلا بحياة خشنة ، عرف خلالها الحرمان منذ نعومة أظفاره .

وعندما شب الطفل أخوه أمه بمكتب في مكة . ولكنها لم تجد أجر المعلم . «فكان المعلم يقتصر في تعليم الصبي إلا أن المعلم كلما علم صبيا شيئاً كان الشافعى يتلقف ذلك الكلام . ثم إذا قام المعلم من مكانه أخذ الشافعى يعلم الصبيان تلك الأشياء فنظر المعلم فرأى الشافعى يكفيه من أمر الصبيان أكثر من الأجرة التي يطمع بها منه فترك طلب الأجرة واستمرت هذه الأحوال حتى تعلم الشافعى القرآن كله وهو ابن سبع سنوات .»

ثم وجهته أمه إلى إتقان تلاوة القرآن وتجويده وتفسيره على شيوخ التفسير والترتيل والتجويد في المسجد الحرام .. حتى إذا بلغ الثالثة عشرة ، كان قد أتقن القرآن حفظاً وترتيلاً وإدراكاً لما يقرأ بقدر ما يتيحه عمره .

وكان عذب الصوت .. في ترتيله خشوع . وإيقاع حزين تخالجه الرهبة من خشية الله .. فكان حين يقرأ القرآن في المسجد الحرام يتسلط الناس بين يديه . ويكثُر عجيجهم بالبكاء من حسن صوته . فإذا رأى ذلك أمسك .

بعد ذلك اتجه إلى حفظ الحديث ، ولزم حلقات شيوخ التفسير وأهل الحديث . وكان الورق غالٍ الثمن ، فكان يلتفت العظام العريضة فيكتب عليها ، أو يذهب إلى الديوان فيجمع الأوراق المهملة التي ألقاها . فيكتب على ظهرها ..

كان يجد مشقة في الحصول على ورق الكتابة ، فاعتمد على الحفظ وهكذا تكونت له حافظة قوية .. حتى لقد كان يحفظ كل ما يلقى عليه .

لاحظ أثناء إقامته في مكة أن لغة قريش قد دخلها الغريب من كلمات وتعبيرات المسلمين الجدد من المولى غير العرب . فلم يعد لسانها هو اللسان العربي المبين .. !

ثم إنه في تأمله للقرآن والأحاديث شعر بأنه في حاجة إلى زاد لغوي كبير ، وإلى تفهم أعمق لمعاني الكلمات وأسرار التراكيب .. وكان يشهد دروس الليث بن سعد إمام مصر وهو حينذاك فقيه كبير يتعلّق حوله الطلاب في المسجد الحرام كلما جاء حاجاً أو معتمراً ..

في إحدى حلقات الليث إلى جوار مقام إبراهيم ، نصح مستمعيه أن يتقدوا اللغة وأسرار بلاغتها وفتون آدابها . وأن يحفظوا الشعر الذي سبق نزول القرآن الكريم وعاصره ليحسنوا فهم معاني الكتاب المنزل والأحاديث ..

ولكم نصح الإمام الليث مستمعيه أن يخرجوا إلى البادية فيتعلّموا كلام (هذيل) ويحفظوا شعرهم .. فهذيل هم أفعش العرب ، وشعر المذليين عامر بكنز اللغة .

ولقد حفظ الليث نفسه أشعار المذليين ... واستشهد بها في تفسير بعض كلمات القرآن . كما فعل ابن عباس من قبل وهو شيخ المفسرين .

وخرج الفتى محمد بن أدريس الشافعي إلى بادية قريبة من مكة وعاش في مضارب خيامهم ، يحفظ عنهم أشعارهم وتراتبيهم اللغوية ، يرحل برحلتهم ، وينزل بنزولهم ويتعلم منهم .

ثم رجع إلى مكة ينشد أشعارهم ، ويدرك عنهم الأخبار.. كما قال هو نفسه حتى أن الأصمعي وهو شيخ اللغويين قال وهو في أوج شهرته : «صحت أشعار الهمذلين على فتى من قريش يقال له محمد بن أدريس ..

لزم الشافعي هذيلان نحو عشر سنين ، عكف فيها على دراسة اللغة وأدابها . وحفظ الشعر ، وتعلم منهم الرمائية والفروسيّة وبرع فيها ، حتى لقد كان يأخذ بأذن الفرس وهو يجري فيشب عليه في براعة وتمكن .

وأتقن الرمائي ، حتى قال عندما تقدم به العمر : «كانت همتني في شيئين : في الرمائي والعلم فصرت في الرمائي بحث أصيبي عشرة من عشرة » ثم سكت عن العلم ، فقال أحد الحاضرين : « أنت والله في العلم أكثرك منك في الرمائي »

عاد من البدية إذن فارساً متفوقاً في البداية في الرمائية ، ناصع البيان ، في صدره إلى جوار القرآن والحديث ، ثروة ضخمة من الشعر والأداب والأخبار والفقه واللغة

وعاد يجلس إلى حلقات شيوخه في المسجد الحرام .

جلس إلى أهل الحديث . والمفسر بن من أتباع ابن عباس . وإلى العلماء والفقهاء من أتباع الإمام جعفر الصادق .. وكانوا جميعاً ينبعون من علم الإمام علي بن أبي طالب .

وعلى الرغم من أنه قد جاوز العشرين ، وأصبح يملك القدرة على اختيار شيوخه في المسجد الحرام ، فقد تعود أن يسأل أمه التصيبة ، فتشير عليه بأسوء الشيوخ الذين ينبغي له أن يلزمهم .. وكانت أمه حافظة للقرآن والحديث ، بصيرة بأحكام الشريعة . ولقد ردت قاضي مكة حين استدعاه للشهادة هي وامرأة أخرى وأراد أن يفرق بينهما ، فطلبت أن تشهد الواحدة أمام الأخرى . وذكرت بالآية الكريمة : أن تفضل إحداهما . فـتذكرة إحداهما الأخرى » .

وكان الشافعي بارا بووالدته .. مستمعاً لنصائحها وقد وجّهته إلى فقه الإمام علي بن أبي طالب ، ونصحته أن يلتمسه من تلميذ ابن عباس وتلاميذ الإمام جعفر الصادق .. وكان مقاتل بن سليمان هو أعلاهم شأنًا وأبصرهم بالقرآن وتفسيره وبالحديث والفقه ..

وقد توقف الشافعي وهو ينظر في تفسير القرآن عند آية : « وقد خاب من دسّها » ...

ولم يعرف معنى كلمة دسّها ، فلم تكن قد عرضت له من قبل . ولم يجد الكلمة فيها تعلم من لغة العرب . وخرج إلى ظاهر مكة يسأل فيها بطننا من هذيل ، وهم أفعّل العرب ، فلم يجد عندهم جواباً .

وطاف على شيخ الحلقات من أهل الأثر ومسرى القرآن ، فلم يظفر بجواب شاف .. وهمة الأمر وَغَمَّهُ ، فلاذ بأمه يسألها النصيحة فوجهته إلى مقاتل بن سليمان تلميذ الإمام الصادق وذهب الشافعى إلى حلقة مقاتل بن سليمان فقال له مقاتل : دسأها من لغة السودان «ومعندها أغواها ...

اكتمل للشافعى علم حسن بالقرآن والحديث وأثار الصحابة ، وثراء لغوى يفتح مجاليق المعانى ، وذوق أدبى يتبع له أن يدرك لطائف البلاغة وأسرار البيان .

وقال له أحد شيوخه : «آن لك أن تفتى» .

ولكن الشافعى تهيب الفتيا ، فما كان إلا شابا صغيرا في سن أبناء المفتين من أصحاب الحلقات في المسجد الحرام ... وهو بعد لم يحصل على كل ما يرد من فقه المدينة ، حيث يشع علم الإمام مالك ، ولا من فقه العراق حيث مازال صدى جليل من آراء الإمام الراحل أبي حنيفة يدوى في جنبات المسجد الكبير بالكوفة ، وحلقات بغداد ، وحيث مازال تلاميذه أبو يوسف ومحمد بن الحسن وغيرهما يجادلون عن إمامهم ويضيفون إلى تراثه الجدلية

ثم إن الفتى لم يعرف كما ينبغي فقه الأوزاعي بالشام ، ولا فقه الإمام الليث بمصر .. هذا الفقه الذي اتسم بالتوفيق بين أهل الرأى وأهل الحديث ، والذي يعتمد الحزبين جميعا ، يتميز بعمق الإدراك لروح الشرعية ومقاصد الشارع ، ويواجه في يسر معجز كل ما يطرحه العصر من مسائل وقضايا .

وقرر أن يرحل في طلب الفقه من كل مدارسه ، كما رحل من قبل يلتمس الفصحي من خير منابرها

واستاذن أمه أن يرحل إلى المدينة المنورة ليدرس على الإمام مالك فأذنت له ..

كان الفتى إذ ذاك في نحو العشرين ، خلبه مالك حين جاء إلى المسجد الحرام فألقى بعض الدروس ، وأخذته هيبة مالك وحسن معرفته بالحديث :

وعرف عن مالك أنه على الرغم من سماحته ، صارم في عمله ، لا يبيع وقته للناس ، ولا يستقبل من يطرق باب داره خلال ساعات العمل أو الراحة ..

ولكن الشافعى لا يرى أن يكتفى بحضور دروس مالك في المسجد النبوى ، وهي مباحة للعامة ، بل يريد أن يلزمها ليتلقى منه علمه ، ولি�تاح له أن يسأله ويخاوره ...

ومالك لا يأذن بالمحوار فى دروسه ويطرد من حلقة كل من خالف تقاليد الدرس .. !!

## مالسييل إلى الإمام مالك إذن ! ؟

قرر الشافعى أن يحسن إعداد نفسه للقاء الإمام مالك ... فبحث عن كتابه «الموطأ» الذى أخرجه مالك منذ حين واصعا فيه كل فقهه وكل ما صاح عنده من الأحاديث النبوية الشريفة .

ووجد الشافعى نسخا من الكتاب ولكنها غالبة الثن ، وهو رقيق الحال .. فاستعار الكتاب من أحد شيوخه فى مكة وعكف عليه النهار والليل ، حتى حفظ الكتاب ، بحافظته المدربة التى تعود الاعتماد عليها منذ كان لا يجد ثمن الورق . ومنذ كان يدرس بالمكتب وهو صبي .

وزاده حفظ كتاب «الموطأ» شوقا إلى لقاء الإمام مالك وإلى صحبته .. !

وجهزته أمه للسفر إلى المدينة وباعت في ذلك بعض أثاث الدار ..

إنها هجرة في سبيل العلم فهي في سبيل الله

ورأت أمه أن تسهل له لقاء مالك ، فوسطت بعض أقاربها إلى والي مكة ، ليعطي ولدها كتابا إلى والي المدينة ، عسى أن يتوسط للشافعى فيلقى مالكا ويلزمه .

ويحكي الشافعى عن هذه التجربة بعد أن أخذ كتاب توصية من والي مكة إلى والي المدينة وإلى الإمام مالك .

قال الشافعى : «قدمت المدينة ، فأبلغت الكتاب إلى الوالي فلما قرأه قال : يافتى إن مشيني من جوف مكة إلى جوف المدينة حافيا راجلا أهون علي من المشي إلى باب مالك بن أنس . فلست أرى بذلك حتى أقف على بابه . فقلت : أصلح الله الأمير . إن رأى الأمير يوجه إليه ليحضر . فقال : هيبات ليت أني لوركبت أنا ومن معى ، وأصابنا من تراب العقيق نلنا بعض حاجتنا .. ! فواعدته العصر ، وركبنا جميعا فوالله لكان كما قال . لقد أصابنا من تراب العقيق ، (والعقيق حي بالمدينة يسكنه مالك) فتقدم رجل منا فقرع الباب فخرجت إلينا جارية سوداء فقال لها الأمير : (قولي لولاك إني بالباب ، فدخلت فأبطةلت - ثم خرجت فقالت : إن مولاى يقرئك السلام ويقول إن كانت لديك مسألة فارفعها في رقعة يخرج إليك الجواب . وإن كان للحديث فقد عرفت يوم المجلس فانصرف ، فقال لها : قولي له إن معى كتاب إلى مكة إليه في حاجة مهمة . فدخلت وخرجت وفي يدها كرسي . فوضعته ثم إذا بالك قد خرج ، وعليه المهابة والوقار وهو شيخ طويل مسنون اللحية ، فجلس وهو متطلس (يلبس الطيلسان) فرفع إليه الوالى الكتاب . فبلغ إلى هذا (أن هذا رجل يهمني أمره وحاله فتحده وتفعل وتصنع ) فرمى الكتاب من يده ثم قال : سبحان الله . أو صار علم رسول الله صلى الله عليه وسلم يؤخذ

بالرسائل ؟ فرأيت الوالي قد تهيب أن يكلمه . فتقدمت وقلت : أصلحك الله . إني رجل مطلبي «منبني المطلب» وحدثه عن حالى وقصتي ... فلما سمع كلامي نظر إلي ، وكان مالك فراسة فقال : مالسمك ؟ قلت محمد فقال : «يا محمد إنه سيكون لك شأن وأى شأن . إن الله تعالى قد ألقى على قلبك نورا فلا تطفئه بالمعصية . إذا ماجاء الغد تحيي ويجيء ما يقرأ لك» . فغدوت عليه ومعي «الموطأ» وابتداة أن أقرأ ظاهرا (من الحافظة) والكتاب في يدي . فكلما تهبت مالكا وأردت أن أقطع ، أعجبه حسن قراءتي وإعراقي فيقول : (يافتني زد) ، حتى قرأته عليه في أيام يسيرة .

ومنذ ذلك اللقاء عام ١٧٠ هـ لزم الشافعي مالكا حتى مات الإمام مالك عام ١٧٩ هـ .

لم يتركه الشافعي إلا ليزور أمه بمكة . أوليقوم برحالة إلى إحدى عواصم العلم والفقه .. وكان يستأذن شيخه مالك بن أنس فإذا أذن له جهزه بزاد ومال ودعا الله له .

وفي المدينة التقى الشافعي بمحمد بن الحسن تلميذ أبي حنيفة وشيخ أهل الرأى في العراق ، والتقى ببعض تلاميذ جعفر الصادق ، وتعلم منهم بعض فقه الإمام الصادق وأقضية الإمام علي كرم الله وجهه .. وتعلم من مذهب الإمام الصادق أن العقل هو أقوى أدوات الاستنباط حين لا يكون نص . العقل وحده هو أداة فهم النصوص لا الاتباع ولا التقليل !

وتعلم من تلاميذ الإمام الصادق رأى الإمام في حقيقة العلم .. فالعلم ليس حفظ القرآن والحديث ومعرفة الآثار فحسب ، ولكنه يشمل كل العلوم الطبيعية والرياضية التي تفسر ظواهر الكون وتكتشف عن قدرة الخالق .

وهكذا قرر أن يتعلم تلك العلوم الطبيعية والرياضية ، فتعلم من خلال رحلاته علوم الكيمياء والطب والفيزياء وتعلم الحساب والعلوم التي تجري عليها التجارة وعلم الفلك والتنجيم وهو نوع من العلوم الرياضية . وتعلم الفراسة ، ومارسها .

وقد تعرف إلى عدد من فقهاء مصر من تلاميذ الليث ، وكان من عادتهم بعد الحج أن يزوروا المدينة ليصلوا في الحرم النبوى وليسعوا مالك . وقد أملى الشافعي «الموطأ» على بعضهم ونشأت بينه وبينهم صدقة انتفع بها عندما هاجر إلى مصر و منهم ابن عبد الحكم .

ولقد رأى يوما في الروضة الشريفة بين القبر والمنبر فتى جيل الوجه نظيف الثياب حسن الصلاة ، فتوسم فيه خيرا ، وحدثه فعرف أنه من الكوفة بالعراق فسألة : «من العالم بها والمتكلم في نص كتاب الله عز وجل ، والفتى بأخبار رسول الله صلى الله عليه وسلم» فقال : «محمد بن الحسن وأبوي يوسف صاحبا أبي حنيفة» : فقال الشافعي : «ومتى عزتم تقطعنون؟» فقال الشاب : غداة عند انفجار

## الفجر»

وذهب الشافعى إلى شيخه ليستأذنه أن يرحل في طلب العلم ، فقال له شيخه مالك : العلم فائدة يرجع منها إلى عائدة . ألم تعلم بأن الملائكة تضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يطلب ؟ »

فليما كان السحر وانفجر الفجر ، سار مالك مودعاً تلميذه الشافعى عند محطة القوافل بالبقع خارج المدينة

وصاح مالك يسأل عنمن يؤجر راحلة إلى الكوفة ، فقال له تلميذه الشافعى : « لم تكترى لي راحلة ولا شيء معك ولا شيء معى ؟ » « فقال مالك له : لما انصرفت عنى البارحة بعد صلاة العشاء الآخرة ، قرع على قارع الباب ، فخرجت إليه ، فسألني قبول هدية فقبلتها فدفع إلي صرة فيها مائة مثقال وقد أتيتك بنصفها وجعلت النصف لعيالي » . وكان الطارق هو أحد تلاميذ الإمام الليث ، حمله الليث هذه الهدية لصديقه الإمام مالك وكان الليث قد تعود أن يصل مالكا بالهدايا الثمينة والمال الكثير

خرج الشافعى من المدينة وهو شاب في الثانية والعشرين ، فوصل الكوفة بعد رحلة شاقة استغرقت أربعة وعشرين يوماً ، فاستضافه محمد بن الحسن ، وتحاورا في الفقه ، وحضر حلقاته وحلقات زميله أبي يوسف

وكتب الشافعى كل ما وجد عند صاحبى أبي حنيفة من فقه الإمام الأعظم ، وعند ماترك الكوفة كان معه من الكتب حلبير.

ثم طاف في بلاد فارس ، والتقي بشيوخها وجرت بينه وبينهم محاورات ، ثم سافر إلى ديار ربيعة ومضر ، وألم ببعض قبائل البدو ، فأصاب ما عندهم من الفصحي .. وطاف في هذه الرحلة ببغداد وشمال العراق والأناضول وحرّان ثم سافر إلى بلاد الشام وزار أمم عبكرة ..

وعاد بعد عامين إلى المدينة وقد تزود بكثير من المعرف وكان يسأل طوال الرحلة عن أخبار شيخه مالك ، فعرف أنه قد اتسعت أرزاقه وأصاب الغنى ، فقد أجرى عليه الخليفة راتباً كبيراً ، ووصله بالأموال والهدايا الثمينة ..

وقصد الشافعى الحرم النبوى ، وبينما هو يتهيأ للجلوس فى المسجد فى حلقة الإمام مالك ، إذ فاجعه عطر فى المسجد فتماس من فى المسجد إنه مالك .. ورأى مالك يدخل المسجد وحوله جماعة يحملون ذيله حتى جلس على كرسيه الذى أعد له من قبل وعليه حشية ومن حوله الدفاتر . وببدأ مالك درسه فطرح مسألة على تلاميذه فلم يجبه أحد . وظل يطرح مسائل وما من مجيب . ! فضاق صدر الشافعى ،

نظر إلى رجل بجانبه ، وهمس إليه بالجواب .. واستمر مالك يسأل والرجل يجيب بما يهمس إليه الشافعى فسأل مالك من أين لك هذا العلم ؟ فقال الرجل : « إن بجانبي شابا يقول لي الجواب ». فاستدعاى مالك ذلك الشاب فإذا هو الشافعى .. ولم يكن مالك قد استطاع أن يراه في زحام الحلقة . فرحب به مالك ، وضمه إلى صدره ، وتزل عن كرسيه وقال له : « أقم أنت هذا الباب » .

رض مالك عن شرح تلميذه الشافعى ، وما انتهى الدرس ، حتى أخذه إلى بيته وأغدق عليه .

وحكم الشافعى لأستاذه عن كل ما تعلم ولقيه في رحلته من طرائف .

حکى له عن تجربته مع علم الفراسة ، وكان مالك ينصح تلميذه ألا ينصرف إلى غير علوم الشريعة ، وما يعين على الفقه بها وفهم النصوص واستنباط الأحكام ، والاهتمام باللغة وأدابها ، وحفظ أخبار العرب وأيامهم ، وحفظ الشعر الجاهلي ، لأن كل أرثك أدوات لفهم نصوص القرآن والأحاديث .. أما الفراسة فهى نفس مالك شئ منها ..

حکى الشافعى لشیخه مروحا عنه بعض ما صادفه مع علم الفراسة .. فقد مر في رحلته برجل يقف في قناء بيته ، وهو رجل أزرق العينين بارز الجبين ، وتأمل الشافعى ملامحه ، و قال لنفسه : « إن علم الفراسة يدل على أن هذا الرجل لشيم خبيث . وكان الشافعى مجدها يلحس مكانا يستريح فيه . قال الشافعى : « سأله الرجل هل من متزل ؟ » قال : « نعم ». وأنزلنى فيما رأيت أكرم منها ويعث إلى بعشا ، طيب » وعلف لداهش ، وفراش ولحاف . فقلت : « أعلم الفراسة دل على غایة دنامة هذا الرجل وأنا لم أشاهده منه إلا خيرا . فهذا العلم باطل ! ولما أصبحت قلت للغلام : أسرج الدابة ، فلما أردت الخروج قلت للرجل : إذا قدمت مكة ومررت بذى طوى فاسألك عن منزل محمد بن أدريس : فقال الرجل أعبد أبيك أنا ؟ أين ثمن الذي تكلفت لك البارحة ؟ ! قلت : وما هو ؟ قال: اشتريت لك بمدرمين طعاما ، وأداما بكذا وعطرها بكذا ، وعلف دابتك بكذا ، واللحاف بكذا .. قلت: ياغلام أعطه . فهل بقى شيء ؟ قال كراء المتزل قاني وسمت عليك وضيقتك على نفسى .

فضحك مالك .. وأكمل الشافعى : نعم اعتقدت في علم الفراسة ولم يجعله مالك بغير الضحكات ..  
وقلما كان يضحك ؟

\*\*\*\*\*

عاد الشافعى من هذه الرحلة باحترام كبير للإمام أبى حنيفة النعمان فقد قرأه على صاحبيه أبى يوسف ومحمد بن الحسن ، وأعجب بطريقته فى الحوار والاستنباط ، وبسعة أفقه ، دروى عنه كثيرا من حيله ، ودافع عنه .

وكانوا في العجاز يهاجمون أبا حنيفة ويتهمنه بأنه لا يحسن علم الحديث ، فدافع عنه الشافعى ووضعه في مكانه ، وعلمهم أن الناس « في الفقه عيال على أبي حنيفة » .

استقر الشافعى بالمدينة تلميذا للإمام مالك ، ثم بدأت تستقيم له طريقة في الجدل ، فهو يلتقي بالمحاجة دون أن يرفع صوته ، ويقول لمجادله : « خذ مكانى وأخذ مكانك » .. ويقول الرأى ، والرأى المضاد ، حتى ينتهي من هذا الأسلوب الجدل إلى الحقيقة .

وأخذ ينحى لأهل الرأى من أهل الحديث ، وينصف أهل الحديث من أهل الرأى ، ويقادم التعصب المذهبى ..

عاش في ظل الإمام مالك ورعايته حتى مات الإمام مالك سنة 179 هـ والشافعى في نحو التاسعة والعشرين . ويكتب الشافعى أستاذ الإمام مالك بن أنس آخر بكتابه وعكف على قراءة القرآن ملتمسا العزاء .. وشعر أنه أصبح غريبا في المدينة » .

لم تطب له الحياة بعد بالمدينة بعد أن توفى شيخه ..

وبدأ يبحث عن مكان ي العمل فيه عملا يعيش منه .. وعاد إلى أمّه بمكة ، مردعاً المدينة من خلال الدمع .  
وكان والي اليمن قد أقبل إلى العجاز في ذلك الوقت . فتوسط بعض أقرباء الشافعى من القرشيين عند والي اليمن ، فصحبه معه إلى اليمن ووكل إليه عمله .

لم يكن عند أم الشافعى ما تساعد به ابنته ليتزوج في سفره هذا ، وليرقى في اليمن حتى يتقبض راتبه ، فرحت داراً كانت لها بمكة ، وسافرت معه .

ولقد غضب منه أحد شيوخه بمكة وعنده لأنّه يترك الفقه من أجل الوظيفة بقوله : « تحالسوننا وتسمعون منا ، فإذا ظهر لأحدكم شيء دخل فيه ؟ » .

وتولى الشافعى عملاً مهما في نجران باليمن ، وهناك عاود دراسة علوم الفراسة التي كانت مزدهرة باليمن ، حتى تفرق فيها .

وجلس إلى بعض شيوخ الشيعة باليمن فتلقى منهم ، ولزم يحيى بن حسان تلميذ الليث بن سعد المصري وصاحبه ، فأخذ عنه كل ما انتهى إليه من فقه الليث .

وقام الشافعي بعمله في نجران خير قيام ، وأحبه الناس لعدله ، وتمسكه بالشريعة ، وإغلاقه باب العاملة والملق

ثم انه وجد حاكم نجران يظلم الناس .. فقام الحاكم وقف في المسجد يغض الناس على مقاومته ، وأنخذ ينضرب لهم الأمثال لما يجب أن تكون عليه سيرة الحاكم بالإمام علي بن أبي طالب وسيرته في الخلافة ، فأثار عليه أعداء كثيرين من الذين رفضوا معاملتهم

وoshi حاكم نجران بالشافعي ، ودس عليه أنه أنس حزبا علويا يهد للثورة على الخليفة ، ليولي أحد أحفاد الإمام علي ، بدلا من هارون الرشيد ، وأنه يؤيد الحفيد في الثورة على الرشيد .

وكان العباسيون غلاظا على العلوين ، يسفحون دماءهم بالظن . فقد كانوا يعرفون أن كثيرين يرون العلوين أحق منهم ومن الأمويين بالخلافة .

فزع الرشيد من قراءة كتاب والي نجران وخاصة من قوله عن الشافعي : « لا أمر لي معه ولا نهي ، فهو يعمل بلسانه مالا يقدر عليه المقاتل بسيفه » .

وفي الحق أن الشافعي ما كان يخفي حبه لعلي وللطلابين ، فقد قيل له يوما : خالفت علي ابن أبي طالب رضي الله عنه فيما قلت ». فقال لمناظره « الثبت لي هذا عن علي بن أبي طالب حتى أضع خدي في التراب وأقول قد أخطأت وأرجع عن قولي إلى قوله »

ووجد في اليمن كثيرا من الطالبيين ، وحضر مجالس العلم معهم ولكنه كان يستمع ولا يتكلم فإذا سُئل في ذلك قال : لا أتكلم في مجلس يحضره أحدهم وهو أحق بالكلام مني وعلم الرياسة والفضل » .

وهكذا شاع عنه حبه لبني علي ، والطلابين جيما .

قيل له إنك لتشييع تشييع علي بن أبي طالب وتشييع بنيه من بعده ومنهم الثائر العلوى على الرشيد .. فقال : « يا قوم ألم يقل رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يؤمن أحدكم حتى يكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين ؟ وقال عليه الصلاة والسلام : إن أوليائي من عترتي المتقدون ، فإذا كان واجبا على أن أحب قرابتي وذوي رحمي إذا كانوا من المتقدن ، أليس من الدين أن أحب قرابة رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا كانوا من المتقدن ؟ « وكتب والي نجران مرة أخرى إلى هارون الرشيد أن الشافعي يؤليب عليه الأمة وأنه يقود تسعة من الشوار ، يوالون الثائر العلوى الذي يطالب بالخلافة .

فارسل الرشيد إلى والي نجوان أن يرسل إليه الشوار مهانين في الأصناد .

كانوا تسعة على رأسهم الشافعى ووضع المحدث فى أرجلهم وأعناقهم تنفيذا لأمر الرشيد وسيقروا إليه مهاتين ...

كان الشافعى فى الرابعة والثلاثين ، فارسا ، بطلاً فى رياضة الرمي ، جلداً قوىًّا للبنيان ، ولكنه جهد من الرحلة والإهانة .

وأدخلوهم على الرشيد وإلى جواره محمد بن الحسن قاضي الدولة ، الذي تلقى عنه الشافعى من قبل فمـ الـ كـ فـ نـةـ .

وكان الشافعى يدعو بهميمة يسمعها الحاضرون : « الله بالطيف أسائلك اللطف فيما جئت به المقادير » .

أنكر التسعة تهمة الشورة على الرشيد ، ولكنـه أمر بقطع رموزهم جميعـا وسألـه التاسع أن يمهـلـه حتى يكتب لأمهـه فليس لها غـيرـه ، وأقـسم أنه بـرـىء من الإـعداد للشـورـة على الرـشـيد ، ولكنـ الرـشـيد أمرـ بـقطـع رأسـه .

كل هذا والشافعى فى الأصفاد : الأغلال فى عنقه وال الحديد فى قدميه ، ورأسه بالرغم من كل ذلك شامخ .

و بالله كان مجدها .

وَهَا هُوَ ذَا يَرِي الْمَوْتَ رَأْيَ الْعَيْنِ ، وَلَكِنَّهُ عَلَى الرَّغْمِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ، ثَابِتُ الْجَنَانَ ، عَمِيقُ الْإِبَانَ لَا يَمْلِكُ إِلَّا  
أَنْ يَدْعُوا اللَّهَ بِالنِّجَاهِ ...

وعندما انتهى الرشيد من قتل الرجل التاسع ، قال الشافعى : « السلام عليك يا أمير المؤمنين وبركاته .. » ولم يقل ورحمة الله .

فقال الرشيد : « وعليك السلام ورحمة الله وبركاته بدأت بسنة لم تؤمر بإنقامتها ، ورددنا عليك فريضة  
قمت بذاتها ، ومن العجب أن تتكلم في مجلسى بغير أمرى » .

قال الشافعى : « إن الله تعالى قال فى كتابه العزيز ( وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليسكن لهم دينهم الذى ارتضى لهم ولبيدهنهم من بعد خروفهم أمنا ) وهو الذى إذا وعد وفى ، فقد مكنك فى أرضه وأمنتى بعد خروفي حيث رددت

السلام بقولك» وعليك رحمة الله «فقد شملتني رحمة الله بفضلك يا أمير المؤمنين»

**فقيه الرشيد:** «وما عذرك من بعد أن ظهر أن صاحبك - يعني المأثر العلوى طفلي علينا وبني، واتبعه الأرذلون وكنت أنت الرئيس عليهم؟

**فقال الشافعى : «أما وقد استنطقتنى يا أمير المؤمنين فسأتكلم بالعدل والإنصاف . لكن الكلام مع ثقل الحديد صعب فإن جدت على بفكه أفصحت عن نفسي . وإن كانت الأخرى فيدك العليا ويدى السفلة والله عفى حميد»**

فأمر الرشيد بفك الحديدة عنه، وأجلسه.

وقال الشافعى : حاشا الله أن أكون ذلك الرجل ، قال تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بَسْأِلُوهُمْ فَإِنْ تَرَوُهُمْ يَمْلِئُونَ لِي حُرْمَةَ الْإِسْلَامِ وَذَمَّةَ النَّسْبِ وَكُفْرِيَّهُمْ .. وَأَنْتَ أَحْقَنَ مَنْ أَخْذَ بِكِتَابِ اللَّهِ . أَنْتَ أَبْنَى عَمَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْذَّائِدَ عَنِ دِينِهِ الْحَامِيِّ عَنْ مُلْتَهِ وَأَنَا يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ لَسْتُ بِعَطَالِيِّ وَلَا عَلَوِيِّ وَإِنِّي أَذْخِلُتُ فِي الْقَوْمِ بِغَيْرِ عَلَيِّ أَنَا رَجُلٌ مِّنْ بَنْتِ الْمُطَلَّبِ أَبْنَى عَبْدِ مَنَافِ .. أَنَا مُحَمَّدُ بْنُ أَدْرِيسٍ بْنُ عُثْمَانَ بْنِ شَافِعٍ بْنِ السَّائِبِ ..

فَقَاطَعَهُ الرَّشِيدُ : «أَنْتَ مُحَمَّدُ بْنُ أَدْرِيْسٍ؟

فقال الشافعى : «ولى مع ذلك حظ من العلم والفقه ، والقاضى يعرف ذلك ،

وكان محمد بن الحسن الذي استضاف الشافعى فى الكوفة من قبل ، قد أصبح قاضى الدولة ،  
يمجلس بمدار الرشيد فقال له الرشيد : «ما ذكرك لى محمد بن الحسن » ثم التفت إلى القاضى وسأله :  
يا محمد .. ما يقول هذا أهوكما يقوله ؟ . فقال بن الحسن إن له من العلم شأنًا كبيرا . وليس الذى يُفعَّ  
عليه من شأنه

**قال الرشيد :** فخذه حتى أنظر في أمره .

وهكذا نجا الشافعى برأسه ... وخرج إلى بيت محمد بن الحسن ضيفا عليه ..

ومازال محمد بن الحسن بالخليفة ، حتى رضي عن الشافعى ، واستدعاه ليتحنّ علمه .

وعقد له مجلسا من أهل العلم والفقه والرياضيات والطبيعيات والكيمياء والطب .

قال الرشيد: «إنا نراعى حتى قرباتك وعلمك فكيف علمك ياشافعى بكتاب الله عزوجل فإنه أولى الأشياء أن يمتنع بها»

**فقال الشافعى: عن أي كتاب من كتب الله تسألنى يا أمير المؤمنين فإن الله قد أنزل كتبا كثيرة؟**

فقال الرشيد ؛ «أحسنت . لكن إنما أسلنك عن كتاب الله تعالى المنزّل على ابن عمّي محمد رسول الله صلّى الله عليه وسلم

قال الشافعى : «إن علوم القرآن الكريم كثيرة فهل تأسلى عن عمه أو متشابهه أو عن تقديميه أو تأخيره أو عن ناسخه أو منسوخه ؟ .

فأعجب الرشيد وأهل المجلس بجواب الشافعى .

ثم أخذ الرشيد يسأله عن سائر العلوم الطبيعية والرياضية من طب وكيمياء وفلك وتنجيم وفراسة ..

فصفق الحاضرون إعجاباً بحسن إجابتاه ، وأجازه الرشيد بخمسين ألف دينار ، فقبلها الشافعى شاكراً ، وخرج إلى دار مضييفه ، فلتحق به أحد كبار رجال الدولة فقدم إليه صرة كبيرة بها دنانير ذهبية ، فردها الشافعى قائلاً : « لا أقبل عطاء من هو دوني إنما أقبل العطاء من الخليفة وحده »

عبد الشافعى إلى دار مضيقه محمد بن الحسن ، يتأمل كل الذى دار بينه وبين الخليفة .

تعلم الشافعى من الحنة لا يزج بنفسه فى صراع سياسى .

وحاول محمد بن الحسن أن يجذبه ليكون في صف بني العباس ، بدلاً من بني على ، ولكنَّه أثار العافية وأقسم لا يخوض غمارات الصراع السياسي ، وألا يقبل منصباً في الدولة ، فلن يهب نفسه لشيء بعد أعظم من العلم والفقه .. واعترف أنه أخطأ حين قبل المنصب في اليمن ، فرُجع بنفسه فيها ليس من شأنه .

وعكف على دراسة الطب والعلوم الطبيعية والرياضية يستكمل مافاته منها ، واهتم بالرياضيات البدنية ، وعاد يتدرّب على الرمى وركوب الخيل ، وقسم وقته بين هذا كلّه وبين دراسته الفقهية ودراسة مترجم من ثقافات المصريين القدماء القبط واليونان والفرس والهنود .

وأخذ لنفسه دارا، وبدأ يدرس فقه العراق على يد محمد بن الحسن تلميذ الإمام أبي حنيفة.

لقد درس هذا الفقه مرة عندما كان في نحو العشرين ، وهاهوذا اليوم في نحو الخامسة والثلاثين وقد أكسيته السنون خبرة ، وأنضجت الدراسة والمعاناة والتأملات عقله وقلبه ، يعيد دراسة فقه أبي حنيفة وغيره من فقهاء العراق .

و يبذل في كل أولئك من الجهد ما يجعل الطبيب يحذره من السل .

صاحب الشافعى حمدا يتلقى منه فقه أهل الرأى ، ولم يجد فى ذلك غضاضة ، فقد كان دائما مشوقا إلى المعرفة ، وإلى المزيد من العلم . وكان يقول : « من حسب أنه علم فقد ضل وجهل »

ولزم الشافعى حلقة محمد بن الحسن فى بغداد ، وشاهد فى الحلقة خالفة مالك ، وهجوما على آرائه ، وكان يستحب أن يواجه محمد فى الحلقة بخلافه معه حول الإمام مالك ، فما يجاد محمد يتصرف عن حلقته ، حتى يسرع الشافعى فى مناظرة تلميذ محمد ، مدافعا عن فقه الإمام مالك ، وعن أهل السنة ، حتى لقد أطلقوا عليه فى العراق اسم « ناصر السنة »

وعرف محمد أن الشافعى يناظر فى غيابه ، فأصر محمد على أن يناظره الشافعى .

وابى الشافعى خجلا من محمد ، ولكن محمد ألح عليه فتناولها فى رأى الإمام مالك فى الاكتفاء  
بشاهد واحد مع اليدين

وظهر الشافعى على محمد فى المناظرة

ثم رجع الشافعى عن هذا الرأى عندما رحل إلى مصر ، وسمع من تلميذ الإمام الليث حجة شيخهم فى التسلك بشاهدين .. فأخذ الشافعى برأى الليث ...

أعجب محمد بالشافعى ، وبلغ بمناظرته . وأعجب الشافعى بعلم محمد وبخلقه العلمي ، فما كان يغضب إذا غلبه مناظر ، وما أسرع ما كان يعترف لمناظره بالصواب إن اقتنع بمحبته .

قال عنه الشافعى : ما رأيت أحدا سئل فى مسألة فيها نظر إلا رأيت الكراهة فى وجهه إلا محمد بن الحسن ». .

وقد بلغ من حب محمد للشافعى ، أنه كان على موعد مع الخليفة ، وإذا بالشافعى أمام دار محمد ، فنزل محمد عن دابته ، وقال لغلامه اذهب فاعتذر . وأخذ ييد الشافعى ، فقال الشافعى : « لنا وقت غير هذا » فقال محمد « لا »

ودخل به داره يتناول زران ويتدارسان

وعلى الرغم من أن محمد من أهل الرأى من أتباع أبي حنيفة والشافعى من أتباع مالك شيخ أهل السنة . وبين أبي حنيفة ومالك خلاف كبير فى الأصول والفروع . على الرغم من ذلك فإن محمد كان يدح لتلاميذه علم الشافعى وسائله لماذا يؤثر الشافعى عليهم على الرغم من خلافها فقال : لتأنيه وتشتيته فى السؤال والاستماع .

أثرت الحياة الفكرية في بغداد ثراء عظيمًا بمحاورات الشافعى و محمد بن الحسن ، وكانت مثالا لأدب المناظرة ، وبراعة المتناظرين .

لهم كان الشافعى عفيف اللسان فهو لا يسىء إلى أحد ولا يجب أن يذكر أحد بسوء أمامه .

قال له أحد أصحابه فلان كذاب . فقال : لا تقل (كذاب) بل قل حديثه غير صحيح »

وكان يعظ أصحابه : «نزهوا أسماعكم عن استماع الحنا كما تزهرون ألسنتكم عن النطق به . فإن المستمع شريك القائل .

والشافعى على الرغم من خلافه مع أبي حنيفة إمام الرأى كان إذا سئل عن مكانته بين فقهاء العراق — ومنهم أهل الحديث — قال : «سيدهم»

ولعل أروع محاوراته مع محمد بن الحسن . هي تلك التي دارت حول الغصب

قال محمد للشافعى : «بلغنا أنك تخالفنا في مسائل الغصب «فقال الشافعى» أصلحك الله إنما هو شيء أتكلم به في المناظرة فإني أجلك عن المناظرة

ولكن حمدا صمم على أن يناظره

فسئل : «ماتقول في رجل غصب ساحة وبنى عليها بناء وأنفق عليها ألف دينار، فجاء صاحب الساحة وأقام شاهدين على أنها ملكه ؟

قال الشافعى : «أقول لصاحب الساحة ترضى أن تأخذ قيمتها ؟ فإن رضى ، وإلا قلعت البناء ودفعت ساحتها إليه .

قال محمد : فما تقول في رجل غصب لوحًا من خشب فأدخله في سفينته ووصلت السفينة إلى لجة البحر ، فأتي صاحب اللوح بشاهدين عدلين . أكنت تنزع اللوح من السفينة ؟

قال الشافعى «لا»

قال محمد : «الله أكبر تركت قولك ! ثم ما تقول في رجل غصب خيطا فجرحوا بطنه فخاطروا بذلك الخيط تلك الجراحة . فجاء صاحب الخيط بشاهدين عدلين أن هذا الخيط مغصوب أكنت تنزع الخيط من بطنه ؟

قال الشافعى «لا»

فقال محمد : « الله أكبر . تركت قولك » .

فقال الشافعى : أرأيت لو كان اللوح لوح نفسه ( لوح صاحب السفينة ) وأراد أن ينزع ذلك اللوح من السفينة حال كونها فى بحث البحر ، أمباح له ذلك أم يحرم عليه ؟

قال محمد : « يحرم عليه » .

فسأل الشافعى : « أرأيت لو جاء مالك الساحة وأراد أن يهدم البناء ، أيحرم عليه ذلك أم يباح ؟

فأجاب محمد : « بل يباح » .

قال الشافعى : « رحمك الله فكيف تقيس مباحا على معمر ؟ » .

قال محمد : فكيف يصنع بصاحب السفينة ؟

قال الشافعى أمره أن يسيرها إلى أقرب السواحل ، ثم أقول له انزع اللوح وادفعه لصاحبه .

قال محمد : قال النبي صلى الله عليه وسلم : « لا ضرر ولا ضرار في الإسلام » .

قال الشافعى : من ضرر ؟ هو ضر نفسه ثم سأله الشافعى : « ما تقول في رجل من الأشراف غصب جارية لرجل من الزنج في غاية الرذالة » .

ثم أولدها عشرة كلهم قضاة سادات أشراف خطباء . فأتى صاحب الجارية بشاهدين عدلين أن هذه الجارية التي هي أم هؤلاء الأولاد مملوكة له ماذا تعمل ؟

قال محمد : أحكم بأن أولئك الأولاد ماليك لذلك الرجل .

قال الشافعى أنشدك الله أى هذين أعظم ضررا أن تقلع البناء وتندى الساحة لما لكها أو أن تحكم برق هؤلاء الأولاد ؟

فسكت محمد بن الحسن ، أما تلاميذه في الحلقة فمالوا إلى رأى الشافعى .

\*\*\*\*\*

أقام الشافعى فى بغداد أعوااما قلائل . استوعب فيها كل معطياتها من العلوم الطبيعية والدينية والرياضية والفقهية ، وناظر نتهاها ، وقرأ عليهم كتاب الإمام مالك « الموطأ » ، ودافع عن أهل الحديث ، وأفاد من أهل الرأى .

وشعر آخر الأمر بالشوق إلى مكة ، وبأنه قد جمع من المعارف ما يوكله لأن يجلس في المسجد الحرام  
مجلس المفتى والأستاذ وشيخ الحلقة

وكانت مناظراته قد أتعجبت الرشيد ، فعرض عليه أن يوليه القضاء في أي مكان يريد ، أو يجعله  
واليا على أي قطر يختار.

ولكن الشافعى استأذن الرشيد فى أن يتفرغ للعلم ، وأن يعود إلى مكة ليعيش بين أهله من قريش  
وينشر ما تعلمه بين الناس .  
وأذن له الرشيد .

عاد الشافعى إلى أم القرى . فاتخذ له مجلسا للفتوى والتدریس في فناء بئر زرم بمجرد مقام إبراهيم  
خليل الله ... وهو المجلس الذى اختاره من قبل في عصر الصحابة ، عبد الله بن عباس مفسر القرآن  
ال الكريم ، وأحد الذين حفظوا فقه الإمام على بن أبي طالب وأقضيته ، وكان نائبه على الحجاز عندما  
كان الإمام على كرم الله وجهه أميرا للمؤمنين . يحكم الدولة الإسلامية الفنية من الكوفة في بيته هو  
من أدنى بيوت المسلمين

عاد الشافعى من بغداد ، ولايزال في أذنه طنين من ضجيج المناظرات .. وقد أثار له مقامه  
الطوبل هناك أن يقترب من أهل الرأى ، وأن يقرب أهل السنة من الرأى .. وأن يقنع بعض أهل  
الرأى بما عند أصحاب السنة ..

ومازالت صور من مخاورة مع محمد بن الحسن تلح عليه ..

في حواره مع محمد بن الحسن شيخ أهل الرأى في العراق بعد الإمام أبي حنيفة كان الشافعى  
يحاول أن يقرب المذهبين ، وكان مفتونا بذلك الطريق الوسط الذى اختطه الإمام الليث بن سعد  
المصري بين أصحاب الرأى وأهل السنة .

إنه لا يستطيع اليوم أن ينحاز إلى أي الحزبين .. فكيف استطاع الإمام الليث أن يجد هذا المنبع  
الوسط ؟

كانت آراء الليث قد انتهت إلى الشافعى منذ كان في اليمن ، ولكنه كان في حاجة إلى المزيد ،  
ولابد من السفر إلى مصر ليتلقي العلم من إمامها الليث بن سعد  
ولكن أهله في مكة أم القرى يستبقونه .

وإذن فليقم في مكة أم القرى حتى يقضى الله أمراً كان مفعولاً . وحتى يؤذن له بالسفر إلى مصر .

لقد أصبح الآن يملأ من عطايا هارون الرشيد مايسعنه بالتفrage الكامل للعلم .

وأنفق نصف ماحمله من العراق على فقراء مكة ، تنفيذاً لوصية أمه : أن يتصدق على الفقراء بنصف ما معه كلما قدم إلى أم القرى .

وهاهوذا الآن إمام مجلس للتدریس والإفتاء . ثابتًا ، راسخًا ، مطمئن النفس

وجعل مجلسه في المسجد الحرام ساعات قليلة بعد الفجر . أما بقية النهار والليل فقد خصصه للتأمل ، والاستنباط منهج في الفقه .

لكم هونادم لأنه أضاع وقته ، إذ قبل وظيفة في الين فدخل فيها ليس من شأنه على حساب ما كان ينبغي أن يحصل من معرفة ، ويشيع من علم ، وعلى حساب طلب الحقيقة والحكمة ..

على أن الوقت لم يفت بعد ، وعليه أن يuousن مآفاته .. إنه لعمل النهار والليل إذن ..

إنه ليفسر القرآن ويستتبط دلالات آياته ، ويدرس الناسخ والمنسوخ ، ويدرس السنة ومكانتها من القرآن ، ويتعرف على صحيح الأحاديث من باطلها ، في عصر كثريه وضع الأحاديث إما مشابعة للفرق السياسية المتاخرة ، وإما كيدا للإسلام ، وإما غفلة من وضع الحديث أو نقليه حتى لهد صبح عنده أن بعض الذين سمعوا الأحاديث كانوا يسمعون بعضها فيكتفون به ، وقد يكون فيما لم يسمعوا منه ماينسخ مانقلوه .

ثم : أخذ يفكير في كيفية استخراج الأحكام إن لم يكن هناك نص في القرآن أو السنة وكيف يجتهد المجتهد وماضوابط الرأي .

ووضع كتاباً أسماه «الرسالة» فيه القواعد الكلية العامة لاستنباط الأحكام وأسس هذا الاستنباط ، وأعاد النظر فيه فنقحه واختصر منه ولكن لم يطمئن إلى نشره ، فرأى أن يتركه بعض الوقت عسى أن يعيد النظر فيه ، بعد طرح مافيه من أفكار على أهل حلقة ، ومناظرة شيخ مكة وعلماء الأمصار الذين يفدون إلى البيت الحرام .

وطال مقامه بأم القرى هذه المرة ، وطابت له فيها الحياة ، وجذب إليه الكثيرين من رواد الحلقات الأخرى في المسجد الحرام .

وجلس إليه أبو عبد الله بن حنبل فأعجب به ، فذهب أبو عبد الله إلى أصحابه الذين يلتمسون العلم في حلقات

آخرى بالمسجد الحرام وأغراهم بالذهب إلى حلقة الشافعى . ويروى أحد أصحاب ابن حنبل : « قت فائى بي أحمد بن حنبل إلى فناء زمز ، فإذا هناك رجل عليه ثياب بيض ، تعلو وجهه السمرة ، حسن السمت ، حسن العقل ، وأجلسنى أحمد بن حنبل إلى جانبه

وقال أحمد ابن حنبل لصاحبه : « اقتبس من هذا الرجل فإنه مارأت عيناي مثله ، فإن فاتنا لن نعرضه أبدا ». .

ثم عاد الشافعى من جديد إلى كتابه الرسالة ، يتأمله ويهذبه حتى استقام له علم أصول الفقه ، فرأى أن يذهب إلى العراق يعرض على شيوخه هذا العلم الجديد ويناظرهم فيه .

كان قد جاوز الخامسة والأربعين ، وقد أصبحت له بمكة مدرسة وأتباع . وقد أطلقوا عليه في مكة « المفتى المكى » ، و « العالم المكى » .

وجلس في حلقة بجامع بغداد ، يشرح للناس ماوصل إليه في « الرسالة » من أصول  
وهناك بهر بعلمه الفقهاء والتلاميذ ..

ذلك أنه قد انتهى إلى أن القرآن الكريم قد جمع الأحكام وجاءت السنة شرعا وتبينا لما في القرآن ..

فعلى المجتهد أن يبحث عن الحكم في القرآن أو السنة .. فإن لم يجد ففي إجماع الصحابة .. إجماع الصحابة في كل الأقطار لا في المدينة المنورة وحدها ، بمحنة لا يصح إجماع إلا إذا اتفق عليه كل الصحابة

فإن لم يجد المجتهد حكما في كل ذلك ، فعليه أن يبحث في علة الحكم الواردة بالنص ، ويلحق بهذا الحكم ما يتشابه معه في العلة من القضايا الجديدة ، وهذا هو القياس ، وهذا أرضي الشافعى أهل الرأى وأهل الحديث جميعا .

احتفلت به بغداد كما لم تختلف بفقيئه زائر من قبل ، وفرح به تلميذه أحمد بن حنبل الذي كان ألف أن يختلف إلى حلقةه ويلزمه كلما زار مكة حاجا أو معتمرا ، قاصدا إليها على قدميه .. وتمني التلميذه على أستاذه أن يقيم في بغداد سنوات فينشر علمه ويؤسس فيها مدرسة فقهية جديدة .

ولكن الحياة لم تطب للشافعى في بغداد .. لكم تغيرت بغداد خلال هذه السنوات الطوال التي أقامها الشافعى في مكة .. !

لم تعد بعد هى بغداد التى أحبها .. مات خير أصدقائه محمد بن الحسن ، ولحق به آخرون ، وسجن الباقون أو تركوا العراق ، وذهب الرشيد ، فاضطررت الأمور بعد موته .. اختلف أولاده .. وحارب الأخ أخاه على الخلافة .. فقد ولى الأمين ولم يكدر يستقر على العرش حتى وثبت عليه أخيه المأمون فقتله ، وتولى مكانه .

ومازالت أصداء النوح على البرامكة تملأ آفاق بغداد ، منذ نكبهم الرشيد . وهم أقرب الناس إليه ، وأعمل فيهم السيف والآلات التعذيب حتى لا يرى فوق ظهرها برمكيا

ثم إن الرشيد بطش بكل معارضيه ، وما زالوا تحت الأصفاد فى كهف سحيق .. وما نفك من بين رجال العلم من يكيد لخالفيه فى الرأى ويحاول أن يوقع بهم عند المأمون ، الخليفة الذهبي ..

وشيء جديد يشغل مجالس الفقه عمما ينبغي أن تشغله به مما يفيد الناس فى دنياهم .. فالآفكار التى تطرح على ندوات العلم والفقه هى صفات الله وعلاقتها بذات الله تعالى .. والجبر والاختيار .

ثم إن العناية بالقرآن الكريم قد عدلت عن تدبر آياته وفهم الأحكام منها ، وتحرى مقاصدها بما يضبط معاملات الناس وسيرتهم فى دينهم ودنياهم ، وانصرف العلماء والفقهاء إلا قليلا إلى مناقشة صفة القرآن الكريم : أقدم هو أم مخلوق ؟

جدل نهى الصحابة عنه ، وانصراف عن مصالح العباد ، ومباحث ما كانت تشغل حلقات العلم والفقه من قبل ، بل كانت تتعرض لتختفى ، فها هي ذى الآن تسيطر على العقول والقلوب ! وهكذا كله غير ما ينبغي أن يشغل المسلمين ! إن هذا الشيء عجيب ..

وعلى الرغم من الإزدهار الحضارى الفائق ، فقد أحسن الشافعى أن الجسارة الفكرية فى مواجهة مقتضيات الحياة باستنباط الأحكام قد بدأت تنحسر ، ليزحف مذ جسارة زانقة ، هى الجرأة على الشريعة نفسها ، وشغل الناس بما لا ينتفعون فى مواجهة حياة كل يوم .

يواكب هذا كله دعوة ملحة إلى الزهد فيها أحله الله لعباده ، وحض الناس على القناعة بالفقر ، ليكتنزا الكائزون ، ويستمتعوا دون الرعية حتى بما حرم الله ..

لم تعد بغداد هى المدينة التى أحبها الشافعى من قبل ، وأفاد من مناظراته لعلمائهما ، وأتقن فيها علوم الطب والفلك ، والفقه .

وإذن ما بقاوه فى بغداد ! ؟

وإلى من يأنس فيها ؟

ومع من يقضى وقته ؟

لقد ألف حين زارها في المرة الماضية أن ينفق وقته مع صفيه وأستاذه محمد بن الحسن .. أين رفاق ذلك الزمان من العلماء والفقهاء ؟ لا أحد بعد !

والإنسان يحب من المدائن تلك التي يجد فيها الراحة والألفة ، وحسن الصحبة ، وجال الرفقة .. ولكنـه الآن في بغداد لا يجد من يأنس إليه غير أحد بن حنبل . إنه لأحب تلاميذه إليه حقا ، وما يقيم الشافعـي عليه في بغداد الآن إلا من أجل أحد بن حنبل ..

ومـر عليهـ شهران فيـ بغداد ، واستـدعاهـ الأمـون ، فـعرضـ عـليـهـ أنـ يـولـيهـ منـصبـ قـاضـيـ القـضـاء ، وـهوـ فيـ المنـصبـ الذـيـ كانـ يـشـغـلـهـ حـمـدـ بـنـ الحـسـنـ أـيـامـ الرـشـيدـ ، وـلـكـنـ الشـافـعـيـ كانـ قدـ آـلـىـ عـلـىـ نـفـسـهـ أـلـاـ يـتـولـىـ منـصـبـاـ ، وـأـنـ يـخـصـصـ كـلـ وـقـتـهـ لـلـفـقـهـ ، فـإـنـ وـجـدـ مـتـسـعاـ مـنـ الـوقـتـ فـلـيـخـصـصـهـ لـلـشـعـرـ ، وـمـاـقـلـ ماـكـانـ يـجـدـ الـوقـتـ لـمـارـاسـهـ هـذـاـ الـفـنـ الـحـبـيـبـ إـلـيـهـ ! .. وـمـاـكـثـ ماـكـانـ يـخـشـيـ أـنـ يـعـرـفـ عـنـهـ أـنـ قـدـ أـدـرـكـهـ حـرـفـ الـشـعـرـ فـيـ بـلـدـ الـفـقـهـ الـمـزـمـتوـنـ . ؟

\*\*\*\*\*

وتلقـىـ دـعـوةـ إـلـىـ زـيـارـةـ مـصـرـ مـنـ وـالـيـاـ الجـديـدـ ، وـمـنـ أـحـدـ تـلـامـيـذـ الـذـيـنـ أـمـلـىـ عـلـيـهـ «ـالـموـطـأـ»ـ فـيـ مـكـةـ مـنـ قـبـلـ ، وـأـلـفـ اـسـتـقـبـالـهـ فـيـ كـلـ مـوـسـمـ حـجـ ، وـقـدـ أـصـبـحـ تـلـامـيـذـ هـذـاـ الـآنـ فـقـيـهـ ذـاـ شـائـعـ مـصـرـ وـتـاجـرـاـ وـاسـعـ الـفـنـ وـهـوـ اـبـنـ عـبـدـ الـحـكـمـ .

لـقـدـ طـوـفـ الشـافـعـيـ فـيـ الـآـفـاقـ وـعـرـفـ الدـنـيـاـ وـعـرـفـ النـاسـ ، زـارـ الـيـنـ وـالـعـرـاقـ وـالـشـامـ وـفـارـسـ وـالـأـنـاضـولـ ، إـلـاـ الـبـلـدـ الذـيـ سـمعـ فـيـهـ مـنـ عـلـمـ وـحـكـمـ ، وـتـمـنـيـ أـنـ يـزـورـهـ .. زـارـ كـلـ عـوـاصـمـ الـفـقـهـ ... إـلـاـ مـصـرـ .. !

وـتـاقـتـ نـفـسـهـ إـلـىـ زـيـارـةـ مـصـرـ .. إـنـهـ يـعـرـفـ أـنـ أـوـلـ كـتـابـ تـرـجمـ إـلـىـ الـلـغـةـ الـعـرـبـيـةـ هـوـ كـتـابـ مـصـرـيـ فـيـ الـطـبـ ، تـرـيجـهـ فـيـ صـدـرـ الـأـسـلـامـ عـالـمـ قـبـطـيـ مـنـ أـهـلـ مـصـرـ .. وـقـدـ تـعـلـمـ الشـافـعـيـ مـنـ هـذـاـ الـكـتـابـ ... وـهـوـ يـعـرـفـ أـنـ حـكـامـ الـيـونـانـ الـذـيـنـ بـهـرـتـهـ أـفـكـارـهـمـ وـكـلـ آـفـكـارـهـمـ ، قـدـ تـعـلـمـواـ الـحـكـمـ وـالـطـبـ وـالـفـلـسـفـةـ وـالـرـيـاضـيـاتـ فـيـ مـصـرـ الـقـديـمـ .. وـهـوـ يـعـرـفـ أـنـ مـصـرـ مـنـ بـيـنـ كـلـ الـبـلـادـ الـمـفـتوـحـةـ هـيـ الـبـلـدـ الـوـحـيـدـ الـذـيـ عـرـفـ عـقـيـدةـ التـوـحـيدـ قـبـلـ الـدـيـانـاتـ السـمـاـوـيـةـ .. مـنـ يـدـرـىـ .. رـبـاـ كـانـ بـهـ رـسـلـ وـأـنـبـيـاءـ مـنـ لـمـ يـتـحدـثـ عـنـهـمـ الـقـرـآنـ ، وـقـدـ أـخـبـرـ اللـهـ تـعـالـىـ رـسـولـهـ صـلـىـ اللـهـ عـلـيـهـ وـسـلـمـ فـيـ الـقـرـآنـ بـأـنـهـ أـرـسـلـ مـنـ الرـسـلـ مـنـ لـمـ

ينزل قصصهم في القرآن ، ولم ينبوه بأمرهم فيها أنزل عليه من أنباء الغيب . !

وهو يعرف أن في مصر مزاجا من الحضارات ، وأن الحضارة المصرية القديمة قد شكلت الإنسان المصري فعلمه حب العدل والحرية والحقيقة والحكمة ، ثم جاءها الإسلام فأثبتت فيها نباتا طيبا ، وصاغ لها حياة خصبة من الأchner .. وانه ليتوى إلى التعرف على ماتركه الصحابة الأوائل في مصر ،منذ جاءوها في جيش الفتح ، وهو بعد يريد أن يعايش تلك المدرسة المصرية العظيمة في الفقه الإسلامي ، الغنية باجتهادات الإمام الليث ، رائد الشافعى في الطريق الوسط بين أصحاب الرأى وأهل الحديث .

وأصبح الشافعى ذات يوم فأعلن أنه راحل من غده إلى مصر ، فألح عليه تلميذه أحمد بن حنبل أن يبقى معهم في بغداد . ولكن الشافعى كان قد عزم فما عليه إلا أن يتوكلا .

وزار قبر الإمام أبي حنيفة ، وصل إلى ركتين ... ولا يلاحظ مرافقوه أنه عدل عن قواعده في حركات الصلاة إلى قواعد أبي حنيفة . فلما سأله في ذلك قال : «أدبًا مع الإمام أبي حنيفة أن أخالفه في حضرته » .

واجتمع خلق كثير في وداع الشافعى . أحمد بن حنبل مابرح يحاول إقناعه بالبقاء في بغداد ، فيمسك الشافعى بيد ابن حنبل ويترنم :

«لقد أصبحت نفسي تتوق إلى مصر

ومن دونها أرض المهامه والقفر»

«ووالله ما أدرى اللفوز والغنى

أساق إليها أم أساق إلى القبر»

وبكى أحمد بن حنبل . وبكي الشافعى والحاضرون ، ودعا الشافعى أحد بن حنبل أن يزوره في مصر ، فوعده أحد بالزيارة إن شاء له الله .

وصل الشافعى إلى مصر ، واستقبله على أبواب الفسطاط عدد من الفقهاء ورجال الدولة كلهم يستضيفه

ويلح عليه أن يقبل الضيافة ودعاه الوالى إلى منزل كبير خصص له ، ولكن الشافعى آثر الإقامة عند أقارب أمه ، تشبها بالرسول عليه الصلاة والسلام حين هاجر إلى يثرب ، فأقام عند أخوه .

وكانت جماعات القبائل العربية مازالت تندى إلى مصر منذ الفتح الإسلامي ، فتستوطن المنازل التي تألفها ، إما في الفسطاط أو في الأقاليم .

وكان أول ماصنعته الشافعى حين استقر به المقام أن ذهب إلى قبر الإمام الليث فزاره.

وقال وهو يقف على قبره : «**لله درك يا إمام ، لقد حزت أربع خصال لم يكملن لعالم ، العلم والعمل والزهد والكرم**»

وبعد أن فرغ من زيارة الإمام الليث سأله عن دار السيدة نفيسة ، وكانت تقيم بصر. منذ سجن أبوها ، وكان واليا على المدينة وهي حفيدة الحسن بن علي وزوجها هو إسحق المؤمن بن الإمام الصادق جعفر بن محمد حفيد الحسين بن علي رضي الله عنه .

وأستأذنا للإمام الشافعى في زيارتها فأذنت له ، ورجحت به ، وأعجبها عقله وورعه ، وسمع منها مالم يكن قد وصل إليه من أحاديث شريفة .

وألف منذ تلك الزيارة أن يجلس في حلقتها فيسمع ، ويقرأ عليها اجتهاداته .. وكان إذا أقعده المرض عن زيارتها أرسل يسألها الدعاء فتدعوه بالشفاء ..

وبعد أن فرغ من أول زيارة للسيدة نفيسة سأله مراقبيه أن يصحبوا إلى «**تاج الجوانح**»

— فهكذا كان يسمى جامع عمرو إذ ذاك — فوجد الجامع يمعن بحلقات الدرس ، وشاهد عجبا .. ! لم تكن كلها حلقات قرآن وحديث وفقه .. بل كانت فيها حلقات للفصص واللغة ، والشعر ، وسائر فنون الفكر والمعرفة .. مأروع انطلاق الحياة الفكرية هنا .. ! لقد كان من قبل يقول في حسرة :

ولولا الشعر بالعلماء يزري

ل كنت الآنأشعر من ليدي !

ولكنه هنا يستطيع أن يقول الشعر بلا حرج في هذه البيئة الفكرية المسماة

جلس للتعليم والإفتاء ، وفي أول حلقة له بالجامع جلس القرفصاء على حشية وكان مرضا بالبواسير وتصلب في الأطراف فأراد أن يمد رجله كما تعود منه مرض عملا بتصح الأطباء ، ولكنه لم يفعل تعرجا منه ، واحتراما لبعض أتباع مالك وأبي حنيفة .. وكان أتباع أبي حنيفة يكررون الفروض ويبحثون عن أحكام للواقع المفترضة .. وسأل أحدهم : «إذا حل رجل قربة بها ربيع نجس أينقض وضوه» ؟ هل انكشف العورة ينتقض الوضوء فأجاب الشافعى : آن للشافعى أن يمد رجله » .

ووجد تقاليد جديدة في الحلقات .. فالأستاذ لا يلقى الدرس على طلاب يستمعون ، كما ألف من

قبل وبصفة خاصة في حلقة الإمام مالك .. ولكن الأستاذ يبدأ درسه بكلام قليل ، ثم يدير حوارا بينه وبين التلاميذ ، ومن خلال المخاورات تنفجر المسائل وتتصاعد الآراء

كانت هذه هي تقاليد المدرسة المصرية القديمة ، وعليها تعلم فلاسفة الإغريق ومنها أخذوا أسلوبهم في المخاورات ...

وعلى هذا النهج سارت المدرسة المصرية في الفقه الإسلامي  
وتابع الشافعى هذا التقليد حتى في دروس القرآن والتفسير ..

وأحاط به تلاميذ الإمام الليث وأطلاعوه على ما حفظوه من شيخهم .. وكان يحسب أنهم هم الذين يلون القضاء ، وأن إليهم أمر الفقه ، ولكنه وجدهم معزولين ، يغضبونهم المتخصصون ، !

ووجد الحياة الفقهية يتنازعها أنصار الإمام مالك وأنصار الإمام أبي حنيفة ، والغلبة لأنصار الإمام مالك ، وفيهم مخالفون يشطرون ، حتى لقد يُؤذنون من يعلن الخلاف مع مالك من أتباع الليث أو أبي حنيفة

وجادل الإمام الشافعى بعض هؤلاء المشتبئين ، وقال لهم إن الإمام «مالك» بشر يخطئ ويفسّر فانتفاض أحدهم في وجه الإمام الشافعى ، وسفه عليه ، ووجه إليه كلمات بذيئة ، وحمل الحاضرون هذا المتعصب السفيه وأخرجوه من المجلس ، والشافعى مستمر في حديثه كأنه لم يسمع شيئا .. ! وعرف الشافعى أن هذا السفيه اسمه «فتیان» وبعد انتهاء الدرس طالب تلاميذه أن يصفحوا عن ذلك السفيه ..

ووضع الشافعى لنفسه نظاما لم يحد عنه . أن يبدأ دروسه بعد صلاة الفجر بعلوم القرآن ، فإذا انتهى منها جلس إلى درس الحديث .. ثم يجلس بعد هذا مجلسا لم يجلسه من قبل في حلقة قط ، ولكنه تمنى أن يجلسه ، وهو مجلس علوم اللغة والشعر وشئون المعارف الإنسانية الأخرى .. وفي هذا المجلس الأخير كان يعظ من يستمع إليه أو يحاوره : «إما العلم علماً علم الدين وعلم الدنيا ، فاما الذي هو علم الدين فهو الفقه ، والعلم الذي للدنيا هو الطب ، فلا تسكن بلداً ليس فيه عالم يفتتكم عن أمر دينك ولا طبيب ينبعك عن أمر بدنك » .

في مجلسه الثالث كان إذا لم يجد بين الحاضرين من يحسن مذاكرته في الشعر والأدب والعلوم الإنسانية طلب من صحبه أن يبحثوا له عن أدباء مصر وشعرائها وعلماء المعارف الإنسانية ، فما يزالون يتذكرون حتى تحين صلاة الظهر ، فيصلى بهم ، أو يصلى خلف واحد منهم ، وينصرف الجميع .

ويعود الشافعى إلى داره .. وقد يصطحب بعض صحبه للنداء معه ، ثم ينصرف إلى العمل ..

وقد تعلم من أستاذه مالك بنأنس أن يحمل الناس على احترام خلوته للعمل وعكرفه عليه ..  
فالعمل عبادة يحبه إلا يخالطها بشيء آخر ، ويحبه إلا يسمع لأحد بآفاسادها ، فالعلم لا يأتيك ببعضه إلا  
أن تُؤتئيه كلك ..

حتى إذا فرغ من العمل وصلى العشاء ، جعل جزءاً يسيراً من الليل لاستقبال الضيوف ، فيسمرون  
معاً ، ويذكرون الشعر والأخبار ، وبعض ما يسرى عن النفس في سر لطيف عذب .

وكان حسن الاصفاء ، محباً للطائف ، وقد أعجبته الملح المصرية ، فهو يطلب حكايتها من أصحابه  
المصريين معلناً إعجابه بظرف أهل مصر ..

وهو نفسه يمحكي الطائف ما شاهد في رحلاته الطويلة

من ذلك أنه رأى في المدينة المنورة أربع عجائب لم يرها في بلد قط .. رأى جدة عمرها إحدى  
وعشرون سنة !! وقاضياً حكم بإفلات تاجر في دين قيمته أربعة أرطال من نوى البليح !! وشيخاً  
عمره تسعون عاماً يدور نهاره حافياً راجلاً قائمًا يعلم القيآن الرقص والنقاء ، فإذا جاءت الصلاة صلى  
قاعداً .. ووالياً كان صالحًا طيباً فقال «مالي لأرأى الناس يجتمعون على بابي كما يجتمعون على  
أبواب الولاة ؟ ! قالوا له : «لأنك لا تضرب أحداً ولا تؤذى الناس» فقال : هكذا ؟ على بإمام  
المسجد » فأحضروا له إمام المسجد فأمسكوا به على باب الوالي ، وجعل الوالي يضرب الإمام والإمام  
يصرخ «أصلح الله الأمير» إيش جرى .. (أى شيء جرى ؟) وظل الإمام يصرخ والوالي يضربه حتى  
اجتمع الناس .. وسرى عن الوالي وطابت نفسه ، فقد اجتمع الناس على بابه !!

وكان مما يستعيد الشافعى روايته من ملح أهل مصر أن رجلاً كان له غلام غبي ، فقال له :  
«اذهب إلى السوق فاشتر حبلاً في طول خمسة عشر ذراعاً «فسألته الغلام وفي عرض كم» قال الرجل  
في عرضك !! في عرضك !! «وغاب الغلام ساعة وعاد بلا حبل يقول :» «لم أجده حبلاً في عرضي»

\*\*\*\*\*

اطمأنت الحياة بالشافعى في مصر . وجاء رمضان فصلى التراويح بالسيدة نفيسة ، ولاحظ أن عدداً من  
النساء يحضرن دروس الفقه ، منهن بعض زوجات تلاميذه وأخواتهم وبناتهم . وفي حلقة الفقه بالجامع  
جاءه رجل شاب كان قد طلق امرأته ثم ندم ، وأرجعها في رمضان وقبلها في النهار وهو صائمان ، واتجه  
الرجل إلى الإمام الشافعى قائلاً :

سلوا الفتى المكى هل فى تزاور  
وضمة مشتاق الفؤاد جناح؟

فأدناه الشافعى منه وقال مبتسما:

أقول معاذ الله أن يذهب التقى

تلاصق أكباد بهن جراح

فأحاط بالرجل عدد من المتعصبين وسأله ، ليجعلوا من القصة مأخذًا وسيطلا على الشافعى ..  
فرزعن فيهم الشاب : «ياناس .. أسأله عن امرأته ، وحکى لهم حکایة إرجاعها وتقبيلها في نهار  
رمضان .. قال الإمام الشافعى يرى أن قبلته لم تذهب تقاه وصيامه .. وهذا هو رأى إمامهم مالك نقلًا عن  
عمر بن الخطاب عن امراته عن أم سلمة أم المؤمنين ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ..

وفي هذه البيئة الفكرية المتحررة على الرغم من شغب المترمدين استراح الإمام الشافعى في مصر ،  
فانبسطت نفسه ، وانطلقت أفكاره .

وأخذ يذيع شعره وكثير منه مشهور مثل قوله :

ولأنى لشناق إلى أرض غزة  
 وإن خاننى بعد التفرق كتمانى  
سقى الله أرضا لوظفت بتربها  
كحلت به من شدة الشوق أجفانى

وقوله :

كل العداوات قد ترجى مودتها  
إلا عداوة من عاداك عن حسد

وقوله :

حسبى بعلمى أن نفع  
مالذل إلا فى الطمع  
ساطار طير وارتفع  
إلا كما طار وقع

وقوله:

أنا إن عشت لست أعدم قوتا

وإذا مات لست أعدم قبرا  
هستى همة الملوك ونفسي  
نفس حر ترى المذلة كفرا

ولكن الإمام الشافعى على الرغم من السماحة التى بهرته فى مصر ، كان يعانى من ضيق أفق التعصيبين وعدوانهم على الناس .. وكان هذا النفر ينتمى إلى المذهب المالكى ويسقطون بسلوكهم إلى سمعة أستاذه وشيخه العزى ز عليه .. فنصب نفسه مفتدا للدعاؤاهم .

مرفى الطريق بفقيه من هؤلاء يمسك برجل ويتهمه فى دينه ، والأخير يهزأ بالفقىء .. وأوشكا أن يتضاربا ، فخلصها الشافعى وقال : ماخطبكم؟ فقال الفقىء : «رأيته يبول واقفا». قال الشافعى : «وما فى ذلك»؟ ، قال : «يرد الريع من رشاشه على بدنـه فيصلـى به» ، فسألـه الشافعـى : «فهل رأـيـته أـصـابـه الرشـاشـ فـصـلىـ قـبـلـ أـنـ يـغـسلـ مـاـ أـصـابـهـ؟» ، فقالـ «لا» .. ولكنـي أـرـاهـ سـيـفـعـلـ» ، فـضـحـكـ الشافـعـىـ وـحاـولـ أـنـ يـنـصـحـهـ .. فـضـبـ الفـقـىـءـ ، وـعـرـبـدـ عـلـىـ الشـافـعـىـ وـسـبـهـ .. وـتـأـمـلـهـ الشـافـعـىـ ، فـإـذـاـ هوـ «ـفـتـيـانـ»ـ الـأـحـقـ الـذـىـ سـأـلـ الشـافـعـىـ حـيـنـ قـدـمـ عـمـاـ إـذـاـ كـانـ ظـهـورـ الـعـورـةـ يـنـقـضـ الـوـضـوـءـ ، ثـمـ شـتـمـهـ بـعـدـ ذـلـكـ فـيـ جـامـعـ عـمـرـ وـشـتـاـ منـكـراـ .

وإن للشافعى مع «فتیان» هذا الشأنا .. !

وكان «فتیان» هذا يقود جماعة من المتعصبين ، يرهب بهم أتباع الإمام الليث لأنه خالف الإمام مالك بن أنس ، ويرهب بهم من يلتفون حول الإمام الشافعى منذ اكتشاف الشافعى أن الفقه المصرى مختلف مع الفقه المالكى فى كثير من الأصول والفروع ، فأخذ الشافعى برأى إمام الفقه المصرى .. الليث بن سعد .

وشرع المتعصبون لمالك يتهمن الشافعى بأنه لا يعرف الحديث ، فرد عليهم أنصار الشافعى بشهادة أحد بن حنبل وهو من أكثر الفقهاء انتصارا للحديث » مامن أحد من أصحاب الحديث حل محبرة إلا للشافعى عليه مينة . ذلك أن أصحاب الرأى كانوا يهزاون بأصحاب الحديث حتى قدم الشافعى إلى العراق ، وأقام المحجة عليهم ! «

وعلى الرغم مما لقى الشافعى من المتعصبين ، فقد ظل يتابع حلقات الحوار والدروس ، والناس يفدون إليه من مختلف الأقطار والأمصار ، مفتونين بطريقته في الإلقاء والجدل ، وبلغاته حين يخطب

## الجامعة حتى أسموه «خطيب الفقهاء»

ومرت به الشهور في مصر ، وهو ينتظر مقدم صديقه وتلميذه أحمد بن حنبل .. وكثيراً ما كان يشرد ويقول : « وعدني صاحبى أحمد بالقدوم إلى مصر » .. و يتمنى وينتظر ..

على أن الواقع المصري الجديد ، وما اطلع عليه الشافعى في مصر ، من آراء وطرائق للاجتهداد ، جعله يعيد النظر في كل ما كتبه من قبل .

لقد غير كثيراً من آرائه .

ومن أبرز الآراء التي ظهر فيها التأثير المباشر للبيئة المصرية رأيه في الماء .. فقد كان يرى كالإمام مالك أن من حق صاحب الأرض التي بها بئر أن يبيع الماء ...

ولكنه في أرض النيل ، تابع رأي الإمام الليث ، في أن صاحب الأرض التي بها بئر ليس له إلا حق السبق في الاستعمال .. أي الامتياز فقط ، وللغير بعد ذلك حق الشرب وسكن الأرض بلا مقابل .

وشرع يراجع كتاب « الرسالة » مرة ثالثة ويصلح ماقضنه من أصول الفقه .. بل أخذ يراجع كل ما كتب من قبل فأحرق بعضه .

ونظر في الآراء التي تابع فيها شيخه (مالك) ، وعكف على فقه مالك كله يمحصه على ضوء ماتعلمته في مصر من فقه الليث ..

فأعلن في خاصته أن الإمام مالك بن أنس يقول بالأصل ويدع الفرع ويقول بالفرع ويدع الأصل .. ونشر كتاباً عن خلافه مع مالك في الأصول والفرع .. وقال إنه مع الليث في خلافه مع مالك !

ثم عكف على فقه أبي حنيفة يمحصه وانتهى من دراسته إلى نقد الإمامين مالك وأبي حنيفة . «فالملك أفرط في رعاية المصالح المرسلة وأبو حنيفة قصر نظره على الجزئيات والفرع والتفاصيل من غير مراعاة القواعد والأصول ..» وهكذا

وانقطع الشافعى ، يعيد كتابة « الرسالة » ويؤلف كتاباً جديداً في الفقه ، ويتقن ويصوب فيما لم يحرقه من الكتب القدمة

وجهد جهداً شديداً في هذا العمل

وروى بعض أهله «ربما قدمنا المصباح في ليلة واحدة ثلاثة مرات أو أكثر بين يدي الشافعى ، كان يستلقى ويتذكر وينادى : «ياجارية هلمى مصباحا» فتقدمه ويكتب ويكتب ثم يأمر برفع المصباح . ثم يعود بعد برهة فيطلب .. وهكذا . «وسأله» «لماذا لا تبقى المصباح فقد أجهدت جاريتك وأهلك؟» . فقال : «الظلمة أجلى للفكر» فقد كان لا يحسن التأمل إلا في السكون والظلمة .

وبعد أن فرغ من كتابة فقهه كله أرسل إلى صديقه أحد بن حنبل أن يخبر الناس بترك كل ما كتبه الشافعى من قبل ، وأن يأخذوا آرائه من كتبه المصرية وأرسل إليه هذه الكتب المصرية . فلما نظر فيها أحد بن حنبل أعجب بها وسألها أحد أصحابه ماترى في كتب الشافعى التي عند العراقيين أهى أحب إليك أم تلك التي كتبها بمصر؟ قال أحد : «عليك بالكتب التي وضعها بعصر فإنه لم يحكم ما كتبه قبل ذلك ولكنه أحكم كل ما كتبه بمصر

اتبع الشافعى بالفقه اتجاهها علمياً جديداً ، فهو يعني بالقواعد الكلية ولا يضيع وقته في الفروع ، فالكلى ينطبق على الجزئيات .

وانتهى في استنباط الحكم من غير النص ، إلى الاتجاه إلى الإجماع كمصدر للأحكام ، ولكنه لم يشترط إجماع الصحابة كما كان من قبل

والشافعى يطالب الفقهاء والولاة والقضاة باتقان اللغة العربية ، لكنه يفهموا النصوص حق الفهم .. فيها تزل القرآن تبياناً لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين .. فمن لا يتقن العربية غير جدير بالنظر في الشريعة .. وهو يعني باتقان العربية إتقان علومها من نحو وصرف وفقه لغة وبلاغة وأدب وشعر

ولقد حضر رجل من خرسان حلقة الشافعى في جامع عمرو فسأل : ما الإيمان؟

فرد الشافعى : «فما تقول أنت فيه

فقال الرجل : الإيمان قول

قال الشافعى : من أين قلت بذلك؟

قال الرجل : «من قوله تعالى : (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات) فصارت الواو فصلاً بين الإيمان والعمل

فـسـأـلـهـ الشـافـعـيـ :ـ «ـ فـعـنـدـكـ الـوـاـوـفـصـلـ «ـ قـالـ نـعـمـ »ـ

**قال الشافعى : فإذا ذكرت تعبداً إلهين إلاهما في المشرق وإنما في المغرب لأن الله تعالى يقول (رب المشرقين ورب المغربين)**

قال الرجل : « سبحان الله ، أجعلتني وثانيا ؟ قال الشافعى : »

بل أنت جعلت نفسك كذلك بزعمك أن الواو فصل .

وقد استطاع الشافعى وهو فى مصر أن يتحرر فى آرائه .. فألف كتاباً عن قتال أهل البغى لعله لم يكن يستطيع أن يضعه فى غير مصر ! .

وقتال أهل البغي قائم على تفسير قوله تعالى: «فقاتلوا التي تبغى حتى تقُيَّءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ»

وقد ورد هذا النص باقتتال المسلمين ، إذا فتة منهم بعثت على الأخرى ..

وأهل البغى عند الشافعى هم معاوية بن أبي سفيان وجنوده الذين حاربوا أمير المؤمنين على ابن أبي طالب

والشافعى يرى قتالهم واجبا شرعا ..

وكان بنو علی مغضطهدين فی حکم بنی أمیة ، وظلوا كذلك فی حکم بنی العباسی .. الحکم  
الذی عاش فی ظله الإمام الشافعی .. فرأیه فی أهل البغی يؤید حزب تھاربه الدولة ..

لم يحفل بذلك وهو مصر ، واحتاج في قتال أهل البغي وفي حكم الأسرى منهم بما صنعه الإمام على في معركة الجمل ومعركة صفين .. فهو لم يقتل أسيراً منهم ، ولم يقتل رجلاً مدبراً عن القتال . وهو لم يغنم من أموالهم إلا السلاح والخيل والدواب . أى أدوات الحرب وحدها ! والإمام على لم يقتل مدبراً من أهل البغي لأنَّه ربما كان هذا المدبر بِإِذْنِ رَبِّهِ قد رجع عن البغي ونوى البيعة لأمير المؤمنين . ولم يكن قتال أهل البغي دراسة تاريخية ، بل دراسة فقهية لأنَّ الأحزاب تقاتل ، وينبغي أن يتحدد حكم واضح في الأمر كله ..

ولقد نقد بعض أصحاب أحمد بن حنبل شيخه الشافعى على كتابه قتال أهل البغى وقالوا إنه متتشيم فقال أَمْدَ: سبحان الله .. وهل أَبْتُتَ أَحَدَ بِقَتَالِ أَهْلِ الْبَغْيِ قَبْلَ اِمَّرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى بْنِ أَبِي طَالِبٍ .

مرة أخرى يضطر الشافعى إلى الاشتغال بالسياسة .. ولكن فى هذه المرة يضطر إلى الاشتغال بالسياسة لا بحكم الوظيفة أو المنصب ، بل بحكم انشغاله الكامل بالفقه والعلم .. ! وقد أثارت له البيئة الثقافية في مصر أن يفكروا ويقولوا وينكتبوا في طلاقة وأمن .

\*\*\*\*\*

وفي مصر تحدث الشافعى عن الشورى ومكانتها في الإسلام ، واعتبرها فرضاً على الحاكم والمُحاكم .. بها أمر الله ورسوله .. وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يقول فيما لم ينزل فيه وحى «أشيروا على أيها الناس» .. وما كان في حاجة إلى مشورة ، ولكنه أراد أن يسن لولي الأمر من بعده . وروى عن أحد الحكماء أنه قال : «ما أخطأت قط ، إذا حزبني أمر شاورت قومي ، فعلت الذي يرون ، فإن أصبت فهم المصيبيون وإن أخطأت فهم الخطئون .

وعلى الحاكم أن يستشير أهل الرأى ، ويأخذ برأيهم فيما فيه مصالحهم .

ومن العدل أن يحسن اختيار الولاية ، فقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم : «من ولى من أمر المسلمين شيئاً فولى رجلاً وهو يجد من هو أصلح للمسلمين منه ، فقد خان الله ورسوله والمؤمنين» .

والشافعى يرى أن الحاكم واجب الطاعة مادام الناس قد اختاروه باختيار حر ، وبيعة لا إكراه فيها ولا زيف ، وإن كان هذا الحاكم قد غالب على الأمر وانتزعه من صاحبه .. وهو يكتسب الشرعية من مبادئ الرعية فإن رأوا في أمر الحاكم ما يخالف الله ورسوله فلهم لا يطاعوه .

واستند في هذا إلى ما كان بين عثمان وعلي ، فقد هاجم أبوذر الكاذبين وعاب سلوك معاوية وجاءته ، فشكاه إلى أمير المؤمنين عثمان بن عفان ، فنهاه ، فلم يسكن أبوذر ، فنهاه الخليفة إلى مكان منقطع بالصحراء اسمه «الربذة» وأمر بأن يتبعه الناس ، غير أن علي بن أبي طالب صحب أبو ذر ، وودعه كما ودعا عدد من الصحابة .

فقال عثمان لعلي : «.. ألم يبلغك أنى نهيت الناس عن أبي ذر وعن تشيعه؟ . فقال علي : «أَوْ كُلْ مَا أَمْرَتَنَا بِهِ مِنْ شَيْءٍ نَرِي طَاعَةَ اللَّهِ وَالْحَقِّ فِي خَلَاقَةِ اتَّبَعْنَا أَمْرَكَ؟ بِاللَّهِ لَا نَنْفَعُ» .

ثم إن الشافعى اهتدى إلى أن عمل أهل المدينة ليس حجة على المسلمين في كل البلاد ، فقد انتشر الصحابة في كل الأقطار وعلموا الناس ، وقد وجد في عمل أهل مصر ما هو أدنى للعدل وروح الشرعية ، كاستحقاق الزوجة لنصف المهر عند الطلاق .

\*\*\*\*\*

بهذه الآراء الجديدة جلس الإمام الشافعى يعلم الناس ويخاورهم فى حلقاته الثلاث حلقة القرآن ،  
 وحلقة الحديث ، وحلقة الأدب والمعارف الإنسانية ..

وفى هذه الحلقات لخص قواعد أصول الفقه بقوله : « نحكم بالكتاب والسنّة المجمع عليها التي لا  
 اختلاف فيها ، فنقول لهذا حكمنا بالحق في الظاهر والباطن ، ونحكم بنسبة روایت عن طريق الانفراد  
 لا يجتمع الناس عليها أى الأحاديث التي يروها آحاد ، ونحكم بالإجماع ثم القياس وهو أضعف من  
 هذا ، ولكنها منزلة ضرورية لأنّه لا يخل القياس والخبر موجود » .. وفي الحق أن الإمام الشافعى كلف  
 نفسه من المشقة مالا تتحمّله طاقة بشر .

فقد أعاد في نحو خمسة أعوام كتابة ما ألفه في نحو ثلاثين عاما ، وزاد على ذلك كتابا جديدة كتبها  
 أو أملأها »

وبلغ جمجم ما كتبه في مصر آلاف الصحفات ، وجمع معظم ما ألفه في مصر في كتاب « الأم »  
 وشرع يدرس هذا كلّه في حلقاته ، ويخاور فيه ، وينصح مستعمليه لا يتظروا في علم الكلام الذي  
 يبحث في القدر والجبر وصفات الله ، وأن يهتموا من علوم الدين بالفقه

وقال : « إياكم والنظر في الكلام فإن الرجل لو سئل عن مسألة في الفقه فأخطأ فيها كما لو سئل  
 عن رجل قتل رجلا فقال بيضة كان أكثر شيء أن يضحك منه ولو سئل عن مسألة في الكلام  
 فأخطأ فيها نسب إلى البدعة .

أجهده طول الجلوس للكتابة والتدرّيس فاشتدت عليه علة البواسير ومرض الأطراف

ولعل أخطر وأخرج ما كان يدور فيه الحوار في حلقات الإمام الشافعى هو خلافه مع الإمام مالك  
 في مصر من الحمقى والمتغبيين من لا يطيقون أن يجهرون أحد بالخلاف مع مالك .

وقد اجتمع بعض هؤلاء بزعامة الفقيحة الأحقن « فتيان » وطرح مسألة خلافية ؟ وساق « فتيان »  
 أدلة بمالك في المسألة ، وساق الشافعى أدلة .. وظهر الشافعى على « فتيان » وأقحمه فضاق صدر  
 « فتيان » وانفجر حقه وشتم الإمام الشافعى شيئاً قبيحاً .

وكان « فتيان » هذا قد كرر العدوان على الإمام الشافعى ، والشافعى يصفح عنه

ولكن أصحاب الشافعى ذهبوا هذه المرة للوالى ورووا ما كان من أمر « فتيان » مع إمامهم ،  
 وحقق الوالى الشكوى وشهد الشهود على « فتيان » ولكن الإمام الشافعى سكت حين سأله الوالى

فقال الوالى «لو شهد الشافعى على فتیان هذا لقطع رأسه»

وأمر الوالى بأن يضرب «فتیان» بالسياط ، ثم طيف به على جمل ، وقد حلقت لحيته وشاربه  
ورأسه ، ومن أمامه المنادى ينادى : لا هذا جزاء من سب آل رسول الله صلى الله عليه وسلم » .

ولم يكن الإمام الشافعى سعيدا بما حديث ..

عاد إلى بيته مهموما ، وغلبه نزيف البواسير ، فقد بلغ به الجهد الذى بذله وأثر فيه الانفعال .

وقال لمن حوله : إنه ليعرف علته ، ولكنه يخالف فيها الطب . فقد كانت علته تتطلب منه الراحة  
وعدم إطالة القعود فى الكتابة أو فى الحلقات

وزاره طبيب مصرى ،

فتناولوا فى الطب ، فأعجب به الطبيب المصرى ، وتمنى عليه أن يستغل بالطب فقال الشافعى ضاحكا  
وهو يشير إلى أصحابه المنتظرین خارج غرفته ، «هؤلاء لا يتركونى»

ونخرج الشافعى من داره بعد أيام إلى حلقة من جديد .

وتربيص به بعض السفهاء من تعصبا لفتیان .. حتى إذا خلت الحلقة من كل أصحاب الإمام  
الشافعى ، وبقى وحده ، وخلا الجامع من رواده ، باعثه السفهاء ، وانقضوا عليه يضر بونه ضربا عنيفا  
بهراءات كانوا قد أخفوها فى ملابسهم .. وظلوا يضر بونه حتى سقط مغشيا عليه ، وهرروا .

وحُملَ الإمام إلى منزله فاقد الوعي ، وعندما أفاق أخذ يعاني أوجاع الضرب ، وألام الصدمة ،  
والنزيف !!

ولم يسعفه العلاج فأرسل إلى السيدة نفيسة يسألها الدعاء كما تعود كلها ألم به مرض من قبل ،  
فقالت لرسول الإمام «أحسن الله لقاوه ومتعبه بالنظر إليه»

فعلم أنها النهاية .

وجاءه أحد عواده يقول له : «قوى الله ضعفك يا إمام» فتبسم الشافعى ورد عليه : «قوى الله  
ضعفى ؟ أتدعوا الله أن يزيدنى ضعفا ؟ .. ادع الله أن يذهب عنى ضعفى وأن يقوى عافيتي  
لأضعفى»

ونصحه أن يعني هو وساتر الفقهاء بإتقان علوم اللغة العربية والعلة تشتد والنزيف يستمر ..

فنادى أحد أصحابه الذين لزموا داره خلال العلة وطلبه منه أن يقرأ عليه ما بعد العشرين والمائة من سورة آل عمران

« وأوصى جواريه الثلاثة وغلامه ، وترك لأبنائه ولأهله إرثهم الشرعى

حتى إذا كانت ليلاً الجمعة ٢٨ من رجب سنة ٢٠٤ هـ . انتقل إلى جوار ربه وهو في الرابعة والخمسين ، بعد أن ملأ طباق الأرض فقها وعلميا ، خلال هذا العمر القصير

وُشيع يوم الجمعة آخر رجب وحلت جنازته إلى بيت السيدة نفيسة . فصلت عليه وقالت : رحمة الله . كان رجلاً يحسن الوضوء » .. وهي تعنى بالوضوء أصل العبادة أي أنه كان رجلاً صالحًا حسن العبادة .

وهكذا قضى الشافعى شهيد الرأى ، بعد حياة حافلة بالنضال الفكرى .

وعندما علم أحمد بن حنبل بوفاته بكى وقال « إنما الله وإنما إليه راجعون .. رحمة الله كان كالشمس في الدنيا وكالعاافية للناس . فانتظر هل هذين من خلف أو لها عوض » ؟

، ولكن الإمام أحمد بن حنبل كان نعم الخلف وغير العوض .

الإمام أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلَ  
الإِمَامُ الْمُفْتَرِي عَلَيْهِ



صامت يطيل السكوت والتأمل ، حزين يكاد لا يتسم ، وفي وجهه مع ذلك البشاشة وعلى قسماته الرضى ، لا يتكلّم إلا إذا سئل فلا يبتدر أحداً بحديث .. حتى إذا جلس في الحلقة بعد كل صلاة عصر في المسجد الجامع ببغداد ، وسأله الناس في أمور الدين والدنيا انفجر منه علم غزير نافع يهراً السائرين ! ..

قال عنه بعض الفقهاء : « إنه جع العلم كله ». وقال عنه بعض العلماء : « إنه ليس من الفقه في شيء ». وقال عنه الإمام الشافعى حين ترك بغداد إلى مصر : « تركت بغداد وما فيها أفقه ولا أعلم من أحمد بن حنبل » .

وفي الحق أن أحمد بن حنبل ظلم حياً وميتاً .

أما حياته فقد كانت نضالاً متصلًا ضد الفقر، وضد عادات عصره .. فقد حملته أمه وهي حامل به من « مزو » حيث كان يعمل أبوه في جند الخليفة – إلى بغداد ، ولم تكدر تفعى وليدها أحد حتى مات وترك له عقاراً عاشت من غلنته هي والصغير .. حتى إذا شب الصغير وزادت مطالبه ، عرفت أمه ضيق العيش ، ولكن الأرملة الشابة رفضت أن تتزوج على الرغم من جمالها وشبابها وطعم الخطاب فيها ، ووقفت حياتها على تربية وحيدتها أحمد ، فأحسنت تربيته ، ودافعت به إلى مقرئ ليعلمه القرآن ، فغتنمه وهو صبي ، وظل حياته كلها يعاود قراءته والتفكير فيه ..

وعند ما ثبتت به الحياة إلى الفتوى وجد من حوله دنيا عجيبة حقاً ، تطفى فيها البدعة على السنة ، ويشقى فيها عالم الأمر بجهله ، وتكتظ خزائن بعض الناس بالذهب والفضة بحيث لا يعرفون كيف ينفقونها ، وعلى مقربة منهم يسقط بعض النساء والرجال في حلة العار بمحنة عن الحياة الأفضل أو عن الطعام وسط أو حال النفاق والخطيئة .. !

وأصوات خادعة أو مخدوعة تحب الناس في الانصراف عن طيبات الحياة ما أحل لهم ، باسم الورع أو الزهد ، وتخضهم على ترك الحقوق لها ضميتها أو مغتصبيها ! ..

ووسط هذه النداءات المنكرة التي لم يعرفها السلف قط ، تزف عروس إلى ابن الخليفة الذي يجب أن يعيش كما يعيش أواسط الناس من رعيته ، فإذا بكل رجل من المدعين إلى حفل الزفاف من كبار القوم يُسلّم رقعة هي صك هبة : بضيعة وجارية ودابة ... فضلاً عن الدرالمنثور ! ... أما سائر الناس فتنتشر عليهم الدنانير والدرارهم وحقاق المسك والعنبر !

هكذا طالعت الدنيا شاباً حفظ القرآن صغيراً وتدبر في أحكامه وتعلم علم الحديث ، فما كان منه إلا أن أعلن إنكاره لهذا كله ، وسمى كل ما يحدث بدعة ونذر نفسه لمقاومتها ولإحياء سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم .. فاتّهموه بالتزمر !

هكذا عاش حياته ..

أما بعد موته فقد ابتنى بعض أتباعه نسبوا إليه مالم يقل وما لم يصنع ، وفرعوا على أصوله ما هو بريء منها ، وأسرفوا على الناس حتى لقد كانوا يطوفون بمداشر المسلمين بغير ورون بأيديهم ما يحسبونه بدعة ، أو منكرا ، ويفرضون ما يتخيلونه سنة ، وغالوا في هذا حتى نال الناس منهم أذى وعنت ، فكرههم الناس ونسبوههم إلى الحماقة وضيق الأفق وسخروا بهم ، وأذروا على مذهبهم .. وأصبحت كلمة المحتل أو الحنابلة تعني التبلد والتحجر والتعصب المذموم !

ولقد كتب ابن الأثير يصف ما كان يحدث من نفر من أتباع الإمام أحمد سنة ٣٢٣ من الهجرة : « وفيها عظم أمر الحنابلة ، وقويت شوكتهم ، وصاروا يكبسون الدور (أي يهاجرونها) فإن وجدوا بها نبيضاً أراقواه ، وإن وجدوا مفنياً ضربوها وكسروا آلة الفناء . واعتراضوا في البيع والشراء . ومشي الرجال مع النساء والصبيان فإذا رأوا ذلك سألوا الرجل عن التي معه من هي فأخبرهم ، وإلا ضربوه وحملوه إلى صاحب الشرطة وشهدوا عليه بالفاحشة . فأزعجوا بغداد . »

وما كان الإمام أحمد ليزعج أحداً ، وما كان فطا ولا غليظ القلب بل كان يجادل بالتي هي أحسن وكان يدعوا إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة إعمالاً لكتاب الله وسنة رسول الله عليه الصلاة والسلام ..

وما كان الإمام أحمد مستعصياً لرأي ارتكابه بل كان يحاور ، ويرجع عن رأيه إن تبين له ما هو أصح حتى لقد نهى عن كتابة فقهه لأنَّه كثير العدول عن آرائه ..

وما كان ضيق الأفق ، أو جامد الفكر ، أو منقباً عن عيوب الناس .. ما كان الإمام أحمد من هذا

كله في شيء . فقد كان من أوسع الناس أفقا ، ومن أعمق العلماء إدراكا لروح الشريعة ، ومن أكثر الفقهاء تحريرا لها من الجمود وتحررا بها في المعاملات .

ولكنه عاش في عصر تغشاه البدع ويسوده الترخيص الذي قد يزلزل عمود الدين فكان عليه أن يأخذ الكتاب بقوة .. ! .. ولقد قال عنه أحد معاصره : « مارأيت في عصر أحمد بن حنبل منرأيت ، أجمع منه ديانة وصيانته وملكا لنفسه ، وفقها وأدب نفس ، وكرم خلق وثبات قلب وكرم مجالسة وأبعد عن القاوت .

ولد أحمد بن حنبل في بغداد عام ١٦٤ هـ من أبوين عربين .. مات أبوه وهو طفل وترك له معاشاً ودارا يسكنها هو وأمه وعقارا يغل غلة لها قليلة ..

وكان عمّه يعمل في خدمة الخليفة الرشيد ، ويجمع أخبار بغداد ويسلمها إلى والي البريد (الأمير المسئول عن البريد) ليوصلها إلى الخليفة إذا كان الخليفة خارج بغداد .. وانقطعت أخبار بغداد عن الخليفة فأرسل إلى الوالي يسأل ، فسأل الوالي عمّ أحد ، وكان أحد غلاماً صغيراً ، وكان عمّه يرسله بالأخبار إلى الوالي ... فسألته عمّه : « ألم أبعث الأخبار إلى الوالي؟ » فقال : نعم ، فقال عمّه : « فلا شيء لم توصلها؟ » قال أحد : « وحيت بها في الماء! .. أنا أوصل الأخبار! »

وحين سمع الوالي بما كان من أمر أحد والأخبار قال : « إنما الله وإنما إليه راجعون .. هذا غلام يتوعّ ، فكيف نحن؟ » .

على هذا الوضع نشأ أحد بن حنبل ، حتى أن نساء الجنادذين سافروا مع الرشيد في الغزو كن لا يجدن فتى غيره يشقن فيه ، فيقرأ لهن رسائل الأزواج ، ويليهن الردود .. ولكنـه كان لا يكتب الكلام الفاحش الذي قد تملـيه بعض الزوجات المشوقات إلى الأزواج .. !

ولقد أدرك منذ نشأ أنّ أمّه تعانى في سبيل توفير حياة كريمة له ، وأنّها ترفض الخطاب من أجله ، فحرص على أن يعوضها ، وبذل كل جهده في الدرس حتى حصل علوماً ومهارات كثيرة في سن صغيرة معتمداً على نفسه . قال أحد جيرانه : « أنا أتفق على ولدي وأجيّهم بالمؤدبين على أن يتأدّبوا ، فما أراهم يفلحون ، وهذا أحد بن حنبل غلام يتيم .. أنظروا كيف أدبه وعلمه وحسن طريقته! » .

لقد أضجه الاعتماد على النفس ، وحرصه على أن يكاثر أمّه على صبرها وتضحيتها بالتفوق ، حتى لقد أعجب أساتذته فقال أحدهم : « إن عاش هذا الفتى فسيكون حجة على أهل زمانه » .

على أن الفتى شعر أنه أصبح مما ثقيلاً على أمّه .. وإن كان قد أحسن مكافأتها بانقطاعه إلى

الدرس ، وذبوع أمره بين الأساتذة والطلاب ..

وكان أحد قد رأى أمه تتبع درين لتعيينه على طلب العلم ، فآلى بيته وبين نفسه لا يجشمها مالا  
بعد

وأراد أن يوفر لأمه ماترك أبوه من غلة العقار الذى مات عنه وهو بناء كبير يحوى عدة حوانين تغل  
كلها سبعة عشر درهما فى كل شهر .. ! .. وكان فى أحد هذه الحوانين نساج فتعلم منه وعاونه ، فقد  
حفظ أحد فيها يحفظ من أحاديث أن أطيب ما يأكله الإنسان هو ما يكسبه من عمله .. وكان أحمد حفيا  
بالسنة حريصا عليها ، من أجل ذلك حرص على ألا يأكل إلا من عمل يده .. !

على أن عمل يده لم يكن يكفي للطعام ولواجهة أعباء الحياة ، منذ صمم على أن ينزل لأمه عن  
غلة العقار الذى مات عنه أبوه ، فلجأ إلى الاقتراض ، ولقد أدرك بعض دائنيه ضيق حاله فأبى عليه رد  
الدين قائلا : « ما دفعتها وأنا أنوي أن آخذها منك » فقال له أحد : « وأنا ما أخذتها إلا وأنا أنوي أن  
أردها إليك »

على أن الحياة كانت تقلل عليه بطالها فى بعض الأحيان ، فلا يجد طعاما .. فيذهب إلى المزارع  
والبساتين ، ليلتقط ما نزل على الأرض خارجها من الثمار .. وقد هدته تجربته الخاصة إلى أن هذا  
الزرع يجب أن يباح لمن يحتاج إليه ، .. وإلى هذا المبدأ انتهى في فقهه .. على ألا يدخل ذو الحاجة ملك  
الغير ليأكل ، إلا بإذن المالك ..

ول skim صقلته المعاناة وهدته إلى قواعد في الفقه وإلى أحكام وفتاوي .. ذلك أنه كابد ضرورة  
الحاجة ، وعرف أحوال الناس ، واحتياتهم على الحياة ، وذاق من اليساء ، وعرف أحوال الأسواق .. !

وقد أكسبه هذا كله بقترا بالناس وفهمها للدنيا ، وتقديرها لمتطلبات الحياة وضرورتها ، وتبغض كل  
أولئك فيها أحدث من فقهه ورأى ..

ثم الرحلة في طلب العلم . ولكن لاقى في هذه الرحلات من أحوال !!

قام بمعظمها على قدميه إذ لم يكن يجد أجر الدابة .. وعمل في بعضها حتماً ليجعل لنفسه .. وعمل  
في بعضها نساجا ، وكان حسن الخلط .. وأكسبه كل هذه التجارب خصوبة فكر ..

وهو في كل ما يعرض له يرفض العطاء ، ويصمم على ألا يأكل إلا من عمل يده ..

كان كثير الرحالة إلى اليمن يطلب الحديث من أحد علمائها ، ورأى الشافعى حين كان ببغداد رقة حال أحد ، وعناده في رحلاته إلى اليمن ، وكان المأمون قد طلب من الشافعى أن يختار له قاضياً لليمن فعرض الأمر على تلميذه أحد ، فأبى .. فلما ألح عليه الشافعى قال له أحد : « إن عدت إلى هذا لا تراني أبداً » .

بدأ أحد في طلب الحديث وهو في مطلع الشباب .. في الخامسة عشر من عمره .. وظل سبع سنوات يتلقى الحديث على شيوخه في بغداد ، ثم سافر في طلبه وهو في مطلع شبابه في الثانية والعشرين .. سافر يلتقي بالحديث عند شيخ البصرة ، فأقام عاماً ، رحل بعده إلى الحجاز ، وهناك سمع للشافعى بالمسجد الحرام ، فقال لصحابه الذين قدموه الحجاز معه : « إن فاتنا علم هذا الرجل فلن نعرضه إلى يوم القيمة » .

ثم عاد إلى بغداد ، وعاد مرة أخرى إلى الحجاز .. وهناك سمع من الإمام مالك والإمام الليث بن سعد المصري وأنجرين ، ثم سافر إلى اليمن ليلزم شيخها عبد الرزاق بن همام ، وكان قد التقى به في الحج ، ووجد عنده كثيراً من الأحاديث ، فآثر أن يلزم باليمين فيتلقى منه .. ولقد حاول عبد الرزاق أن يصله ببعض الدنانير ، ولكن أحد بن حنبل أبى .. وصمم على أن يكسب عيشه بعمل يده فاشتغل نساخاً .. وتواترت رحلاته إلى خراسان وفارس وطرسوس .. وإلى كل مكان يسمع أن فيه راوية حديث ..

كان أحد قد تعلم الحديث أول ما تعلم من أبي يوسف أحد أصحاب أبي حنيفة .. وكان أبو يوسف قاضي قضاة الدولة ، وله حلقة درس يعلم فيها الناس .. وقد بُهْر أحد بعلم أبي يوسف ، وأعجب بجرأته في الحق .. وكان أحد لا يفتئاً يذكر بآكبار ما صنعه أبو يوسف مع وزير الخليفة ، إذ رد شهادة الوزير قائلاً : « لا تقبل شهادة الوزير لأنه قال للخليفة أنا عبدك ! .. فإن كان صادقاً فهو عبد ولا تقبل شهادة العبد ، وإن كان كاذباً أو منافقاً ، فلا شهادة لكاذب أو منافق ! » .

على أن أحد بن حنبل على الرغم من إكباره لأستاذه أبي يوسف ، لم يجد عنده كل ما يريد من الحديث .. فقد كان أبو يوسف من أصحاب الرأى .. وأحد بعد أن حفظ القرآن يريد أن يحفظ كل الآثار التي خلفها الثقات من رواة الأحاديث .. فاترك أحد أبي يوسف قالياً له ، فقد شارك أبو يوسف في صياغة وجدان أحد وضميره الدينى والاجتماعى ، ولكنه تركه بحثاً عما عند غيره وهو على مودة معه .

ودرس على عبد الله بن المبارك ، وكان فقيها واسع العلم ، واسع الغنى في آن واحد .. ولقد حاول ابن المبارك أن يعين أحد بن حنبل بماله ، ولكنه أبى وقال إنه يلزم لفظه وعلمه لا ماله ، بل على الرغم من ماله !!

وقد تعود ابن المبارك أن ينفق كل دخله على الصدقات وطلاب العلم . كان زاهدا .. والزهد عنده التقوى .. يعلم الناس أن العالم الذي يشيع علمه بين الناس أفضـلـ ألفـ مرـةـ من الذى ينقطع للعبادة .. وقد حكى أحد معاصريه أنه رأى بعيرين يحملان دجاجا مشويا لسفرة ابن المبارك ، وكان يطعم الناس الفالوذج ، ويأكل هو الخبز والزيت ، فإذا اشتوى طيبا لم يأكله إلا مع ضيف .. ويقول : «بلغنا أن طعام الضيف لا حساب عليه .» .. وقيل له : «قل المال فقلل من صلة الناس» فقال : «إن كان المال قد قيل ، فإن العمر قد نفد .» وكان يقول : «ليس يلزمـنـيـ منـ الدـنـيـاـ إـلاـ قـوـتـ يـوـمـ فـقـطـ» .. من أجل ذلك أحب الناس عبد الله بن المبارك ، والتلقوا حوله حتى إنه قدم الرقة وبها هارون الرشيد ، فاجتمع الناس وتزاوجوا احتفالا به حتى «تقطعت النعال وارتفاع الغبار» ، فأشرفت زبيدة زوج هارون الرشيد من قصبرها ، فلما رأت زحاما لم تره قط سالت : «ما هذا؟» قالوا «الفقيه العالم عبد الله بن المبارك» . فقالت : «والله هذا هو الملك ، لا ملك هارون الرشيد الذي يجمع الناس إليه بالسوط والعصا والشرطة والأعوان» ..

وكان أحد من المعجبين بالعالم عبد الله بن المبارك ، كان معجبا بشخصه وبفظه وعلمه وبسيرته بين الناس .. وعبد الله بن المبارك هو أحد الذين أثروا في أحد بن حنبل وفي تشكيل فكره وسلوكه وموافقه .. فقد أدرك أحد في مطلع شبابه ما تعلمه من ابن المبارك أن الدعوة إلى الفقر ليست زهدا ، وإنما هي تمكين للأغنياء من المال ، ليكون المال دولة بين الأغنياء .. وأن الزهد الحق هو ما سنته الرسول عليه الصلوة والسلام ، وتابعه فيه أئمة الصحابة من بعده .. وهو ليس الإعراض عما أحل الله ، بل التعفف عن النظر أو التفكير فيها حرمه الله أو اشتءاه ما يذكره .. الزهد هو التقوى .

تحمل أحد المشقات ، وخاصـ الغـرـماتـ ، بـعـثـاـ عـنـ الـأـحـادـيـثـ الصـحـاحـ يـوـاجـهـ بـهـ أـلـوـانـ الـبـيـعـ ..

ثم إنه خرج إلى طرطوس مرابطا مستعدا للجهاد ، ولبث فترة هناك ثم عاد إلى بغداد . فقد كان يرى الجهاد فريضة على كل قادر: الجهاد بالنفس أو المال أو بها جيـعاـ

كان العصر زاخرا بالعلوم والمعارف ، وكان الفقهاء من قبله يعنون بها ويتعلمونها ، ولكنه لم يجد

منهم أحداً يتخـصـص في عـلـومـ الـحـدـيـثـ ، وـيـتـوفـرـ عـلـىـ الـآـثـارـ وـجـهــهاـ ، فـوـهـبـ نـفـسـهـ لـإـتقـانـ عـلـومـ السـلـفـ فـحـسـبـ ، لـأـنـ شـعـرـ بـأـنـ الـأـمـةـ فـيـ حـاجـةـ إـلـىـ هـذـاـ التـخـصـصـ .

وـظـلـ يـرـحلـ ماـشـياـ فـيـ طـلـبـ الـحـدـيـثـ إـكـبـارـاـ لـلـغـاـيـةـ التـيـ يـسـعـيـ إـلـيـهاـ أـوـ عـجـزاـ عـنـ النـفـقـةـ ، يـحـمـلـ فـوـقـ ظـهـرـهـ مـتـاعـهـ وـكـتـبـهـ ، وـيـؤـجـرـ نـفـسـهـ لـلـعـمـلـ إـنـ نـفـذـ زـادـهـ ... حـتـىـ جـمـعـ آـلـافـ الـأـحـادـيـثـ ، وـهـوـمـاـيـفـتـأـ عـلـىـ الرـغـمـ مـنـ ذـلـكـ يـجـبـ الـآـفـاقـ ، حـتـىـ نـخـلـ جـسـدـهـ ، فـلـامـهـ فـيـ ذـلـكـ أـحـدـ أـصـدـقـائـهـ قـائـلاـ : «ـمـرـةـ إـلـىـ الـكـوـفـةـ وـمـرـةـ إـلـىـ الـبـصـرـةـ وـمـرـةـ إـلـىـ الـحـجـازـ وـمـرـةـ إـلـىـ الـيـنـ ؟ـ !ـ .. إـلـىـ مـتـىـ ؟ـ !ـ »ـ فـقـالـ أـحـدـ : «ـمـعـ الـمـيـخـبـرـةـ إـلـىـ الـقـبـرـةـ .ـ »ـ

وـمـاـكـانـ لـيـسـتـهـ مـهـماـ تـكـنـ الـمـشـقـةـ .. فـقـدـ كـانـ يـطـلـبـ مـعـ الـحـدـيـثـ عـلـومـ الـفـقـهـ .. كـانـ يـطـلـبـ فـقـهـ الـخـلـفـاءـ الـراـشـدـينـ ، وـفـقـهـ سـاـئـرـ الـصـحـابـةـ ، وـفـقـهـ الـتـابـعـينـ وـتـابـعـيـهـمـ بـإـحـسـانـ .. وـقـدـ جـلـسـ فـيـ رـحـلـاتـ إـلـىـ الـحـجـازـ فـيـ موـاسـمـ الـحـجـ إـلـىـ كـلـ فـقـهـاءـ عـصـرـهـ .. فـيـ الـمـسـجـدـ الـحـرـامـ ، وـفـيـ الـحـرـمـ الـنـبـويـ ..

عـلـىـ أـحـدـاـ لـمـ يـجـذـبـهـ كـمـ جـذـبـهـ الشـافـعـيـ !ـ ..

وـاتـصـلـتـ بـيـنـهـ الـمـوـدـةـ مـذـ لـقـيـهـ لأـولـ مـرـةـ فـيـ الـمـسـجـدـ الـحـرـامـ .. وـكـانـ أـحـدـ فـيـ خـوـثـانـيـةـ وـعـشـرـيـنـ وـالـإـمـامـ الشـافـعـيـ يـكـبـرـهـ بـنـحـوـسـتـةـ عـشـرـ عـامـاـ ، وـمـعـ ذـلـكـ فـقـدـ أـحـسـ بـأـنـ الشـافـعـيـ لـيـسـ أـسـتـاذـاـ وـمـعـلـيـاـ فـحـسـبـ ، وـلـكـنـ أـبـ أـيـضـاـ !ـ ..

وـعـلـىـ الرـغـمـ مـنـ أـنـ أـحـدـ بـنـ حـنـبـلـ دـرـسـ فـيـ مـطـلـعـ شـيـابـهـ عـلـىـ أـبـيـ يـوسـفـ وـهـوـمـنـ أـصـحـابـ الرـأـيـ ، ثـمـ درـسـ عـلـىـ الشـافـعـيـ وـلـزـمـ فـقـهـهـ وـهـوـمـوـسـطـ بـيـنـ أـهـلـ الـحـدـيـثـ وـأـهـلـ الرـأـيـ ، فـقـدـ كـانـ أـحـدـ حـرـيـصـاـ فـيـ حـيـاتـهـ عـلـىـ سـنـةـ رـسـوـلـ اللـهـ صـلـىـ اللـهـ عـلـيـهـ وـسـلـمـ ، حـرـصـاـ جـمـعـهـ يـتـشـبـهـ بـهـ فـيـ كـلـ أـمـورـ الدـيـنـ وـالـدـنـيـاـ ، فـاـ حـفـظـ حـدـيـثـاـ عـنـ الرـسـوـلـ عـلـيـهـ السـلـامـ إـلـاـ عـمـلـ بـهـ .. وـحـتـىـ قـرـأـ أـنـهـ عـلـيـهـ الـصـلـاـةـ وـالـسـلـامـ تـسـرـيـ بـعـارـيـةـ الـقـبـطـيـةـ ، فـذـهـبـ إـلـىـ اـمـرـأـتـهـ ، وـأـعـلـمـهـ بـاـعـلـمـ ، وـاستـادـهـ أـنـ يـتـسـرـىـ ، أـسـوـةـ بـالـرـسـوـلـ صـلـىـ اللـهـ عـلـيـهـ وـسـلـمـ فـأـذـنـتـ ، فـأـشـتـرـتـ هـىـ لـهـ جـارـيـةـ تـرـضـاهـاـ !ـ ..

وـهـكـذـاـ كـانـ فـيـ بـرـهـ لـأـمـهـ .. كـانـ بـالـطـبـعـ بـرـاـ تـصـنـعـهـ الـفـطـرـةـ ، ثـمـ اـتـيـاعـاـ لـلـسـنـةـ ، فـقـدـ حـفـظـ أـحـدـ أـنـ الرـسـوـلـ صـلـىـ اللـهـ عـلـيـهـ وـسـلـمـ سـتـلـ عـنـ أـحـقـ النـاسـ بـالـرـعـاـيـةـ فـأـجـابـ سـائـلـهـ «ـأـمـكـ»ـ .. وـأـعـادـ السـائـلـ سـؤـالـهـ مـرـتـيـنـ : فـأـجـابـهـ : «ـأـمـكـ ثـمـ أـمـكـ ثـمـ أـبـوـكـ»ـ ..

وفي الحق أن أَحْمَدَ بْنَ حُنَيْلَ كَانَ مِدِينَةً لِأَمَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ .. فَقَدْ رَفَضَتْ أَنْ تَدْخُلَ عَلَيْهِ زَوْجُ أَمِّهِ ، عَلَى الرَّغْمِ مِنْ جَاهَاهَا وَشَبَابَاهَا وَطَعْنِ الْحَطَابِ فِيهَا .. ثُمَّ إِنَّهَا لَقَنَتْهُ مِنْذَ صَبَاهُ كُلَّ مَا حَفِظَهُ مِنْ سِيرٍ ، وَأَحَادِيثٍ ، وَقُصُصٍ بَطْلَوَاتٍ .. وَرَسَخَتْ فِي أَعْمَاقِهِ مِنْذَ كَانَ طَفْلًا قِيمُ الْإِسْلَامِ الْفَاضِلَةُ ..

فَهِيَ كَابِيَهُ مِنْ بَنِي شِيبَانَ ، وَكَانَتْ تَحْفَظُ مَفَالِحَ قَوْمَهَا ، وَقُصُصَ الْأَرَبَ ، وَمَآثِرَ الرَّسُولِ وَالصَّحَابَةِ وَتَلَقَّنَا وَحِيدَهَا ..

وَهِيَ الَّتِي اخْتَارَتْ لِهِ الْمَكْتَبُ الَّذِي يَتَعَلَّمُ فِيهِ الْقُرْآنَ ، ثُمَّ الشَّيْخُ الَّذِينَ يَجْلِسُ إِلَيْهِمْ بَعْدَ أَنْ حَفِظَ الْقُرْآنَ ، لِيَطْلُبَ عِنْهُمُ الْحَدِيثَ وَالْفَقَهَ . وَكَانَتْ تَحْنَافُ عَلَيْهِ وَهُوَ صَفِيرٌ بَرِدُ الْفَجْرِ إِذَا خَرَجَ إِلَى الْدُّرُسِ قَبْلَ الْأَذَانِ .. وَقَدْ رَوَى أَحْمَدُ : « كَنْتُ رَبِّا أَرْدَتُ الْبَكُورَ فِي الْحَدِيثِ فَتَأْخُذُ أَمِّي بِشَيْابِي وَتَقُولُ : « حَتَّى يُؤَذَنَ الْمُؤَذِنُ لِلْفَجْرِ أَوْ حَتَّى يُصْبِحَ النَّاسُ » ..

حَتَّى إِذَا كَانَ فِي الْخَامِسَةِ عَشَرَ ، جَاءَ إِلَى بَغْدَادَ عَالَمَ عَظِيمٍ ، وَأَقَامَ عَلَى الضَّفَةِ الْمُقَابِلَةِ لِدَارِ أَحْمَدَ بْنِ حُنَيْلَ ، وَفَانَّ نَهْرُ دَجْلَةَ وَارْتَفَعَ الْمَوْجُ حَتَّى تَرَكَ الرَّشِيدَ قَصْرَهُ وَنَزَلَ بِأَهْلِهِ وَأَمْوَالِهِ وَحَاشِيَتِهِ إِلَى سَفَانَ لَهُ ، وَلَكِنَّ طَلَابَ الْعِلْمِ هَرَعُوا إِلَى الْعَالَمِ عَلَى الضَّفَةِ الْأُخْرَى فِي الزَّوَارِقِ .. وَأَبَى أَحْمَدُ حِينَ دُعَاهُ زِمْلَاؤُهُ إِلَى الْعَبُورِ قَائِلًا : « أَمِّي لَا تَدْعُنِي أَرْكِبَ الْمَاءَ فِي هَذَا الْفِيَضَانِ » .. وَتَرَكَ الْعَبُورَ فِي حَسْرَةٍ ، وَعَادَ إِلَى أَمِّهِ لِتَطْمِئْنَ عَلَيْهِ ... !

لَكُمْ كَانَ بِرًا بِوَالِدَتِهِ ! .. رَأَاهَا رَفَضَتِ الزَّوْجَ لِكَى تَتَرَفَّعَ لِلْعِنَاءِ بِهِ ، فَأَبَى هُوَ الزَّوْجُ لِيَفْرَغَ لِلْحَدْبِ عَلَيْهَا .. فَنَا تَزَوَّجُ إِلَّا بَعْدَ أَنْ مَاتَتْ ، وَكَانَ قَدْ بَلَغَ الْثَّلَاثَيْنِ ، لَكِيَّلا يَدْخُلُ عَلَى الدَّارِ سَيْدَةً أُخْرَى تَنَازَعُ أَمِّهِ السِّيَادَةَ عَلَى الدَّارِ ! ..

وَهَا هُوَ ذَا فِي بَغْدَادِ شَابٍ جَاوِزَ الْثَّلَاثَيْنِ ، مَحْفُوفُ الشَّارِبِ ، مَرْسُلُ اللَّحِيَّةِ ، أَسْمَرُ الْوَجْهِ ، تَلُوحُ فِي وَجْهِهِ الْأَسْمَرِ سَكِينَةً وَطَمَانِيَّةً ، وَيَشْعُرُ مِنْ عَيْنِيهِ بِرِيقِ حَادٍ ، نَحِيلُ الْجَسَدِ ، مُتوسِطُ الطُّولِ .. مُتَقْلِلُ الْقَلْبِ بِمَا يَمْدُثُ مِنْ حَوْلِهِ .. كَثِيرُ التَّأْمِلِ فِي أَحْوَالِ النَّاسِ ، مَأْخُوذٌ بِالْبَحْثِ عَنِ الْخَلَاصِ ، مَشْدُودٌ إِلَى الْحَقِيقَةِ ، وَإِلَى طَرِيقِ الْعِبَادَةِ مَا هُمْ فِيهِ ..

وَمَا أَبْشَعَ مَا هُمْ فِيهِ !

ذَلِكَ أَنَّهُ مِنْذَ صَبَاهُ شَهَدَ بَغْدَادَ تَزَخُّرَ بِالْوَانِ الشَّرَاءِ الْثَّقَافِيِّ وَالْمَادِيِّ ، وَتَتَصَارَعَ فِيهَا الْمَذاهِبُ الْفَكْرِيَّةُ وَالْفَقَهِيَّةُ وَالْعِلْمِيَّةُ ، وَتَرْقَعَ فِيهَا الْقَصُورُ الْمَحْفُوفَةُ بِالْحَدَائِقِ وَالْزَّرَعِ وَجَنَّاتِ الْفَاكِهَةِ وَالرِّيحَانِ ، وَتَفَيَّضَ فِيهَا

الأموال والثروات . وفي بغداد مع ذلك مَنْ لا يجد قوت يومه ! .. وما بهذا أمر الله ورسوله ! . فقد ورث المؤمنون عن الرسول موعظة يتتحم عليهم أن يتذمرونها : أنه ليس مؤمنا من بات شبعان وجاره جوعان ! ... وكم في بغداد من بيت بين الناعي والعود والعزف والشراب والطعام والقصف ، والجيران جياع !! ..

ثم إن بغداد التي مازالت لياليها تضيء بأثار السلف الصالح ، وبالنماضات أفكار المجتهدين ، بغداد هذه تحمللها المعصية والمظالم .. إذ شاع الاحغراف ، وظهر الغزل بالذكر ! وقد أحرق أبو بكر الصديق من قبل قوما تعاطوا هذا المنكر في الشام !

ثم إن أموال الدولة تنفق بلا حساب على الندامى والغنيمات وأهل الطرف والمضحkin والمناقفين !! ..

وهذه الدولة العظيمة التي تحكم العالم كلها ، وتصوغ حضارة لم يعرفها التاريخ من قبل ، وتسخر عقول المفكرين والعلماء فيها كلّ شيء لراحة الإنسان ، وتقتحم هذه العقول عالم الأفلاك في جسارة نادرة لتصبّع الطبيعة أمام الإنسان كتاباً مفتوحاً ، طاقاتها ميسرات لفكرة ... هذه الدولة التي حملت كل المعارف والكتب التي وجدتها في البلاد المفتوحة ، فعزّبت كل معطيات الحضارة المصرية واليونانية والفارسية والهندية ، وأضافت إليها .. هذه الدولة نفسها لا تقيم العدل كما يجب .. وتسمح لنفسها بأن تقتل أكبر شعرائها بشار بن برد ، لأنّه نقد الخليفة المهدى وقال عنه « خليفة الله بين الله والغود » .. فتحرق الدولة أشعاره وتقتربى عليه مالم يقله ، لتتهمه بالإلحاد والزنادقة ، وتضرنه حتى يموت !!

وهذه الدولة تسمح لامرأة الرشيد بأن تتدخل في القضاء !! .. ذلك أن وكيل امرأة الرشيد اشتري لها جمالاً من رجل من خراسان بثلاثين ألف درهم ، وكان الخراساني قد ساق الجمال ليبيعها في بغداد . واستلم وكيل امرأة الرشيد الجمال ، وما طل في دفع الثمن ، وعطل الخراساني عن السفر .. ثم أعطى الخراساني ألفاً ولم يدفع الباقى .. فشكاه الخراساني إلى القاضى ، فأمر الوكيل بأداء باقى الثمن ، ولكنه قال إنه على السيدة أم جعفر امرأة الرشيد . فقال له القاضى :

« يا أحق ! تقر ثم تقول على السيدة ؟ ! » .. وأمر القاضى بحبس الوكيل .

وعلمت امرأة الرشيد فقالت للرشيد : « قاضيك هذا أحق . حبس وكيلي واستخف به ، امنعه من نظر القضية » فأجابها الرشيد ، وأطلق سراح وكيلها ، ووجه إلى القاضى يمنعه من النظر فى الدعوى !! .. ثار القاضى حين علم بإطلاق سراح الوكيل ، فلزم بيته ، وامتنع عن حضور مجلس

القضاء .. ولكن حين علم ان الرشيد سيمنعه من نظر الدعوى ، خرج من داره ، وأرسل إلى الخراسانى أن يحضر شهودا و يلحق به فى مجلس القضاء .. وجلس القاضى ينظر فى الدعوى و يسأل الشهود ويستجلى ببيانات الخراسانى .. وحكم للخراسانى بالمال كله .. وأخذ يسجل الحكم ..

ثم جاء خادم أم جعفر امرأة الرشيد يقول للقاضى : «عندى لك كتاب من أمير المؤمنين .» فقال له القاضى : «مكانك نحن فى حكم شرعى .. مكانك حتى تفرغ منه ». فقال الخادم : «كتاب أمير المؤمنين » فقال القاضى : «اسمع ما يقال لك .»

ومضى القاضى يسجل الحكم وأسماه حتى فرغ ، فأخذ كتاب أمير المؤمنين ، وكان فيه كما يعلم قبل أمر يستحيته عن نظر القضية .. فلما قرأ القاضى كتاب الرشيد قال للخادم : «أقرىء أمير المؤمنين السلام ، وأخبره أن كتابه ورد وقرأته وقد أثنت الحکم ». فقال الخادم : «قد عرفت والله ما صنعته . أبىت أن تأخذ كتاب أمير المؤمنين حتى تفرغ مما تريده .. والله لأبلغن أمير المؤمنين بما فعلت » فقال القاضى : «قل له ما أحبيت»

كان أَحْمَدُ بْنُ حَنْبِيلَ يَتَأَمَّلُ فِي التَّدْخُلِ فِي الْقَضَاءِ وَيَتَأَمَّلُ إِنْ تَرِكَ كُمَّ مِنَ الْقَضَايَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَصْنَعَ كَمَا صَنَعَ الْقَاضِي حَفْصَ بْنَ غَيَاثٍ ؟ ! .. مِنَ الْحَقِّ أَنَّ الرَّشِيدَ ضَحَّكَ عَنْدَمَا سَمِعَ بِمَا فَعَلَهُ الْقَاضِي حَفْصَ بْنَ غَيَاثٍ ، وَأَمْرَ لَهُ بِجَائِزَةِ قَدْرِهَا ثَلَاثُونَ أَلْفَ درهم بما جعل القاضى يقول : «الحمد لله كثيرا .» من قام بحقوق الشريعة أليس الله رداء المهابة » .. ولكن الخليفة لم يعاقب وكيل امرأته ، لأنه حاولأخذ الجمال من الخراسانى دون أن يدفع ثمنها .. ولم يمنع امرأته من التدخل فى القضايا ! . ومن يدرى فيما كانت هناك مظالم كثيرة أخرى لم يتقدم بها أصحابها إلى القضايا .. أو لعل من القضايا من لم يغامر كما غامر القاضى حفص !

هكذا كان أَحْمَدُ بْنُ حَنْبِيلَ يَرَى صُورَ الْفَسَادِ وَيَأْسِي وَيَفْكِرُ فِي الْخَلَاصِ .. فَالْحَكَامُ يَسْرُقُونَ وَيَقْطَعُونَ يَدَ السَّارِقِ .. وَمِنَ الْعُلَمَاءِ مَنْ يَنْهَا عَنِ الْمُنْكَرِ وَيَقْتَرِفُه .. حَتَّى صَحَّ فِيهِمْ مَا قَالَهُ ذُو النُّونُ الْمَصْرِيُّ : «كَانَ الرَّجُلُ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ يَزِدَادُ بِعِلْمِهِ بِغَيْرِهِ لِلْدُنْيَا وَتَرَكَهَا . وَالْيَوْمَ يَزِدَادُ الرَّجُلُ بِعِلْمِهِ حَبَّا لِلْدُنْيَا وَطَلْبَا لَهَا .. كَانَ الرَّجُلُ يَنْفَقُ مَالَهُ عَلَى عِلْمِهِ وَالْيَوْمَ يَكْتَسِبُ الرَّجُلُ بِعِلْمِهِ مَالًا . وَكَانَ يُرَى عَلَى صَاحِبِ الْعِلْمِ زِيَادَةً فِي بَاطِنِهِ وَظَاهِرِهِ وَالْيَوْمَ يُرَى عَلَى كَثِيرٍ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ فَسَادٌ فِي الْبَاطِنِ وَالظَّاهِرِ .»

لِالْخَلَاصِ إِلَّا بِاللَّجْوَهِ إِلَى السَّنَةِ وَاتِّبَاعِهَا .. إِلَّا بِالتَّأْسِي بِسِيرَةِ السَّلْفِ الصَّالِحِ ، وَعَلَى رَأْسِهِمْ الْخُلَفَاءُ الرَّاشِدُونَ . بِمَا فِيهِمْ عَلَى بْنِ أَبِي طَالِبٍ .

وكان أحد يعرف أن أشد ما يغrieve حكام بنى العباس هو نشر فقه الإمام على بن أبي طالب كرم الله وجهه .. ذلك أن كثرة الثناء على الإمام على ، يثير عطف الناس على بنيه .. وكان بنوه قد ثاروا المرة بعد المرة على مظالم خلفاء بنى أمية ، ثم على خلفاء بنى العباس ، وحدثت فيهم من أجل ذلك مقاتل عظيمة .. ومن لم يقتل من بنى على عاشوا يرسفون في أغلاهم تحت الأبراج .

وكان فقه الإمام على بن أبي طالب وأقضيته ، في صدور قلائل من العلماء أكثرهم من الشيعة . ثم أذيعت أراؤه وأفكاره منها بنوالعباس أبناء عمومته في محاربة مظالم بنى أمية .. ولكن بنى العباس خشوا أن يستعملها المعارضون في نقدمهم .. وخافوا أن يكتسب بها المعارضون حب الناس وتأييدهم .. وهكذا أخفى حكام بنى العباس أقضية الإمام على وفتاوه وفقهه .. واستخفى بها الصالحون !! .. وكان العباسيون كالأمويين لا يطيقون معارضة .. فما ترفع رأس بالشكوى أو النقد أو الاعتراض ، حتى يهوى على عنق صاحبها سيف الجلاد ، أو يغرس لسانها في غيابات السجون تحت وطأة عذاب غليظ أليم شديد ... !

ولكن أحد بن حنبل ما كان يستطيع أن يتغافل سيرة على بن أبي طالب ولا أفكاره لتكون من بعد سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم أسوة حسنة لمن يريد أن يعتبر بأثار السلف الصالح .

بحث الإمام أحد عن فقه وأقضية الخلفاء الراشدين ، فأعجب بما عرفه من فقه الإمام على كرم الله وجهه ، وببدأ ينشره ويستشهد به .. فوجد عليه خلفاء بنى العباس وجداً شديداً ، وأهّمهم أمره ! ولكنهم لم يظهروا الفضب عليه ، فما كان أحد يعمل بالسياسة ، وما كان رأيه في الخليفة ليزعجهم ، بل إن هذا الرأي على التقىض يرضي خلفاء بنى العباس . ذلك أن أحد كان يرى وجوب طاعة الخليفة ولو كان فاجرا .. فطاعة الفاجر عند خير من الفتنة التي لا تصيب الذين ظلموا خاصة بل تصيب معهم الأبرياء ، وتضعف الدولة فيطمع فيها أعداء الإسلام !!

وكان لا يشترط لصحة الخليفة إلا أن يكون الخليفة من قريش وإلا أن يبايعه الناس .

والبيعة شرط جوهري لقوله تعالى : « وأمرهم شوري بينهم » .

فإذا تغلب أحد على منصب الخليفة وإن لم تكن الخليفة حقا له ، وبايعه الناس بالخلافة ، وجبت طاعته أيا ما يكن أمره من العدل أو الظلم والتجور أو التقوى .. ويقول أحد في ذلك : « السمع والطاعة للائمة وأمير المؤمنين البر والفارجر ومن اجتمع عليه الناس ورضوا به ، ومن غلبهم بالسيف وشُئّي أمير المؤمنين ، والغزو ماض مع الأمراء إلى يوم القيمة البر والفارجر ..... ومن خرج على إمام من أمة المسلمين وقد كان الناس قد اجتمعوا عليه ، « وأقرروا له بالخلافة بأى وجه من الوجوه كان ، بالرضا أو بالغلبة ، فقد شق الخارج عصا المسلمين ، وخالف الآثار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . »

وهو مع ذلك لا يقر السكوت عن الخليفة الظالم ، ولكن يرى أن النصح له أولى من الثورة عليه .. ! .. وهو يرى النصح فرض كفاية على كل أصحاب الرأي والعلم ، فإن قام به بعضهم سقط الفرض الشرعي عن الجميع ، وإن لم يقربه أحد أثم الجميع ..

ومن عجب أن أحد الذى فرض على الناس طاعة الخليفة وإن كان فاجرا ، نأى بنفسه عن الاتصال بالخلافاء ، ورفض أموالهم ، وأبى أن يتولى منصبا فى ظل أحدهم على الرغم من حاجته الملحقة إلى المال .. لأنهم ظالمون !!

وقد هاجم بعض المفكرين من معاصرى أحد آراءه فى الخلافة .. ، واتهموه انه ينسب إلى الرسول والصحابة نقىض آرائهم ، فالرسول يأمر أنه لا طاعة لخليق فى معصية الخالق ، ويحذر المسلمين أن يسكتوا على الظلم والفساد ، لأنهم إذا سكتوا عنه عمهم الله بالعقاب .. والصحابة قوموا أولياء الأمر منهم وردتهم إلى الصواب ..

ثم إن هؤلاء المفكرين اتهموا أحد بالدعوة إلى الإذعان والرضاء بالظلم وبالمعصية ..

غير أن أحد ارد عليهم أن خير التابعين عاشوا تحت مظالم الأمويين فلم يدعوا الرعية إلى الخروج عليهم .. وهو إنما يدعو إلى الطاعة مع استمرار النصيحة ، لا إلى السكوت عن المظالم .. فإذا كانت طاعة الحاكم الظالم ظلما ، فالخروج عليه ظلم أشد ، لأن الخروج عجلة للفتنة وفي الفتنة تنتهك الحرمات ، وتهدر دماء الأبرياء كما حدث في كل الثورات في العصر الأموي والعباسي .. !

ومهما يكن من شيء ، فما تخبر أحد من معاصرى أحد على اتهامه بأنه يناهى الخلافاء ، ولكنهم عابوا رأيه ، واعتبروه خطأ في تقدير ضرر بن أيها أقل ، وأيها أكثر فيدفع ..

على أن الإمام أحد بن حنبل لم يكن يدعا في هذا الرأى ، بل كان فيه متفقا على نحو ما مع ما أفتى به الأئمة الثلاثة من قبله : أبو حنيفة النعمان ، ومالك بن أنس ، والشافعى . فكلهم رأى أن طاعة الحاكم الظالم مع توجيه النصح له ، خير من الثورة عليه لما يصاحب الثورات من عداون على الأنفس والحربيات والأموال ... إلا الإمام أبا حنيفة ، فقد أيد ثورة الإمام زيد بن علي وأوشك أن يخرج معه مجاهدا ضد مظالم الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك ..

وعلى الرغم من أن ابن حنبل كان شديد التأثير بالشافعى ، فقد اختلفا في بعض شروط الخلافة . فالشافعى يجعل العدالة شرطا لصحة الخلافة .. وإن لم يؤيد الثورة على الخليفة إن كان ظالما . والجدير بالذكر أن الإمام الليث ما كان يشترط أن يكون الخليفة عريبا .. ولكنه اشترط العدالة والبيعة ..

انصرف أحد يجمع السنن وأثار الصحابة، ويبحث من خلاتها عن أحكام تقدّم الناس من الضلال.. وكان يجمع ما رواه الصحابة من أحاديث، كل على حدة، ويسند إلى الصحابي ما رواه.. فكان لا بد له أن يجمع ما رواه الإمام على بن أبي طالب لايبيالي في ذلك أن يتهمه أحد بالتشييع أو بالميل إلى العلوين.. وفي الحق أنه ما كان مت Shi'يا ولا صاحب ميل للعلويين.. ولكن تعلم من أستاذ الشافعى أن الإمام على كان أحق بالخلافة من معاوية، وأن معاوية كان باغياً، ودافع أحد عن رأى أستاذه في مواجهة منتقديه.. وقد روى أحد عن أستاذ الشافعى: «قال رجل في على: ما نفر الناس منه إلا أنه كان لا يبالي بأحد. فقال الشافعى: كان في على كرم الله وجهه أربع خصال لا تكون منها خصلة واحدة لإنسان إلا يتحقق له إلا يبالي بأحد، كان زاهداً والزاهد لا يبالي بالدنيا وأهلها، وكان عالماً والعالم لا يبالي بأحد، وكان شجاعاً والشجاع لا يبالي بأحد، وكان شريفاً والشريف لا يبالي بأحد. وكان على كرم الله وجهه قد خصه النبي صلى الله عليه وسلم بعلم القرآن، لأن النبي عليه الصلاة والسلام دعا له وأمره أن يقضى بين الناس. وكانت قضيائاه ترفع إلى النبي صلى الله عليه وسلم فيمضيها».

وقد رأى أحمد بن حنبل أن اتباع أحكام الإمام على سنة لأن الرسول صلى الله عليه وسلم أقرب إلى جميع أحكامه، فكأنه هو الذي حكم، . ثم انه قد خصه بعلم القرآن ..

وعجب علماء الشيعة والمفكرون الذين يؤيدونهم لأمر الإمام أحمد ! لقد حسبوه عدوا لهم ، وعدوا للإمام علىي منذ أفتى بأن طاعة الحاكم واجبة حتى إن كان ظالماً أو فاجرا ، والثورة عليه خروج على الإسلام ! . وكان الشيعة يرون أنه لا طاعة لحاكم ظالم ، ويجب على الرعية أن تثور عليه ، فإن سكتوا عنه فليس سكوتهم طاعة له واجبة ، بل انتقاء لظلم أفحى ، وانتظاراً للفرصة المناسبة .. وإن فرأى أحد بن حنبل أن طاعة الخليفة الظالم الفاجر واجبة شرعا ، وأن الثورة عليه مخالفة للسنة ، إنما هو إدانة للشيعة والإمامهم الحسين بن علي سيد الشهداء رضي الله عنه ، موافقة على مقاتلي الطالبيين ، وشرها تلك المذبحة الوحشية الفاجرة في كربلاء .. !!

باباً أَحْمَد يَسْتَدِيْعُ فِتْوَاهُ قَتْلَةِ الْإِمَامِ الْحُسَيْنِ ، وَقَتْلَةِ الْإِمَامِ زَيْدٍ ، وَغَيْرَهُم مِنْ أَثْعَبِ الشِّيَعَةِ ، ثُمَّ هُوَ ذَا يَمْدُحُ الْإِمَامَ عَلَى بْنَ أَبِي طَالِبٍ كَرَمَ اللَّهُ وَجْهَهُ وَيَعْتَمِدُ عَلَى فَقْهِهِ ؟ ! !

كان اللجاج شديداً في ذلك العصر بين دعاء الحرية السياسية والاجتماعية من حماة العدل وبين غيرهم من الفقهاء.. ومن أجل ذلك اشتدوا على أحمد بن حنبل ، لأنه كان يرى الطاعة للحاكم ظالماً الفاجر، ويرى الخروج عليه مخالفة للسنة .. فهو إذن يؤيد ظالم الفاجر يزيد بن معاوية ، ويرى أن خروج الحسين كان مخالفة للسنة ! ! .. وهذا رأي فاسد ! ..

وفي الحق أن أَحْمَدَ مَا رأَى ذَلِكَ وَمَا أَنْتَ بِهِ .. فَقَدْ كَانَ يُرَى مَعَاوِيَةً بَاغِيَا عَلَى الْإِمَامِ عَلَى كَرْمِ اللَّهِ وَجْهِهِ خَرَجَ عَنْ طَاعَتِهِ وَثَارَ عَلَيْهِ ، فَهُوَ مُخَالِفٌ لِلسَّنَةِ .. أَمَا عَنْ خِلَافَةِ يَزِيدِ بْنِ مَعَاوِيَةِ ، فَإِنْ أَحْدَ بْنَ حَنْبَلَ يُرَى أَنَّ مَعَاوِيَةَ أَكْرَهَ النَّاسَ عَلَى هَذِهِ الْبَيْعَةِ .. وَلَا إِكْرَاهٌ فِي الْبَيْعَةِ ، وَلِيُسَّ عَلَى مُسْتَكْرِهِ يَبْيَنُ ، كَمَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ..

وَمَا كَانَ أَحْدَ بْنَ حَنْبَلَ مِنَ الَّذِينَ يَخْوِضُونَ غَمْرَاتِ الْصِّرَاعِ السِّيَاسِيِّ الْمُتَاجِعِ ، وَلَكِنَّهُ كَانَ يَقُولُ مَا يُؤْمِنُ بِهِ اتَّبَاعًا لِلسَّنَةِ مِمَّا يَكَابِدُ فِي سَبِيلِ رَأْيِهِ ، فَهُوَ أَحْرَصُ النَّاسَ عَلَى التَّأْسِيِّ بِرَسُولِ اللَّهِ ، وَكَانَ يَقُولُ « صَاحِبُ الْحَدِيثِ مِنْ يَعْمَلُ بِهِ .. » .. وَمَا كَانَ يَجْيِزُ طَعْنَ الصَّحَابَةِ مِنَ الْخَلْفَاءِ الرَّاشِدِينَ ، كَمَا يَفْعُلُ بَعْضُ غَلَّةِ الشِّيَعَةِ ، وَكَانَ هَذَا سَبِيلًا آخِرَ لِخَلَافَةِ هُوَلَاءِ مَعَهُ .. وَقَدْ تَحْدَثَ أَمَامَهُ جَمَاعَةٌ مِنَ النَّاسِ فَذَكَرُوا خِلَافَةَ عَلَى بْنِ أَبِي طَالِبٍ وَتَنَاهُوا أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ بِالْتَّجْرِيْعِ ، فَتَغَيَّرَ وَجْهُ أَحْمَدَ وَقَالَ لَهُمْ : « مَنْ طَعَنَ فِي عَلَى كَرْمِ اللَّهِ وَجْهِهِ فَهُوَ مُخَالِفٌ لِلسَّنَةِ ، وَلِيُسَّ لِلْسُّلْطَانِ أَنْ يَغْفُوَعْنَهُ » .. ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ وَقَالَ : « إِنَّ الْخِلَافَةَ لَمْ تَرْزِّيْنَ عَلَيْهَا بَلْ عَلَيْ زَيْنَهَا » .

وَلَقَدْ سُئِلَ أَحْدَدُ عَنْ حَقِّ عَلَى فِي الْخِلَافَةِ فَقَالَ : « لَمْ يَكُنْ أَحَدٌ أَحْقَ بِهَا فِي زَمَنٍ عَلَىٰ اٰ وَرَحْمَ اللَّهِ مَعَاوِيَةً ! »

وَسُئِلَ عَنْ تَأْيِيدِ أُمِّ عَائِشَةَ لِطَلْحَةَ وَالزَّبِيرِ ضَدَّ عَلَىٰ فَقَالَ : « أَكَانَ طَلْحَةُ وَالزَّبِيرُ يَرِيدَانَ أَعْدَلَ مِنْ عَلَىٰ رَضْوَانَ اللَّهِ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ ? »

وَسَمِعَ أَحَدُ غَلَّةِ الشِّيَعَةِ بِهَذَا فَقَالَ : « هَذِهِ الْكَلِمَاتُ أَخْرَجَتْ نَصْفَ مَا كَانَ فِي قَلْبِي عَلَىٰ أَحْمَدَ بْنَ حَنْبَلَ مِنَ الْبَغْضِ » .

وَقَدْ بَنَى أَحَدُ آرَاءِهِ فِي قَتَالِ أَهْلِ الْبَغْضِ عَلَىٰ سِيَرَةِ الْإِمَامِ عَلَىٰ كَرْمِ اللَّهِ وَجْهِهِ ، مُتَّبِعاً فِي ذَلِكَ رَأْيَ الْإِمَامِ الشَّافِعِيِّ ، فَلِمَا عَاتَهُ أَحَدُ أَصْحَابِهِ قَالَ : « وَيْحَكَ » .. يَأْعِجَبَا لَكَ إِنْ يَقُولَ فِي هَذَا إِلَّا هَذَا ؟ ! وَهَلْ أَبْتُلَى أَحَدَ بِقَتَالِ أَهْلِ الْبَغْضِ قَبْلَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ بْنِ أَبِي طَالِبٍ كَرْمِ اللَّهِ وَجْهِهِ ؟ »

وَفِي الْحَقِّ أَنَّ الشَّافِعِيَّ أَثْرَفَ كَمَا لَمْ يَوْتَرْ أَسْتَاذُ فِي تَلْمِيذَهُ . حَتَّىٰ لَقَدْ قَالَ أَحَدُ بَعْدَ أَنْ أَصْبَحَ إِمَامًا كَبِيرًا : « إِذَا سُئِلَتْ عَنْ مَسَأَةٍ لَا أَعْرِفُ فِيهَا خَبْرًا (أَيْ حَدِيثًا أَوْ أَثْرًا عَنِ الصَّحَابَةِ) أَخْذَتْ فِيهَا بِرَأْيِ الشَّافِعِيِّ » .

وَقَدْ بَلَغَ تَقْدِيرِهِ لِلشَّافِعِيِّ أَنَّهُ أَنْكَرَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْوَخٍ أَنْ يَكْتُبُوا فَقْهَهُمْ فِي كِتَابٍ .. إِلَّا الشَّافِعِيِّ .. أَنْكَرَ عَلَىٰ مَالِكَ كِتَابَهُ الْمُوطَأَ وَقَالَ عَنْهُ : « ابْتَدَعَ مَالِكٌ تَفْعُلَهُ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ » وَقَرَأَ كِتَابَ شَيْخِهِ أَبِي يُوسُفَ ، وَكَتَبَ مُحَمَّدَ بْنَ الْحَسَنَ ، وَأَنْكَرَ عَلَيْهِمَا أَنَّهُمَا كَتَبَا فَقْهَهُمَا .. وَأَبَى عَلَىٰ أَصْحَابِهِ أَنْ يَكْتُبُوا

آراءه أو فقهه هو نفسه .. ولكنها عندما وصله كتاب الرسالة الجديدة الذي وضعه الشافعى فى مصر ، بهر بالرسالة ، وقرأها على أصحابه ، وحضرهم على تعلمها ، واحتفظ بها في خزانة كتبه كما يصون كنزا .. وهكذا صنعت كل كتب الشافعى التي وضعها في مصر ، وهي كتب تأثر فيها الشافعى إلى مدى بعيد بفقه الليث بن سعد إمام أهل مصر.

ولقد حل أحد عن الشافعى تقديرًا كبيرا للإمام الليث ، فكان لا يذكره إلا بالتقدير.

وقد كان أصحاب أحمد يعرفون ميله للشافعى وإكباره إياه .. وكان هو يوصيهم بقراءة كتب الشافعى قائلاً إنه «مامن أحد وضع الكتب منذ ظهرت أربعين للسنة من الشافعى» . وكان الشافعى يبادله هذا التقدير، وقد عده الشافعى من العجائب : «ثلاثة من العلماء من عجائب الزمان : إعرابي لا يعرف كلمة وهو أبو ثور (وكان كثير اللحن) ، وأعجمي لا يحفظ في كلمة وهو الحسن الزعفرانى ، وصغير كلما قال شيئاً صدقه الكبار وهو أحمد بن حنبل» .

كما قال عنه الشافعى : «رأيت في بغداد شاباً إذا قال ! ! قال الناس كلهم صدقت .» قيل من هو قال : «أحمد بن حنبل» .. وقال عنه : «خرجت من بغداد ، وما خللت فيها رجلاً أفضل ، ولا أعلم ، ولا أفقه ، ولا أتقى ، من أحمد بن حنبل» .

وكان أحمد يضع شيخه في أعلى مكان ، ويقول إن الله يبعث على رأس كل مائة عام إماماً صالحًا من عباده ، يحيى به السنن ويرفع شأن الأمة ، وقد كان عمر بن عبد العزيز على رأس المائة الأولى ، وعسى أن يكون الشافعى على رأس المائة الثانية»

على أن أحمد بن حنبل ، منذ وقف يتذمّر أحوال المسلمين ، ويتلمس طريق الخلاص ، ووسيلة لتحقيق مقاصد الشريعة ، التمس طريقاً يستنبط به الأحكام ، فلم يجد أفضل من أصول فقه الشافعى . اجتمعت لأحمد خلال رحلاته عشرات الأحاديث النبوية ، فأخذ يرويها للناس ويعمل بها .. وتأدب بأدب الرسول .. روى الحديث : «كل معروف صدقة ومن المعروف أن تلقى أخاك بوجه طلاق » .. فكان لا يلقى الناس إلا مبتسمًا ، ويقدمهم عليه إذا مشوا في طريق ، أو دخلوا مكاناً أو اصططفوا لصلة الجماعة .. ويروى أحد أصحاب أحمد أنه دخل معه مكاناً ، فإذا بامرأة معها طنبور (آلة للعزف) ، فكسر صاحب أحمد الطنبور ، وسئل أحمد عن ذلك فيما بعد فقال : «ما علمت بهذا ، وما علمت أن أحداً كسر طنبوراً بمحضرى إلى الساعة» . ذلك أن أحمد ترك المكان مستنكراً الأمرين جميعاً : عزف المرأة على الطنبور ، وعدوان صاحبه عليها ! .. فهو يكره لأصحابه أن يغطوا ، ويطالبهم حين يأمرون بالمعروف ، أو ينهون عن المنكر أن يتبعوا سنة الرسول صلى الله عليه وسلم كما علمه الله تعالى : «أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والوعظة الحسنة .»

وكان أحد يكره الشطرنج ويراه هوا يصرف الناس عن جد الأمور، فسمع أن صاحبها له دخل على جماعة، جول رجلين يلعبان الشطرنج فطöh به ونهر الجماعة، فغضب الإمام أحمد لما صنعه صاحبه بأصحاب الشطرنج ..!

كانت سماجته تسع الذين يسيئون إليه منها تكون الإساءة فادحة! .. وشى به رجل إلى الخليفة، وزعم أن شائراً علوياً يختفى في داره .. ولو صحت الوشایة لقتل الإمام أحمد بإخفاء الشاعر العلوى . فلما تبين لل الخليفة كذب الوشایة أرسل الواشى مصطفى إلى أحد ، ليقتى برأيه في عقابه فقال أحد : « لعله يكون صاحب أولاد يعزّهم قتله ! »

وهكذا أخذ أحد نفسه بالتأدب بأخلاق الرسول صلى الله عليه وسلم .. وكان يقول : « إذا أردت أن يدوم لك الله كما تحب ، فكن كما يحب ». .

إن أبرز ما يميزه هو التواضع .. قال له أحد الناس « جزى الله الإسلام عنك خيراً فعشاء الحياة جزى الله الإسلام عنك خيراً؟ ومن أنا؟ وما أنا؟! .. »

عرف شيوخه منه هذا التواضع منذ كان يطلب عليهم العلم ، فأشاروا به .

ذات يوم ضاق أحد شيوخه بالطلاب في الحلقة ، وغاظه عجزهم عن فهم الدرس ، فصاح الشيخ : « لا تفتقهون؟ » فقال الطلاب : « كيف لا نفقهه وفيينا أحد بن حنبيل ». فقال الشيخ « أين هو؟ » ودخل أحد فقالوا : « هنا هو » وجلس أحد حيث انتهى به المجلس كما تعود ، وكما عاش يفعل إلى آخر العمر ، فقال الشيخ لأحد : « تقدم يا أحد » فقال أحد : « لا أخطو على الرقاب ». فصفق الشيخ فرحا : « الله أكبر .. هذا أول الفقه ». .

على أن تواضع أحد وحياته لم يمنعه من الجهر بالحق .. بل كان على التقىض شديداً على الباطل ، لا يبالى في ذلك لومة لائم .. لاحظ أن بعض الفقهاء يفضلون العباس على الإمام على بن أبي طالب ، نفاقاً للخلفاء والأمراء من بنى العباس .. وسمع أحد بن حنبيل ، هذا الفقيه يذكر الإمام على بن أبي طالب كرم الله وجهه بما لا ينفع ، ويشكك في حقه في الخلاقة ، فأنبرى أحد يقول للفقيه على مشهد من الناس : « من لم يثبت الإمامة لعلي فهو أضل من حمار ..! سبحان الله! .. أكان على كرم الله وجهه يقيم الحدود ويأخذ الصدقة ويقسمها بلا حق وجب له! .. أعوذ بالله من هذه المقالة .. بل هو الخليفة رضيه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وصلوا خلفه ، وغزوا معه ، وجاهدوا ، وحجوا ، وكانوا يسمونه أمير المؤمنين راضين بذلك غير متذمرين ، فتحن له تبع » .. ثم قال : « ما لأحد من الصحابة من الفضائل بالأسانيد الصحاح مثل ما للأمير المؤمنين على بن أبي طالب رضي الله عنه ». .

وعلى الرغم من أن أحد بن حنبل كان يرى أول الأمر أن طاعة الخليفة واجبة وإن كان ظالماً أو فاجراً، إلا أنه عدل عن رأيه عندما ما أضجعه التجربة فيها بعد .. فعاد واعتبر طاعة الخليفة الظالم لوناً من النفاق يجب أن يبرأ منه المؤمن !

ذلك أنه سمع قصة عن شيخه عبد الله بن المبارك ظلت تضنه إلى آخر العمر .. فكانت دموعه تفيض من الندم ومن الرحمة والإشفاق ، كلما تذكر ما حدث لأستاذه عبد الله بن المبارك .. وهو الأستاذ الذي لزمه أحد وإن لم يره فقط .. فقد كان كلما لحق به في مكان ليس معه منه ، وجده قد رحل عنه ، حتى مات الشيخ ، فلزم أحد آثاره وفقهه وتبع سيرته واهتدى بها .. وسمع أحد فيما سمع أن شيخه ابن المبارك مر وهو في طريقه إلى الحج بمزبلة قوم ، فرأى فتاة تأخذ طائراً ميتاً وتلفه ، فسألها عن أمرها فقالت : أنا وأخي هنا ليس لنا شيء إلا هذا الإزار وليس لنا قوت إلا ما يلقى على هذه المزبلة ، وقد حللت لنا الميزة منذ ثلاثة أيام (أى أن الجوع اضطرهما إلى أكل الميزة) ، وقد كان أبونا له مال ، فظليم وأسْعَى ماله وقتل .. فقال ابن المبارك لوكيله : «كم معك من النفقة؟» ، قال : «ألف دينار» فقال : «عد منها عشرين ديناراً تكفياناً إلى مtro ، وأعطيها الباقي . فهذا أفضل من حجتنا هذا العام» ، ورجع ..

ما ذكر أحد هذه القصة إلا بكى .. فما فتوه إذن بوجوب طاعة خليفة ظالم؟!

أي طاع خليفة يظلم رجلاً فيقتله ويستولي على ماله ويترك أبناءه جياعاً ينقبون في المزابل عن الطعام ، فلا يجدون إلا الميزة؟! .. ياحسرنا على العباد! ..

وإذن ماجدو العلم والفقه وما جدو كل شيء؟!

وما الإسلام إن كان على وجه الأرض من يلتمس القوت في المزابل ، وفي الأمة مع ذلك مسلمون يملكون آلاف الآلاف؟! .. وفيها فوق ذلك علماء يجدون الفقر ويدعون إليه باسم الزهد؟! .. أى زهد هذا؟! بل إنه لإعانته للظلم على ظلمه ..! . ثم ما هذا الانشغال الكامل بال مجردات ، والقضاء ، والقدر ، وخلق القرآن ، والجبر ، والاختيار؟! ما الاهتمام بهذه الأمور والخوار المصطخب حولها ، والعدل معطل؟! .. إن المفكرين ليسبخون في القشوّات ، ويتركون الحكم يقتلون المظلومين ويصادرون أمواهم! .. كم في الأمة من رجال ونساء يسقطون في الأحوال بدلاً من أكل الميزة أو البحث عن القوت وسط المزابل؟! .. وكم من العلماء فكري هؤلاء الجياع والمظلومين؟! .. علماء وبقائهم هم ، أم هم أوتاد وخشب مستند يرتكن إليها البااغون؟!

إن كل مافي أيدي الخلفاء والأمراء والأغنياء حرام عليهم ، ما دام في الأمة جياع!

وستُنكِحُ ظهورهم وجنوبيهم في نار جهنم بما يكتنون من ذهب وفضة ، كما أنذرهم الله تعالى في كتابه الكريم !! .. والعلماء والفقهاء الذين يزبون لهم سيرتهم على أى نحو من الأنجاء ، وحتى الذين يسكنون على هذا المنكر ، إنما هم جميعاً شياطين خرس ، سيعاقبهم الله تعالى عقاب الشياطين يوم يقام الحساب !!

إن مِنْ هؤلَاءِ الْفَقِهَاءِ وَالْعُلَمَاءِ مَنْ يُضَلِّلُ النَّاسَ عَنِ الْحَقِيقَةِ جَهْلًا مِنْهُ أَوْ غَفْلَةً أَوْ رِيَاءً لِّلْحُكْمِ .  
إِنَّهُمْ لِيُحِبِّيْنَ الْفَقْرَ لِعَامَةِ الْمُسْلِمِيْنَ ، وَإِنَّهُمْ لِيُعَظُّوْنَ عَامَةَ الْمُسْلِمِيْنَ أَلَا يَفْكِرُوْنَ فِي غَيْرِ ذِكْرِ اللَّهِ ، عَسَى أَنْ تَطْمَئِنَ قُلُوبُهُمْ .. وَلَكِنْ مَا جَدِيْرُ ذِكْرَ اللَّهِ إِذَا لَمْ يَعْمَلْ بِهَذَا الذِّكْرِ ، إِذَا كَنْتَ تَأْكِلُ الْحَرَامَ ! .. إِنْ مِنْ آكَلِي الْحَرَامِ مَنْ يُسْتَطِيْعُ أَنْ يَذْكُرَ اللَّهَ أَصْعَافَ أَصْعَافِ غَيْرِهِ مِنَ الْمُشْغُلِيْنَ بِالسُّعْيِ فِي طَلَبِ الرِّزْقِ ! .. وَلَكِنْ ذِكْرَ اللَّهِ لَيْسَ مَا يَتَحْرِكُ بِهِ لِسَانَكَ ، وَإِنَّمَا هُوَ عَمَلُ الصَّالِحَاتِ ! ..

ولقد طافَ رجلٌ عَلَى فَقِهَاءِ بَعْدَادِ يَسأَلُهُمْ وَاحِدًا بَعْدَ الْآخِرِ: « بِمِ تَلِينَ الْقُلُوبَ؟ » قَالُوا: « أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُ الْقُلُوبُ » .. ثُمَّ لَقِيَ أَحْمَدَ بْنَ حَنْبَلَ فَسَأَلَهُ فَقَالَ أَحْمَدُ: « بِأَكْلِ الْحَلَالِ » . فَعَادَ الرَّجُلُ يَطْوُفُ بِهِمْ جَيْعاً وَيَذْكُرُهُمْ جَوَابَ أَحْمَدٍ .. وَكَانَ نَبِهِمْ مِنْ غَفْلَةً ، وَفَتَحَ عَيْنَهُمْ عَلَى الْحَقِيقَةِ فَقَالُوا: « جَاءَكُمْ بِالْجَوَاهِرِ . الْأَصْلُ كَمَا قَالَ » .

أَلْفُ النَّاسِ أَنْ يَسْأَلُوا أَحْمَدَ بْنَ حَنْبَلَ كُلَّمَا لَقَوهُ ، فَيَجِيبُهُمْ بَعْدَ التَّرْوِيْ ، وَكَثِيرًا مَا كَانَ يَقُولُ: « لَا أَدْرِي » ..

(وأغراه بعض المعجبين به أن يتخد له حلقة في الجامع ، وب مجلس لتعليم الناس ويفتيهم ، فيصير إماماً .. ولكنه تحرج .. فقد كان يرى أنه يجب ألا يجلس للفتوى والتدریس حتى يبلغ الأربعين .. أى في سن النبوة ! .. ثم إنه لا يستطيع أن يفتى وبعض أشياخه حتى ، فالشافعى أستاذه ما يزال حيا بمصر ! ..

وأمر آخر: إنه يريد قبل أن يجلس للفتوى للتدریس ، وأن يفرغ من تنسيق الأحاديث التي جمعها في رحلاته العديدة المرضية ، يريد أن يSEND الأحاديث إلى رواتها من الصحابة ومحض لكل واحد منهم مسندًا .. وعمل كبير كهذا يقتضيه الاعتزال في بيته ..

وببدأ يعتكف ليجمع مُسْتَنَدَهُ ، ويمحض ما فيه من الأحاديث . وعاتبه بعض الذين ألغوا لقاءه ، فطلب منهم أن يتركوه ليعمل ما هو أجدى من غشيان مجالس ليس فيها غير أحاديث يشرّر بها قوم ألغوا السكوت على الباطل وظلم العباد ..

كان قد بدأ يدون (المُسْتَنَد) منذ بدء عنايته بالحديث ، وقد تعين عليه الآن أن يجمع شتات ما

كتب ، وأن يسطر على الورق كل ما حفظ ، وأن ينظر في هذه الأحاديث مع إمعان النظر في نصوص القرآن ، ليحسن استنباط الأحكام .

وَجْمَعُ (الْمَسْنَدِ) فِي كُتُبٍ مُتَفَرِّقَةٍ، وَظُلِّمَ يَعْمَلُ فِيهِ إِلَى آخر أَيَامِ حَيَاتِهِ، لِيُنْسَقَهُ ابْنُهُ وَيُصْنَفَهُ مِنْ بَعْدِهِ.

وكان أحد يكتب في مسنده كل ما يحفظه من أحاديث .. وقد قال هو فيما بعد لابنه عبد الله الذى روى فقهه وبوب مُسنَّته ، بعد أن سأله عبد الله عن حديث جاء فى المسند ، روى بخلافه أحاديث أخرى قال أحد لابنه : قصدت فى المسند المشهور ، فلو أردت أن أقصد ما صحي عندي ، لم أر و من هذا المسند إلا الشيء بعد الشيء اليسير ، ولكنك يا بني تعرف طريقتي فى الحديث .

لست أخالف ما ضعف من الحديث إذا لم يكن في الباب شيئاً يدفعه . وقد لاحظ ابن الجوزي أن بعض فقهاء الحنابلة فيما بعد قد اعتبروا كل ما جاء في المسند من أحاديث صحاحاً على الرغم من تنبية أحمد بن حنبل نفسه .

حزن بن الجوزي لهذا ، وكتب : « قد عَمِّنَ فِي هَذَا الزَّمَانَ أَنَّ الْعُلَمَاءَ لِتَقْصِيرِهِمْ صَارُوا كَالْعَامَةِ ،  
وَإِذَا سَرَبُوهُمْ حَدِيثَ مَوْضِعٍ قَالُوا : قَدْ رُوِيَ . وَالْبَكَاءُ يُجَبُ أَنْ يَكُونَ عَلَى خُسُوصَةِ الْهَمَّمِ وَلَا حُولَّ وَلَا  
قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ . »

أصبح أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلَ وَمَا فِي بَغْدَادِ أَحْفَظَ مِنْهُ لِلْحَدِيثِ ، وَلَا أَعْمَقَ مِنْهُ يَصْرَا بِآثَارِ الصَّحَابَةِ وَفَتَوَاهُمْ ، فَضْلًا عَنْ فَقْهِهِ بِعِلْمِ الْقُرْآنِ  
وَشَهَدَ شِيفُوخُ بَغْدَادَ بِفَضْلِهِ وَعِلْمِهِ وَتَقْوَاهِهِ ، وَجَدَارَتِهِ بِالْتَّدْرِيسِ وَالْإِفْتَاءِ .

وها هوذا يبلغ الأربعين ، وقد مات الإمام الشافعى ، ووجب على أحد أن يتخذ له حلقة للتدريس والإفتاء بالمسجد الجامع ببغداد .

ووحد موعداً لحلقته بعد صلاة العصر كما فعل الإمام أبو حنيفة منذ أكثر من خمسين عاماً ..

استقر لأحمد بن حنبل الآن منهج في استنباط الأحكام ، خالف فيه أبو حنيفة ومالك بن انس .  
وابايع فيه أستاذه الشافعى . فإذا فقد أصبح أئمماً ..

وشع الإمام أحمد يفسر القرآن ، ويروى الأحاديث ويفسرها ، ويشرح للناس مذهبه في استنباط الأحكام ، ويفتى بما يطرح عليه من مسائل .

وفي هذه الحلقات علم الناس أن من روى حديثاً صحيحاً ولم يعمل به .. فقد نافق !

وفي هذه الحلقات تفجر فقهه أصولاً وفروعاً .. وأجاب على آلاف المسائل .. وازداد شهرة ، وتزاحم الناس على حلقاته ، وتركوا حلقات الفقهاء الآخرين ، حيث وجده الناس غزير العلم ، حسن الرأي ، حلو الحديث ، رفيع الذوق ، كثير الحلم ، جليل العشر .. ووجدوه حفيماً بالقراء من طلاب العلم ، بسوان الناس يقرهم وبهش لهم ..

وقد جر عليه هذا كثيراً من العنااء ! فقد نفس عليه بعض فقهاء بغداد ، وتبدل في قلوبهم إعجابهم به ، ورضاهما عنده ، لتشتعل الغيرة منه .

ثم إن طلاب العلم تابعوا إلى بيته ، ولم يتركوا له وقتاً للراحة أو العمل .. وعاتبه أحد أصدقائه لأنه لم يعد يلقاء كما ألف من قبل فقال له : «إن لي أحباء هم أقرب إلى من ألقاهم في كل يوم ، لا ألقاهم مرة في العام» .

أسرف عليه طلاب العلم ومحبوه ، فأزعجهوه ، وما كان له حجاب ينظمون مواعيد الناس ، كما كان للإمام مالك والإمام الليث من قبل ، وما كان يستطيع أن يتمنع عن لقاء زواره إذا كان يعمل أو يستريح في بيته كما تعود مالك والشافعي .. وأنقل عليه أصحاب المسائل ، وطلاب مودته ، فخشى أن يفتنه بنفسه ، أو يدهمه الغرور والكبر والزهو أو المرأة وشكا همه إلى الله تعالى ، وتمني عليه لو أهل ذكره ، أو ألقى به في شعب مكة حيث لا يعرفه أحد ..!

ما كان الناس يتركونه ليستريح ، والحياة بعد يمنعه من صدتهم .

ولاحظ أن في حلقاته من يكتب إجاباته وفقهه ، فنهاه فما كان يحب كتابة الفقه .. وسأله سائل : «لِمَ تنهى عن كتابة الفقه وابن المبارك الذي نعرف موقعه منك كتب فقه أهل الرأي في العراق؟» فأجاب : «ابن المبارك لم ينزل من السماء . وقد أمرتني أن نأخذ العلم من فوق .» «أى من القرآن والسنة .»

ذلك أن الإمام أحد كان يخشى إذا دون الفقه أن تتعجم الأحكام ، ويُشيع التقليد فيها يأتي من العصور ، والفقه ينبغي أن يتجدد بالضرورة وفق مقتضيات الزمان ، يضيئ هذا كله ما جاءت به نصوص القرآن والسنة وأثار الصحابة ، فهي وحدها الجديرة بالتداين ، بوصفها المعيار الموضوعي الشابت ، ووعاء الأحكام الشرعية جميعاً ، إما بظاهر نصوصها ، أو بدلالة الواضحه أو الخفية ، وإما بالقياس على ما في النصوص من أحكام إذا تشابهت العلل والحكم .

وتعود الإمام أحمد في حلقة درسه بعد كل صلاة عصر، أن يفتى الناس وطلاب العلم عما يسألون، وأن يشغل نفسه وأهل الحلقة بما اشتغل به السلف : القرآن وتفسيره

وكان يعلمهم أن آيات القرآن يفسر بعضها ببعض ، أو تفسرها الأحاديث الشريفة ، وأثار الصحابة الذين تلقوا علمهم من الرسول صلى الله عليه وسلم ..

فموضوع الدرس إذن هو القرآن والسنة وأثار الصحابة . ثم إنه ليأخذ أهل الحلقة بإتقان اللغة العربية وأدابها وعلومها ، ليسهل عليهم فهم القرآن والأحاديث ..

أما سائر المعارف التي انتشرت في عصر الإمام أحمد ، فما كان ليس مع بطرحها في الحلقة .. وبصفة خاصة الكلام في العقيدة .. وكان المعتزلة قد أحدثوا حركة فكرية عنيفة ، وتصدوا للرد على الزنادقة والملحدين بما عرفوا من علوم المنطق والفلسفة ، ثم أخذوا منذ حين يطروحون هم وغيرهم من المفكرين قضايا الجبر والاختيار ، والقضاء والقدر ، ورؤيه الله ، وذات الله وصفاته ، ووضع القرآن : أخلقونه أم قدموه ؟ .

ولقد تصاول المفكرون والفقهاء من قبل حول عدد من هذه القضايا مثل الجبر والاختيار ، فنهم من ذهب إلى أن الإنسان حرفي حدود علم الله وتقديره

ومنهم من قال بالجبر ، فالإنسان في كل أفعاله معبّر فهو مسيرة لا اختيار له

ومنهم من أنكر هذا كله ، وقال بأن الإنسان حر الاختيار ، وأن حريته هي مناط التكليف وأساس الحساب ، فإذا لم يكن الإنسان حرًا فعلام يحاسب ، وفيها الشواب والعقوب ؟ ! .. إنه لبعث إذن وهو ما يتنزه الله تعالى عنه ..

ومنهم من قال إن صفات الله جزء من ذاته العلية .

ومنهم من قال أن ما هو حسي من هذه الأوصاف والصفات يجب أن يؤول عن ظاهر معناه وأطالوا الحوار في أسماء الله تعالى أهي الذات أم صفات غير الذات العلية ، وفي كيفية رؤيته يوم القيمة .

والعلم الذي يتناول هذه الأمور جيئا يسمى بعلم الكلام .. وكان علماؤه أشداء في الجدال ، متربصون بأساليب الحوار ..

إلا أن الإمام أحمد بن حنبل رفض الحوار ، أو التفكير في علم الكلام كله ، وتحث الناس على إلا يتناولوا من أمور الدين إلا ما جرت عليه السُّنَّة وأثار الصحابة .. قال : « لا أرى الكلام إلا ما كان في

كتاب أو سنة أو حديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أو عن أصحابه أما غير هذا فإن الكلام فيه غير محمود».

رفض أن يطرح في حلقته أمر من العقائد، على الرغم من أن الحياة الفكرية خارج حلقته كانت تضطرب بهذه الأفكار التي تصط冤ع حوالها عقول المفكرين والعلماء والفقهاء . وهو صراع طرح نفسه على مجالس الخلفاء ، فشجعواه وأقاموا له ندوات الحوار..

ولقد تلقى الإمام أحمد كتاباً من أحد أصحابه يسأله عن مناظرة علماء الكلام ، فرد عليه الإمام أحمد: «(الذى كنا نسمع وأدركتنا عليه من أدركنا أنهم كانوا يكرهون الكلام والجلوس مع أهل الزين)».

والحق أن الإمام أحمد بن حنبل كان شديد التمسك بسيرة السلف وآثار الصحابة فيها يمss العادات والعقائد.

أما أحكام المعاملات فقد تطور بها ، وتتوسع فيها ، ووضع لها من القواعد مايفتح أبواب الاجتهد للفقهاء في كل عصر كلما دعت الحاجة . فالرجوع إلى الحق فضيلة وهو خير من التماادي في الباطل .

من ذلك أنه أباح كتابة بعض فقهه لمصلحة رآها . وكان يغير آرائه وموافقه ، كلما تبين له وجه أصوب في الأمر ..

ومن ذلك أنه غير موقفه من علم الكلام .. إذ تبين له أن لا مصلحة في السكوت عن علم الكلام .. وما كان العصر ليترک مثل الإمام أحمد في صمته عما يشيره المتكلمون ، فوجد أن مصلحة الشريعة تقضيه أن يقول آرائه فيما يشغل الحياة الفكرية والفقهية من حوله ، فهذا أجدى على الدين من الصمت ، والنهي عن الحوار أو التفكير ! .

فأعلن آرائه في قضايا الإيمان ، والقدر ، وأفعال الإنسان ، وصفات الله .. ولكن دعا عدداً قليلاً من خاصة العلماء والفقهاء وصفوة الصحابة ليدلي بهم هذه الآراء .. ذلك أن حلقته في الجامع كانت قد أصبحت تضمآلافاً من طلاب العلم ومحبي آرائه .. وإنه ليخشى أن يتسع الحوار حول العقائد بين هذه الأعداد العديدة من الناس ، فيزيد بصر ، أو يصل عقل ، أو تزل قدم بعد ثبوتها ، أو يستقر خطأ ما في قلب من لم يؤهل له علمه بعد لبحث أمور العقائد !

قال الإمام أحمد في الحلقة التي يعقدها في داره «إن الإيمان قول وعمل ، وهو يزيد وينقص ، زيادته إذا أحسنت ونقصانه إذا أساءت . ويخرج الرجل من الإيمان إلى الإسلام ، فإن تاب رجع إلى

الإيمان . ولا يخرجه من الإسلام إلا الشرك بالله العظيم ، أو برأ فريضة من الفرائض جاحدا لها . فإن تركها تهاونا بها وكسلًا كان في مشيئة الله . إن شاء عذبه وإن شاء عفا عنه »

أما رأى الإمام أحمد في مرتکب الكبيرة فهو ليس كافرا ، ولا هو في منزلة بين منزلتي الكفر والإيمان ، وليس معفوا عنه ، وإنما عليه أن يتوب ، وأمره إلى الله .. فمن زعم أنه كافر « فقد زعم أن آدم كافر ، وأن أخوة يوسف حين كذبوا أباهم كفار ». .. وقال : لا يكفر أحد من أهل التوحيد وإن عمل بالكبائر .

وما كان للإمام أحمد ليجهز بهذه الآراء في حلقة العامة ، فييسئ فهمها أحد ويجسر الناس على اقتراف الكبائر .. بل خص بآرائه أهل العلم في حلقة خاصة في داره ، حيث الجو الصالح للتفكير وال الحوار في أمور حرجية كتلك ..

وأما عن القضاء والقدر فقد قال : « أجمع سبعون رجلا من التابعين وأئمة المسلمين وفقهاء الأمصار على أن السنة التي توفى عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم الرضا بقضاء الله ، والتسليم لأمره ، والصبر تحت حكمه ، والأخذ بما أمر الله به ، والبعد عما نهى عنه ، والإيمان بالقدر خيره وشره ، وترك المراء والجدال والخصومات في الدين ». .. وقال : « الناظر في القدر كالناظر في شعاع الشمس كلما ازداد نظرا ازداد حيرة . »

أما عن صفات الله وأسمائه مما جاء في القرآن أو السنة ، فيرى الإمام أحمد روايتها واتباعها كما جاءت ، فلا تُنْقَحِمُ عليها مالا يصلح لضبطها وهو العقل .. فهي أمور اعتقادية ينبغي على المؤمن أن يسلم بها كما هي .. وكذلك رؤية الله تعالى يوم القيمة ، يجب فيها أن تؤمن بما جاء في الأحاديث الشريفة ، وقد رأى الرسول ربه ، و يجب أن نفهم الأحاديث بظاهرها .

على أن أحد يرى في انشغال الفكر بهذه الأمور ترفا يصلح أن يتلهى به الخلفاء والأغنياء في قصورهم ! ، هو ترف يصلح للذين لا يعنهم العدل ، وقد تؤديهم إقامته . والانشغال بهذا الجدل هو بعد إقصاء للتفكير عن شؤون الحياة وبمحافة لمقاصد الشريعة التي تتوكى مصالح العباد .. فالفقير الحق الفاضل يجب أن يشغل من أمور الدين بما يقيم المجتمع الفاضل الذي أراده الشاعر الحكيم أى بما يحقق مصالح الناس .

وإذن فينبغي ألا يشغل الفقيه التقى إلا بما يفيد الناس في حياة كل يوم .. إلا بما تمحنه نفع كما قال الإمام مالك بن أنس من قبل ، وكما صنعت الأئمة العظام أبو حنيفة والليث بن سعد وابن المبارك والشافعي .

أما ما يعنيه الخلفاء والأمراء والأغنياء من شغل العلماء والفقهاء والمفكريين بغیر واقع حیاة الناس وصرفهم إلى التصاریع العقلی في المتألهات ، فهذا کله لا جدوى منه ، وهو استدرج لهم لینشغلوا عن مصالح الأمة ، وعن استنباط الأحكام والصوابط التي تکفل هذه المصالح ، ليخلص للخلفاء والأمراء إلى ما هم فيه من ترف وظلم واستبداد ! ولیظل في الرعیة من يبحث عن الطعام وسط المزابل ، والرعاة متخمون ! !

هكذا كان الإمام أبُد ينظر إلى اشتجار الخلاف من حوله في أمور المقادير ، وإلى انشغال الفكر بها ، وحرص الخلفاء والأمراء على تشجيع الانصراف إليها ..

لکأن ولاة الأمور لا يريدون للفقه أن يتعنى بأحوال الرعیة ، وأن يقيم العدل ، وأن يضع الميزان .. إن هؤلاء الحاكمين ليشجعون الزهد على تمجيد الفقر ، والانصراف عن هوم الحیاة ، وكأن الإسلام دعوة إلى الفقر ! .. ثم إنهم في الوقت نفسه يمحضون أهل الفقه والعلم والفكر على الانصراف عن الواقع إلى ماوراء الواقع .. عن الحیاة إلى ما قبل الحیاة وما بعد الحیاة ... فمَن بعد ذلك يحاسب الحكم على مالم يفعلوه للرعیة ، وعلى ما يقترون !! ومن ذا الذي يدافع عن العدل والحق ومصالح الناس !!

ما كان للفقهاء الأبرار الذين وقفوا جهودهم على خدمة الشريعة أن يقعوا في الفخاخ !

وهكذا جعل الإمام أبُد كل همه إلى ما يفید الناس .

وفى الحق أن الإمام أبُد بن حنبل لم يهاجم ظلم الحاكم علينا ، كما فعل من قبله أبوحنیفة الذي حرض صراحة على الثورة ، ولكن آراء الإمام أبُد عن العدل وعن الأُسوة الحسنة ، وعن حقوق ذوى الحاجة ، ثم فتاواه .. كل أولئك قد أغرضده الصدور .

وكان استنباطه للأحكام والفتاوي يعتمد على نصوص القرآن والسنة وأقوال الصحابة وأثارهم ، ثم القياس .

قال أبُد عن القياس : « سأله الشافعی عن القياس فقال يصار إليه عند الضرورة » .

وهذا هو ما فعله أبُد ، فهو لا يرجع إلى القياس إلا إذا لم يجد حکما في نص القرآن أو السنة أو أقوال السلف ، والسلف عنده هم الصحابة والتابعون .

إذا اختلفت أقوال الصحابة اختار أقربها إلى نصوص القرآن أو السنة .

وإذا اختلفت أقوال التابعين اختار منها ما هو أقرب إلى القرآن والسنة أو ما وافق قول الصحابة

مجتمعين أو أقرب أقوالهم إلى النصوص .

وهو على خلاف من سبقوه ، يقدم الحديث الضعيف على القياس .. ما دام الحديث قد صبح عنده وتأكد أنه غير موضوع ..

أما الإجماع فهو يرى أنه لم ينعقد بعد الصحابة .. وقال في ذلك : « ما يدعى الرجل فيه الإجماع فهو كاذب ، لعل الناس اختلفوا .. ما يدرى به ؟ فليقل لا نعلم مخالفًا » . وقال : « قد كذب من ادعى الإجماع » . أما الصحابة فهم معروفون بأسمائهم ، والعلم بإجماعهم وخلافهم ميسور .

والإمام أحمد يلحق إجماع الصحابة بالسنة ، لأنهم لا يجمعون إلا على ما علموه علم اليقين عن الرسول صلى الله عليه وسلم إما رواية عنه ، أو اجتهدوا منهم أقرهم عليه ..

فالإمام أحمد لا ينكر الإجماع بعد الصحابة ولكنه لا يتصور حدوثه .. ولماذا اعتمد على القياس بعد النصوص وأثار الصحابة ..

على أنه إذ يعتمد القياس أصلًا من أصول فقهه ، إنما يفعل ذلك اتباعاً للسنة والسلف الصالح .. ويقول : « القياس لا يستغني عنه والرسول صلى الله عليه وسلم أخذ به ، وأنخذ به الصحابة من بعده .. »

ويتسع القياس عند الإمام أحمد أكثر مما يتسع عند غيره من الأئمة ، فالقياس عند الإمام أبي حنيفة شيخ فقهاء الرأي وشيخ القياسيين هو إلهاق أمر غير منصوص على حكمه بأمر منصوص على حكمه لاتحاد العلة أو تشابها . وعلى هذا سار الفقهاء الآخرون حتى الشافعى .

أما الإمام أحمد فلم يقتصر في القياس على علة الحكم وحدها ، بل التفت إلى الحكمة

وعلة الحكم هي سببه ، أما الحكمة فهي هدفه .. وهي المصلحة التي يريد تحقيقها والمضرة التي يريد تجنبها فعلة الحكم بإفطار المسافر في السفر ، أما الحكم فهي حفظ النفس ودفع المشقة .. وأنخذ بالحكمة يباح إفطار من كان في عمله مشقة بحيث إذا صام لم يتمكن من العمل ..

وعلى هذا النحو من التوسيع في القياس الأخذ بالقياس الظاهر والخفى ، وبمراجعة الحكمة إلى جوار العلة ، أدخل الإمام أحمد في أقيسته الأخذ بالمصالح ، وهي التي لم يقم دليل على تحريمها أو إباحتها .

والإمام أحمد يأخذ بها قياساً على روح الشريعة المستوحاة من نصوص الكتاب والسنة ، وإن لم تكن قياساً على نص خاص .

ثم إن أخذ بالاستحسان وهو الحكم في مسألة بغير ما حكم به في نظيرها ، رعاية للمصلحة على خلاف أستاذ الشافعى الذى قال : « الاستحسان تلذذ » .

وأخذ الإمام أحمد بالاستصحاب وهو مصاحبة الواقع ، فاثبت فى الماضى ثابت فى الحاضر والمستقبل وقطعا مالم يوجد ما يغيره دليل .. فما هو مباح يظل مباحا حتى يقوم دليل على الحظر

كما أخذ بالذرائع وهى الطرق والوسائل المؤدية إلى الفعل وتوسيع فيها كما لم يتسع إمام من قبله . فهو يرى أن الطرق لتحقيق المقاصد تابعة لها ، فوسائل المحرمات محمرة ووسائل المباحات مباحة كما قال ابن القيم أحد شرائحه . والأطباء إذا أرادوا حسم الداء منعوا صاحبه من الطرق والذرائع الموصلة إليه ، وإن فسدة عليهم ما يرون إصلاحه ، فما الظن بهذه الشريعة التي هي أعلى درجات الحكمة والمصلحة والكمال ؟ .. ومن تأمل مصادر الشريعة ومواردها ، علم أن الله تعالى ورسوله سد الذرائع المفضية إلى الحرام بأن حرمها ونهى عنها » ..

من أجل ذلك اهتم الإمام أحمد بالباعث على الفعل ، وبنتيجة الفعل .. فن أراد أن يقتل رجلاً بسهم ولكنه أخطأه وأصاب حية كانت تريد أن تلدغ خصمه فهو آثم عند الله . لأن الباعث على فعله كان شراً وهو نية القتل .. ومن سب آلهة الوثنين ، وكانت نتيجة فعله أن سبوا لهم الله ورسوله .. فهو آثم . لأن سبهم الله ورسوله نتيجة لسب آلهة الوثنين

ومهما يكن اعتبار الإمام أحمد للذرائع والاستحسان والاستصحاب والمصالح : الأصول مستقلة هي ، أم تدخل في باب القياس ، فإن اعتماد أحد على هذه الضوابط قد وسع فقهه ، وجعله خصباً ، غنياً ، متحرراً ، متعددًا أبداً ، قادرًا على مواجهة كل ماطرحة الحياة على عقول المجتدين والقضاة ، حرضاً على مصالح العباد . ويبدو هذا في فروع الإمام أحمد وإجاباته على كثير من المسائل .. وفي كل ماعرف عنه من فتاوى وأحكام ..

وأراء الإمام أحمد كانت في أكثرها إجابات عن مسائل ، وهي إجابات كان فيها متباعدة السنة وفتاوي الصحابة .. والسنة عنده تبيان القرآن .

وفى مسائل عديدة لم يجرب الإمام أحمد ، لأنه لم يجد النص الذى يهتدى به ، ولكنه لم يكن يسكت ، بل يقول فيها كل أوجه الرأى .

على أنه كان أحياناً يقول : « لا أدري .. سل غيري » .

وقد ذكرروا أمامه أن ابن المبارك سئل عن رجل رمى طيراً فوقع في أرض غيره من الصيد لصاحب الأرض أم للرامي ؟ فقال ابن المبارك : « لا أدري » . وسئل الإمام أحمد عن رأيه في هذه المسألة :

«فأجاب هذه دقيقة .. وما أدرى فيها» .

وأسأله رجل : حلفت بيمني ما أدرى أى شيء هو ، فقال ليت أنك إذا دريت أنت دريت أنا .

وفي اتباع الإمام أحمد للسنة وآثار السلف قال : «ما أجبت في مسألة إلا بحديث من رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا وجدت السبيل إليه ، أو عن الصحابة أو التابعين . فإذا وجدت عند رسول الله صلى الله عليه وسلم لم أعدل به إلى غيره . فإذا لم أجدهن الخلفاء الأربع الراشدين ، فإذا لم أجدهن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم : الأكابر فالاكابر . فإن لم أجدهن التابعين ومن تابعي التابعين . وما بلغني عمل له ثواب إلا عملت به رجاء ذلك الثواب ولو مرة واحدة .»

من أجل ذلك ظل إلى آخر حياته يبحث عن الأحاديث ، والآثار الصحاح من فتاوى الصحابة وأقضيتها ، حتى أحاديث الآحاد ، والأحاديث الضعاف ، إن ثبت عنده أنها صحيحة غير موضوعة .. والضعف من الأحاديث في عرف ذلك الزمان ، غيرها في عرف أهل هذا الزمان . فقد كانت الأحاديث في عصره إما صحاح أو ضعاف .. فقد نفهم نحن أن الضعيف من الحديث هو المكتوب غير الصحيح أو المخالق ، أما في عرف السلف فهو الحديث الذي ليس له سند قوي ، ومنه الحديث الحسن ...

كان الإمام أحمد إذا لم يجد ما يريد في الحديث ، يلتجأ إلى القياس الذي يصار إليه عند الضرورة مع توسيعه في فهم القياس وتطبيقه . فأخذ بالصلحة قياسا على مقاصد النصوص وروحها ، لا على نص بالذات ، وتعري حكمه النص بدلا من علته فحسب ، أو جأ إلى الاستحسان ، وما إلى ذلك من أصول .. وقد سمعه بعض الناس يجادل فقيها آخر في بيته ويقول له : «إيش (أى شيء) أنت؟ لا إلى الحديث تذهبون ولا إلى القياس ولا إلى استحسان . ما أدرى إيش أنت؟»

أعمل الإمام أحمد فكره فاستتبع الأحكام من النصوص والآثار ، وعن طريق القياس بمعناه الواسع فهو المصالح والذرائع والاستصحاب .. وجأ إلى الاستحسان .

وفي الحق أنه كان متشددًا في كل ما يتعلق بالعبادات والحدود التي هي قوام الدين ، لأنه رأى البدع تسود والناس يتزخرضون ، ويخرجون عن الدين ، أما في المعاملات فقد اتخذ فيها مذهبًا متحررًا ميسرا ، لأنه رأى أن الذين يستغلون الناس يضيقون عليهم باسم الدين ، ورأى من الزهاد الذين يلبسون الصوف ويسمون أنفسهم بالصوفية ، والفقراء ، من يزين للناس ترك السعي ، وحب الفقر ، والرضا بالظلم وللمقعد عن طلب العدل ..

## إيجابيات الإمام أحمد عن المسائل ، وفتواه يظهر فيه تشدده في العبادات والحدود ، وتسويه في العاملات .

من ذلك أنه عندما فشت الفاحشة في عصره ، وشاع الشذوذ الجنسي حتى أصبح أهل الشذوذ يجبرون ويستجرون به ، وأصبح لهم شأن في الدولة نشر الإمام أحمد أن الصديق أبو بكر أمر بإحرار أهل الشذوذ ، عندما أرسل إليه خالد بن الوليد أنه بعد أن فتح الشام وجد فيها أهل قرية يقترون هنا المنكر ، فأشار عمر بن الخطاب وعلى بن أبي طالب رضي الله عنها ، بإحرارهم أسوة بقوم لوط .

— ومن ذلك أنه رأى الولاة يتقبلون المدايا ، فروى أن الرسول صلى الله عليه وسلم جاءه أحد عماله يحمل مالاً كثيراً فاحتجز نصف المال وقال إنه له فقد أهدى إليه ، فغضب الرسول صلى الله عليه وسلم وأخذ المال كله للمسلمين ، وحذرهم أن يقبل أحد منهم هدية إن تولى أمراً من أمور المسلمين وتساءل الرسول إن جلس أحدهم في بيته أبيه وأمه أكان يهدى إليه ، أم أنه يهدى إليه لأنه تولى أمراً ؟ فإن استحل مالاً بهذه الطريقة فقد استحق النار .. !

وتأسيساً على هذا الأثر أفتى الإمام أحمد أنه لا يحق للقاضي أن يقبل هدية ، ولا أى مستخدم في الدولة ، ولا لمن يسعى في مصلحة لغيره عند السلطان أو أولى الأمر .. وأفتى بأن من زاد ماله وهو يلي منصباً ، وجوب على السلطان أن يأخذ نصف ماله فيerde على المسلمين .

— ومن ذلك أن الإمام أحمد رأى الناس قد قوست قلوبهم ، فأفتى بأنه لا يحق لأحد أن يحمل حيواناً فوق طاقته ، وأن الكلب إذا حضر طعام أحد ، فعليه أن يلقى إلى الكلب بشيء منه ، وكان الناس قد فهموا منه أن ظل الكلب نجس ، فسخربه بعض حساده ، وما كان قد قال هذا فقط ، ولكنه أزرى بالآثرياء وأنكر عليهم أن يطعموا كلابهم أفتر الطعام ، وفي الأمة من لا يجد طعامه إلا في المزابل ، وقد لا يجده حتى في المزابل ! من أجل ذلك شهروا به !

على أن الإمام أحمد نفسه جلس مرة يأكل رغيفاً وما لديه طعام غيره ، فجاء كلب فصبع بذنبه .. فألقى إليه الإمام أحمد باللقطة بعد اللقطة حتى تقاسما الرغيف !! .. والإمام أحمد يرى في سؤال الكلب نجاسته ، على غير ما رأه الإمام مالك الذي اعتمد على آية تحمل أكل ما يصيده الكلب ، فقال : « أحل لنا صيده فكيف يحرم سُؤْرَه ؟ » .. ولكن من رأى الإمام أحمد كرأي غيره من الفقهاء والأئمة إلا الإمام مالك بن أنس أن الكلب إذا لعق الإناء وجب غسله بماء طاهر ، سبع مرات عند بعض الأئمة ، وحتى يظهر عند أحمد وإن بلغت ثمان مرات أو لها بالتراب عند الجميع .. ولم يُجز أحد قتل الطير إلا لمصلحة أو حاجة ، ولا دودة القرمز إلا لاستخراج الحرير . واعتمد الإمام أحمد في هذا على الحديث الذي يحرم قتل العصافير إلا لمصلحة أو حاجة .

— ومن ذلك أن الشرط في العقد الصحيح مالم يخالف القرآن والستة ، ومالم يجعل حراماً أو يحرم حلالاً . فإذا فللتزوجة أن تشرط على زوجها ألا يتزوج غيرها . فإن خالف الشرط فسخ العقد وقع الطلاق . ولما أن تشرط عليه ألا يسافر معها .

— من ذلك أنه إذا هلك أحد من العطش أو الجوع في بلاد المسلمين ، فكل أثرياء المسلمين آثمون ، وعليهم الديمة ، ولوى الأمر مسؤول وعليه الديمة .. وهي دية المقتول عمداً .. نفسها بغير نفس أو فساد في الأرض ، فمن قتلها فكأنما قتل الناس جميعاً .

— من تسبب في القتل قاتل وإن لم يقتل بيده ، وإن لم يقصد القتل .. وقد أخذ هذا الحكم من قضاء الإمام على بن أبي طالب كرم الله وجهه . فقد أدخلت فتاة في ليلة زفافها إلى بيتها شاباً كانت تعيشه وأخفته ، واكتشفه الزوج قتله ، فحكم الإمام على الزوج الخائنة بالقتل ، وعفا عن الزوج لأنه يدافع عن عرضه .

— ومن ذلك أن الشفاعة هي التي تكيف العقد وعلى هذا فزواج المحمل باطل .

— يجب نفي أهل الدعاية والمجون والفسق إلى مكان يؤمن فيه شرهم .

— القاعدون عن طلب الرزق اكتفاء بالعبادة ، يجب إجبارهم على العمل ، لأنهم يأكلون أموال الناس بالباطل ، وطلب الزهد فراراً من المشقة إثم ، وترك المكافحة مع الحاجة إليها كسل .

— إذا حكم للمدعى بيمنيه بشهادة شاهد واحد ، ثم ثبت كذب الشاهد ، فعليه الغرم كله ، أى رد مادفع للمدعى بغير حق ، فإن كانا شاهدين تقاسما الغرم .

— لا يجوز الشراء من يرخص السلع لينزل الضريبة ، وعلى السلطان أن يمنعه من البيع . كذلك يطرد السلطان من السوق كل تاجر يرفع السعر وبفارق فيه .. فإذا تعدد التجار ، وجب اقتلاعهم من السوق ومنعهم من التجارة .

— تمنع المضاربة على السعر نزولاً أو صعوداً لمن لا يريد أن يشتري .

— لا احتكار.. فالمحكر ملعون .

- يمنع كل بيع فيه شبهة ربا ، كالبيع للمدين ، كمغالاة بعض التجار في الربح فهو ربا ، وتحل مصادرة هذا المال ، ورده بيت المال ومنع مقتني هذا العمل من الاتجار.
- أعمال السمسرة غير جائزة . والسلطان مسؤول عن مطاردة السمسرة ورد أموالهم إلى المسلمين لأنها مكسب على حساب الغير بغير عمل فيه شبهة القمار.  
وما كان الإمام أحد ليحرم أو يحل صراحة بل كان يتورع عن هذا كغيره من الأئمة السابقين ..  
ويكفي بأن يقول «أكره أو أحب» من ذلك أنه سُئل عن بيع الماء فقال : «أكرهه» .. وهو يريد أنه حرام .. وسئل عن الخمر يستعمل كالمخل فقال : لا يعجبني ..
- ومن ذلك جواز تحويل الدين وهو استيفاء للحق .. وهي ما تسمى حوالات الحقوق ..
- ومن ذلك أن الأصل في الأشياء الإباحة ، فكل تصرف مباح حتى يثبت دليل المنع .
- ومن ذلك : إذا شك المطلق أنه طلق واحدة أو ثلاثة .. فهي طلاقة واحدة لأن الحلال ثابت بالعقد فلا يزول بالشك .
- جواز إجبار المالك على أن يسكن في بيته من لا مأوى له ، بأجر المثل ، إذا كان في بيته فراغ لا يحتاج إليه . والحكم ينطبق على صاحب الخان (الفندق)
- يجبر أصحاب السلع على بيعها بسعر المثل ، فإذا امتنعوا ، رفعهم السلطان من السوق وصادر أموالهم ورد نصفها إلى بيت المال .
- ومن امتنع عن أداء الزكاة ، أو ماطل ، أو لم يؤدها كاملاً أخذت منه قسراً ، وصودر ماله ورد نصفه إلى بيت المال .
- يمتنع تلقى السلع قبل نزولها في الأسواق ، لكيلاً يتحكم تاجر أو عدد من التجار في السعر.
- من وقع في معصية وعاجل بالتوبة حال تلبسه بها أو بعدها فهو معفون عنه . كمن يفتضي عقاراً ثم يندم ويعرف ويخرج من العقار فهو في حال توبة ، فيغفر عنه .  
وكان قد صح للإمام أحد من السنة والآثار عن الشروط في العقود مالم يبلغ غيره من الأئمة من

قبل . ولذلك خالفهم جيئا في الشروط ، فأجاز كل شرط في العقد مالم يحرم حلالا أو يحلل حراما .. وتوسع الإمام أحمد في ذلك حتى أجاز شرط الخيار في عقد الزواج . بحيث يكون لأحد الطرفين حق الفسخ بعد مدة معينة فإذا مضت المدة ولم يفسخ ، استمر العقد .. وفي رأيه أنه لا دليل من الشرع يمنع هذا الشرط ، ثم إن حق الفسخ يمنع الخديعة . فإذا خالف الزوج الشرط فسخ العقد ، وبمقتضى رأيه في الشروط أجاز للبائع أن يبيع ويحتفظ بحق الأتفاق مدة معينة ، فله أن يشرط الإقامة بسكنه الذي يبيعه مدة معينة . وأجاز اشتراط البائع على المشتري أنه إذا أراد بيعه فهو للبائع بشمنه الذي تقاضاه من قبل . وأجاز أن يشرط البائع على المشتري وجوه استعمال موضوع البيع . فقد سئل عن رجل اشتري جارية فاشترط البائع عليه لا يستخلصها إلا في التسرى فحسب ، فلا تخدم ولا تقوم بعمل آخر ، فقال أحد : « لا بأس » .

— جواز البيع من غير تحديد الثمن ، إذا اتفق المتعاقدان على سعر السوق عند التسلیم دون مساومة . ويسُمَّى بقطع السعر . وما في الكتاب ولا في السنة ولا في آثار الصحابة ما يحرّم هذا ، فهو على قاعدة أن الأصل في الأشياء الإباحة .

— يجب التشدد في الطهارة .. فالمضمضة والاستنشاق من فرائض الوضوء وهي عند غيره من الأئمة ستة .

— من ولى أمرًا من أمور المسلمين فاحتجب عنهم في داره جاز حرقة .. فقد احتجب سعد بن أبي وقاص وراء الباب عن الناس في قصره وهو أمير بالكوفة ، فأرسل إليه الخليفة عمر بن الخطاب من أحرق عليه قصره .

— للamar بشمر غيره أن يأكل حتى يشبع مالم يكن على الثرس أو حارس .. ولكن لا يجوز للamar أن يحمل من الثرس .

— للرجل أن يشهد على امرأته بالزنا ويقسم اليدين دون حاجة إلى أربعة شهادة ، إذا رأى رجلاً يعرف بالفجور يدخل إليها ويخرج . وتعاقب الزوجة بحمد الزنا .

— للمرأة إذا تزوج عليها زوجها أن تطالبه بمئخر صداقها وإن لم تطلق .

— البينة التي ثبت الحق لصاحبها ليست مخصوصة في أشكال أو صيغ ، بل هي كل ما يبين به الحق ،

من الأمارات والأدلة ، فلو تنازع الساكن ومالك المسكن على شيءٍ نفيسٍ غبًى في المسكن ، فالشيء ملْن وصفه منها وصفنا دقيقاً منضبطاً ، وإن حلف الآخر وجاء بالشهادتين .

— لا يتحقق السجود في الصلاة إلا بأن تمس الألف الأرض ، وذلك من تمام شعور العابد بالعبودية (والأرض هي ما يصلى عليه العابد بغيره أو مفروشة) .

— تغسل التجasse باء طاهر حتى يزول كل آثارها ، وأقل ما تغسل به التجasse سبع مرات . وإذا شُكَّ المتوضئ في طهارة الماء ، تركه وتيم .

— السنة في الصلاة أن يخفف الإمام فلا يطيل رعايةً لحال المؤمنين ، وتذكره إمامه من لا يرضي عنه أكثر المسلمين .

— الأذان في الصلاة يجب أن يكون باللغة العربية (وقد أجاز غيره من الفقهاء أن يكون بغيرها) . وكذلك الصلاة .

— السنة في الصيام هي النظر في السفر . والنظر في الغزو أخرى . وقد خرج الرسول صلى الله عليه وسلم للفتح في رمضان ، فأفطر بعد صلاة العصر ، وشرب على راحته ليراه الناس وقال : « تقووا لأعدائكم » ..

— طاعة الوالدين فريضة ، وهي جزء من الإيمان ، وقد جعلها الله بعد التوحيد ، « وقضى ربكم ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً » فعصية الوالدين أو الإساءة إليهما كالشرك به تعالى بهذا نزل القرآن عليه نصت الأحاديث الشريفة ورعاية الأم أولى كما جاء في الحديث . وقد سمع الرسول صلى الله عليه وسلم قصة زايد شغلته العبادة عن الرد على أمه وكانت في حاجة إليه ، فأصابها أذى ، فعقب الرسول على سلوك العابد بأنه لو خرج من صلاته ، وأجاب أمه ، لكن أححب إلى الله تعالى وأقرب . وقد روى الإمام أحمد عن الصحابة والتابعين أنه إذا استأذن ولد والدته للخروج بعاهداً في سبيل الله ، فأذنت له ، وعلم أن هواه في المقام ، فليقم . وقال الإمام أحمد لطالب في حلقة تریده أمه على التجارة ، وهو يرى العلم : « دارها وأرضها ولا تدع الطلب . »

— يجوز للأب أن يفضل أحد ولده بالمحبة إذا كان هذا الولد في حاجة بسبب العجز عن الكسب لأنقطاعه للعلم ، أو لعاهة به ، أو لكثره عياله .

— الأحكام يجب أن توفق بين الظاهر والباطن ، فيؤخذ بالظاهر إذا كان الحال في غنى عن البينة لأن الأamarات القوية تؤيده أو كان بيته في ذاته . كان يظهر الحمل على امرأة ليس لها زوج ، أو كان يشاهد رجل يجري وفي يده عمامه ، وعلى رأسه عمامه أخرى ، يطارده رجل آخر بلا عمامه ! لا يؤخذ بالظاهر على إطلاقه ، فقد يثبت أنه يجاوز الحقيقة .

فقد حدث أن جاءت امرأة بعاصم زوجها ، فأرسلت عينيها وبكت . فقال أحد القوم : « مهلا » فإن أخوة يوسف جاءوا أباهم عشاء يبكون .

وحدث في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن امرأة بالمدينة أحبت شاباً من الأنصار ، ولكنه لم يطعها فيها ترید ، فجاءت ببيضة وألقت صفرتها ، وسكت البياض على فخذها وثوبها ، ثم جاءت إلى الخليفة عمر صارحة فقالت : « إن هذا الرجل غلبني على نفسي وفضحني . وهذا أثر فعاله . » فسأل عمر النساء فقلن له : « إن بذنبها وثوبها آثار الرجل » . فهم بعقوبة الشاب ، فأخذ يستغاث ويقول : « يا أمير المؤمنين ثبت في أمري . فهو الله ما أتيت فاحشة ولا همت بها ، فلقد راودتنى عن نفسي فاعتاصمت » . فنظر عمر إلى على بن أبي طالب كرم الله وجهه وقال : « يا أبا الحسن ما ترى في أمرها . » فنظر على إلى ما على الثوب ، ودعا جاءه حار شديد الغليان ، فصب على الثوب فجمد البياض ، وظهرت رائحة البيض ، فزجر الخليفة أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه المرأة فاعترفت ، وعاقبها .

ومن رأى الإمام أحمد أنه لا يؤخذ بالظاهر على إطلاقه حتى إذا اعترف المذنب . وقد روى أنه حدث في عهد أمير المؤمنين على بن أبي طالب رضي الله عنه ، أن أتى برجل وُجْدَةً في خربة بيده سكين ملطخ بالدم وبين يديه قتيل يتتشحط في دمه . فسأله أمير المؤمنين فقال : « أنا قتلتة . » فقال : « اذهبوا به فاقتلوه . » فلما ذهب به أقبل رجل مسرعاً ، فقال : « يا قوم لا تعجلوا . ردوه إلى على » . فرده . فقال الرجل : « يا أمير المؤمنين . ما هذا صاحبه . أنا قتلتة » فقال على للأول : « ما حل لك على أن قلت أنا قاتله ولم تقتلته ؟ » . قال : « يا أمير المؤمنين ، وما أستطيع أن أصنع ، وقد وقف العسس على الرجل يتتشحط في دمه ، وأنا واقف ، وفي يدي سكين وفيها أثر الدم وقد أخذت في خربة ؟ فخفت ألا يقبل مني ، فاعترفت بما لم أصنع ، واحتسبت نفسي لله . » فقال على : « بشّئاً صنعت ! فكيف كان حديثك ؟ » . فقال الرجل إنه قصاب ذبْعٍ بقرة وسلخها ، وأندنه البول فاسرع إلى الخربة يقضى حاجته والسكين بيده ، فرأى القتيل فوقف ينظر إليه فإذا بالشرطة تمسك به . وأما القاتل فاعترف بأن الشيطان زين له أن يذبح القتيل ليسرقه ثم سمع خطوة أندام فاختفى في الظلام ، حتى دخل القصاب فأدركه العسس فأمسكوا به . ولما رأى الخليفة أمير بقتل القصاب ، خشي أن يبوء بيده فاعترف . وأنعلى على سبيل القاتل لأنه إن كان قد قتل نفسها ، فقد أحياناً نفسها ، ومن أحياناً فكانها أحياناً الناس جميعاً . » وأخرج الديبة من بيت المال .

وكان الإمام يستشهد في أحكامه بالأخبار والقصص ، ففيها عبرة لأولى الألباب كما قال الله تعالى . وكان يطلب من تلاميذه أن يكثروا من قراءة القصص ليعتبروا

وما رواه من قصص تؤيد رأيه في عدم الأخذ بالظاهر على إطلاقه ، أن امرأة في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم اغتصبها رجل وهي في الطريق إلى المسجد لصلاة الفجر ، فاستغاثت ب الرجل مر عليها ، وفر المغتصب ، ومر نفرو هي ما تزال تصرخ فأدركوا الرجل الذي كانت قد استغاثت به ، فأخذوه وجاءوا به إليها ، فقال الرجل : « أنا الذي أغشتك وقد فرق الآخر » فأتوا به رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبرته أنه وقع عليها وشهد عليه القوم . فقال : « إنما كنت أغشتها على صاحبها فأدركني هؤلاء فأخذوني » فقالت : « كذب . هو الذي وقع على ». فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « انطلقوا به فارجوه ». فقام رجل فقال : لا ترجوه وارجوني فأنا الذي فعلت بها الفعل . فقال القوم : « يا رسول الله ارجه » فقال : « لقد تاب توبة لوتاها أهل المدينة قبل الله منهم .

— يفضل الإمام أحد المسلمين أن يغزوا تحت قيادة القوى وإن كان فاجرا ، على الضعيف وإن كان صالحا ويقول : « أما الفاجر القوى فقوته للمسلمين وفجوره لنفسه . وأما الصالح الضعيف فصلاحه لنفسه وضعفه على المسلمين . فيغزى مع القوى الفاجر جلبا للمصلحة العامة .

— لا يحبس المدين في دين . فلم يحبس رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلا في دين فقط ، ولا الخلفاء الراشدون من بعده ، وقد قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه « الحبس في الدين ظلم » . وكذلك لا يحبس الزوج في مؤخر الصداق ، ولم يحبس الرسول ولا أحد من الخلفاء الراشدين زوجا في مؤخر صداق أصلا . ولم يقض أحد من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا من بعده لامرأة بصداقها المؤخر ، إلا أن يفرق بينها موت أو طلاق فتقوم على حقها ». كما جاء في رسالة الليث إلى مالك . فالآمة مجمعة على أن المرأة لا تطالب به قبل أجله بل هو كسائر الديون المؤجلة فليس لها حق فيه إلا بالموت أو الطلاق أو الزواج بغيرها .. ولا تقوم مصلحة الناس إلا بهذا . ويفسّر الإمام أحد في ذلك : « من حين سلط النساء على المطالبة بالصدقات المؤخرة (أي مؤخر الصداق) ، وحبس الأزواج عليها ، حدث من الشور وال fasad ما الله به عليم . وصارت المرأة إذا أحسست من زوجها بصيانتها في البيت ، ومنها من البروز والخروج من منزله والذهاب حيث شاءت ، تدعى بصداقها وتحبس الزوج عليه ، وتنطلق حيث شاءت . فيبيت الزوج ويظل يتلوى في الحبس ، وتبيت المرأة فيما تبيت فيه » .

- كل أنواع المعاملات مباح إلا ما يحظره نص أو القياس على نص . وكل العقود واجبة الوفاء إلا إذا قام دليل شرعى على المنع . وكل ما احتاج إليه الناس في معايشهم ولم يكن سببه معصية لم يحرم عليهم ، لأنهم في معنى المضرر الذي ليس بباغ ولا عاد . ولا يشترط لانعقاد العقد أى شكل أو صيغة بل ينعقد بالنية والإفصاح عنها . وبعض العقود لا يثبت إلا بالكتابة . وقد ينعقد العقد بمارسة الفعل أو بما يقتضيه العرف . كالعقد مع صاحب الخان (الفندق) أو صاحب الحمام ، ينعقد بدخول المكان ورضا صاحبه . وأكثر تصرفات التجارة قائم على العرف . ولكن النية والقبول يجب ألا يعيّب أيهما شيء ، فأساس المعاملات الرضا ، وكل ما يشوب الرضا يفسد التعاقد ، أكراها كان أم خديعة أم غشاً أم تدليسًا أم غبناً .

وقد حدث في عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب أن تزوج شيخ كبير ينصب بالسوداد بفتاة شابة حسناء وبعد حين ظهر البياض على شعر الزوج ولحيته ، فكرهته العروس وقالت إنها خدعت بشبابه .. وما هو بشاب . وشكاه أهلها إلى عمر قائلين : « حسبناه شاباً ». فصربه عمر ضرباً موجعاً وقال له : « غررت بالقوم ». وفرق بينها .

- الغاية ترتبط بالوسيلة المؤدية إليها ، وترتبط المقلمة بالنتيجة ، فما هو سبيل إلى المباح مباح ، وما هو وسيلة إلى المحظور محظور ، فإذا فسدت أحدهما فسدت الأخرى ، فإنّيات الحق مباح بل هو مطلوب ، على ألا تكون الوسيلة محظورة كشهادة الزور .

وتستثنى من القاعدة حالات الضرورة أو الحاجة .. فيجوز للطبيب الاطلاع على عورة المريضة لعلاجها وإنقاذ حياتها .

- من الواجب توفير كل ما فيه صلاح الناس ، وفتح الطريق للتوبة وإصلاح ذات البين وصيانة كيان الأسرة .

وروى أحد : « جاءت إلى علي بن أبي طالب امرأة فقالت : « إن زوجي وقع على جاري بيتي بغير أمرى ». فقال للرجل : « ما تقول ؟ ». قال : ما وقعت عليها إلا بأمرها . فقال : « إن كنت صادقة رجته (بالزنا) وإن كنت كاذبة جلدتك الحد (للقذف) ». « وأقيمت الصلاة فقام أمير المؤمنين على يصلي . وفكرت المرأة فلم ترها فرجاً في أن يُرجم زوجها ، ولا في أن تجلد فولت هاربة . ولم يسأل عنها أمير المؤمنين » .

وقد قيل للإمام أحمد « فلان يشرب ». فقال : « هو أعلمكم شرب أم لم يشرب ». وقال عن جماعة من العلماء يشربون النبيذ : « تلك سقطاتهم لكنها لا تذهب حسانتهم » .

- على القادر أن ينفق على كل ذوى الأرحام القراء قرباً منه أو بعدها . وعلى الموسرين من المسلمين أن يخرجوا من أموالهم إلى بيت المال صدقات ، حتى لا يكون فى أرض الإسلام صاحب حاجة مسلماً كان أم غير مسلم .

- يجب على كل مسلم أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، وهذا أمر لاختص به جماعة منهم ، بل هو فرض على الجميع . و يجب اتباع الحسن في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . فكما جاء في الحديث الشريف : « كل من رأى سيئة فسكت عليها فهو شريك في تلك السيئة » ، على أن يكون النصح بقول التي هي أحسن . والمسلمون مطالبون شرعاً إذا كلام بعضهم بعضاً بأن يقولوا التي هي أحسن « فرب حرب أهاجها قبيح الكلام » . فإن لم يتحدثوا بالحسن من القول ، وقعوا في المعصية بمخالفتهم قوله تعالى : « قل لعبادي يقولوا التي هي أحسن . إن الشيطان ينزع بينهم » .

بهذا الفقه خالف الإمام أحمد في كثير من المسائل كل من سبقه من الأئمة وبصفة خاصة الإمامين أبي حنيفة ومالك بن أنس .. ولكنـه كان أكثر اقتداء بالشافعـي في مذهبـه المصري الذي تأثرـ فيه بالإمام الليث بن سعد . على أن الإمام أحمد اختلف مع الشافعـي اختلافـاً كاملاً في الأخـذ بالاستحسـان وفي شروط العـقود ، فقد وقـع لأحمدـ من الحديثـ والأثارـ مالمـ يقع للشافعـي ، وقد صـبح نظرـ الشافعـي حينـ قال لأـحمدـ هوـ ومنـ معـهـ منـ أـهـلـ الـحـدـيثـ : « أـنـتـ أـعـلـمـ بـالـحـدـيثـ وـالـأـخـبـارـ مـنـ إـنـ كـانـ صـحـجاـ فـأـعـلـمـنـيـ » .

سار الإمام أحمد في أكثر اجتهاده على طريق الإمام الشافعـي ، حتى لقد رفض الإمام الطبرـي اعتبارـ ابنـ حـنـبـلـ فـقيـهاـ أوـ عـجـتهاـ ، وـعـدهـ متـبعـاـ وـرـاوـيـةـ للـحـدـيثـ وـمـقـلـداـ ..

وقد خطـبـ الإمامـ أحمدـ فيـ التـزـامـهـ طـرـيقـ الشـافـعـيـ فـقاـلـ : « لـمـ نـكـنـ نـعـرـفـ الـخـصـوصـ وـلـاـ الـعـمـومـ حتـىـ وـرـدـ الشـافـعـيـ ، وـكـانـ الـفـقـهـ قـفـلـاـ فـقـتـحـهـ الشـافـعـيـ . وـهـوـ فـيـلـسـوـفـ فـيـ أـرـبـعـ فـيـ الـلـغـةـ وـاـخـتـلـافـ الـنـاسـ وـالـمـعـانـيـ وـالـفـقـهـ » .

تابعـ الإمامـ أحمدـ طـرـيقـهـ : فـهـوـ يـجـبـ عـلـىـ الـمـسـائـلـ ، وـيـعـلـمـ التـفـسـيرـ وـالـحـدـيثـ ، وـيـرـاجـعـ ماـ جـعـ منـ الـأـحـادـيـثـ ، وـفـىـ مـرـاجـعـاهـ لـاـ حـفـظـ وـجـعـ مـنـ أـحـادـيـثـ ، حـذـفـ كـلـ مـاـ حـفـظـهـ عـنـ عـالـمـ ذـىـ مـكـانـهـ مـنـ أـهـلـ الـحـدـيثـ ، لـأـنـهـ شـتـمـ مـعـاوـيـةـ بـنـ أـبـيـ سـفـيـانـ وـأـرـسـلـ إـلـيـهـ أـحـدـ بـذـلـكـ .. فـعـجـبـ الـمـحـدـثـ لـأـنـهـ يـعـرـفـ أـنـ أـحـدـ بـنـ حـنـبـلـ يـرـىـ مـعـاوـيـةـ مـنـ أـهـلـ الـبـيـنـ بـبـيـغـيـهـ أـمـيرـ الـمـؤـمـنـيـنـ عـلـىـ بـنـ أـبـيـ طـالـبـ كـرـمـ اللهـ وـجـهـ !!

إنـ أـحـدـ وـصـاحـبـهـ حـفـظـاـ الـأـحـادـيـثـ مـعـاـ مـنـ شـيخـهـ عبدـ الرـازـقـ فـيـ الـيـنـ ، وـلـقـدـ سـمـعـاهـ مـعـاـ يـشـتـمـ أـبـيـ

المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه .. وعثمان أفضل من معاوية !! .. وإذن فاينبغى لابن خنبل ، أن يروى الأحاديث الكثار التى حفظها عن شيخها عبد الرزاق ! أرسل المحدث إلى صاحبه أحد يذكره بذلك كله .. !

فلم يشأ الإمام أحمد أن يحاور أصحابه ، فقد شغله فقهه ، واستنفره غلبة أصحاب الكلام على قصر الخليفة وعلى الحياة الفكرية ، فشدد النكير عليهم ، وشرع بهاجهم فى حلقاته العامة بالمسجد ، وأخذ يحذر منهم طلابه ومربيه حلقته قائلا : « لا نكاد نرى أحدا نظر فى الكلام إلا وفي قلبه رغل (أى فساد) . » ولم يت Hibip أصحاب الكلام هجوم أحد ، بل مضوا يماجرون فى القضية التى كانت تضليلهم منذ زمان بعيد وهى قضية خلق القرآن .

والقضية ليست بنت العصر .. ولكن أصحاب الكلام من المعتزلة أثاروها من قبل فى عصر بنى أمية ، وأصحابهم منها انتهت شديد وعذاب عظيم ! فقد بدأ المعتزلة فى حكم هشام بن عبد الملك يتكلمون فى حرية الاختيار وفي البيعة والشورى ، فهزوا أركان السلطان ! ...

ثم تكلموا فى خلق القرآن . فانتهزوا الحاكموں الفرصة ، واتهموا أصحاب هذا الرأى بالكفر .. ولم يجادلوهم فى غيره من الآراء . وقبضت الدولة على أول من قال بهذا الرأى وهو « الجعد بن درهم » . فحبس وعذب فى فجر عيد الأضحى .. وخطب والى العراق فى الناس العيد وقال فى آخر خطبته : « انصرفوا وصحوا تقبل الله منكم ، فإى أريد أن أضحي اليوم بالجعد بن درهم » . ونزل من على المنبر فذبح الجعد كما تذبح الأضاحى !!

ثم إن حكام بنى أمية طاردوا المعتزلة والمتكلمين بتهمة الكفر ، وأثاروا عليهم العامة ، حتى جاء وقت لم يستطع فيه مفكر منهم أن يجهز بفكرة .. ولكن هذا الفكر استعر وغا تحت المطاردة والأستبداد ، كما عاش ويمضى نار الثورة على بنى أمية تحت الرماد ، حتى أصبح له ضرام ، وقوده جثث وهام .. !

وإذ سقطت دولة بنى أمية وخلفها بنو العباس ، ظهر المعتزلة بفكرةهم ، واهتموا أكثر ما اهتموا بالقضية التي ذبح أول من أثارها والتي لاقوا التكال في سبيلها وهي قضية خلق القرآن ! .

وكان بوسع الإمام أحمد أن يشهر بهؤلاء ، فقد دعى إلى عشاء عند أحدهم ، ووجد فى داره كثيرا من الفقهاء يشربون وقد بلغ بهم السكر مبلغه .. ، وأمامهم ترقص الإمام ويفتن عاريات ، فخرج أحد من المكان ، وعندما سئل من غده عما رأى لم يقل شيئا ، وقيل له أن غالفة كانوا سكارى ، لم ينطلق ذلك أنه وهب نفسه للعلم ونأى بنفسه عن السياسة ، وأخذ الخصوم بعوراتهم !

ولكنه ما كان يستطيع أن يبعد .. فالسياسة هي فن الحياة وهي « ما كان فعلا يكون معه الناس

أقرب إلى الصلاح ، وأبعد عن الفساد ، وإن لم يضنه الرسول صلى الله عليه وسلم ولا نزل به وحي .  
علوم الدين ترسم ملامح المجتمع الذي أراده الشارع الحكيم بما فهمه من روح النصوص .

فسر الإمام أحمد قوله تعالى في سورة النور: « وآتوه من مال الله الذي آتاكم » بقوله تعالى في سورة الحديدة: « آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا ما جعلكم مستخلفين فيه ، فالذين آمنوا مـ:كم وأنفقوا لهم أجر كبير ». .

فالأغنياء مستخلفون فيما يملكون ولا ينبغي أن يقول الواحد منهم « هذا ملكي » بل عليه أن يقول : « هذا ملك الله عندي » ... فإذا ذكر ذلك فللهم وظيفة اجتماعية ، وإنفاق المال للصالح العام واجب شرعاً ، جعله الله جزءاً من الأيمان .. من أجل ذلك حرم الله الربا ، واعتبر المربين كفاراً ، وحرم الرشوة : « ولا تأكلوا أموالكم بيئكم بالباطل وتدعوا بها إلى الحكام لتأكلوا فريقاً من أموال الناس بالإثم وأنت تعلمون ، وحرم كل أنواع الكسب بلا عمل ، وحرم الوساطة في التجارة والصفقات (أى السمسرة) . أو العمولة بلغة العصر !

ثم إن الإمام أحمد أخذ يعلم الآلاف الذين يرتادون حلقةه أن الذين يستغلون موقعهم ليكسبوا بغير الحق هم الويل كل الويل وكان قد أنذرهم بذلك من قبل ، فرفضوا قوله لأنهم حسبه من اجتهاده ، ولكنه روى حديثاً صحيحاً قوى الأسناد محقق الثبوت .. : « أن النبي صلى الله عليه وسلم جاءه أحد الولاة فقسم ما جمع من مال قسمين ثم قال للنبي عليه الصلاة والسلام : » هذا لكم وهذا أهدى إلى فغضب النبي وقام يخطب في الناس : ( أما بعد .. فإني أستعمل رجالاً منكم على أمور مما ولاني الله فيأتى أحدكم فيقول : هذا لكم وهذه أهديت إلى . فهلاً جلس في بيته أبيه أو بيت أمه فينظر إليه أهلي إلـ:يه أم لا ؟ والذى نفسي بيده لا يأخذ أحد فيه شيئاً إلا جاء به يوم القيمة يحمله على رقبته ، إن بعيرا له رغاء أو بقرة لها خوار أو شاة تبرع . وكان أبوذر الغفارى حاضراً فقال للرجل : لا تحزن . إن الدنيا دار من لا دار له ، ومال من لا مال له ، ولما يسعى من لا يقين له . اذهب اعتذر للنبي صلى الله عليه وسلم )

وروى أحد عن السلف الصالح أن عمر بن الخطاب خصص أرضاً إلى جوار المدينة ، جعل كلها لمشية الفقراء وحرمتها على أنعام الأغنياء وقال : « إن تهلك ماشية الغنى يرجع إلى ماله وإن تهلك ماشية الفقير يأتى بأولاده متضوراً طالباً الذهب والفضة . فبذل العشب اليوم أيسر على من بذل الذهب والفضة يومئذ ». .

ثم أخرج الإمام الأحاديث الشريفة التي تؤثم الاحتياط بالمال وفي الأمة فقراء .

وتحرز في رواية آثار على بن أبي طالب التي تحكى عن جهاده في إعادة توزيع ثروة الأمة ، وأخذ ما فاض عن حاجة الأغنياء ورده على الفقراء .. تحرز الإمام أحمد في ضرب الأمثال بسيرة على بن أبي طالب عندما كان أميراً للمؤمنين ، وفي اختياره لدار الخلافة بيته في الكوفة هو من أدنى بيوت الفقراء ، ليضرب الأمثال لأولياء الأمر في عصره ومن بعده ... تحرج الإمام أحمد من الحديث عن سيرة الإمام على لكيلا يجدوا عليه سبلاً فيتهموا أحد بن حنبل شيخ أهل السنة بأنه شيعي .. ويشور عليه أمراء البيت العباسى الحاكم !!

وعلى الرغم من تحرزه هذا ، أوغرت فتاواه وآراؤه صدور هؤلاء الحكام .. وتربصوا به ، وزعموا أنه بما يفسر من آيات ، وما يخرج من أحاديث ، وبما يروى من آثار الصحابة ، إنما يثير الفقراء ضد الأغنياء ، وبين الصوفية ، ويعرض العامة على الخاصة !! .

وأغروا به بعض المنافقين ليجرحوه ! .. ولكنهم ما كانوا لينالوا منه .. فقد عرف الناس من هو الإمام أحمد !! !!

ومايزال في أعماق أحد جراح من قصة الفتاة التي كانت تبحث عن القوت في مزبلة قومها ، وعلى مقربة منها ينثر الدر والذهب لتتشى عليه المحظيات .. وعلماء يجدون الفقر ويدعون إليه الأمة !! ثم جاء عصر المؤمن ..

وقد استولى المؤمن على الحكم بعد معركة مريرة مع أخيه الأمين .

ذلك أن الرشيد استخلف ابنه الأمين ، وهو ابنه من زوجته العباسية بنت عمده زبيدة ، وأوصى بولاية العهد من بعده الأمين للمؤمن ، وهو ابن الرشيد من جارية فارسية

ولم يكدر الأمين يتولى الخلافة ، حتى عزل أخيه المؤمن من ولاية العهد مستنثضاً التحصب العربي ضد الموالى ومنهم الفرس .

وأيد الأمين في هذا عدد من فقهاء بغداد من أهل السنة .. إلا أحد بن حنبل شيخ أهل السنة ، فقد كان لا يعني بغير العلم !

وخرج المؤمن على أخيه الأمين بالسيف ، وغلبه ، وقتل الأمين ، وأصبح المؤمن هو أمير المؤمنين . وكان الأمين والمؤمن على طرف نقيض : فالامين يعتمد على نسبة الماشمي أبا وأما ، فحسبه هذا النسب ! .

أما المؤمن فقد عرف أنه يجب أن يعتز بنفسه لا بنسبة ، ومن أجل ذلك حرص على أن يتعلم ويتشقق ، وقد كان معلمه يضر به وهو صغير فلا يشكوا ، على نقيض الأمين الذي كان مدللا من معلمه ومن الحاشية ، لا حظ له من الثقافة ، ولاهم له إلا التوفيق على المتابع الذي تقدمه له حاشيته ..!

كان المؤمن واسع الثقافة ، يولع بالفقه وآداب اللغة والفلسفة وعلوم الطبيعة والطب والفلك والرياضيات .. ويدرس معطيات كل الثقافات .. فشجع على نقلها إلى العربية عندما أصبح خليفة ..

ونظر المؤمن في أمر الدولة فوجد أن الصراع يكاد يمزقها : صراع بين العلوين والعباسيين ، وبين أصحاب الفرق من أهل السنة ، وأهل الرأي ، والمعتزلة وغيرهم من الفرق .. ووجد أن بعض أفراد أهل البيت المالك يشتغلون في ظلم الرعية مهددين كل شيء ، فيعيش أحد كبارهم امرأة حسناً متزوجة ، ويعاول ، تطلب يقظتها وحين يرفض زوجها أن يطلقها ، يرسل لها شمسي الكبير من يخفيها من زوجها عنوة ، ويغتصبها قبل أن يهدوها إليه !

ويعجب رجل آخر منهم بغلام مليح فيخطفه من أبيه وأمه ، ويضعه أمامه على الحصان ويطير به إلى بيته ! .. وهذا الرجل من أهل البيت المالك العباسي يصنعن هاتين الفاحشتين بأمرأة وغلام من أهل مكة والمدينة ولا يجدان أدنى مقاومة ..!

أما بغداد .. فما أبشع ما يغشاها من فساد .. وإلى جوار هذا كله ينتقض فكر عظيم يعيش فقهاء البلاد ، ومثقفو شرفاء يعانون من غاشية الظلم والفحشاء ! ..

والدولة تتسع ، وقد خلف هارون الرشيد ملكا عظياً ضم أكثر بلاد الدنيا ، حتى أصبح الرجل في أي مكان في العالم لا يعتبر مثقفاً أو متحضرًا ، إلا إذا أتقن اللغة العربية ..!

ثم إن المظالم التي كابدها الناس فجرت الثورات ، فقامت في أطراف الدولة ثورات تطالب بالمساواة في كل شيء وتطرفت حتى طالبت بشیوع النساء !! كما حدث في الأطراف الشرقية ، وقامت ثورات أخرى تطالب باحترام تعاليم الإسلام كثورة أهل مصر !!

والخلافات الفقهية والفكرية تستعر حتى لتحول إلى عداء ! وبعض العلوين ينهضون مطالبين بمحقهم في الإمامة والخلافة ! ونفر من المتشددين يقطعون الطريق على أهل البدع ، ويضربون لاعبي الشطرنج ، أهل الطرف ، ومن يلبس الحرير أو الذهب ، ويريرون الخمور ، ويحطمون آلات الفتاء !!  
كان على المؤمن أن يواجه هذا كله .. وأن يرفع مظالم أسلافه من الخلفاء ، وبصفة خاصة مظالم

أربع سنوات حكمها أتوه الأمين ، الذي ترك أمور الدولة لخاشية فاسدة ، أغرقه في المذميات ، حتى لقد حارب معركته الأخيرة التي قتل فيها وهو سكران يجرع الخمر من قدح ذهبي يسع أربعة أرطال .. !

ورأى المؤمن أن أخطر ما يهدد الدولة هو سلطان قادة البيت العباسى .. والصراع بين العلوين والعباسيين ، والخلاف بين الفرق المختلفة .

أما الشورات في الأطراف ، فقد أنفذ إليها جيوشا يقمعها . ثم رأى أن يوفق بين أبناء العمومة من شيعه علوين وعباسيين ، فنظر فيمن يوليه العهد ليكون خليفة من بعده ، فلم يجد أحکم ولا أتقى من الإمام علي بن موسى وهو إمام الشيعة .

وأخذ يضرب رؤوس الفساد في البيت المالك العباسى من يخطفون الزوجات والقلمان ، ويستغلون قرابتهم من السلطان لابتزاز الأموال ، أو لإرهاب الناس . وأمر بأن يلغى السواد من أعلام الدولة وهو شعار العباسين ، ليحل بدلا منه اللون الأخضر شعار العلوين .

وحاول أن يرد بعض أموال الأغنياء إلى الفقراء والمساكين وأصحاب الحاجات ..

وشار عليه العباسيون وأغنياء الدولة واجتمعوا في بغداد ، وكان هوما يزال بعيدا عنها ، فخلعوه وأفتش عن عدد كبير من فقهاء السنة بأن المؤمن خارج على الإسلام ، وبايعوا بدلا منه إبراهيم بن المهدي وهو أحد كبار المغنين والملحنين .

وبايده الذين كانوا يكسرون آلات الغناء ، ويضربون المغنين والمعنيات !

وزحف المؤمن على بغداد ، وحين أوشكت أن تستسلم ، اختفى إبراهيم بن المهدي ، وتسلل إليه الذين خلعوه من قبل ، فبایعوه !

ودخل المؤمن بغداد ، فخضع له الجميع !

وعفا عنهم إلا قليلا منهم ، قتلهم وصلبهم على أبواب بغداد مدينة السلام ! .

وكان ولی عهده علي بن موسى ، قد مات من قبل فجأة في ظروف مشبوهة ! .. وقيل إن أعداء الشيعة دسوا له السم في الطعام ! .

أما أحد بن حنبل فقد ظل بعيدا عن كل هذا المضطرب ، مشغول القلب بعلمه وفقهه ، لا يراه الناس إلا في حلقة يعلم الناس ومحبب على المسائل .

وحين دخل المؤمن ببغداد واستقر بها ، أسرع بترجمة كل مالم يترجم بعد من الثقافات والحضارات الأخرى ورصد لذلك أموالا طائلة ، واستعان بمتقين مسيحيين وهود .

ولاذ أمر بترجمة ما عند اليونان والمصريين ، اتهموه بأنه يروج للوثنية ، ففي ذلك التراث الحضاري كلام عن الآلهة المتعددين .. !

من أجل ذلك توقف المؤمن عن ترجمة المسرح المصري والأدب المصري القديم ، فضاعت آثاره ، إذ لم يجد من يترجمه من بعد

وتوقف عن ترجمة المسرح اليوناني والأدب اليوناني ، ولكن هذا التراث وجد من الأوربيين من ينقله عبر الأجيال ..

كان نفر من أهل السنة في بغداد يلعنون الفلسفة والمنطق ، وكل مالم يعرفه السلف من معارف وعلوم .. ولكن المؤمن شجع هذه العلوم والمعارف ، ومنع تلاميذ جابر بن حيان تلميذ الإمام الصادق كل ما يريدون من أموال ومعامل ليطوروا علم الكيمياء .

واعتبر بعض أهل السنة هذا العلم شعوذة وبدعة ، وشجعهم على ذلك أن نفرا من المشتغلين بالكيمياء ، أخذوا يعملون لتحويل بعض المعادن الخيسية إلى الذهب النفيس .. !

ثم إن الصراع احتدم حول خلق القرآن بين المعتزلة وأهل السنة .

وما كان الإمام أحمد بن حنبل على صلة بكل هذا المضطرب ، واكتفى بأن يخوض الناس على أن يهتموا من الدين بما فيه نفع للناس ، وبما يقيم المجتمع الأمثل .

ووجد المؤمن أن الفتنة توشك أن تنفجر بين أهل السنة والمعزلة ، وكان هو نفسه يدين بأراء المعتزلة ، وبصفة خاصة بطرقهم الفلسفية وباستخدامهم المنطق في مجادلة المحدثين والزنادقة .. وكان راعيا لأصحاب الفلسفة ، مؤمنا إيمانا عميقا بأن القرآن مخلوق ، وبأن الجدل وسيلة صالحة للوصول إلى الحقيقة .

واصطنع لنفسه أغوانا من الجانبيين .. فجعل الرجل الأول في قصره واحدا من كبار أهل السنة ، وهو يحيى بن أكثم ، وقرب إليه في الوقت نفسه عددا من مفكري المعتزلة على رأسهم الجاحظ شيخ كتاب ذلك الزمان ، وأحمد بن أبي دؤاد شيخ المعتزلة .

ولكن أحد بن أبي دؤاد كان عنيفا على أهل السنة ، يتهمهم بالكفر لأنهم ينكرون خلق القرآن . فإن لم يكن القرآن مخلوقا وكان قد يما فهو إذن شريك الله تعالى في القدر .. وهذا شرك !

أما المعتزلة فكانتوا يرون أن الله خلق كل شيء فالقرآن من الأشياء التي خلقها الله تعالى ..

وحاول أحد بن دؤاد أن يقنع المؤمن بقهر عالفيه على اعتناق رأيه ، ولكنه أبى ذلك فالمؤمن يرى أن غلبة الحجة خير من غلبة القوة .. فالقوة تزول ، أما الحجة فباقية ما بقى العقل .

وجمع المؤمن أربعين من المفكرين والقضاة والعلماء والفقهاء فتاظروا عنده ، غير أنهم لم ينتبهوا إلى اتفاق ! .. ولم يشهد أحد بن حنبل هذا الاجتماع ، إذ كان لا يخشى بجالس الحكم ، ولا يقبل عطاءهم ، منها تكن شدة حاجته ..

كان مشغولاً عن كل هذا بما هو فيه من تدريس وعلم وجع للأحاديث . ثم إن رأيه معروف لا يجادل فيه بعد .. فقد نهى عن الخوض فيما لم يخض فيه السلف ، والسلف لم يخوضوا في خلق القرآن .. ولقد أعلن أكثر من مرة : « ما أفلح صاحب كلام . »

بعد المناورة خرج أهل السنة يهاجرون أصحاب الكلام في الحلقات ، ويتهمنون من يقولون بخلق القرآن بأنهم كفار .. أو بالليل أصحاب بدعة !

ولم يستطع يحيى بن أكثم وهو من شيوخ أهل السنة أن يشكيت أصحابه ، فعرضوا بالمؤمن نفسه !

وشجع انشغال المؤمن بالخلافات الداخلية جيوش الروم فهددت أطراف الدولة ، فخرج المؤمن بجيشه مجاها ، وأخذ معه الجاحظ وأحد بن أبي دؤاد .. وأصبح ابن دؤاد مستشاره الأول ..

وحين استقر الخليفة على رأس جيشه في طرطوس ، داهمه المرض ، فانتهز أحد ابن أبي دؤاد الفرصة وأنباء أن أهل السنة في بغداد قد انتهوا فرصة غيابه ومرضه ليشنعوا الفتنة ضده ، فهم يكفرون من يقول إن القرآن خلقه وعلى رأسهم الخليفة .. !!

وإذن فالخليفة مطالب بأن يصنع شيئاً لإنقاذ الدولة ! وأمر الخليفة بأن يتولى أحد بن دؤاد عنه أمر الذين يكفرون من يقول بخلق القرآن .. فأرسل إلى نائب الخليفة في بغداد بأن يجمع كل الفقهاء والعلماء والقضاء وأهل الرأي ليستجهم في خلق القرآن . فمن أنكر خلق القرآن فليعزل من منصبه ، ولنيُنذر من ليس في منصب منهم أنه لن يتولى منصباً أبداً ، ولن تقبل له شهادة ، ولن يأمر القضاة منهم بأن يمتحنوا الشهود في خلق القرآن ، فمن خالف رأي الخليفة فلا تقبل شهادته ... وسمى له أسماء من يجب أن يمتحنهم وفيهم أحد بن جنبل !

ورفضوا جميعاً القول بخلق القرآن

فأرسل الخليفة يطلب سبعة منهم ، فأجابوه إلى ما أراد ، فأعادهم إلى بغداد ، وطلب إعلان

اعترافهم ، وطلب إعادة سؤال الباقيين في بغداد .

وجاء نائب الخليفة بهؤلاء .. فنهم من أبي الخوض في الموضوع كالإمام أحمد بن حنبل ، ومنهم من قال إن الرأي ما يراه الخليفة ، ومنهم من أنكر خلق القرآن ، ومنهم من أقرب القرآن مخلوق ..

وأرسل نائب الخليفة في بغداد إلى أحمد بن دؤاد بما حدث .. فأرسل أحمد بن أبي دؤاد باسم المؤمن رسالة طويلة ، يسب فيها الجميع ويتهمهم بالرشوة والفساد ، والسرقة ، والنفاق والتظاهر وحب الرياسة .. لم يترك أحداً منهم إلا الإمام أحمد بن حنبل ، فقد اتهمه بالجهل ! .

ثم إنه أمر نائب الخليفة بأن يهددهم بالقتل ، إذا لم يوافقوا على أن القرآن مخلوق .. فمن وافق منهم فاليشير أمره في الناس ، ومن لم يوافق فليس له في الأصفاد والأغلال إلى أمير المؤمنين ! .

وأمير المؤمنين إذ ذاك قد ثقل عليه المرض .. فقد اشتئى رطباً غسله في ماء جلول بارد ، فأصابته حمى زادته مرضها على مرض ، حتى كان يفقد الوعي فترات طويلة ، ولم ينفعه طب !

قال أحمد بن حنبل حين سُئل أول الأمر عن القرآن : « هو كلام الله »

فتسأله نائب الخليفة أغلوق هو؟ قال : « هو كلام الله لا أزيد عليها » .

وسئل ما معنى « سميح بصير ، فهو سميح من أذن يصر عن عين؟ » قال الإمام أحمد : « ما أدرى ، هو كما وصف نفسه » ..

دعا نائب الخليفة كل العلماء والفقهاء والقضاة ، وعرض عليهم رسالة أحمد بن دؤاد التي يهددهم فيها الخليفة بالقتل إن لم يوافقوا على أن القرآن مخلوق ..

وأحضرهم جميعاً فإذا بهم كلهم يجيبون بأن القرآن مخلوق ..

وكان الإمام أحمد رجلاًينا ، فلما سمع العلماء يجيبون ، انتفخت أوداجه ، واحمرت عيناه ، وذهب ذلك اللين الذي كان فيه .. وتذكر قول رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبي ذر : « سيصيّبك بعده بلا شديد » فقال أبو ذر : « أفي الله يارسول الله؟ » قال : « نعم » « فاغرورقت عيناً أبي ذر ، وأدرك أنه من أهل الجنة !

اغرورقت عينا الإمام أحمد .. ورفض الإذعان . وتابعه تلميذه له من جيرانه ، وهو طالب علم شاب ، رقيق الحال اسمه محمد بن نوح . فإذا رأى الحاضرون أن جميع الفقهاء والعلماء والقضاة في العراق قد وافقوا أحمد بن أبي دؤاد على رأيه قال قائل منهم للإمام أحمد : « ألا ترى أن الباطل ظهر على

الحق؟» قال الإمام أَحْدَ: «كلاً. إن ظهور الباطل على الحق أن تنتقل القلوب من المدى إلى الفضالة، وقلوْنا بعد لازمة للحق..»

وضعت الأغلال والأصفاد على الإمام أَحْدَ، وتلميذه الشاب محمد بن نوح .. وثُمِّيلًا معاً على دابة واحدة، وسيقًا من بغداد إلى طرطوس ! .

وانتشر الخبر في كل أنحاء العراق. وسخط الناس على المعاملة التي يلقاها الإمام أَحْدَ حتى إذا كان في بعض الطريق قابله رجل فقال له: «يا هذا .. ماعليك أن تقتل ها هنا وتدخل الجنة ! .. ثم قابله أعرابي فقال له: «يا إمام . إن يقتلك الحق مت شهيدا ، وإن عشت عشت حيدا» ..

تساءع الناس بما كان من أمر الإمام أَحْدَ .. وتناقلت خبره الركبان إلى خارج العراق ، فغضب له حتى الذين ليسوا على رأيه وما لقبه أحد إلا قوى قلبه وشد أزره .

وشنَّدَ أَحْدَ بن حنبل وهو يعاني فوق مركب خشن تحت الأغلال ، وتساءل لماذا يتحمّه الخليفة المأمون بخلق القرآن؟! ما شأنه هو؟! إنه يتحمّن الذين يتولون مناصب في الدولة كالقضاة ، والذين ينالون من عطايه .. والإمام لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء .

لقد جمع العلماء للمناظرة في هذا الأمر وهو في بغداد منذ ست سنين .. فما باله الآن بعد أن ترك بغداد مجاهدا في سبيل الله يتحمّن العلماء؟! .. وما باله لا يسير على سنة أبيه هارون الرشيد الذي أنذر زعيم المعتزلة في زمانه بالقتل ، إن هو جاهر بأن القرآن مخلوق ، وشغل الناس بهذه القالة؟! ..

ما بال المأمون يخالف نوح أبيه ، ويختلف نفسه ، ويعدل عن المناظرة إلى التهديد بالقتل؟! .

ماذا حدث ليتغير المأمون؟! .. ولماذا يزج بالإمام أَحْدَ في هذه الفتنة؟!

الذى حدث أن أَحْدَ بن أبي دؤاد زعيم المعتزلة ، قد أصبح صاحب الرأى ، وله الأمر؟! وأَحْدَ بن دؤاد هذا لن يستريح حتى يرى كل الرؤوس منحنية كرأسه .. وبصمة خاصة رأس الإمام أَحْدَ الذى يتعدّب بعفته وشموخه المناقون !

كان ابن دؤاد يلهث لينال منصبًا عند المأمون ، وأَحْدَ بن حنبل رفض منصب قاضي الين ليسير على قدميه من بغداد إلى صنعاء ويطلب الحديث ويعمل حالاً في الطريق ، ونساجاً للسرافيل ونساخاً بصناعة ليوفر لنفسه النفقـة !

ثم إن أَحْدَ بن أبي دؤاد ينحني متقبلاً لعطاء الخليفة ، وأَحْدَ بن حنبل يأباه !

وفي حلقات المسجد الجامع ببغداد يجتمع الآلاف حول الإمام في حلقة ، أما ابن أبي دؤاد فلا يجرؤ أحد على الجلوس في حلقة ولم يكتمل حلقة قط عشرة من طلاب العلم وأصحاب المسائل !! .

فإذلال الإمام أحد هو عزاء ابن دؤاد عما يتربى فيه من هوان !

ولكن الجاحظ وهو أعظم المفكرين والكتاب في عصره ، يقيم مع الخليفة هناك .. فا بالجاحظ لا يعظ الخليفة ؟ ! .

من الحق أن الجاحظ سخر بعدد من العلماء التزمتين من أجل السنة ، وجعلهم هزأة ، وأسماهم الحمقى من معلمى العصبية ، ذلك أنهم اتهموا بالزندة افتراء عليه ، ولكن الجاحظ يعرف قدر الإمام أحمد بن حنبل ، فا بالله يترك المؤمن يطلب مثل أحد أمامة وهو في الأصفاد !

كان المؤمن نفسه قبل أن يمرض كان قد دخله شيء من بعض أهل السنة ، وكان الإمام أحمد إماما لأهل السنة ، فواقفهم وأقوالهم تخسب عليه على الرغم من شقائه بهم وبعده عنهم ... !

فهذا النفر من علماء أهل السنة قد سكتوا عن المظالم من قبل ، وشنعوا على أهل الغناء ولاعبى الشطرينج فى بغداد ، ثم بايعوا زعيم أهل الغناء إبراهيم المهدى أميرا للمؤمنين بدلا من المؤمن ثم انهم أهدرؤا دم المؤمن !! حتى إذا غلب المؤمن ، تسللوا إليه وهو على أبواب بغداد ، ينافقونه ويبايعونه ، سارين في الليل أو سارين في النهار !

ثم إنهم أنكروا عليه اهتمامه بالفلسفة والعلوم وحرضوا عليه العامة في بغداد ، لأنهم يخالفونه في القول بخلق القرآن !

وهاهم أولاء بعد أن هددتهم يذعنون له ، ويقول قائلهم : « ما تعلمنا العلم والفقه والدين إلا من أمير المؤمنين ، ويهدرون في ذلك آرائهم وكرامتهم نفسها !! »

ولكن الإمام أحمد بن حنبل طراز آخر من الرجال !

وهو أشد الناس ضيقا بهذا النفر وإنكارا لهم فإذا رأء عليهم .. إلا أنه لا يتبع عورات الآخرين !! وقد اعتززهم حين عاتبوا ، وواجههم على الرغم من لينه بأنهم قوم لا يحسنون إلا الغيبة والمراءة والكذب والنفاق ، وأن انصرافه عنهم إلى العلم هو العمل الصالح الذي يليق بالأنبياء !! ..

الآن المؤمن كان يعرفهم شدد عليهم النكير ، فاعترفوا ، فأعلن على الناس عيوبهم !! !!

لقد أذاع المؤمن على الأمة ما صبح عنده من مطاعن على هذا النفر من الفقهاء : الفساد ، والروبة

والنفاق والتصاغر ، والخذل والوشایه إلى مثالب أخرى غليظة ذكرها الطبرى بالتفصيل فيها كتب عن  
أحداث سنة ٢١٨ هـ !؟ .. رعا !!

ثم .. لماذا يقترب المؤمن هذا البغي ، وهو يجاهد في سبيل الله ، وأحمد بن حنبل يدعو المسلمين إلى  
نصرته ؟ ! أيمكن أن تزدهر حضارة كل هذا الازدهار وتألق فيها عقول المفكرين والعلماء وحرية الفكر  
على الرغم من ذلك تنتهي !؟

لعل ابن أبي دؤاد يريد أن يقنع الناس أن كل العلماء والفقهاء ، يجب أن ينحنيوا ، بما أنه هو نفسه  
قد انحنى !! ..

ولكن الإمام أحمد بن حنبل ، كان يدرك أنه مسؤول أمام الله عن الدفاع عما يؤمن بأنه حق ، فإن  
مات في سبيله فهو شهيد !! ..

إنه لا يعرف أن المؤمن لا يأخذ بالوشایة وهو يعتبر الآخذ بالوشایة أظلم من الواشى ، فما خطبه  
معه ؟ .. وهو يعرف أن المؤمن لا يشم أحدا ، فكيف طعن في كل فقهاء السنة أبغض مطاعن !؟ ! إنه  
إذن لتأثير خارق على المؤمن يمارسه بن أبي دؤاد !! ..

وقد ظلت الحادثات طوال رحلة الغنوى من بغداد إلى طرطوس ، تلح على أحد وتواجهه بأنه مسؤول  
عن الحقيقة .. فإن تخلى عنها لحظة ، انهار كل شيء في أعماق الناس !!

وهكذا سار الإمام أحمد بروح شهيد !! .

سيناضل عما يؤمن به ، لكيلا تسقط رايات الحقيقة ، ولكن نظل الفضيلة شاغنة أبدا !! .

أما المشفقون على الإمام أحمد ، فقد نصحوه بأن يستجيب تقيه .. ولكنه رأى أن التقى في موقف  
كم هذا لا تجوز ، أ يقول غير ما يراه ؟ ماذا يتلقى ؟ ! .. فهو الحكم بهته ؟ إنه سيموت في يوم ما ولكن  
الناس ؟ .. لعلهم سيعتقصون الرأي الخطأ ، ويقي هومسؤولا أمام الله عن تضليلهم !!

بل لا تجوز التقى إلا في زمن غاشم يعلم الناس فيه الحقيقة ، فلا يضلهم قول أو سكت .. أما هذا  
الزمان فهو زمان يعدل فيه الخليفة ، ويخرج فيه مجاهدا أعداء الإسلام .. والحقيقة في حاجة إلى رماة  
بواسل ، وإلى شموع تحرق لتضيء الظلمات .. ولا تخبط الجاهلون في عشوارات الضلال !!

لقد أذعن كل الفقهاء والعلماء إلا اثنين .. هو وتلميذه محمد بن نوح .. وبالآمس كان معهما اثنان  
آخران .. ولكن مسئ الحديد ونقل الأغلال ، وإهانات الأوغاد ، ثقلت عليهما .. فأجابا فيها دعيا إليه ،

فأطلق سراحهما .

وسير الإمام أحمد ابن السادسة والخمسين ، وتلميذه الشاب محمد بن نوح في الأغلال والأصفاد ، تحت الإهانة ، وما على بغير واحد إلى آخر الأرض ..

وسأله رجل في الطريق وقد رأى ضعف جسمه : « أين عرضت على السيف تجيب ؟ » قال : « لا » . فقال الرجل : « الله أكبر .. هذا هو الإمام أحمد » .

وألح الشعور بالمسؤولية على الإمام أحمد .. وكان جلدا ، ألف مشقات الأسفار ، أما تلميذه الشاب فلم يتحمل المشقة ، وأنهكه ما عاناه ، فاعتل .. وما كان محمد بن نوح ليتحمّن لولا أنه تلميذ الإمام أحمد وجراه .. كم من الناس يعبدون من أجلك يا أحمد ؟ ! ولكنك ملاء في الله يا أحمد ! ملاء في الله شديد !

حتى إذا كانا في خان على الطريق ، قابل أحد رواد حلقته في بغداد ، وكان عزيزا لديه .. فقال له الإمام أحمد : « لقد تَعَيَّنْتُ » .. فقال الرجل : « ليس هذا عناء يا إمام .. أنت اليوم رأس الناس ، والناس يقتدون بك » .

وأطرق الإمام أحمد وهو يتأوه .. أوه .. هنا العبرة يا بني .. أنا المسئول عن موقف الناس !

وأضاف الرجل : « فوالله لئن أجبت بخلق القرآن ، ليجيئ بياجابتكم خلق من خلق الله » . وهز الإمام أحمد رأسه وما تزال الدموع تبلل حيته .. والرجل مستمر في قوله : « إن الخليفة إن لم يقتل فأنت تموت ، ولا بد من الموت . فاتق الله ولا تخيم بشيء » .. وارتفع صوت الإمام أحمد من خلال الدموع : « ما شاء الله ما شاء الله » . ثم قال : « أعد على ما قلت » فأعاد الرجل .. وهبت على الإمام أحمد نسمة من الرضا بقضاء الله ، جففت الدموع التي بللت حيته فانطلق صوته الندى : « ما شاء الله ما شاء الله » .. وطابت نفسه بما كان قد صمم عليه .. لا يحيب المؤمن إلى ما يدعوه إليه !

واقترب الإمام وتلميذه محمد من طرطوس .. فإذا برجل يقبل إلى أحمد متسللا : « البشري ! لقد مات المؤمن » .

كان أحمد قد دعا الله لا يرى المؤمن ! .. فلم يره قط !

وأعيد أحمد وتلميذه محمد بن نوح إلى بغداد ، وترفق رجال الشرطة بهما في الطريق ، فما يدرؤن ما يكون شأن الإمام أحمد مع الخليفة الجديد ؟ ! ربما أكرمه فإباءواهم بغضب الخليفة الجديد ! .

وأحسنوا إلى الإمام أحمد وتلميذه محمد بن نوح .. ولكن محمد بن نوح الذي أضواه السفر تضعضع

وخارت قواه ، وعكف عليه أمامه يعالجها بلا جدوى ، فقد نفذ الزيت من المصباح ، وحُمِّ القضاء .. وأمسك المناضل الشاب بيد أستاذه قائلًا : « الله الله ! إنك لست مثلى . إنما أنت إمام يقتدى به ، وقد مد الخلق أعناقهم إليك لما يكون منك فاتق الله واثبت لأمر الله ». .

وسقط ميتا !!

وما وعظ تلميذ أستاذة كما صنع محمد بن نوح مع الإمام أحمد بن حنبل .. ! ولكنه مات شهيدا دفاعاً عما يؤمن به .. وبكاء الإمام أحمد أحربكاء وصلى عليه .. وقال عنه : « ما رأيت أحداً على حداثة سنّه وقلة علمه أقوم بأمر الله من محمد بن نوح . »

عهد المؤمن لأخيه المعتصم - وهو ابن جارية تركية - فتولى الأمر

وكان المعتصم قوى الجسم حتى ليحمل حديداً يزن ألف رطل ويسيره خطوات !

وكان على هذه القوة والبساطة في الجسم قليل الحظ من الثقة .. حتى لقد أقصاه أبوه هارون الرشيد !

ولكن المؤمن رأى أن جهاد أعداء الدولة يحتاج إلى رجل سيف في قوة المعتصم وحزمه وشدة ، أقصاه بالإبقاء على ابن أبي دؤاد فترك له المعتصم شئون الدولة فأدارها الوزير على هواه .. أما المعتصم فهو هب نفسه للحرب .. وكان أحد بن أبي دؤاد حسن الثاني حلو الحديث بارع التفاص ، وكان على دراية بشيء من أخبار الأولين ، وباطرافق من الثقافة لا يعرفها المعتصم ، فاستطاع أن يستولي على عقل الخليفة ، واستنصره أمراً بحبس أحد بن حنبل في السجن الكبير ببغداد ، وانشغل الخليفة المعتصم بتوطيد أركان الدولة فولى الأتراك من أخواه

وفي أول حكمه توالت أحداث غريبة وبالمبالغة : مات الإمام محمد الجواد فجأة كما ذهب من قبله إمام الشيعة أبوه الإمام على بن موسى بن جعفر الصادق في ظروف مريبة .. ثم اتهم العباس بن المؤمن بالتأمر على عمه المعتصم فقتل !

وفي السجن ترك الإمام أحد شهوراً تحت الأصفاد شهوراً طوالاً ، ودسوا إليه خلاماً عليه من يزبون له الاعتراف بخلق القرآن ! .. وعادوا يذكرون أنه بموجب ما يقول المؤمن غير ما يؤمن به أو يسكن على ما ينكره من باب التقبية فقال لهم : « إذا سكت العالم تقبية والجاهل يجهل فتنى يظهر الحق ؟ . إن من كان قبلكم كان أحدهم ينشر بالمشاركة لا يصنه ذلك عن دينه ». .

دسوا عليه أكثر الناس تأثيراً عليه وأقرب الناس إليه : عمه ! ولكن بلا جدوى !

ثم عادوا يخوفونه بالتعذيب والضرب بالسياط .. وأنس إلى جار له بالسجن فقال له : « ما أبالي بالحبس وما هو منزلني إلا واحد ، ولا قتلاً بالسيف ، وإنما أخاف فتنة السوط وأخاف إلا أصبر . »  
قال له جاره السجين : « لا عليك ، فما هو إلا سلطان ثم لا تدرى أين يقع الباقي . »

ومرت الشهور بعد الشهور والإمام أحد في حبسه بين الترغيب والترهيب ..

وأحبه من في السجن ، فأحاطوا به يلقون عليه المسائل فيجيب ويعلمهم مما علم رشدا .. وأكبره الجميع في السجن حتى السجانون .

أما خارج السجن ، فقد كانت بغداد تمرج بالسخط على من سجنوا الإمام أحد .

وتصاعدت نفثات التلاميذ والأتباع ورavad الحلة ، استكارة لما حدث لهم !

أما زملاؤه من العلماء والفقهاء الذين أجابوا المؤمن لما أراد ، فقد أسرعوا إلى مصانعة المعتصم ، وكانوا يتمنون في أعماقهم أن يسقط الإمام أحد كما سقطوا .. ! فلماذا يظل هو وحده دونهم نظيف الصفحات نقى السيرة مرتفع المامة ؟ !

وإن بعضهم على الرغم من كل شيء ليغنى من تأنيب الضمير ..

وأرسل إليه أحد المعجبين به وهو شيخ في نحو التسعين ومتنا يقول له : « أثبتت فقد حدثنا الليث بن سعد عن ... عن أبي هريرة : « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من أرادكم على معصية الله فلا تعليمه »

وأنشرحت نفس الإمام أحد ، فها هو هذا شيخ في التسعين يرسل إليه يشد أزره لا يبالى بمحدث شريف لم يعرفه من قبل !

فقام في السجن يؤذن بالصلوة وعرف ابن أبي دؤاد أن خصميه قد فتن كل من في السجن :  
المسجونين وحتى السجانين ! فأمر ببنقله إلى سجن خاص في قبودار والتي بغداد ، ليكون وحده

وضاعفوا له القيود والأغلال وأقاموا عليه سجانين من شذاذ الخلق ، من ماليك أثراك ، فيهن الغلظة والنباء ، والجهل باللغة العربية فلا يفهمون ما يريد إن هو طلب منهم شيئاً : ماء أو نحوه !

وأرسلوا إليه من الفقهاء من يناظره ، ولكنه لم يزد على ما قاله من قبل ، وظل يرفض القول بخلق القرآن .

ثم حلوا إلى دار الخلافة وهو يرسف في أغلال وقيود سلاسل يكاد يسقط من تحتها .. ! .. فقد كانوا كلما مر عليه يوم ، زادوا عليه في نقل الحديد !

وكان الوزير وقاضي القضاة أحمد بن أبي دؤاد قد أرسل إلى كل ولاة الأمصار باسم المعتصم بأمرهم أن يتحنوا العلماء والفقهاء في خلق القرآن ، فلن أنكر منهم ، حل في الأصفاد مهاناً إلى دار الخلافة ببغداد ..

ومثل أحد أئم ال الخليفة وحوله حشد من العلماء والفقهاء المنافقين وابن أبي دؤاد .. وإذا بالإمام أحمد يرى في الأصفاد صديقاً له من مصر ، درس معه على الشافعى في مكة وبغداد .. وهو الآن فقيه عالم تقوى مسموع الكلمة في مصر .. وقد سجبوه في سلاسل الحديد لأنه رفض القول بخلق القرآن ! .. وكان أحد منهاكاً مما عاناه ، ولكنه حين شاهد صديقه الفقيه المصري تهلك قائلًا : «أى شيء تحفظ عن أستاذنا الشافعى في المسح على الحفين عند الوضوء ؟ !» وانفجر ابن أبي دؤاد عنقاً : «أنظروا رجالاً هؤلاء يقدّم لضرب العنق يناظر في الفقه ؟ !» .

### بدأ الخليفة يحاكم أحد بن حنبل

يمكى الإمام أحد ما جرى في هذه المحاكمة : (قال المعتصم لأحمد بن أبي دؤاد : «أدنه» فلم يزل يذنينى حتى قربت منه . ثم قال : «أجلس» . فجلست وقد أغلقتني الأقياد . فكشت قليلاً . ثم قلت : «تأذن لي في الكلام؟» فقال : «تكلّم» . فقلت : «إلام دعا الله ورسوله؟» . قال المعتصم : «شهادة لا إله إلا الله» . فقلت : «فأناأشهد أن لا إله إلا الله» .

ثم روى الإمام أحد أن المعتصم قال له أنه لوم مجده في يد من قبله لما عرض له . ثم سأله أحداً من كانوا حوله : «ألم أمرك برفع الحنة؟»

### وأمر الفقهاء الموجودين فناظروا الإمام أحد في خلق القرآن

قالوا له : «ما تقول في القرآن؟» ما تقول في علم الله عزوجل فسكت ، فقال بعضهم : «أليس قد قال الله عزوجل (الله خالق كل شيء) والقرآن أليس هو بشيء؟» فرد الإمام أحد : «قال تعالى : (تدمر كل شيء بأمر ربه) ألم يأمر الله عزوجل؟ والله تعالى لم يسم كلامه في القرآن شيئاً . يقول الله تعالى : (إنما قولنا لشيء) . فالقول ليس الشيء ولكن الشيء هو الذي يقول له الله . ويقول تعالى : (إنما أمره إذا أراد شيئاً) فالشيء ليس أمره وإنما هو ما يأمره .. وقال له بعضهم في الآخر «إن الله خلق الذكر أي القرآن»

قال هذا خطأ . حدثنا غير واحد إن الله كتب (لخلق) الذكر .

واحتجوا عليه بما رواه ابن مسعود : « ما خلق الله عزوجل من جنة ولا نار ولا سماء ولا أرض أعظم من آية الكرسي » فقال أحد : « إنما وقع الخلق على الجنة والنار والسماء والأرض ولم يقع على القرآن .

وكان أحمد بن أبي دؤاد قد أقنع المعتصم من قبل ، أن من رفض القول بخلق القرآن لا يحق له أن يجلس للناس ، ليحدثهم أو ليغتنيهم ، في جامع أو في داره أو في أي مكان ، بل هو مخالف للإسلام ، يجعل القرآن قدّيماً كأله تعالى ، فهو شريك يحل دمه ! وما عاد في أهل السنة بالعراق من يرفض الاعتراف بخلق القرآن إلا إمامهم أحمد بن حنبل وهو يزعم جيئا !

وكان الخليفة المعتصم لقلة حظه من العلم لا يريد أن يخوض في المسألة كلها ، فكان يقول كلما أتهما الإمام أحمد بن حنبل بالكفر : « ناظروه ، ناظروه »

فوثب أحمد بن أبي دؤاد مغيطاً : « يا أمير المؤمنين هو والله ضال مضل مبتدع . » وتتابع الفقهاء الحاضرون يشتمون الإمام أحمد بن حنبل فلم يعبأ الخليفة بهم وقال لهم : « ناظروه »

وكانوا كلهم قد ناظروه .. فأقبل ابن أبي دؤاد يناظره

فلم يلتفت إليه الإمام أحد .

فسأله الخليفة : « ألا تكلمه ؟ » فقال أحد : « لا أعرفه من أهل العلم فأناظره ... »

ثم استطرد : « يا أمير المؤمنين أعطوني شيئاً من كتاب الله عزوجل ». .

فأقبل الخليفة يغرى الإمام أحمد ويقول له : « والله إنني عليه لشفيق . » ثم قال للحاضرين « والله إن أجابني لأطلق عنك يدي ولأركب إلبي بجنبدي .

فلم يزد جواب أحد على أن قال : « أعطوني شيئاً من كتاب الله عزوجل » .. وقال الخليفة لأحد : « ما أعرفك » فقال أحد الفقهاء الحاضرين وقد أبه ضميره : « يا أمير المؤمنين . أعرفه منذ ثلاثين سنة يرى طاعتكم والحج و{jihad} معكم . » فقال المعتصم : « والله إنه لعالم وإنه لفقيره . وما يسوئني أن يكون مثله معى يرد عنى أهل الشرك .

ثم قال : « يا أحد أجبني إلى شيء فيه أدنى فرج لك ، حتى أطلق عنك يدي » فقال أحد : « أعطوني شيئاً من كتاب الله عزوجل . » ولم يزد على ذلك !

وقام الخليفة مهموما ، وأعيد أحد إلى السجن وأرسلوا إليه من يناظره في السجن وينذره : «أن أمير المؤمنين قد حلف أن يضر بك وأن يلقيك في موضع لا ترى فيه الشمس . ويقول إن أجابني أحد أطلقته عنه يدی . »

فلم يجده أحد ... !

وفي اليوم التالي أعيد أحد إلى مجلس الخليفة المعتصم ، وكان الوقت رمضان .. وأحد قائم ليله صائم نهاره .. وقد أوشك الخليفة أن يطلقه لتهأ عن الثورة التي أشكت أن تنفجر في بغداد غضبا للإمام أحد.

فقال ابن أبي دؤاد : «يا أمير المؤمنين إن العامة تصدقه .. والعامة تقول أن أحد بن حنبل قد دعا على المؤمن فات ، إن العامة وهم حشو الأمة يصدقونه ويتبعونه بالحق والباطل . فإن تركته شجعت عليك العامة ، وخالفت مذهب المؤمن ، فيقول العامة أن أحد غالب خليفتين » .

واستفز هذا الكلام المعتصم فقال : «ناظروه لآخر مرة» . وناظروا أحد في خلق القرآن وفي رؤية الله تعالى فاحتاج عليهم بحديث صحيح : «اما انكم سترون الله ربكم كما ترون هذا البدر (وكان الرسول مع صحبه في ليلة القدر) ! وشك ابن أبي دؤاد في صحة الحديث ، فأكده الإمام أحد صحة الحديث واستشهد بفقيه فقير ، مشهور بالأمانة والعفة ، يحسن رواية الأحاديث .. ولكنـه كان فقيراً جهد الفقر لا يملـك قوتـه يومـه . وقد اعـزل الناس ، وانـخفـى طـوال أيام الامتحـان بخـلق القرـآن ، فـترـكـوه . وأسرـعـ إـلـيـهـ بنـ أـبـيـ دـؤـادـ وـقـدـ عـرـفـ منـ الجـواـسـيسـ أـيـنـ يـخـتـفـيـ وـسـأـلـهـ عـنـ حـالـهـ ، فـلـمـ يـجـدـ مـعـهـ درـهـماـ .. وـسـأـلـهـ عـنـ الـحـدـيـثـ الـذـيـ روـاهـ أـحـدـ فـيـ الـمـاـنـاظـرـةـ أـمـامـ الـمـعـتـصـمـ .. فـقـالـ الرـجـلـ آنـ حـدـيـثـ صـحـيـحـ .. وـأـلـحـ عـلـيـهـ آنـ يـكـذـبـ الـحـدـيـثـ وـقـالـ آنـ مـجـلسـ الـخـلـيـفـةـ مـنـعـقـدـ وـهـوـيـنـتـظـرـ الـجـوـابـ ، وـالـخـلـيـفـةـ فـيـ حـاجـةـ إـلـىـ مـنـ يـكـذـبـ هـذـاـ الـحـدـيـثـ .. ثـمـ أـضـافـ .. هـذـهـ حـاجـةـ الـدـهـرـ .. وـأـعـطـاهـ عـشـرـةـ آلـافـ درـهـمـ ، وـمـاـ زـالـ يـلـحـ حـتـىـ قـالـ الرـجـلـ : «فـيـ الـأـسـنـادـ مـنـ لـاـ يـعـولـ عـلـيـهـ» !

وأسرع به ابن أبي دؤاد يروي ما سمعه على الخليفة في المجلس ! ودمعت عيناً أحد أسفًا على المحدث الفقير الذي انهار أمام الحاجة !

وأرجعوا أحد إلى السجن .. ليعودوا به في اليوم التالي إلى دار الخلافة ، فيمرروا به على قاعات عديدة حشد فيها سجانون وسيافون غلاظ .. عسى أن يرهبه المنظر .. ويفربه الخليفة لآخر مرة ، فيأبى أن يقرب بخلق القرآن فيصرخ فيه الخليفة : «عليك اللعن خذوه واسجنوه .

فأخذوا الإمام فلقوه ، وظلوا يضربونه ويقولون له : «أجب» فلا يجب ..

صبرا يا أحد.. إنه بلاء في الله شديد..!

واشتد به الوجع واللقطى وهو صائم.. وأغمى عليه.. حتى إذا أفاق جاءوه بماء ليشرب، فقال: «لا أنظر».

وطرحوه على وجهه وداسوه بالتعال.. حتى أغمى عليه.. ورأوا دماءه تسيل، فلثوا منه رعباً  
وعندما أفاق أحد، أخذ ينظر إليهم بلا اكتئاف، ولكنها نظارات يخالجها الازدراء !!  
ويقول أحد الذين شاهدوا تعذيبه: «ما كنا نرى عينه إلا كأمثال الذباب».

ومن خارج دار الخلافة، اجتمع الآلاف من عبيه وتلاميذه، وحتى الذين لا يرون رأيه كانوا  
ينكرون في صراغ غاضب ما يحدث له.

وتعالى هدير الاحتجاج والاستنكار.. وأغرى أحد الحاضرين أن يعترف لينجو من العذاب ويخرج  
إلى عبيه فقال: «أقتل نفسي ولا أقتل هؤلاء جميعاً»

ودخل أحد الفقهاء داره على بناته، فوجدهن يبكين ويطالبنه أن يذهب إلى المعتصم مستشفعا  
للإنفراج عن أحد بن حنبل.. وقال البنات لأبيهن: «ادركوا ابن حنبل قبل أن يضعف من التعذيب.  
فلائن يرسل إلينا نعمى أبينا أهون علينا من أن نسمع أن أحد بن حنبل قد أذعن !!»

وقف أحد الفقهاء بباب المعتصم يصرخ «أيضر سيدنا؟! أيضر سيدنا؟! لا صبر لنا»  
وانفجرت المتأفات تلمعن ابن أبي دؤاد والمعتصم نفسه!

وأوشكت الثورة أن تشتعل في بغداد، وكان المعتصم يعد العدة لجهاد الروم.. فلعن الجميع، وأمر  
أن يغفوه من كل هذا ليفرغ هو للحرب

وأطلق سراح الإمام أحد..

وأعيد إلى بيته يعالج جراحه، ولزم داره مريضاً منهاكا.. وقبل له: سيعذب الله المعتصم فيك لأنك  
ضربك وأنت ساجد.. فذكر لهم قول الله تعالى: «وجزاء سيئة مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على  
الله».

وعندما علم أن المعتصم خرج ليحارب الروم فانتصر وفتح عمورية، فرح الإمام أحد وقال: «عفا  
الله عنه بما جاهد في سبيله».

وقد عوتب الجاحظ عن موقفه من حسنة أحد فقال : « لو كان كل كشف هنكا ، وكل امتحان تجسسا ، لكان القاضي أهتك الناس لستر ، وأشد الناس تتبعا لمورة . »

وكان تعليق أحد على قول الجاحظ : « عفا الله عنه » .

لقد ظل أحد في سجن المعتصم نحو عامين ونصف ، يضرب بالسياط ، ويعذب بالسيف ، ويُبوطا بالأقدام عندما يسجد في الصلاة .. ويفرون منه خلال هذا التعذيب بكل طيبات الحياة إن هو.. . عمل عن رأيه ، وهو يهم لنفسه : إنه لبلاء في الله شديد .

وبعد أن شفى أحد من آثار التعذيب ، خرج إلى حلقة ، فاستقبلته بغداد استقبال الفاتحين .. ولم يستطع أحد أن يمنع الناس عنه .. وعاد يهدّئهم ويعلمهم كما عودهم من قبل . حتى إذا مات المعتصم ، وتولى الواثق ، حاول أن يسير سيرة المؤمنون .. وجمع إليه أهل العلم والفلسفة ، وحفلت مجالسه بمناظرات علمية وفقهية خصبة .. وناظر هو نفسه في الطب والكيمياء والفلك والرياضيات . وكان مجلسه يجمع المثقفين من جميع الديانات .

ولقد حاولوا أن يغروا الواثق بالإمام أحد ولكنه شتم هذا الأمر ، وخشي الثورة ، ورأى أن يترك الناس على آرائهم .. ثم إن القول بخلق القرآن صار مادة لبعث ظرفاء العصر ، فقد دخل على الواثق أحدهم يقول له : « عظم الله أجركم في القرآن . فإن القرآن قد مات ! ». فنهره الخليفة الواثق قائلاً : « ويلك ! القرآن ميت ! » قال : « يا أمير المؤمنين أنت متقول إن القرآن ميت ؟ فكل مخلوق ميت ! فم يصلى الناس الترابي ع ؟ ». فضحك الواثق وقال : « قاتلك الله أنفسك » .

حقاً لقد شتم الناس ، وسمّ الحكماء .. إلا ابن أبي دؤاد .. فما زال بالخلافة حتى استدعي الإمام أحد فقال له : « لا تجتمعن إليك أحداً ولا تسأكوني في بلد أنا فيه » .

فاختفى الإمام أحد ، وحمل إلى الواثق فقيه من الأوصاف اشتدى في المجموع على من يقولون بخلق القرآن .. وكان الرجل في الأصفاد ، فأمره الخليفة أن يناظر ابن أبي دؤاد .. فقال الرجل : « شيء لم يدع إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا الخلفاء الراشدون من بعده وأنت تدعون الناس إليه ، ليس يخلو من أن تقول علموه أو جهلوه . فإن قلت علموه وسكتوا عنه ، وسعني وياك من السكوت ما وسع القوم . وإن قلت جهلوه وعلمته أنت ، فيا لكع ابن لكم ، أجهل رسول الله صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدون ، وتعلم أنت ! ! » .

فوثب الواثق من مجلسه ، وهو يردد كلام الرجل ضاحكا ، وأمر بإطلاق سراح الرجل .

ولم يعد الواشق إلى امتحان في خلق القرآن .. وانصرف إلى الحرب حتى مات ..

ومات الواشق وتولى ابنه المتكمل .. فأحسن إلى الإمام أحمد وحاول أن يصله بالمال .. ولكن الإمام أحمد ظل على عهده يرفض العطاء . على أنه رخص لأولاده في قبول عطاء الخليفة ، وظل يعلم الناس حتى بلغ السابعة والسبعين ، فرض واشتد به المرض ، وكان قد أصبح في عصره أحد عصراً .. وقد ألف كبار رجال الدولة أن يخوضوا الطين إلى بيته الواقع في شارع ضيق مترب ، موفدين من الخليفة يطلبون منه الرأي . وما كان يدخل بالرأي .. وقال عنه المتكمل : « لو نشر أبي المعتصم وقال فيه شيئاً لم أقبله .. » .

ولم يطل المرض بالإمام أحمد بن حنبل .. فات بعد أن ترك ثروة ضخمة من الأحاديث والفقه ، وهو يوصي أتباعه وأصحابه أن يدعوا إلى سبيل الله بالحكمة والوعظة الحسنة ، ويدركهم بأن الله تعالى قال لموسى وهارون حين أرسلهما إلى فرعون : « اذهبا إلى فرعون إنه طغى فقولا له قولا لينا » .. فالقولين واجب في الدعوة ..

على أن أتباعه اشتبدوا على الناس حتى أزعجوهم وجعلوا الأجيال تنسب إلى الإمام ما ليس فيه .. !

ولقد أمر المتكمل بالضرب على أيدي أتباع الإمام أحمد حين هاجروا أهل البدع من أصحاب الفتنه والطرب ولاعبي الشطرين .. وحين أفسدوا ملابس النساء بالحبر .. وكان الإمام أحمد قد رخص بهذا للسلطان إن خرج النساء متطرفات متزيبات .. وكان النساء قد زحمن شوارع بغداد بملابس وعطور تثير الفتنة .. وملأن ليلاً بالمفارمة ! فانتزع أتباع ابن حنبل سلطة الخليفة ، وأخذوا لهم يعاقبون الناس .. فأمر الخليفة بأخذ أتباع الإمام أحمد بالشدة ، وزوج بهم في السجن ، ولكنه قال في الإمام أحمد : « لقد عرف الله لأحمد صبره وبلاعه ، ورفع علمه أيام حياته وبعد موته . وأنا أظن أن الله تعالى يعطي أحد ثواب الصديقين .. » ..

على أن الإمام أحمد تدبر قبل موته رأيه في خلق القرآن

فذهب إلى أن من زعم أن القرآن مخلوق فهو كافر ، ومن زعم أنه غير مخلوق فهو مبتدع .. فالقرآن بمحروقه ومعانيه هو كلام الله غير مخلوق ، وهو من علم الله ، وعلمه غير خلقه . فالقرآن غير مخلوق ، ولكنه حادث بحدود التكلم ..

والامر كله لا يستحق الحنة التي سقط بسببها شهداء كمحمد بن نوح ، والبوطي الفقيه المصري تلميذ الشافعى ، ونال بسببها بعض الفقهاء والعلماء تشميرًا أزرى بهم في عيون الناس ، ونال فيها الإمام

أحمد أبلغ الأذى .. فالقول بخلق القرآن أو عدم خلقه لا يحقق شيئاً من مصالح العباد ، ولا يقيم المجتمع  
الأمثل الذي هو هدف الشريعة !!

على أن الإمام أحمد نال بسبب هذا الأذى مكانة كبيرة ، فقد كان مثالاً خارقاً لصاحب الرأي  
الذى يناضل فى سبيل رأيه .. فأكابر الدين يوافقونه والذين يخالفونه على السواء .. إلا الذين فى قلوبهم  
مرض !

ومهما يكن من أمر ، فقد واجه عصراً تشييع فيه البدع ، فواجهه بالتشدد فى الأخذ بالسنة فى العقائد  
والعبادات

وهؤلئك يطرح على العقل مستحدثات الأمور ، فواجهه الإمام أحمد بالتيسيير على الناس فى  
المعاملات

ووهذا حض على الأجتهد وحذر من التقليد

ولكن مناصريه من أهل السنة ضيقوا على الناس

ثم جاء من بعده أتباع أساءوا إليه ، فافتُرِى عليه التزمت ، والتضييق وكل ما عاشه ينماضي ضده !

وجاء آخرون أجهدوا على طريقته وتمسكون بالسنة في مواجهة البدع .. واتخذوا مثله مواقف صلبة  
فيما يعتقدون أنه الحق .. فأصحابه في ذلك بلا شديداً .

ومن الإنصاف للإمام أحمد بن حنبل أن ينزعه الناس بما صنعه بعض الأراذل من أتباعه في العصور  
المتأخرة . فلا ينسب التزمت وضيق الأفق إلى هذا الإمام العظيم .. الذي كان متبعاً سنة رسول الله  
صلى الله عليه وسلم في ساحة الخلق ، ولبن الجانب ، والقول الحسن ، والبر والورع والتقوى ونصرة  
المظلوم .

من الظلم أن يطلق على المتنطعين والجامدين وعلى كل فظ غليظ القلب : أسم الخنابلة .. فقد  
كان الإمام أحمد داعياً إلى الحركة ، ومواجهة كل عصر بأحكام جديدة يقياس فيها على روح الشريعة ،  
ويؤخذ بما توصي بها العامة .. وكان عدواً للتقليد والجمود ، آمراً بالمعروف ، ناهياً عن المنكر ، متبعاً للسنة  
في كل شيء حتى في أخص دقائق الحياة ..

لقد ماتت أول زوجة للإمام أحمد وهو في الستين ، فتزوج بعدها بأيام لأنه علم أن الرسول صلى  
الله عليه وسلم منذ تزوج لم يعش بلا زوجة .. وماتت الثانية وهو في السبعين ، فتزوج بعدها بأيام من  
 Jarvis له .. ذلك أنه تعلم من سنة الرسول صلى الله عليه وسلم أن الرجل يجب أن لا يعيش بلا امرأة !!

وقد أصابه ابن أبي دؤاد بأبلغ الأذى ، ولكنه عفا عنه بعد أن خرج من الحنة . ولم يسمح لأحد أن يجرحه أمامه ، وبكى الإمام أحمد عندما علم أن ابن أبي دؤاد فجع بفقد ولده ! ! ..

ودعا الإمام أحمد لكل الخلق الذين أساءوا إليه ذلك أنهم جاهدوا في سبيل الله ! . وحضر أتباعه على تأييدهم ..

لقد كان الإمام أحمد يعلم الناس قول الرسول صلى الله عليه وسلم أنه ماجاء إلا ليتيم وليركمل مكارم الأخلاق ..

من أجل ذلك احترم الإمام أحمد أهل الديانات السماوية التي سبقت الإسلام ، لأن الرسالة الحمدية ، ما جاءت إلا مكملة لها .. وأنخذ نفسيه وأصحابه بـ مكارم الأخلاق .. وعلم الناس أن هدف الشرائع جميعا هو العدل لقوله تعالى : « لقد أرسلنا رسالنا بالبيانات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط »

ومن أجل ذلك طالب أهل الشرائع جميعا أن يسيراوا في الناس بالعدل ، وأن يناضلوا دفاعا عن العدل ، فهو قوام الحياة وضمان الحرية ، وحسن الإنسان .

والإمام أحمد بن حنبل على الرغم من كل خلاف معه ، إمام قد أغنى الفقه ، ونفع الناس ، وأقام السنة ورد البدع .. ولئن أساء إليه بعض أتباعه ، فافتري عليه ما هو بريء منه ، إنه سيظل بنصباعته سيرته ، وصلابة اتباعه للسنة ، علما من أعلام الفقه الإسلامي ، ودعوة مستمرة إلى التجديد أخططاً أم أصحاب ..

إنه واحد من أولئك العلماء العظام الذين اجتهدوا بعد عصر الصحابة والتابعين ، واختلفوا في مناهجهم ، فنهم من خرج بسيفه على الحاكم الظالم كما صنع الإمام زيد بن علي ..

ومنهم من دعا إلى إعمال العقل ، وحضر على التفكير في خلق السموات والأرض ، واستعمل معطيات العلوم والمعارف الكونية للاستدلال على حقائق الدين ، كما صنع الإمام جعفر الصادق مع فهم دقيق معجز القرآن والسنة ، ومقاصد الشريعة والعمل على تطبيق مبادئها في الحياة اليومية ، حتى لقد رفض الخليفة ليتفرغ للعلم والفقه !

ومنهم من اتجه إلى الأخذ بالرأي وتوسيع فيه وأفاد من النظر العقلاني كالإمام أبي حنيفة النعمان ، الذي لزم الإمام جعفر الصادق سنتين تعلم فيها الكثير ، وإن اختلفا من بعد ، حتى قال أبو حنيفة النعمان « لو لا السنستان هلك النعمان » ! .

ومنهم من عول على الحديث وحده ، ووجد في عمل أهل مدينة رسول الله أخذًا بسنة رسول الله ، ثم اجتهد فتوسع في الأخذ بالصلاح على خلاف غيره ، كالإمام مالك بن أنس

ومنهم من اتخذ منها وسطاً بين الرأي والحديث في استباط الأحكام ، وجعل سيرته الخاصة مثلاً للبر والتقوى ولسماعة الإسلام وحضره على العدل والإحسان كالإمام الليث بن سعد إمام أهل مصر ، حتى لقد كان يأتيه خراج ضئيلة له بالفرما (بور سعيد الحالية وما حولها) فلا يمسه بل يضعه في صرره ، ويجلس على باب داره ذات العشرين باباً ليوزعه على المحتاجين صرة بعد صرة ، ويحسن إلى أقباط مصر اتباعاً لوصية الرسول صلى الله عليه وسلم ، فيأخذون منهم الأصدقاء ، ويحضهم على نقل ثقافة مصر إلى اللغة العربية ، ثم يشتري بيته من واحد منهم حاجته إليه ، فإذا علم أن صاحب البيت باعه لأنّه يحتاج ، بكى ، وترك له البيت والثمن ، وأجرى عليه رزقاً . ثم أعلن في الناس أنّ ولـي الأمر أكـم إن ترك أحـداً في دار الإسلام له حاجة ! ثم يستنبط من منهجه الوسط بين الرأي والسنـة قواعد للمعاملات تقيم العـدـلـ بينـ النـاسـ ..

ومن هؤلاء الأئمة العظام محسن زاهد عبد الله بن المبارك يترك الحج ، ويتصدق بكل ما حمل من مال وزاد لفتاة حسناء تبحث عن قوتها وسط المزابل ، خشية أن يغـرـها الشـيـطـانـ بالـبـحـثـ عنـ الطـعـامـ فيـ وـحـلـ الخـطـيـةـ ..

ومنهم من وضع أصول الفقه وحل بين جنبيه معطيات السنة والرأي جميعاً ، وصحح مفاهيم الناس عن السنة والرأي ، وجادل أهل الزينة بمنطق العصر كما فعل الإمام الشافعي ..

عاشوا كلهم في سنوات متقاربة ، بفكـرـ خـصـبـ ، كـحـلـقـاتـ ذـهـبـيةـ نـادـرـةـ فيـ سـلـسـلـةـ نـورـانـيـةـ .. عـاشـواـ كـلـهـمـ خـلالـ قـرنـ وـاحـدـ مـنـ الزـمـانـ ، فـيـ أـوـاـخـرـ العـصـرـ الـأـمـوـيـ وأـوـاسـطـ العـصـرـ الـعـبـاسـيـ ، وـعـرـفـواـ الـبـلـاءـ وـالـخـيـرـ فـاـ وـهـقـيـقـاـ ، وـمـاـ نـزـلـواـ عـنـ رـأـيـ ، وـمـاـ أـحـنـواـ رـأـسـاـ ، بلـ كـانـواـ كـمـعـدـنـ الـحـدـيدـ تـزـيـدـهـ النـارـ صـلـابةـ ، وـكـالـذـهـبـ يـكـسـبـ الـلـهـيـبـ نـقـاعـهـ ..

وـيـالـلـهـ كـمـ نـفـقـهـمـ فـيـ مـثـلـ هـذـاـ الزـمـانـ !!

وـمـهـمـاـ تـخـتـلـفـ آـرـاءـ هـؤـلـاءـ الـأـئـمـةـ الـعـظـامـ فـيـ بـيـنـهـمـ ، فـقـدـ اـحـتـفـظـ كـلـ وـاحـدـ مـنـهـمـ باـحـتـرـامـهـ لـصـاحـبـهـ أوـ لـمـنـ سـبـقـهـ ، وـبـفـضـيـلـةـ الـعـرـفـانـ .. فـكـانـواـ مـثـالـاـ فـيـ أـدـبـ الـخـلـافـ .. كـمـ كـانـواـ بـعـقـ منـارـاتـ !

كـلـهـمـ جـاهـدـ الـظـلـمـ وـالـقـهـرـ ، وـدـافـعـ عـنـ حـقـ الـإـنـسـانـ فـيـ الـحرـيـةـ وـالـعـدـلـ وـالـسـعـادـةـ وـالـحـيـاةـ الـكـرـبـةـ الـفـاضـلـةـ .. وـكـلـهـمـ قـاـومـ قـادـورـاتـ عـصـرـهـ : مـنـ النـفـاقـ ، وـالـكـذـبـ ، وـالـزـيفـ وـالـاستـغـلالـ !

ومهما نختلف نحن معهم اليوم ، فينبغي علينا أن نذكر لهم أنهم سلف صالح أغنوا الحياة الفكرية والفقهية بآجتها داتهم الخصبة ، وينبغي علينا أن نتذمّر مثلًا رائعة لما ينبعى أن يكون عليه رجل العلم والفقه والفكر .. ذلك أنهم ناضلوا بفکرهم الشري و الرائد ، ليحققوا المجتمع الذي أرادته الشريعة ، ول يجعلوا الإنسان على الصورة التي أرادها لها الله تعالى حين قال لنبيه الكريم : « وإنك لعلى خلق عظيم » .

الإِمَامُ ابْنُ حِزْمٍ  
أَدِيبُ الْفُقَهَاءِ



لم يعرف تاريخ الفقهاء من قبله رجالاً كتب في الحب وأحوال العشاق بمثل هذه الرقة والعنوية والصراحة، وجادل الفقهاء في الوقت نفسه بكل تلك الحدة والعنف والصرامة ..!

اجتمعت فيه صفات متناقصة : لين الطبع وسعة الأنف وعذوبة النفس ، مع التشدد والتضييق وسرعة الأنفعال ، والتعصب لكل ما يعتقد أنه حق ، ورفض ماعداه .. فهو ينافق كل وجوه النظر في المسائل ، حتى إذا اطمأن إلى رأي ، أدان كل مخالفيه بلا رحمة ، وسخر بهم ، وكال لهم الاتهامات لا يراعي لهم فضلا ولا وقارا .. !

من أجل ذلك أحبه بعض الناس حتى تحدوا فيه كل حكام عصرهم ، وكرهه آخرون حتى أهدروا فيه تعاليم الدين ومبادئ الأخلاق إذ أغروا به السلطان . !

يشهد مجالس الأئس ، ويسمع مع ظفرا عصره ، ويستمع للغناء حتى يؤذن للفجر فينصرف للصلوة ، ثم يعتكف النهار والليل بعد ذلك بعيدا عن السماء والظفرا ، يقرأ ويتأمل ويكتب ، ثم يخرج ليحضر مجالس العلم يتلقى ، ويخاور الشيخ ، ويلعى الطلاب .

ولد وعاش ومات في الأندلس - أجل بلاد المسلمين وخيرها - في شرفة من عصور التاريخ الإسلامي .. إذ كانت الدولة الإسلامية العظمى في الأندلس ، قد تمزقت إلى دولات صغيرة ، فذهب زمن الخلفاء أولى العزم العمالق العظام ، ليجئ بدلا منه عصر الحكماء الأفذاذ ، ليتصارعوا فيها بينهم ، وليكيد كل واحد منهم لأخيه ، ويعريه على دولاته فينقصها من أطرافها ، ويتحالف الفرنجية الطامعين في أن يستعيدوا الأندلس بأسره .. ومن هؤلاء الحكماء الأفذاذ من رضى الدنيا في دينه ودنياه ، فأغري الفرنج بالأموال الطائلة ليعينوه على أطماعه في الدولات الإسلامية المجاورة الأخرى ..

وهكذا انطفأت مـنارات المعرفة في قرطبة ، وهي التي كانت تضيء لكل ما حولها وما يليها من بلاد أوربا ، فأصبحت قـرطبة عاصمة الدولة الكبرى في الأيام الزاهية الـذاهـة ، دولة من الدولـات الإسلامية .. ! وانصرف أهل قـرطبة من جـد الأمور إلى هـزـها ..

ونـهـبت خـازـائـن الكـتـبـ في قـرـطـبةـ ، وهـىـ خـازـائـنـ لمـ يـعـرـفـ لهاـ التـارـيـخـ مـثـيلـاـ منـ قـبـلـ .. وـانـصـرـفـ أـهـلـ قـرـطـبةـ عـنـ اـقـتـنـاءـ الـكـتـبـ كـمـاـ تـعـودـواـ ، إـلـىـ حـيـازـةـ الـجـوـارـىـ الـحـسـانـ وـالـغـلـمـانـ ! . وـبـعـدـ أـنـ كـانـ الـأـثـرـيـاءـ يـتـنـافـسـونـ عـلـىـ شـرـاءـ الـكـتـبـ الـجـدـيدـةـ ، حـتـىـ لـقـدـ كـانـ الـمـؤـلـفـونـ فـيـ الـمـشـرـقـ الـعـرـبـ يـنـشـرـونـ كـتـبـهـمـ فـيـ الـأـنـدـلـسـ ، قـبـلـ أـنـ تـظـهـرـ فـيـ بـلـادـهـمـ ، كـمـاـ صـنـعـ صـاحـبـ الـأـغـانـىـ ، بـعـدـ كـلـ هـذـاـ أـصـبـعـ الـنـاسـ يـتـنـافـسـونـ عـلـىـ شـرـاءـ الـجـوـارـىـ الـشـقـرـاوـاتـ وـالـغـلـمـانـ مـنـ فـرـنـسـاـ وـإـيطـالـياـ وـالـجـزـرـ الـمـجاـوـرـةـ فـيـ الـخـيـطـ وـالـبـحـرـ الـأـبـيـضـ الـمـوـسـطـ .

وـبـدـلاـ مـنـ التـفـنـ فيـ إـقـامـةـ خـازـائـنـ لـلـكـتـبـ ، تـفـنـتـواـ فـيـ بـنـاءـ الـأـجـنـحةـ لـلـجـوـارـىـ ،  
وـذـوـىـ فـنـ النـسـخـ وـاقـتـرـ النـاسـخـونـ ، لـتـزـدـهـرـ صـنـاعـةـ النـخـاسـ وـيـشـرـىـ النـخـاسـونـ ! .

وـأـصـبـحـتـ أـسـوـاقـ الـأـدـبـ فـيـ مـنـزـهـاتـ قـرـطـبةـ مـغـانـىـ لـلـعـشـاقـ وـخـائـلـ لـلـمـعـتـةـ !

وـإـذـ بـالـعـقـلـ الـعـرـبـيـ فـيـ الـأـنـدـلـسـ يـهـجـرـ تـقـالـيـدـ الـإـسـلـامـيـةـ فـيـ الـبـحـثـ وـالـمـغـامـرـةـ وـاـكـتـشـافـ الـجـهـولـ  
وـإـغـنـاءـ الـحـيـاةـ بـالـإـضـافـاتـ ، لـيـسـقـطـ فـيـ الـجـمـودـ وـالـتـقـلـيدـ ! وـإـذـ بـالـنـاسـ يـتـخـذـونـ الشـيـوخـ أـوـلـيـاءـ مـنـ دـوـنـ  
الـلـهـ ، وـيـتـشـفـعـونـ بـهـمـ مـنـ دـوـنـ الـعـلـمـ .. !

وـخـلـالـ هـذـاـ التـحـولـ كـانـ الـفـضـائـلـ تـهـاـوىـ ، وـقـيمـ الـإـسـلـامـ تـرـنـجـ ، وـالـبـاطـلـ يـعـشـيـ وـجـهـ الـحـيـاةـ ،  
وـالـإـنـسـانـ الصـادـقـ يـغـترـبـ .. وـالـحـقـ كـسـيرـ !

وـانـطـفـائـتـ الـحـمـيـةـ ، وـخـبـتـ الـغـيـرـةـ ، وـتـزـايـلـ قـدـرـ الـكـتـبـ وـالـشـعـرـاءـ وـالـمـفـكـرـينـ وـمـهـرـةـ الـصـنـاعـ وـأـهـلـ  
الـفـنـونـ ، الـمـنـتـجـةـ لـيـعـلـوـ مـقـامـ الـجـوـارـىـ وـالـغـلـمـانـ وـالـخـنـثـيـنـ وـالـشـذـاذـ .. !

وـخـلـالـ هـذـاـ كـلـهـ يـتـنـاقـلـ النـاسـ قـصـةـ أـمـيرـ فـيـ أـشـبـيلـيـةـ اـشـتـهـتـ إـحـدىـ نـسـائـهـ أـنـ تـفـوشـ بـأـقـدامـهـ فـيـ  
الـطـيـنـ ، فـأـمـرـ بـأـنـ تـصـنـعـ لـهـ بـرـكـةـ مـنـ الـمـسـكـ الـمـعـجـونـ بـالـمـاءـ الـمـعـطـرـ .. ! أـنـفـقـ عـلـىـ هـذـهـ الـبـرـكـةـ مـاـ يـكـفـىـ  
لـتـجـهـيزـ جـيـشـ ، حـتـىـ إـذـ أـحـاطـتـ جـيـوشـ الـفـرـنـجـ بـأـشـبـيلـيـةـ وـالـأـمـيرـ وـنـسـاؤـهـ يـعـبـثـونـ عـرـةـ فـيـ طـيـنـ الـمـسـكـ لـمـ  
يـجـدـ الـأـمـيرـ فـيـ خـازـائـنـ مـاـ يـتـقـوـىـ بـهـ عـلـىـ الدـفـاعـ عـنـ مـدـيـنـتـهـ .. !

وـهـكـذاـ سـقطـواـ فـيـ الطـيـنـ .. الـمـعـطـرـ !

وفي بعض نواحي الأندلس تقل المياه ، وينقطع المطر فجف الأرض ، ويعطش الأحياء ، وبدلاً من أن يؤدى المسلمين صلاة الاستسقاء ، عسى أن يستجيب لهم الله فيعم الماء ، ليسقوا الأحياء والأرض ، كانوا يتوجهون إلى قلنسوة جلبها أسلفهم من الإمام مالك ، ليستسقاها .. !

ثم يتناول الناس قصة رجل فاضل من أهل العلم عشق جندياً حسن الطلعة من جيش الفرنجة الذي كان يحاصر إحدى المدن ، فاستخلص الرجل الذي كان فاضلاً هذا الجندي لنفسه ، وأمره على قصره لبنيه ويا أمر فيه ، وأباحه حرم القصر ، لينال الرجل العالم من الجندي مايريد .. !

وحين كانت خزائن الدولارات خالية مما تتطلبه مئونة الجيش ، بنى أحد الأمراء قصراً ضخماً وجذب له غرائب الأزهار والأشجار والطيور النادرة ، وشق له هنا صغيراً من قمة الجبل حيث تراكم الثلوج في الشتاء لينحدر الماء إذا ذابت الثلوج ، ويصب في جداول تدخل حدائق القصر ، وتنتهي إلى بحيرة صنع قاعها من الرخام الأزرق الفاخر الثمين ، ورصعت شطاتها بالأحجار الكريمة ! لتسبع فيها الجواري الشقراوات الجلوسات من جنوب فرنسا ، على شعاع الشمس إذا كان النهار ، وعلى ضوء القمر أو المصابيح الذهبية في ليالي الصيف .. !

وسط هذا الجو الزاخر بصور رائعة من جمال الطبيعة ، ومظاهر مؤسية من فساد المجتمع نشا ابن حزم .

عاش في هذا المضطرب نحو ثنين وسبعين عاماً .. أشتغل خالماً بالسياسة والأدب ، والفقه ، والشعر ، وكابد الحياة والناس ، وعرف المتعاجل والمعذاب ، وحاول أن يتعاطي الفلسفة والمنطق وعلوم الاجتماع والفلك والرياضيات وعلم النفس وسماه بهذا الاسم ، وأحثك مجتمعه ، فصورة ورسم أعمقه ومقاصده ومظالمه ، وهب في أفعاله يرفض مجتمعه ذاك ، ويحاول أن يهدم واقعه لينبئه من جديد !

وفي سبيل ذلك لم يكتف بالكتابة بل خاض غمارات الصراع السياسي وأشتراك في مغامرات عسكرية .. وعرف الحب والنعيم ، وعرف الجوى ، ولم يتحرج – وهو الفقيه الذي يتربص به أعداؤه – من التصرّب بتجاريده ومشاهداته ، في بيان مشرق عذب ، لم يتكلّف فيه تقطيع العبارات والألفاظ ..

وتترك مؤلفات كتبها بلغت عدتها أربعينات بين كتب طوال ورسائل قصيرة كالمقالات .. ذلك لأن ابن حزم كان حين يعكف على القراءة والكتابة لا يخرج عنها أخذ فيه ، ولا يسمع لأى ظرف منها يكن خطره بأن يطلعه !

وكثيراً ما كان يرفض الخروج من غرفة عمله ، ويا مربرد زواره وقادسيه ! ولقد أغضب بسلوكه ذلك . كثيراً من أصدقائه والمقربين إليه ، ولكنه كان يعتذر إليهم إذا خرج من عمله يستروح ، فلولا أنه يأخذ نفسه بالشدة في العمل ، لما أتيح له أن ينجز شيئاً .. والعمل عنده عبادة ، ولئن اعتكف العابد

ليتعبد ، فما ينبغي أن يصرفه عن شأنه أى طارق حتى يفرغ ما هو فيه !

\*\*\*\*\*

ولد على بن أحمد بن سعيد بن حزم ، في آخر شهر رمضان قبيل شروق يوم عيد الفطر عام ٣٨٤ ، في قرطبة حاضرة ذلك الزمان .

كان أبوه وزير الخليفة الأموي هشام المؤيد وهو من أواخر الخلفاء الأمويين في الأندلس ..

ولد ابن حزم في قصر فاخر ، فقد أصحاب أجداده وأبوه ثروة ضخمة ، فترك أبوه منازل الآباء في غربى قرطبة حيث يسكن أوساط الناس ، وأنفذ لنفسه قصراً منيفاً في حى السادة شرقى قرطبة ، على مقرية من دار الخلافة .

تفتحت عينا الصبي على مجال الترف ، ومسارح المتع ، ومحانى الجمال ، في قصر أبيه الشامخ على مرتفع يشرف على كل قرطبة ، محاطاً بحدائق واسعة ، ترتفع فيها الأشجار ، ويوضع الزهر ، ويفرد الطير ، وتنساب الجداول الصغيرة ، ويتفجر الماء في نافورات متمنمة الحواشي والجنبات بالفسيفساء ..

على مرأى الجمال ومحانى الحسن تلك تفتحت عيناه ... فما سمع في طفولته غير الشدو ، والغناء ، وما رأى غير الوجوه الصباح ، وخضراء الحدائق ، وروعة ألوان الطبيعة الفتانة ، وما ملا صدره إلا بشذى الزهر وعطر الفانitas .. الجبال على بعد تحمل هماماتها الثلوج وتغمر الخضراء الريانة كل سفوحها .. وهمس الجداول ، وخرير الأنهر ، وزين الضحكات الفضية ، وعطوا الأنسم ، وحلوة الأنعام واتساق القددود ، ونضارة الخنود والقاع الأضواء على الملابس الزاهية تلف القامات المتأودة ... أشعة واهنة من الشمس تتسلل من وراء السحاب وتتخالل الأغصان اللفاء ، فتوشى الظلال على الأديم ذي الأعشاب ... منابر الذهب والفضة .. هذا هو كل ما عرفه ابن حزم منذ نشأ حتى وُثب به الصبا على أوائل الفتولة .. وبلغ أول سنوات الشباب ..

وهو في الخامسة عشرة ، تمرد على الخليفة هشام المؤيد أقرب الأمراء إليه ، فساقوا جيشاً من العرب والبربر والفرنجية فأسقطوا الخليفة ، وولوا مكانه رجلاً آخر من بنى أمية .. وعزل الحاكم الجديد والد ابن حزم من منصبه واعتقله ، ثم أفرج عنه ، بعد حين ..

قال ابن حزم : « شئلنا بعد قيام أمير المؤمنين هشام المؤيد بالنكبات وباعتداء أرباب دولته ، وامتحنا بالاعتقال والتغريب والإغرام الفادح ..... وأرزمت الفتنة وخصتنا ،

إلى أن توفي أبي الوزير رحمة الله وحنن في هذه الأحوال بعد العصر يوم السبت للبيتين بقيتا من ذي القعدة عام اثنين وأربعين» ..

كان ابن في الخامسة عشر حين سقط الخليفة هشام المؤيد ، وعزل أبوه من منصب الوزارة ، وصادرت الدولة الجديدة قصره في شرقى قرطبة وماوصلت إليه من أمواله .. وبقى للأسرة بعد ذلك شيء .. منازل قديمة في غربى قرطبة انتقلت إليها ، وضياع دور متفرقة في أرجاء الأندلس .

ولقد عاش أبوه معتزلا الناس أربع سنوات بعد النكبة ، ثم مات حزينا محسوبا ، وتأمر الفرنجة والبربر وبعض بنى أمية على الحاكم الجديد ، فوثبوا عليه ، ولووا مكانه رجلا آخر ، وعاثوا في قرطبة فسادا فنهبوا الأموال وانتهكوا الحرمات واغتصبوا النساء .

وهادوا الآن يصبح وحيدا بعد أن قتل أبوه الوزير صبرا وكاما .

ترك الفتى قرطبة باكيما ، وكتب يصف حالته «ضرب الدهر ضرباته ، وأجلينا عن منازلنا ، وتغلب علينا جند البربر ، فخرجت عن قرطبة أول المحرم عام أربع وأربعين» ..

كان إذ ذاك في العشرين .. فتى متقل القلب بالهموم ، تضطرم أعماقه بالإصرار على أن يغير هذا العالم المتخن بالغوصى والمظالم والفساد !

لقد علمه أبوه الوزير وثقة لكي يصبح وزيرا مثله ، فقد كانت الوزارة في ذلك الزمان تورث كما يورث الملك ! وقد علمه أبوه منذ بدأ يعي ، أنه قرشى من بنى أمية .. جاء أجداده مع الفتح الإسلامي . علمه أن جده الأعلى كان أخا بالولاية ليز يد بن أبي سفيان الذي بعثه أبو بكر الصديق في أول بعثة لفتح الشام ..

وإذن فعاوية عمه ، وأجداده هم الذين فتحوا الأندلس وأقاموا فيها الدولة العظمى .. فالوفاء لأسلافه يقضى عليه بأن ينتصر للأمويين ، ويدافع عنهم ، ويدعم دولتهم .. فإذا سقطت هذه الدولة فالوفاء يتضمنه أن يعمل من أجل إحيائها .. ! .. فإذا تصباخ أمراوها فليتعزل هو الصراع ! .

كان قبل ، قد نال قسطا من التعليم . وما أرسله أبوه ليتعلم في حلقات الجامع ، أو عهد به إلى مدرس .. بل آثر أن يعلمه في القصر .

ولأن أباه كان خبيرا بما آلت إليه الحياة من فساد وتفسخ ، لم يشا أن يعهد بهذا الطفل إلى معلمين من الرجال .. بل اختار له معلمات من النساء من قريباته «من الجوارى .. وكانت من نساء قرطبة فقيهات وروائيات شعر ومقرئات ومحدثات وطبيبات وعالمات بالفلك والفلسفة .

ربى ابن حزم في حجور النساء كما قال ... ولا زمّن حتى بلغ مرحلة الشباب .. وأتاح له لزومهن معرفة كثير من أحوالهن وأسرارهن ، ودراسة خلجان قلوبهن ، والاطلاع على ما يملكون من فضائل ورذائل .

كتب عن هذه المرحلة من صباه فيما بعد ، فأعلن عدم ثقته بالنساء ، وحكم عليهن في ألفاظ مكشوفة أنهن مالم يشغلن العلم أو العمل متفرغات الباب للرجال .

«قرأت في سير ملوك السودان أن الملك منهم ، يوكل ثقة له بنسائه ، يلقى عليهم ضريبة من غزل الصوف ، يستغلن بها أبد الدهر ، فالمرأة بغير شغل إنما تشوق إلى الرجال .... ثم يقول : «لقد شاهدت النساء ، وعلمت من أسرارهن ما لا يكاد يعلمه غيري لأنني ربيت في حجورهن ، ونشأت بين أيديهن ، ولم أعرف غيرهن ، ولا جالست الرجال إلا وأنا في حد الشباب » ثم يسترسل «..... وهن علمتني القرآن ، ورويني كثيرا من الأشعار ، ودربيتني على الخطط . ولم يكن وكدى (أى هى) ، وأعمال ذهني منذ أول فهمي وأنا في سن الطفولة جدا إلا تعرف أسبابهن ، والبحث عن أخبارهن ، وتحصيل ذلك . وأنا لأنس شيئا مما أراه منهن . وأصل ذلك غيرة شديدة طبعت عليها ، وسوء ظن في جهتي فطرت به ، فأشرفت من أسبابهن على غير قليل .

ويعرف أنه منذ الطفولة قد اطلع من أسرار النساء والرجال على أمر عظيم ، و أصل ذلك أنه لم يحسن قط بأحد ظنا في هذا الشأن ، مع غيرة شديدة ركبت في ... إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (الغيرة من الإيمان) فلم أزل باحثا عن أسرارهن ، ولكن قد أنسن مني بكتمان ، فكن يطلعنى على غواصي أمرهن . ولو لا أن أكون منها على عورات يستعاد بالله منها ، لأوردت من تنبئهن في السر ومكرهن فيه عجائب تذهل الألباب .... ثم يضيف : « .. أنا لأعرف هذا وأتقنه ، ومع هذا يعلم الله وكفى به عليا أنا برىء الساحة » .. وثم يقسم بأغلظ الأيمان على عفته ، وأنه لم يقترب حراما فقط .

وابن حزم يروى ذكريات طفولته عن النساء الذي عهد إليهن أبوه بتربيته .. وهن كما قال من الجواري المهدبات ومن قرابته .

وكان أبوه يزوره خلال الدرس ليطمئن عليه ، وقد أقام عليه رقباء ورقاء من الشيخ والنساء العجائز .

على أنه صبا إلى شقراء منهن فامتنعت منه ولاحقها في شرفات القصر عسى أن تبادله ما يحس ، فيستوهبها أباء ، ولكنها ظلت تتمنع فأباهَا عليه أبوه ، ووهبها شقراء أخرى ، ولكن الفتى لم يستطع السلو عنها سنوات ... فزوجه أبوه من شقراء أجمل من تلك ، ووهبها جارية شقراء أيضا ، وعاش ابن حزم لا يستحسن غير الشقراوات كما قال ...

وكان قد حفظ القرآن وقدرا صالحا من الشعر وجود الخط .. وأن له أن يفارق مدرسة النساء إلى

حلقات الرجال .

واختار له أبوه عالما زاهدا ناسكا فاضلا . وتحري الأب أن يكون معلم ابنه حصورا ..

كتب ابن حزم « وأنى كنت وقت تأجع نار الصبا وشرة الحداثة ، وتمكنت غرارة الفتوة مقصورا ، محظورا على بين رقباء ، ورقائب (من النساء) ، فلما ملكت نفسى وقلت صحبت أبا الحسن بن على الفاسي . وكان عاقلا عالما من تقدم في الصلاح والنسل الصحيح ، وفي الزهد في الدنيا ، والاجتاد للآخرة . وأحسبه كان حصورا لأنه لم تكن له امرأة قط . ومارأيت مثله علما وعملا وديننا وورعا ، ففخعني الله به كثيرا ، وعلمت مواضع الاصابة وقع المعاصي . ومات أبو الحسن رحمه الله في طريق الحق ..»

صاحب ابن حزم هذا الشيخ الذي اختاره له أبوه ، فأنتزعه الشيخ من كل دواعي الإغراء لمن هو في مثل سنه ، فما كانت النساء تحجب عن الرجال ، وكان هذا كما يقول ابن حزم هو جاري العادة في التربية ببلاد الأندلس .

بدأ الجلوس إلى شيخه وهو في نحو السادسة عشر وصحبه إلى حلقات علماء التفسير والحديث واللغة .

بهر الفتى أشياخه بسرعة استيعابه ، وقوة حفظه ، ودقة فهمه .. وبعد أن استوعب ابن حزم ما في مجالس القرآن والتفسير ، صحبه شيخه ومربيه إلى حلقات الفقه .

حتى إذا خرج مربيه إلى الحج فات في بعض الطريق ، استقل ابن حزم بحضور الحلقات وقد علم من شيخه الراحل قدر كل واحد من أصحاب الحلقات .. فلزم الحلقات بالجامع الكبير بالجانب الغربي من نربطة ، حيث يعيش أوسط الناس وسادهم ، وأهل العلم والطلاب . وفي هذه الحلقات عنى إلى جانب علوم الدين بدراسة النحو وعلوم اللغة والفلكلور والفلسفه والمنطق وسائل المعرف الإنسانية الموجودة في عصره .

ولقد اهتم بالنحو اهتماما خاصا ، وأدرك أن اتقان النحو هو سبيله إلى فهم النصوص . ذلك أنه كان قد شهد عجبا مما يؤدي إليه الجهل الشائع بالنحو . حتى لقد تفكه بحكايات عن ذلك فيما بعد .. فروى أن رجلا كان يتولى صلاة الجمعة في جامع قرطبة « وكان عديم الورع قليل الصلاحة . فخطبنا يوم الجمعة في جامع نربطة فتلا في خطبته : (لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ماعنته ) فقرأها بنونين (عنة) . فلما انتهت الصلاة جاءه بعض تلاميذه وكانتوا يأخذون عنه رأى مالك ، فذكروا له الآية صحيحة ، فأنكرها وزعم أنه هكذا تعلمتها وهكذا يعلمها . فلما احتجموا إلى المصحف ، دخل وعاد بالمصحف وقد حذف نقطة من على تاء عنتم ، لتكون نونين ! » ..

ويروى عن مقرئ آخر يعلم الناس القرآن ، وهو عربي بل قرشي ، « وأحد مقرئين ثلاثة كانوا يقرئون

العامة في قرطبة» ، وكان لا يحسن النحو. فقرأ عليه قارئ يوماً في سورة ق (ذلك سكرة الموت بالحق ذلك ما كنست منه تحيد) فرد عليه القرشى «تحيد بالتنوين» ، فراجعه القارئ وكان يحسن النحو، فلما سمع المقرئ وثبتت على «التنوين». وانتشر الخبر، حتى وصل إلى فقيه كان صديقاً لذلك المقرئ، «فذهب إليه وقال للمقرئ القرشى: «انقطع عهدي بقراءة القرآن على مقرئ، وقد أردت تجديد ذلك عليك» . فسارع الفقيه إلى ذلك. فبدأ يقرأ من سورة ق حتى إذا بلغ إلى الآية المذكورة ردها عليه المقرئ بتونين كلمة (تحيد). فقال الفقيه للمقرئ: «لا تفعل. ما هي إلا غير منونة بلا شك» . فلما سمع المقرئ، فقال له الفقيه: (يأخذ إني لم يحملنى على القراءة عليك إلا ردك إلى الحق في لطف). وهذه عظيمة أوقعك فيها قلة علمك بال نحو... فإن الأفعال لا يدخلها التنوين البتة) . فتغير المقرئ ولم يكتف حتى جاءوا بالمصحف وبعد من مصاحف الجيران فوجدوها مشكولة بلا تنوين»

ظل ابن حزم يدرس العلوم الدينية واللغوية والعلوم الإنسانية ودرس الكتب المترجمة في الأدب والفلسفة والخطابة والفلكلور. ودرس الرياضيات. ودرس الشعر العربي وأخبار العرب والتاريخ.

ولقد درس العلوم الدينية على مذهب الإمام مالك، وكان هو المذهب الرسمي للدولة، فقد فرضه الأمويون، وما كانوا يعيثون قضاء أو يسمحون لفقيق أو عالم، بالفتيا أو إلقاء الدروس، إن لم يكن من أتباع الإمام مالك.. ولم يسمحوا لمذهب غيره بالوجود في الأندلس، كما فرض العباسيون في المشرق مذهب الإمام أبي حنيفة.. وهذا قال ابن حزم: «مذهبان انتشرتا بقوة السلطان، مذهب أبي حنيفة في المشرق ومذهب مالك في المغرب».

أنكب ابن حزم على طلب العلم، حتى أصبحت قرطبة مسرحاً للحرب بين الجماعات المتصارعة، وانتهت منازل أسرته في غربى قرطبة، ووجد الفتى الأمراء الأمويين في صراعهم الداخلى يرمون قرطبة بجند البربر وعسكر الفرنجة على قرطبة الشماء، ليفسدوا فيها، ويسفكوا فيها الدماء.. حتى لقد قتلوا نحو عشرين ألفاً من أهلها من بينهم عدد كبير من العلماء والفقهاء والمقرئين والقراء وشيوخ المساجد!

فرحل الشاب إلى مريء بعيداً عن قرطبة ليقيم في ضيعة لأهله هناك، وفي أعماقه يتزلف القلب الممزق، ويختتم في صدره الشوق إلى أن ينقذ الإسلام، وأن ينشل الأندلس بأسره من كل هذا الهوان..!

ولكن كيف؟! ماعساه أن يصنع هو وحده، وهو بعد طالب علم في الثانية والعشرين، بلا جيش ولا نصيراً؟

فليتفرغ هناك لدراسة كل مابين يديه من آثار في الدين والفكر، وكل معطيات العقل الإنساني ..  
فليعمر عقله بالعلم وقلبه بالأمل حتى يقضى الله أمراً كان مفعولاً ...

وعندما يجيء الوقت ، سيسشع قلمه ليواجه القوضى ، والعار ، والفساد ، بأقوى مما يستطيعه السيف  
البيار .. !

وفي المرية ، وجد عدداً كبيراً من الشيوخ من هاجروا في أرض الله الواسعة ، ناياً بأنفسهم عن  
مضطرب الفتنة والدماء في قرطبة المنتكبة ، التي غمرت أجواءها العطرة الطيبة ، رائحة الموت ، والحياة  
المتعفنة ، ورائحة العار ... !

ولزم ابن حزم من وجد في «المرية» من شيوخ قرطبة وأخذ عنهم ، وقسم وقته بين حضور الدروس  
في المسجد ، القراءة في البيت ... . وظل على هذه الحال نحو ثلاث سنوات .

ولكن الأمراء الأمويين في صراعهم على السلطة سقطوا جميعاً فـآل الأمر في قرطبة إلى آل حمود ... .  
وهم علويون ، وبين الأمويين والعلويين خصم متقد !

استولى العلويون على قرطبة ، وبسطوا سلطانهم على كثير من أقطار الأندلس ، فتوجس ابن حزم  
في نفسه خيفة مما قد يقع له .. فهو ابن أسرة تنتهي للأمويين .

وصحت عناوف ابن حزم طالب العلم الذي أصبح في الخامسة والعشرين ، إذ أوقع به وإلى  
«المرية» ، وأتهمه بالتأمر مع صاحب له يعيدها ملك بنى أمية .. فأعتقله هو وصاحب شهراث أمر  
بابيعادها . فتطلع أحد أصحاب حاكم «المرية» باستضافة ابن حزم وصاحب .. يقول ابن حزم  
«فأقامنا عنده شهوراً في خير دار إقامة ، وبين خير أهل وجiran ، وعند أجل الناس همة ، وأكملهم  
معروفاً ، وأتمهم سيادة ، ثم ركبنا البحر قاصدين بلنسية عند ظهور أمير المؤمنين المرتضى عبد الرحمن بن  
محمد وساكناه بها .

كان المرتضى عبد الرحمن بن محمد حفيد عبد الرحمن الناصر رجلاً صالحاً ، هرب من قرطبة حين  
أشتعلت فيها الحروب الداخلية بين أبناء عمومته من الأمويين ، واعتزل الفتنة ، ثم ظهر بعد حين في  
«بلنسية» ، ودعا لنفسه بالخلافة ...

بادر ابن حزم بتأييد المرتضى ... . فها هوذا رجل صالح من بنى أمية ، على نقىض الأمراء  
الأمويين الآخرين الذين أباحوا قرطبة جيوش البربر والفرنجية ، وارتضوا أن يؤدوا الجزية للفرنجة  
ليستعينوا بهم في الصراع على الحكم !

وكان المرتضى متفقها يعرف ابن حزم عنه التقوى وحسن الدين ، ويتوسم فيه أن سعيد مجد جده الأعلى عبد الرحمن الناصر ، أيام نهض يوحد الأندلس ، ويستعيد فيه عظمة الإسلام ، فسعى في عمارة الأرض ، وجعل من قرطبة حصناً حصيناً للإسلام ، ومشروقاً لنور المعرفة ، وجعل متنزهاتها ندوات للثقافة والجدل الفلسفى ، يتمشى فيها المفكرون يجادلون و يعلمون ، كما كانت أثينا في عصورها الظاهرة .

وكان المرتضى عبد الرحمن بن محمد نفسه يريد أن يعيد قرطبة والأندلس كلها إلى أيام جده حين كان ملوك أوروبا وأمراؤها يسعون إليه أو يقدمون له الجزية ، وحين كان العلماء والفقهاء والمفكرون والكتاب والشعراء هم قسمات الوجه المضيء لقرطبة ، ودولة الإسلام في الأندلس !

ولكن المرتضى عبد الرحمن بن محمد لم يكن يملأ من مواهب رجل الدولة إلا الصلاح وحسن النية والرغبة الصادقة في الإصلاح .. ولا شيء بعد ! .. لا حزم ، ولا قدرة ، ولا حسن بصر بالرجال ، ولا سائر الوسائل التي تكفل النجاح لمن يريد أن يتولى أمر الناس ويقود أو ينشئ دولة . !

ولكن ابن حزم وجد نفسه مندفعاً إلى مبادئ الرجل الصالح ، عسى أن يستطعوا معاً هدم هذا العالم الفاسد وبناءه من جديد على البر والتقوى والنجدة والعدل .

أقام ابن حزم في بلنسية مع المرتضى عبد الرحمن بن محمد يدعو إليه ، ويحشد له طلاب العلم ويخطب الناس ويطالبهم بأن يبايعوه بالخلافة

على أنه ظل خلال نشاطه السياسي العارم ، يواكب على حلقات الدرس ، فيتلقى عن شيوخها .

وذات مرة سأله ابن حزم شيخ الحلقة عن مسألة من فقه مالك ، فأجابه شيخه ، ولكن ابن حزم لم يقنع بالإجابة فأعترض ، وضاق به الشيخ ، فقال له أحد الطلاب المقربين إلى شيخ الحلقة : «ليس هذا من منتحلاتك ! » ذلك أنه كان حتى ذلك الوقت ينتحل كتابة الشعر والنشر الفنى فحسب ، وكان زملاؤه يشهدون له بطلاقته الأسلوب ورشاقة العبارة . ولم يستطع ابن حزم أن يرد فما كان يعرف فقه مالك بعد ، ووضح منه الشيخ والطلاب .

غصب ابن حزم حتى قام لينصرف من الحلقة ، ولكنه كظم غيظه وقعد إلى نهاية الدرس . ثم اعتكف في داره يقرأ النهار والليل في فقه مالك ، وفقه الأئمة الآخرين أصحاب المذاهب ، وخرج بعد عدة أشهر إلى الناس ، فحضر الحلقة التي شهدت السخرية منه .. فناظر الشيخ والطلاب أحسن مناظرة ، فأدهشهم ، وقال وهو ينصرف : أنا أتبع الحق وأجتهد ، ولا أتقيد بمذهب .

وأنباء انقطاعه لقراءة الفقه ، أعجب بمذهب الشافعى ، قال إليه ولكنه لم يتقيد به ... أعجبه في الشافعى تمسكه بالتصوص من القرآن والسنة ، وعزوفه عن تقليد من سبقة ، وأستباطه الأحكام من

النصوص ، واعتباره الفقه هو النص أو الحمل على النص (أى استخراج الحكم من النص أى القياس عليه)

غير أن ابن حزم لم يلبث أن هجر القياس ، ووجد أن مقالة الشافعى فى رفض الاستحسان ، يصلح حجة لرفض القياس ، وأنه لا حكم إلا فيها تضمنه نصوص القرآن والسنن وإجماع الصحابة إجماعا لا يختلف عليه واحد منهم رضى الله عنهم

وقد اهتدى إلى هذا الرأى عندما ما كان يقرأ فقه الإمام الشافعى ، وما كتبه الآخرون عنه ، فوقع على كتاب داود الأصبغى عن مناقب الشافعى .. وأعجب الشاب بالأصبغى وكتابه ، وحاول أن يتبعه ولكنه لم يجد في بلنسية ما يغنى .. لو أنه يعود إلى قرطبة أم المدائن في الأندلس ! ففى قرطبة منها يكن من أمر ماليس في غيرها من المدائن !

ولقد عاتبه بعض أصدقائه فى موقفه من المذهب المالكى ، فقال لهم إن الإخلاص للإسلام هو الذى دفعه إلى أن يترك المذهب .. وما يبالى هو ما يكون من أمر ، مadam الإخلاص للإسلام هو رائدہ فيما يأخذ وما يدعى من الأمور ! وروى لهم أن عيسى عليه السلام سأله أحد الحواريين ما هو الأخلاص ومن المخلص فقال عليه السلام : «المخلص من إذا عمل خيرا لايهمه أن يمحمه الناس» .

عاد ابن حزم يدعو إلى المرتضى عبد الرحمن بن محمد ، حتى اجتمع للمرتضى جيش يصلح للزحف ، فقرر أن يزحف إلى غرناطة فيستولي عليها ، وبجيش من أهلها عسكرا كثيفا يستولي به على قرطبة التي أمتنع فيها العلويون .

وسار ابن حزم مع الجيش تحت راية المرتضى ولكن الجيش لم يصل إلى غرناطة

فقد اغتيل المرتضى وهزم جيشه ، ووقع ابن حزم في الأسر !

وبعد حين أطلق من الأسر ، فاختار أن يعود إلى قرطبة ليتفقى للعلم بعد أن غاب عنها نحو ستة أعوام .

ها هو ذا من جديد في قرطبة مدینته التي لم يحب ركنا آخر من الأرض كما أحياها ، والتي عرف فيها عنوبة أيام الصبا ، ثم قسوة الحياة منذ عزل أبوه ، ومات ، وشاهد طرقاتها الظليلة ومتنزهاتها الغناء يختلط فيها دم الإنسان بالمعرة والأوحال ! ولكنها منها يكن من أمر ، خير المدائن عنده ، ومهمها يكن ماحدث فيها للفكر والمعرفة ، فما زالت هي أخر بلاد الدنيا بالمعارف .. ومهمها يكن ماحدث لخزائن الكتب فيها ، وللفقهاء والعلماء ، فإنه يستطيع أن يجد فيها من الكتب ومن البيئة الثقافية مالم يجد في مالى يجد في عدتها من أرض الله .

منذ وقع ابن حزم وهو في بنسية على كتاب للفقيه داود بن على الأصبهاني ، وهو حريص على أن يستزيد من فقه الرجل

ووجد في قرطبة كل كتب داود الأصبهاني . التي تضمنت منهجه في الاعتماد على النصوص من القرآن والسنة وإجماع الصحابة في إستبطاط الأحكام .

وداود الأصبهاني من مدينة أصبهان تعلم فيها ورحل إلى بغداد وغيرها من حواضر الإسلام ، ولد عام ٢٠٢ هـ وعاش خمسين عاماً تفقه فيها على مذهب الشافعى ، ولكنه رفض وخالق الشافعى في الإجتياه وهو الاعتماد على النص ، أو القياس على النص . وقال : « إن الشريعة لرأى فيها ولا اجتياه ، فهي نصوص فحسب ، ولا علم في الإسلام إلا من النص ». وقد سأله أحد الذين يعرفون اعجابه بالشافعى : « كيف تبطل القياس وقد أخذته به الشافعى ؟ ! » فأجاب : « أخذت أدلة الشافعى في إبطال الإستحسان فوجدت تبطل القياس ... ». وقيل عنه : « أنه أول من أظهر انتحال الظاهر ، ونفي القياس في الأحكام قوله وأضطر إليه فعلاً وسماه الدليل » ... والدليل الذي يعنده داود مفهوم من ظاهر النص كأن يقول الحديث الشريف . « كل مسکر خر . وكل خر حرام ». فهما مقدمتان دون ذكر التبيحة والتبيحة المذكورة المفهومة من ظاهر النص : أن كل مسکر حرام . وهذا ليس قياسا ، بل فهم لظاهر نص فيه إيجاز بالحذف . وكأن يقول الله تعالى : « قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر الله لهم ما قد سلف ». فهذا شرط للمغفرة ، وهو يعم كل من يعصي الله والرسول لا الكفرة وحدهم .

قال عنه أحد معاصريه : « لو اقتصر على ما هو فيه من العلم لظننت أنه يكمد به أهل البدع مما عنده من البيان والأدلة . ولكنه تعدى .

وكان زاهدا عابدا . ولقد وجده أحد المعجبين من الحكم يوماً بـ ألف درهم تعينه على العيش فردها قائلاً لمن جاءه بها : « قل لمن أرسلك بأى عين رأيتني ، وما الذي بلغك من حاجتي وخلطي حتى وجهت إلى بهذا ؟ »

وقد وجد ابن حزم في قرطبة حين عاد إليها هذه المرة بعض الذين تأثروا بآراء داود ، ووسعوا منهجه الظاهري ، وتركوا كتبهم في خزائن الكتب بقرطبة ، وفي صدور بعض أتباعهم ، فدرس ابن حزم كتبهم وتتلمذ عليهم .. وخلال خمس سنوات وهب فيها نفسه للعلم ، ودراسة الفقه الظاهري ، لم يعد الشاب يفكر في السياسة . وأعلن الخلاف مع الشافعى متابعاً فقه أهل الظاهر وقيل له في خلافه مع الشافعى بعد أن أحبه وأعجب به ، فاستشهد بما قاله الإمام الشافعى حين عותب على خلافه مع الإمام مالك وهو شيخه : « أقول في هذا ماقاله أرسطو حين خالق أفلاطون : أفلاطون أستاذى وأنا أحبه ولكن الحقيقة أحب إلى من أفلاطون . »

وتمر الأعوام وابن حزم لا يشغله إلا الدرس الجاد .

ووجد بعض المتعصبين من اليهود والنصارى يطعنون في الإسلام مستغلين الضمور الفكري والفقهي ، وشيوخ التقليد ، وتجدد العقل ، فانبرى لهم ابن حزم بجادلهم ، ويصفه آراءهم ، في حدة وعنف ، مؤكداً أن ما اعتبرى الحياة الإسلامية من فساد وبلاهة ، وما يشيع فيها من جود فكري ، وتقليل أعمى للسلف ، ليس من الإسلام . ولكن هذه مخنة للإسلام .

ولم يعد نفسه لمارك فكري آخر يجلو فيها حقائق الإسلام كما هي في أصلها الثابت من ظاهر النصوص وإجماع الصحابة .. ولم يسعه بتفرغه للعلم ، يكتب النثر الفنى والشعر ، ويناقش آراء أرسطو فى المنطق ، وفتاوي الفقهاء التقليدين .. ولم ينضج على نار التأملات ، وإقراءات الجادة المتصلة منهجه فى الفقه .. ولم يستغرق مت庸عب فى العلم .. إذ بالسياسة تفرض نفسها عليه مرة أخرى ، وتقتحم بابه فى عنف ، وتنزعه انتزاعاً من تأملاته وقراءاته وكتاباته ومناظراته ..

كان قد سُئِّمَ السياسة فتركها ، وظل يرقب بألم ما يضيق به صدره ولا ينطلق به لسانه : تناجر الأمراء على السلطة ، وفتوك بعضهم البعض ، وهم خلال هذا الصراع قد وطأوا أكباف قرطبة وهامتها لسبابك خيل الفرنجية «فلحق بيوات قرطبة معرة في نسائهم وأبنائهن ..»

إنه متعب من السياسة وأهل السياسة .. متعب من الأصدقاء .. متعب من الحياة .. متعب من كل شيء .. ولراحة له إلا في العلم والكتابة ..

فقد رأى فيما رأى : هشام المؤيد الأموي الذي استوزر أباه ، يعزل ، ثم يختفي ، ثم يظهر ، ثم يتولى الأمر ..

لكم فجع ابن حزم في هشام هذا بعد أن تعود احترامه وأشرب حبه منذ الصغر ! ذلك أن المؤيد هذا ، تولى الخلافة من جديد وأصبح أمير المؤمنين ، فناواه أمير آخر من بنى عمومته ، وزحف بجنبه ، فاستنصر هشام بالفرنج وعرض أن ينزل لهم عن قشتالة .. ونصره الفرنجية بهذا الثمن ، ولكن مناوشة غلبه على قرطبة وأسقطه ، ثم قتله .. واستعوان هو الآخر بالفرنجية ليوطد أركان ملكه !

لهم هو مزري كل هذا .. !

غير أن السنوات تمر ، والانقلابات تستمر ، وتتوالى التغيرات فلا يستطيع العقل أن يلاحظها .. وهاهوذا يستقر في قرطبة من جديد ، ولكن تحت حكم العلوين من آل حمود الذين أسقطوا حكم الأمويين .

وتنفسى الحياة وهو سعيد بنشاطه العلمي وهمومه الفكرية ..

هذا ابن حزم عن السياسة ، ولكن أهل قرطبة لم يهدأوا .. فثاروا على حاكمهم العلوى واختاروا واحدا من بنى أمية ليولوه الخلافة مكان الخليفة العلوى .. وهو حفيد آخر للخليفة العظيم عبد الرحمن الناصر .. صاحب قرطبة في زمن البطولات والشموخ !

كان ابن حزم قد بلغ الثانية والثلاثين من العمر ، وحين رأى إصرار أهل قرطبة على تولية حفيد آخر لرجل العصر الذهبي عبد الرحمن الناصر ، أنسحب إليهم ، فما كان بوسمه أن يسكت . !!

مرة أخرى تغزو قلبه الأسواق إلى بناء الأندلس من جديد واستعادة الأيام الرائعة الغابرة .. فترك تأملاته وكتبه ومناظراته وقلمه وإنضم للثائرين ! ..

وعزل أهل قرطبة الخليفة العلوى ، وولوا مكانه عبد الرحمن بن هشام بن عبد الجبار حفيد الناصر .  
ولم يكدر يتولى حتى عين ابن حزم وزيرا له .

ولكن الخليفة الجديد لم يكن يملك من المواهب شيئاً ولم تكن له ميزة تؤهله لأن يكون أمير المؤمنين .. إلا أنه حفيد عبد الرحمن الناصر ! كان شاباً في نحو الثانية والعشرين ، غريباً ، ساقط المهمة ، سيطرت عليه النساء وأهل الدسائس ... وكان إلى ذلك طائشاً يأخذ بالظن ، مزهواً بشبابه وثرائه ، مفتوناً بالسلطة .. فلم يكدر يستقر على عرش قرطبة ، حتى شك في جماعة من الذين حلوا إلى العرش وهم من أهل المشورة والرأي والحكمة في الأندلس ، وكافأهم على ما بذلوه من أجله بعذلهم وإقصائهم وإلقاء بعضهم في غيابات السجون ، واتهمهم بالتأمر عليه ليولوا مكانه أموياً آخر وأظهر بذلك منهم عدداً من الرقمان وأهل الشذوذ وأصحاب السمعة السيئة !

ولم ينتصح بنصيحة أحد ، فقد أقنعته شكوكه وأقنعته بطانته أن كل من يعارضه يريد أن يسقطه ،  
ويوالى عليه أحد أبناء عمومته من الأمويين وثارت قرطبة من جديد وأخرجت قادتها من السجن عنوة ،  
وزحف الشاثرون على قصر الخليفة فانتزعوه منه وقتلوه .. ولم يكن قد مر على ولاته أكثر من  
شهرين .. !

وداست أقدام الشاثرين ابن حزم وزير الخليفة المخلوع .. واتهموه بأنه سكت على المظالم ، فألقوا به في السجن ولبث في السجن عدة أشهر.

ثم راجع الشوار أنفسهم وفحصوا أعمال ابن حزم خلال ولاية الخليفة المقتول ، فلم يثبتوا على ابن حزم المواقف على الفساد أو المظالم ، وثبت لهم أنه كان عاجزاً .. كان وزيراً لا يؤخذ برأيه ، ولقد حاول أن يعتزل ، ولكنه خاف طغيان الخليفة .. قضى الشهرين وزيراً يتحمل الوزر بلا غنم ..

خرج ابن حزم من السجن وفي عزمه ألا يتعاطى السياسة أبداً وأن يهب عمره كله للكتابة .. وعاد إلى العمل .. يقرأ ويكتب وينظر ..

ولكنه لم يكُد يتفرغ لعمله أربع سنوات حتى ظهر رجل آخر أموي اسمه هشام من أحفاد عبد الرحمن الناصر

هشام آخر!! وهو مرة أخرى من أحفاد الخليفة الذهبي العظيم !! .. ما أكثر ما تسرّح الحياة بابن حزم الباحث عن المدوء!

مرة أخرى يترك القلم والورق والمناظرة وينضم إلى الثوار!

ونظر هشام المعتمد بالله بن محمد بن عبد الملك بن عبد الرحمن الناصر فيمن حوله من الرجال ، فاختار ابن حزم وزيراً.

ولكن الخليفة الجديد كان هو الآخر غبياً للظنون ، فلم يتحقق شيئاً مما عقده الناس عليه من آمال ، وشغله الصراع مع بني عمومته والأمراء الآخرين ، وازدادت الدولة ضعفاً ، وصبح فيها قول كبير الفرنجة أيام الفتح الإسلامي: لا تقرواوا الفاتحين فهم يتحرّكون بروح الفداء ويزحفون بالحرص على الاستشهاد وطمعاً في نعيم الآخرة ، وبإيام جائع يستطيع أن يقتسم كل الصعب .. ولكن انتظروا حتى يشغلوا بالمال والسلطة ، ويتنازعوا على الحكم ، وحينئذ يستطيع الفرنجة أن يستردوا الأندلس .

وفي الحق أن العرب حين نزلوا أرض الأندلس ، بعزم ، وجسارة قلب ، وإرادة لا تقهـر ، اجتاحوا الأندلس مثل طاقات المد ، فهـى لا تتوقف ولا يقاومها أحد بعد . وكانوا قد أحرقوا السفن من ورائهم ، فما إلى فرار من سبيل ، ولا محيس .. إما الشهادة أو النصر !

ولكن نبوءة كبير الفرنجة تحققت ، فتدحررت الأمور وتمزقت الدولة حتى أصبحت حرب الفرنجة تسند عرش أمير المؤمنين . !

على أن قرطبة ثارت على أمير المؤمنين هشام المعتمد بالله ، وأسقطته وأسقطت معه الدولة الأموية كلها ، فلم تقم قامة لها إلى الأبد .. وتولى بدلاً من الأمويين ملوك الطوائف .. وقسموا إمارات الأندلس فيما بينهم ، وانحنت الخليفة المخلوع في أحد التغور حتى مات بعد ست سنوات من خلعه .

أما ابن حزم ، فلم يبق وزيراً حتى سقط الحكم الأموي ، بل اعتزل المنصب حين تأكد له أنه لن يستطيع أن يحقق شيئاً للدولة مما عاش يحمل به ، إذ استيقن أن حفيـد عبد الرحمن الناصر هـزيل لارجاء فيه

ماضف ابن حزم أمام السياسة ، وماحقق من خلالها شيئاً ينفع الناس ! ؟

لقد وجدتها أداة فاسدة للتعبير ، فليبحث إذن عن أدلة أصلح !

ووجد في الكتابة التعبير عن أشواقه في أصلاح أمور الأمة ، والنهوض بأحوال المسلمين ، وعزاء القلب المعدب . وأنه ليشعر في أغوار نفسه أن جهاده بالفكر والقلم كالجهاد في سبيل الله بالسيف والمال ..

ولكن في أي أرض يختار معركته . ! ..

لم يشاً أن يحييا في قرطبة تحت ظلال حكم ملوك الطوائف .. ، فتركها وطاف بالأندلس ، بمجمع من حوله طلاب العلم فيلقى عليهم الدروس ويناظرهم ، ويفرغ لنفسه يقرأ ويتأمل ويكتب .

\*\*\*\*\*

كانت له ضياع في أكثر من مكان في ريف الأندلس ، فكان يقيم في المدن القرية من هذه الضياع ، ثم يطوف بالعاملين في الأرض يتأمل أحواهم ..

وهاله ماهم فيه من شقاء .. ! وإنهم ليدفعون إيجارا باهظا للأرض ، ولايكادون مايكفيهم للعيش بعد أداء الأجرا للملائكة !! .. والملائكة يحصلون على هذه الأموال الطائلة وينون القصور ويقتلون الجواري الحسان ويعيشون حياة فارغة من البطالة والله .. !

وفكرا بن حزم في القاعدة الشرعية التي يقوم عليها هذا النظام ، وعاد يقرأ النصوص في القرآن والسنّة من جديد ، وتبع الآثار وأخبار الصحابة ، حتى انتهى به النظر إلى أن نظام الإيجار في الأرض الزراعية حرام ، فقد جرت السنّة على المزارعة : يأخذ المالك نصف الإيراد أو ثلثيه أو ثلثة أرباعه أو أقل من ذلك والباقي يحصل عليه الزانع .. هكذا فعل الرسول «ص» بأهل خمير .. إذ زارهم مناصفة .

وأعلن هذا الرأي فقامت عليه القيامة .. وأسرع كبار الملائكة إلى الفقهاء يلتسمون منهم دفع البلاء الذي سينجم عن رأي ابن حزم .. .

وأجمع الفقهاء على أن ابن حزم يحرف في الدين ، فهو يبتعد رأياً يخالف به كل الأئمة أصحاب المذاهب : مالك بن أنس ، وابن حنيفة النعمان ، والشافعى ، وأحمد بن حنبل ، بل انه ليخالف ماجرى عليه السلف الصالح من الصحابة والتتابعين وتابعهم بإحسان .. ثم إنه يناقض حتى شيخه الفقيه الذي

نقل عنه استبطاط الأحكام من ظاهر النص أو الإجماع وهو داود الأصبغاني ، إمام أهل الظاهر الذي أخذ عنه ابن حزم كل الأصول والفروع في الفقه .

لقد أتى ابن حزم أذن بما لم يقل به الأوائل .. وأنها لكبيرة أراد بها إثارة الفتنة بين الزراع وأصحاب المزارع ... فما ينبغي للحكام أن يتركوه يحدث من البدع أكثر مما أحدث .. !

وأتهم ابن حزم مخالفيه بالجهل وقال أن فقيها عظيما هو إمام أهل مصر الليث بن سعد قد نادى بهذا الرأي منذ أكثر من قرنين ، وكانت له ضياع كثيرة ، لم يؤجرها منذ اهتدى إلى هذا الرأي ، بل كان ينتفع بها بالمزارعة ، وكان يجعل معظم ما يحصل عليه في صررو مجلس أيام الحصاد أمام باب داره في الفسطاط بجوار جامع عمرو ، فيوزع الصرار على الفقراء والمساكين وذوى القربي كل واحد صيرة أو أكثر من الصرار ويرسل بعضها خفية إلى أصحاب الحاجات من أهل العلم : معلمين وطلاب .. !

ولم يتم أحد من الفقهاء الإمام الليث بأنه يثير الفتنة ، وحين عارضه بعض فقهاء عصره من يعيشون في ظروف إجتماعية مختلفة قال : « نحن أهل مصر والنوبة أدرى بأحوالنا من سوانا » !

لم يشتبه أحد على الإمام الليث لأن رأي قصر استثمار الأرض الزراعية على المزارعة ، ولذلك لم يستوقف كثيرا ليدافع عن رأيه وليطلب في تقليله وتسيببه ! .. وكان كل مالقيه الإمام الليث من خصومه فيما بعد ، هو إهمال آثاره ومؤلفاته ثم طمسها بعد موته ، حتى لقد تخسر الإمام الشافعى على ضياع هذه الآثار النفيسة ، فوقف على قبر الليث وبكى .. ثم قال : « إنه أفقه من مالك ، ولكن أهل مصر أضعواه وتلاميذه لم يقوموا به !!

فما بال فقهاء عصر ابن حزم يتهمنه بالزيف ، وبالبدعة .. ؟ وكل بدعة خلاة ، وكل ضلاله في النار .. !

إنه ليسخرج على مذاهب الأئمة الأربع الكبار ، وبصفة خاصة مذهب الإمام مالك الذي جرى على أحكامه القضاء في المغرب والأندلس ، ومذهب الإمام أبي حنيفة الذي جرى عليه القضاء في المشرق ، فهماقطبان تدور عليها الشريعة وأفتيا ، .. وهذه كبيرة عند المقلدين !

واستنفر هذا الإتهام ابن حزم إلا أنه يخالف مذهب مالك ومذهب أبي حنيفة مبتدع من أهل النار ! ؟

ورد على متهميه بهجوم عنيف على متبني المذهبين ، قبل أن يبدأ في توضيح رأيه في المزارعة والإجارة ...

قال . إنه يفتى من السنة ، فالمزارعة هي عمل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فهو لم يؤجر أرض خير حين فتحها الله عليه ، وإنما تركها مزارعة بالنصف لزراعتها ، وكانوا هم يهود خبر ، ثم مضى يقول : «فالتابع هو القرآن والسنّة لا قول أبي حنيفة ولا قول مالك لأنّه لم يأمرنا قط باتباعها . فتبعها مخالف الله تعالى . وإن كانت فتاياتها مخالفة للنص فلا يحل لأحد أتباع مخالف نص القرآن والسنّة . وهكذا نقول في كل مفت بعد رسول الله .. قال معاوية لابن عباس : (أنت على ملة ابن عمك على ) ، قال : لا . ولا على ملة عثمان . أنا على ملة النبي صلى الله عليه وسلم ) .... وقالت الخوارج لعمر بن عبد العزيز : (نريد أن تسير علينا بسيرة عمر بن الخطاب . فقال عمر بن عبد العزيز : ) (قاتلهم الله ، والله ما أردت دون رسول الله إماما ) .... فإن توهموا بكثرة أتباع حنيفة ومالك وولاته أصحابها القضاء فالكثرة لاحجة فيها ويكتفى من هذا قول الله تعالى وإن نفع أهل الأرض يصلوك عن سبيل الله ، وقال : (إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ماهم) . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إن هذا الدين بدأ غريبا وسيعود غريبا . فطوبى للغرباء) . وأنذر عليه السلام بدرس العلم (أى أضمحلاته) وظهور الجهل (أى تفوقه) ...

ثم يضيف ابن حزم ساخرا : «فلعمري لئن كان العلم ماهم عليه من حفظ رأى أبي حنيفة ومالك والشافعى فما كان العلم قط أكثر مما هو منه الآن ، وهياهات ! »

ثم يستطرد ابن حزم «..... ولكن الحق والصدق هو ما أذربه رسول الله . والذى درس هو أتباع القرآن والسنن فهذا هو الذى قل بلا شك وأصحابه هم الغرباء القليلون جعلنا الله منهم ، ولا عدا بنا منهم ..... وأما ولائهم القضاء فهذا أحزى وأندم ، وما عناية جورة الأمراء وظلمة الوزراء خلة محمودة ، ولا خصلة مرغوب فيها في الآخرة . وأولئك القضاة وقد عرفناهم إنما ولاهم الطغاة العتاة من بنى العباس (في الشرق) وبنى مروان (في الغرب) بالعنایات والتزلف إليهم عند دروس المثير وأنتسار البلاء ، وعودة الخلافة ملكاً عضوضاً ، وابتزاً للأمة .. فهو لاء القضاة هم مثل من ولاهم من البطلين سن الإسلام الحبين لسن الجور وال默ك ( وأنواع من الربا والرثوة ) ، وأنواع الظلم وحل عرا الإسلام . وقد علمنا أحوال أولئك القضاة الذين يأخذون دينهم عنهم ، وكيف كانوا في مشاهدة إظهار البدع من المحننة في القرآن بالسيف والسياط والسبعين والقيد والنفي ( يشير إلى محننة خلق القرآن التي جلد وعدب فيها الإمام أحمد بن حنبل ) ..... فمثل هؤلاء لا يتكلّر بهم ، وإنما كان أصل ذلك تغلب أبي يوسف ( تلميذ أبي حنيفة ) على هارون الرشيد ( في بغداد ) وتغلب يحيى ( من أتباع مالك ) على عبد الرحمن بن الحكم ( في قرطبة ) فلم يقلد القضاة شرقاً وغرباً إلا من أشار به هذان الرجال . والناس حراص على الدنيا ، فتسلّمذ لها الجمّهور لا تديننا ، ولكن طلبنا للدنيا » .

ثم يمضى في دحضه آراء المتمسكون بالمذاهب فيقول : «ونحن في غنى فائض والله الحمد عن هذا

التكلف ، وفي مناديج رحبة (جمع مندوحة) عن هذا التعسف ، بنصوص القرآن والسنة الثابتة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلا سبيل إلى وجود شرع لم يتنصل على حكمه» .

وقال عن خصوصه أنهم أحد رجلين : إما رجل لا يعلم السنة فهو جاهم ، أو رجل علمها ، وتركها إلى أقوال الأئمة أصحاب المذاهب فهو يخالف أوامر الله ورسوله . وكلما الرجلين فاسد الرأي ساقط الفتيا » ولا يتحقق له أصلاً أن ينتحل العلم أو الفقه » .

ويسوق ابن حزم بعد هذا حجته الدامغة من السنة بأسانيدها الصحيح الثابتة :

- قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من كانت له أرض فليزرعها ، أو لينحها ، فإن أبي فليمسك أرضه .
- عن نقل متواتر موجب للعلم المتيقن أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن كراء الأرض . وعن نقل آخر متواتر إنه نهى عن أن يؤخذ للأرض أجرا .
- من النقل المتواتر : « أعطى النبي صلى الله عليه وسلم خير اليهود على أن يعملوها ويزرعوها . ولم شطر ما يخرج منها » وشطر ما يخرج منها أى نصفه . ويروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه دفع إلى يهود خير نخل وأرضها ، على أن يعملوها من أموالهم ولرسول الله صلى الله عليه وسلم نصف ثمرها ، ويروى أنه لما ظهر رسول الله صلى الله عليه وسلم على خير أراد إجلاء اليهود عنها فسألوه أن يقرهم بها على أن يكفوه عملها ولم نصف الثمرة فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : « نفركم بها على ذلك ما شئنا » . فقرروا بها حتى أجلاهم عمر بن الخطاب ..

ولم يسكن مخالفوه من الفقهاء والعلماء فردوا عليه الاتهام بالجهل ومخالفة الله ورسوله ، واتهموه بقصور الفهم ، إذ لم يفهم أن صلى الله عليه وسلم حرم إيجار الأرض بموجب خاص لا يجوز تعميمه ، لأنه كان بشأن واقعة معينة ، وهذا هو عين ماقسمه أصحاب المذاهب من الأئمة الكبار . فقد اقتل رجالان على إيجار أرض زراعية فقال الرسول صلى الله عليه وسلم : « إذا كان هذا شأنكم فلا تكرروا المزارع » أى لا تؤجروها فهو لم ينه عن المبدأ نفسه ، ولكنه نهى عن الإيجارة إذا أفضت إلى نزاع يتقابل فيه مسلمان ، فرد عليهم أن هذا يمكن أن ينطبق على المزارعة أيضا ، فقد يؤدي النزاع فيها إلى اقتتال مسلمين ! .. ولكنهم أيدوا رأيهم في إباحة الإيجارة بما قاله سعد بن أبي وقاص : « أرخص رسول الله صلى الله عليه وسلم في كراء الأرض بالذهب والورق » .

ولكن ابن حزم رد قولهم عليهم ، بالطعن في قوة السند الذي روى الحديث الوارد في واقعة الإقتتال ، والخبر المنقول عن سعد بن أبي وقاص ، وذهب إلى أنه حتى لو صحي الأثران ، فما يجوز

العدول عن السنة الثابته إلى خبرير ويه صحابي واحد يكن خطر شأنه . ! واتهمهم بأنهم بایباحة الأجر إنما يظلمون الزراع وصحابون الملك ! لأن يؤدى التزامه ويسلم المالك الأجرا المتفق عليها كاملا ، منها يقل الإنتاج ، أو حتى إن لم تنتج الأرض أصلا . وهذا هو الظلم بعينه ، « وما ربك بظلام للعبيد » .

واستخلص النتيجة في حسم : « لا يجوز إجازة الأراضي أصلا لا للحرث فيها ولا للغرس فيها ولا للبناء فيها ولا شيء من الأشياء أصلا ، لا لمدة مسماة قصيرة ولا طويلة ، ولا بغير مدة مسماة ، لا بدنابر ولا بدرارهم ، ولا بشيء أصلا ، فتى وقع فسخ أبدا ، ولا يجوز في الأرض إلا المزارعة بجزء مسمى مما يخرج منها . أو المعارض كذلك فقط ، فإن كان فيها بناء أقل أو أكثر جاز إستئجار ذلك البناء وتكون الأرض تبعاً لذلك البناء غير داخلة في الإجازة أصلا ... ثم يكرر» لا يجوز كراء الأرض بشيء أصلًا لا بدنابر ولا بدرارهم ولا بعرض ولا بطعم مسمى ولا بشيء أصلًا » .... فهو يعتبر إجازة الأرض بأى مقابل حراما » ... ويضيف « ولا يحل في زرع الأرض إلا أحد ثلاثة أوجه : إما أن يزرعها المرء بأكته وأعوانه وبذرها وحيوانه ، وأما أن يبيع لغيره زرعها ولا يأخذ منها شيئا ، فإن اشتراكا في الآلة والحيوان والأعوان دون أن يأخذ من الأرض كراء فحسن ، وأما أن يعطي أرضه لمن يزرعها ببذره وحيوانه وأعوانه وأكته بجزء ويكون لصاحب الأرض مما يخرج الله تعالى مسمى إما النصف أو الثلث أو الرابع ، ونحو ذلك ، أكثر أو أقل . ولا يتشرط على صاحب الأرض شيء من كل ذلك . ويكون الباقى للزراع قبل ما أصاب أو أكثر . فإن لم يصب شيئا فلا شيء له ولا شيء عليه . وهذه الوجوه جائزة . فلن أبى فليمسك أرضه » .. ثم يقول أن عقد المزارعة ليس له أجل « لأنه لم يوجبه نص ولا إجماع فهو شرط ليس في كتاب الله تعالى فهو باطل بحكم النبي صلى الله عليه وسلم ... وليس لأحد أن يوجب ولا يحمل إلا بنص ومن تعدى ذلك فقد تعدى حدود الله تعالى وشرع من الدين مالم يأذن به الله . قال الله تعالى : « ألم للإنسان ماتمنى ... » .

أما إجازته التعاقد في المزارعة على مادون النصف على خلاف فعل الرسول فهو ليس خروجا على السنة أو قياسا عليها .. ويقول « إن حكم سائر الأجزاء كحكم النصف فإذا كان النصف حلالا ، فسائر الأجزاء حلال ، وهذا برهان ضروري متيقن لا يجوز خلافه .. فإن المتعاقدين على النصف قد تعاقدا على مادون النصف بدخول ذلك النصف » .

وجرى في المساقاة على رأيه في المزارعة . فأفتى بإيجار الماء لسقى الزرع لا يجوز . ولا يجوز شراؤه للوضوء أو الشرب .

لم يقتتنع بهذه الآراء أحد من الفقهاء أو كبار ملوك الأرض الزراعية ، ولكنها بهرت شباب العصر الملصين ، المتعلمين إلى العدل ، فألتقو حوله أينما اتجه ..

ووجه تجتمعهم حوله ، من فتك بعض أعدائه به .. فقد كادوا له عند أمراء الولايات طاف أو يطوف بها ، وحرض عليه كبار الملوك والفقهاء المخالفون ، ولكنهم لم يستطيعوا أن ينالوا منه ، فقد وجد الحماية في حصن حصين من إعجاب الشباب والزراع وال فلاحين به ، والتلاطف من حوله في جولاته بريف الأندلس .. وخشي الأمراء أن يبطشوا به ، فتفتجر الثورة عليهم .. ولكنهم ضايقوه وضيقوا عليه ، فأخذوا يقتطعون من أملاكه ، ويصادرون بعض أراضيه ، حتى اضطر إلى الرحيل عن الأندلس كله ، بعد أن طاف بمعظم ريفه ومدنه والجزر التابعة له . إلى حاضرة أخرى من حواضر الفقه والفكر يشد الرجال ويركب البحر..

إلى القيروان ، حيث تسربت كتب نادرة من خزائن قرطبة بعد نهبها ، وحيث يعيش عدد من فقهاء الأندلس من هاجروا في الأرض بعد فساد الأمر في الأندلس ، وبعد أن طفا الزبد ، وذهب ماينفع الناس . !

وفي القيروان التقى بكثير من العلماء والفقهاء والمفكرين من أهل المغرب ، وبقصادها من علماء المشرق .

وهناك استمع إلى الفقهاء وناظرهم وناظروه وجلس إليه طلاب العلم .

ولكنه لم ينس قرطبة ولا الأندلس ، ففي قلبه حنين متقد ! وإن نفسه لتشتزق حسرات ...

كتب إلى صديق له بالأندلس : «أنت تعلم أن ذهني منقلب ، وبالى مضطرب بما نحن فيه من نبو الديار ، والجلاء عن الأوطان ، وتغير الزمان ، ونكبات السلطان ، وفساد الأحوال ، وتبدل الأيام ، وذهاب الورف ، والخروج عن الطارف والتالد ، واقتطاع مكاسب الآباء والأجداد ، والغربة في البلاد ، وذهب أمال والجاه ، والتفكير في صيانة الأهل والولد ، واليأس من الرجوع إلى موضع الأهل ، ومدافعة الدهر ، وانتظار الأقدار ، لا يجعلنا الله من الشاكين إلا إليه ، وأعادنا إلى أفضل ما عودنا . وأن الذي أبقى لأكثر ما أخذ ، والذي ترك أعظم مما تحيف ، وموابته المحيطة بنا ، ونعمه التي غمرتنا لا تحد ولا يؤذى شكرها ، والكل منحه وعطياه ، ولا حكم لنا في أنفسنا ونحن منه وإليه منقلبنا ، وكل عارية راجعة إلى معيرها وله الحمد أولاً وآخرًا» .

ولقد حاول أمير القيروان أن يصله بعض الهدايا والمال ، تقديراً له ولكن ابن حزم رفض ، وكان يرفض عطايا الأمراء بعد بنى أمية ، ثم إنه على الرغم مما فقده لم يكن في حاجة ، وأنه ليشعر بعد في أغوار نفسه أنه فوق الأمراء والوزراء لأنه كاتب وفقيه ومفكر.

ولم يكن ابن حزم يأبى على غيره أن يقبل الهدايا من السلطان ، وكان يعجب من يتعرفون عنها

بشيءة أن الحرام داخلها بغضب أو نحوه ، وهم في ذات الوقت يسكنون عن المحرمات التي يقترفها  
الأمراء كالغضب والفساد والإفساد وما إلى ذلك ..

كان يهزا بهم ويزرئ عليهم إذ يتأون بأنفسهم عن الشبهات ، وهم يستبيحون المحرمات . و يغرون  
فيها إلى الأذقان ! .. و شبههم بالذين سألا عبد الله بن عمر عن الحرم في الحج أو العمرة أهل له أن  
يقتل حشرات الفراش ؟ فسألهم ابن عمر : « من أنتم ؟ » فقالوا من « الكوفة » فقال لهم « قاتلوكم  
الله . تسألون عن هذا وأنت قتلت الحسين بن علي رضي الله عنهما ! ؟ »

استقر ابن حزم في المغرب سنوات ، لم ينقطع فيها عن القراءة والكتابة ، على الرغم من أنه كان  
يشق وقتا طويلا في مناظرة الفقهاء والجلوس في الحلقات ليتلقي عنه طلاب العلم في إعجاب به  
شديد في القيروان وغيرها من مدن المغرب .

وعلى الرغم من بعده عن الأندلس لم يهدأ عنه خالفوه من الفقهاء هناك ، إذا استمر على منهجه من  
نبذ المذاهب الأربع ، ومحاجة أتباعها ومقلدي الأئمة الكبار ، وازداد عنفا على مخالفيه ، واشتد في  
وجوب الاعتماد على النصوص وحدها ، وهاجم الذين يعتمدون على الرأي إن لم يوجد نص  
وقادته حاسته للمنهج الظاهري ورفضه للقياس وللاجتياز بالرأي إلى الواقع في التناقض .

ذلك أنه كان يرى أن الحكم إذا لم يوجد في النص أو في إجماع الصحابة فهو على استصحاب  
الحال .. أى على الإباحة لأن الله تعالى قال : « وخلق لكم ما في الأرض جميعا » فكل ما في الأرض  
مباح لبني آدم ، إلا ما حرمه الله تعالى بنص في القرآن أو بالسنة النبوية . وفهم النصوص بظاهرها  
ولكل انسان حق فهمها ..

الآن ابن حزم هذا المنهج التزاما صارما شجع به غير أولى العلم على الفتيا ، فتجاسر بعضهم على  
الشريعة ، وأشتبوا في ذلك ، فخالفوا بسوء فهم نصوص القرآن والسنة وأجماع الصحابة ، على نقيس  
ما أراد ابن حزم .

ثم ان ابن حزم نفسه في رفضه القياس وأدوات الرأي الأخرى لاستبطاط الأحكام فيها لم يرد به نص  
ولم ينعد عليه إجماع .. ابن حزم في منهجه هذا وقع في غرائب !

ذلك ان الفقهاء الآخرين عللوا الأحكام وفهموا أسبابها ، فألحقوا الواقع الجديدة في الحكم عليها ،  
بما أورده النصوص ، اذا تحدث العلة وتماثلت الحالات .. أما ابن حزم فهو يرى أن الشريعة غير معللة  
ولا مسببة إلا بنفسها ، وإلا إذا وردت العلل والأسباب في نصوصها .

ومن الغرائب التي وقع فيها :

أجمع الفقهاء على نجاسة الخنزير ولعابه قياسا على نجاسة لعاب الكلب ، ولكنه خالفهم جميعا لأن النص لم يرد على الخنزير، ولا حرام ولا حلال إلا بunsch ، فسؤال الخنزير إذن ظاهر وبول الإنسان ينجس الماء لأنه حكم بنص ، وقياس الكلب والخنزير وسائر الحيوان خطأ .. فهو لا ينجس الماء لأنه لانص ولا إجماع .

- وأباح لغير المتوضى بل وللجنب والخائف والنساء من المصحف القراءة فيه . وهو في هذا كله يأخذ بآراء شيخ أهل الظاهر داود الأصبهاني الذي قال أنه لانص يمنع هؤلاء من القراءة في المصحف

- واعتبر العمرة فرضا كالحج ، وركنا من أركان الإسلام لقوله تعالى : « واتموا الحج والعمره لله »

- وقال أن الزواج واجب وفرض شرعى على كل من هو قادر على النفقة والعدل مع زوجه ، وذلك بنص الحديث الشريف : « من استطاع منكم الباءة فليتزوج »

وهو في كل ما يأخذ وما يدع من أمور الدين لا يقبل مخالفه ويقسم على معارضيه ويتهمهم بالجهل ، وقلة الدين ، وارتكاب الأخطاء الشنيعة . !

وكان هذا الأسلوب في الجدل يوغر الصدور .

وقد وصفه بعض أصدقائه : « أوتى العلم كله ، ولكنه لم يؤثر سياسة العلم » .

وببدأ الذين ناظرهم في القيروان والمغرب يضيقون به .. فلم تعد الحفاوة كما ألفها في أول سنوات قドومه !!

ثم إنه لقى صديقا عزيزا قادما من الأندلس ، ولابن حزم سبق فضل عليه ، ولكن الصديق نسى الفضل السابق وتجاهفي المودة ابن حزم . وحزن هذا في نفسه وأدرك أن الحملة عليه من فقهاء الأندلس مع تغير الحال به ، وغضب أمراء الأندلس عليه . كل ذلك أفسد عليه بعض المودات والقلوب ، حتى قلب مثل هذا الصديق . !

ورأى ابن حزم أن يكشف للمسلمين حقيقة مهاجميه من فقهاء الأندلس عسى أن يبطل تأثيرهم

على الآخرين فكتب . : « . . . . قد يحمل أسم التقدم في الفقه في بلد ما عند العامة من لا خير فيه ، ومن لا علم عنده ، ومن غيره أعلم منه . وقد شهدنا نحن قوما فساقا حملوا اسم التقدم في بلدنا وهم من لا يحمل لهم أن يفتوا في مسألة من الديانة ولا يجوز قبول شهادتهم . وقد رأيت أنا بعضهم ، وكان لا يقدم عليه في وقتنا هذا أحد في الفتيا وهو يتغطى بالديباج الذي هو الحرير المغض خافا ، ويتخذ في منزله الصور ذوات الأرواح من النحاس والخديد تقدّف الماء أمامه ، ويفتني بالهوى للصديق ، وعلى العدو فتيا ضدها ، ولا يستحب من انحراف فتاواه على قدر ميله إلى من أفتى وانحرافه عليه . شاهدنا هذا نحن منه عيانا ، وعليه جهور أهل البلد ، إلى قبائح مستفيدة ، لاستجيز ذكرها لأننا لم نشاهدتها » . . . .

ثم يوجه حديثه إلى الناس كافة فيطالعهم من جديد بالإجتہاد لاستنباط الأحكام من النصوص ، فهذا خير من التقليد « والمجتهد الخطيئ خير من المقلد المصيب . فهو في تقليده عاص لله عزوجل لأنّ فعل أمرا قد نهاه الله عنه وحرمه عليه .. وكل من عمل عملا بخلاف الله تعالى فهو باطل ... والمجتهد الخطيئ أعظم أجرا من المقلد المصيب وأفضل ، لأن المقلد المصيب آثم بتقليده غير مأجور بإصابته ، والمجتهد الخطيئ مأجور باجتہاده غير آثم بخطئه . فأجر متيقن وسلامة مضمونة أحسن من أجر محروم وأثم متيقن بلا شك .

وهذا أغضب فقهاء الأندلس جميعا فكلهم مقلد للإمام مالك ، ثم أنه ليتهم بالفسق والجهل ومخالفة الشريعة في حياتهم الخاصة وباقتراف المنكر والتزوير في فتاواهم .

وأغضب معهم فقهاء القیروان والمغرب كلهم لأنهم هم أيضا مقلدون للإمام مالك ... وما منهم مجتهد واحد خطئ أو مصيّب !

واستعرت الحملة عليه في الأندلس ، واتهمه فقهاؤها بالقذف في الحصنين والمحصنات ، وطالعوا أمراءهم بإقامة الحد عليه .

ونبایه المغرب العربي ، واضطربت تحته أرض القیروان التي اطمأن إليها سنوات ، وزادت الجفوة بينه وبين فقهائهم ..

ولكن كيف العودة ؟ وهم هناك يتربصون . به ويتربصون عودته ، وهنا في القیروان والمغرب أيضا أصبحوا من المتربيين !

واعتزل الحياة والناس ، والكتابة في الفقه ، وانكب على قراءة اليونانيات والمعارف الأخرى وعاودته طبيعة التحدى فرفض منطق أرسطو ! ولكن ابن حزم لم يمحكم الحجة لاضطراب نفسه وقلقه مما

يعانى .. وأتاح لمنافسيه أن يسخروا به لأنه يطاول أرسطو بغير دليل مقنع !  
وخلال قراءاته المتنوعة في المعرف الإنسانية قرأ أن جاليتوس يفضل اللغة اليونانية على غيرها من  
اللغات ويقول أن سائر اللغات إنما تشبه إما نباح الكلاب أو نقيق الصفادع .

وقف ابن حزم عند رأى آخر يذهب إلى أن العربية هي «أفضل اللغات لأنها نزل بها كلامه  
تعالى» .

كتب ابن حزم يناقش أصحاب هذه الآراء : « وقد توهم قوم في لغتهم أنها أفضل اللغات وهذا  
لامعني له لأن وجوده الفضل إنما هي بعمل أو اختصاص ولا عمل للغة ، ولا جاء نص في تفضيل لغة  
على لغة ، وقد قال تعالى : ( وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبيّن لهم ) « وقال تعالى » ( فإنما  
يسرناه بلسانك لعلهم يتذكرون ) فأخبر تعالى أنه لم ينزل القرآن بلغة العرب إلا ليفهم ذلك قومه عليه  
السلام لالغير ذلك ... ثم قال عن دعوى جاليتوس أن لغة اليونان أفضل اللغات « وهذا جهل شديد  
لأن كل سامع لغة غير لغته ولا يفهمها فهي عنده في النصاب الذي ذكره جاليتوس » .. أى إما نباح  
كلاب أو نقيق صفادع .. ثم استطرد : « إن الله قد كرم موسى عليه السلام بالعبرانية ( وهي لغة موسى  
وقومه ) ونزل الصحف على إبراهيم عليه الصلاة بالسريانية ، فتساوت اللغات في هذا تساوا يا واحدا .  
أما لغة أهل الجنة وأهل النار فلا علم عندنا إلا ماجاء في النص والإجماع ولا نص ولا إجماع في ذلك .  
إلا أنه لا بد من لغة يتكلمون بها ضرورة .... وقد أدعى البعض أن اللغة العربية هي لغة أهل الجنة ،  
واحتاج بقول الله عز وجل ( وأخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين ) .. فقلت له : قل إنها لغة أهل النار  
لقوله تعالى عنهم أنهم قالوا : سواء علينا أجزعنا أم صبرنا مالنا من محيض . ولأنهم قالوا : إن أفيضوا  
عليينا من الماء أو ما رزقكم الله . ولأنهم قالوا : لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا من أصحاب السعير . ثم  
يستطرد : « ... وقد أدى هذا الوسواس الباطل باليهود إلى أن استجازوا الكذب والخلف على الباطل  
بغير العبرانية وادعوا أن الملائكة الذين يرفعون الأعمال لا يفهمون إلا العبرانية ، فلا يكتبون عليهم  
غيرها .. وفي هذا من السخف ماترى . وعالم الخفيات وما في الضيائـر عالم بكل لسان ومعانـيـه . عز  
وجل لا اله الا هو وهو حسبنا ونعم الوكيل » .

وخلال اعتكافه في القيروان كتب رسالة في أسماء الله الحسنى ، وخرج بها على فقهاء القيروان  
والمغرب ، فأبدوا إعجابهم بها ، وعجب سائر العلماء لابن حزم هذا : لحدة طبعه وعنته ، ولعمق فكره ،  
وجمال أسلوبه وانفجار علمه وتدققه .. وكرر أحدهم ما قاله صديقه لأبن حزم من قبل « هذا الرجل  
أوتى العلم كلـه » ، ولكنه لم يؤتـيـ سـيـاسـةـ الـعـلـمـ فهو يـصـيـكـ مـخـالـفـيـهـ صـكـ الجـنـدـلـ لـلـوـجـهـ . »

ورضى هو عن زوال الجفوة بينه وبين علماء القيروان والمغرب .

وأستبد به الإصرار على التفرغ للكتابة في الفقه والأصول والأدب . وهو يفك في أي مسائل الفقه والأصول يبدأ ، إذ برسالة تأتيه من صديق في الأندلس ، فهي رسالة أسعده حقا .. فهذا الصديق مرشح لمنصب أمير على إحدى مداشر الأندلس ، وهو يتطلب من ابن حزم أن يكتف عن الكتابة في الفقه والأصول حتى تهدأ الثورة عنه في الأندلس ، وحتى يرتب له أمر عودة كريمة هادئة في المدينة التي سيصبح أميراها .. واقتصر الصديق على ابن حزم أن يكتب رسالة عن النساء والرجال والحب .. !

فليكتب عن العشاق وهذا أروح لنفسه ، وهو بلا ريب صارف عنه غضب النساء وتربيص الفقهاء وكيد كبار الملوك في الأندلس .

أخذ ينتقل بحرية في مدن المغرب العربي ، ويستحضر ذكرياته وما مر به من تجارب ، وما حفظ من أخبار .

ثم عكف يكتب رسالته عن الرجال والنساء والحب وسماتها « طوق الحمامات في الآلقة والألاف » . وهي ، رسالة عن أحوال المحبين وعلامات الحب وما يعرض فيه من وصل وهجر ، واقتراف للمعصية ، وتعقف عنها ..

على أن ابن حزم لم ينس في أول كتابه « طوق الحمامات » ما يصنعه به مخالفوه من الفقهاء والعلماء فقال عنهم « وأساعوا العبث في وجهي ، وقد فونى بأنني أعضد الباطل بمحجتي ، عجزاً منهم عن مقاومة ما أورده من نصر الحق وأهله ، وحسداً لي » .

ولقد حذر ابن حزم في صدر كتابه طوق الحمامات ، أن يظن أحد به ظنسوء ، فيتأثم بهذا الظن .. وبعض الظن إثم .. ثم يشكر لصديقه وده الصحيح . « وإن لك على أضعافه » ويحمد له مشاركته إياه في الخلو والمر والسر والجهر ويستشهد بأبيات له :

أود ودا ليس فيه غضاضة ومالي غير الود منك إراده إذا حزته فالأرض جماء والورى	وبعض مودات الرجال سراب ولا في سواه لى إليك خطاب هباء ، وسكان البلاد ذباب
--	--

ثم يقول : وكلفتني أعزك الله أن أصنف لك رسالة في صفة الحب ، ومعانيه ، وأسبابه وأعراضه ، وما يقع فيه وله على سبيل الحقيقة ، لا متزيدا ولا مفتنا ، ولكن مورداً لما يحضرني على وجهه ومحاسب وقوعه ، حيث انتهى حفظي وسعة باعى فيها ذكره ..... والأولى بنا مع قصر أعمارنا إلا نصرفها إلا فيما نرجو به رحب المنقلب وحسن المآب غالبا . ثم يستطرد كأنه يعتذر عما سيورد من أخبار العشاق فيذكر

ماجاءت به الآثار: «أجوا النفوس بشيء من الباطل ليكون عونا لها على الحق» وأجوا النفوس أى أحلوها على الاستجمام .

و«من لم يحسن يفتني لم يحسن بتقوى» . ويتغنى يكون فتي في مرحه ..

و«أريحوا النفوس فإنها تصدأ كما يصدأ الحديد» .

ثم مضى يقول: إنه يكتب بما شاهده وعاينه وما حدثه به الثقات من أهل زمانه خلال تجربة طويلة عرف فيها الحياة وعرف الناس .

وبكتابه «طوق الحمامنة في الألفة والألاف» وأسلوبه الذي يعتبر من أرقى أساليب النثر الفنى صاح أن يطلق عليه «أديب الفقهاء» .

ومن عجب أن ابن حزم فى كتابته عن خلجلات النفس ، لم يقف عند الظاهر كما ألزم نفسه فى الفقه والأصول بظاهر النص ، بل تعمق النفس البشرية ، وزاوج بين الإسلام والفلسفة اليونانية ، وأدرك خفايا الصدوات والنزاعات .

ومن عجب أن ابن حزم أيضا أنه وهو الإمام الفقيه الذى يتربص به الفقهاء من خالفيه ، قد كتب عن الحب والمحبين بعبارات لم يتحرج فيها من شيء ، ولم يتحرر تعطية الأنفاظ التى ينبغى أن تعطى .

والأخبار التى رواها فى «طوق الحمامنة» ما شاهد وعاين أو سمع مع ثقات ، تصور الحياة الإجتماعية فى الأندلس ، أصدق التصوير ، وأعذبه أيضا !

وكثير ما كتب ابن حزم فى طوق الحمامنة لaimكن إعادة نشره الآن بعباراته وألفاظه العارية ، فقد ينبوها ذوق المصر ، وينكرها الحياة العام ، وحسن الآداب فى هذا الزمان !

وفى طوق الحمامنة فوق هذا رصد لبعض الواقع المأمة فى تاريخ الأندلس ، وهى وقائع عاش فى غمارها . ابن حزم .. والكتاب ينتهى بمواعظ تأمر بالمعروف ، وتنهى عن المنكر ، وتبين فضل الطاعة وقبع المعصية ..

غير أن ما يسترعى النظر فى هذا الكتاب هو هذه الحياة الغريبة التى كان يحييها الأثرياء من أهل الأندلس .. حتى لتكتب نساء الملوك والأمراء أشعار غزل فيمن يعشقون ولا يجدن إليهم سبيلا ، وويل يومئذ للعشوق إن عرفه أهل العاشقة !!

ومن عجائب الحب في ذلك العصر أن بعض قواد الجيوش بذلوا حياتهم لافي ميادين المعارك مستشهادين ، ولكن في خنادق نساء فروا إليهن بعد المعركة ، فاكتشفنهم العدو المنتصر فقتلهم وسبا النساء !!

وكتاب طوق الحمامنة ظاهرة فريدة في تاريخ الأدب ، فما كتب أحد من فقهاء أو علماء الإسلام كتاباً أو فصلاً أو مقالاً في الحب مثل هذه الروعة أو الصراحة ، ولا يمثل هذا العمق في تحليل النفس .

وقد أراد ابن حزم أن يقول في هذا الكتاب أن علاقات الرجال بالنساء علاقات إنسانية ، وضرورة من ضرورات الطبيعية ، وفطرة ، فما ينبغي أن يحجم العلماء والفقهاء عن تناولها ، وإنما عليهم أن يبصروا بها الرجال والنساء ، وما يجعل لهم أو يحرم عليهم من هذه العلاقة ... وهو يكرر القول أن الجد لا يصح إلا بشيء من المرح ، فيجب لا يعزف أحد عن المرح ، فالمرح هو الذي يقوى النفس على مواجهة جد الأمور ، وليس ثقل الظل من الدين في شيء ، وقد كان الرسول يمزح ، وكذلك الأمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه .

وببدأ ابن حزم رسالته طوق الحمامنة بالكلام في ماهية الحب بقوله : « الحب — أعزك الله — أوله هزل وآخره جد ، دقت معانيه جلالتها عن أن توصف ، فلا تدرك حقيقتها إلا بالمعاناة . وليس منكر في الديانة ولا محظوا في الشريعة ، إذ القلوب بيد الله عزوجل » ، وقد أحب من الخلفاء المهدىين والأئمة الراشدين كثير» وذكر بعض أسماء الخلفاء العشاق في الأندلس ... واستطرد : « ولولا أن حقوقهم على المسلمين واجبة — وإنما يجب أن نذكر من أخبارهم ما فيه الحزم واحياء الدين ، وإنما هو شيء كانوا ينفردون به في قصورهم مع عيالهم ، فلا ينبغي الأخبار به عنهم — لأوردت من أخبارهم في هذا الشأن غير قليل . [ ولكنك تحدث عن حب الصالحين ، ومنهم أحد فقهاء المدينة السبعة . ] وذكر أن الحبة ضروب فأفضلها المتعابين في الله عزوجل ، ثم عبادة القرابة ، وعبادة الأئمة ، وعبادة التصاحب والمعرفة ، ومحبة البر ، ومحبة العشق الصحيح الممكن من النفس التي لافاء له إلا بالموت : « وإنك لتبعد الإنسان السالى برغمه وهذا السن المتاخرة ، إذا ذكرته تذكري وارتاح وصبا ، واعتاده الطرف واحتاج له الحنين » .

وعرف عبادة العشق بأنها « استحسان روحاني وامتزاج نفسي ... وإنك لا تجد اثنين يتعابان إلا وبينهما مشاكله ، واتفاق في الصفات الطبيعية ، وكلما كثرت الأشباه ، زادت الجائحة وتأكدت المودة . » وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم يؤكدده : ( الأرواح جنود مجندة ماتعارف منها ائتلاف وماتناصر منها اختلف ) وقول مروي عن أحد الصالحين : ( أرواح المؤمنين تتعارف ) . وهذا اغتنم بقراط حين وصف له رجل من أهل النقصان يحبه قتيل له في ذلك فقال : « ما أحبنني إلا وقد وافقته في بعض أخلاقه » . ويمضي في الحديث عن « العلة التي توقع الحب » فيقول : « الظاهر أن النفس حسنة تولع بكل شيء حسن وتميل إليه ، وتميل إلى التصاوير المتقنة ... فإن ميزت وراءها شيئاً اتصلت

وصحت الحبة الحقيقة . وان لم تميز وراءها شيئاً من أشكالها لم يتجاوز حبها الصورة وذلك هو الشهوة» :

ثم يمضي في رسالته فيرسم ظاهر المجتمع الأندلسي وأعمقه ، ويعلل تعلق الإنسان بشكل معين فيروي عن نفسه أنه أحب شقراء في صباه فظل يحب الشقراوات وهكذا كان أبوه ، وعلى هذا سار الخلفاء والكبار في الأندلس .

ويكتب عن حب الفقهاء ، وما فيه من طرائف ... ثم يصور ألواناً من الفحشاء يستعيد بالله من شيعها في قصور الكبار والأثرياء ، وفي الخمائيل المتناثرة بالمدن الكبرى في الأندلس .

وكأن شيئاً لم يكن يشغل الفتنة الاجتماعية التي تحرك في إطارها ابن حزم إلا العشق وال العلاقات الشاذة ! .

وهو فيما يروى من أخبار يؤكد عدم ثقته بالنساء ، يسوق خبراً عن امرأة « حجت خمس مرات وهي من المتعبدات المجهدات . » قالت : « يا ابن أخي لا تحسن الظن بأمرأة قط فإني أخبرك عن نفسي بما يعلم الله عزوجل : ركبت البحر من صرفة من الحج وقد رفضت الدنيا وأنا خامسة خمس نسوة ، كلهن قد حرجن ، وصرنا في مركب في بحر القلزم ( البحر الأحمر ) وفي بعض ملاحي السفينه رجل مضرر الخلق ، مديد القامة ، واسع الأنكتاف ، حسن التركيب ، فرأيته في أول ليلة أثى إلى إحدى صواحبى ف .... ( وذكرت نوعاً فاحشاً من الغزل ) .... فأمكنته في الوقت من نفسها .. ثم مر علينا كلهن فى ليالي متتالية ... فلم يبق له غيري ، فقلت في نفسي : ( لأنتم من هنك . ) فأخذت موسى وأمسكتها بيدي فأتأتى في الليل على جاري عادته فرأى الموسى ، فارتاع وقام ليهض ... فأشفقت عليه وقلت له وقد أمسكته : ( .. أو أخذت نصبي منك ) .. وتنهى المتعبدة المجهدة خبرها بإعتراف ثم بقوها « ... وأستغفر الله » .. والكلمات والعبارات المكشوفة التي روى بها ابن حزم الخبر ، إذ لا يمكن نقلها !

ويعلل ابن حزم مظاهر الفساد التي غشت المجتمع الأندلسي . باختلاط الرجال والنساء بلا قيد ، واظهار النساء زينتهن وهن يعرضن للرجال ، وفراغ بالنساء ، فلا شيء يشغل المرأة الغنية في الأندلس على الإطلاق .. حتى أعمال المنزل كن لا يقمن بها فلديهن الجواري أو الخصياب !

ويحمل على خروج النساء وحدهن بلا زوج أو حرم ، والتقارؤهن بالرجال في المتزهات ، وقال إن هذا الاختلاط بلا رقابة هو ذريعة الفساد وانتشار الفحشاء .. وساق خبراً عن فتاة حجازية حللت من أحد ذوى قرباتها ، فلما سئلت في ذلك قالت : « قرب الوساد وطول السواد . » أى طول الليل .

وهو إذ يسوق أخبار الفحشاء في رسالته يستخلص منها العبرة ، ويسوق النصيحة الى الرجال

القومين على النساء ، أن يسدوا أمامهن ذرائع المعصية . من البطالة وحضور مجالس السمر والأنفراد بالرجال . ويقول في ذلك إن المرأة الصالحة إذا سدت أمامها ذرائع الفساد ظلت على صلاحها ، أما الفاسدة فإذا سدت أمامها الذرائع تحايلت عليها تمارس الفساد .

وقد روى ابن حزم طرائف عن وسائل الاتصال بين الحبّين ، منها تبادل خصلات الشعر ، واستعمال الحمام في نقل رسائل تحت الأجنحة !

وعلى الرغم من صور الفساد التي رسمها ، فقد صور مظاهر العفة أيضا : كيف تصون فتاة نفسها على الرغم من الإغراء ، وكيف يعف فتى تراوده امرأة ذات جاه وجمال وسلطة ونفوذ ، ستؤديه إن لم يطأوها فيما تريده منه ... !

وهو يروى ما شاهده من طرائف الحبّين فقد شاهد فتاة في أحد المتنزهات تتبع فتى وتطارده وهو لا يكلّمها ... حتى إذا غاب عنها انكفت تقبل موقع قدميه ، والأرض التي مشى عليها ... !

ويسوق غرائب عن صور الشذوذ من ذلك أن رجلاً كان صالحًا فأصله الشيطان قال إلى فتى من طلاب العلم مليح الوجه ، وترك الرجل المسجد الذي كان يعلم فيه إلى المسجد الذي كان يتلقى فيه الفتى العلم . « وكان الفتى يغضب ويضجر ويقوم إليه فيوجمه ضرباً ، ويلطم خديه وعينيه ، فيسر الرجل بذلك ويقول : (هذا والله أقصى أمري وألآن قرت عيني) » .

ولم يكن ابن حزم قليل الثقة في السافرات المتبرجات المختلطات وحدهن ، بل أعلن في رسالته سوء ظنه بالنساء كافة حتى الحجبات العابدات المصنونات ! فيقول : وكم داهية دهت الحجب المصنونة ، والأستار الكثيفة والمقاصير المحروسة .. ولو لا أن أنه عليها لذكرتها .. « ولكنه تحدث عن يعشن في المقاصير المحروسة .. عن مغامرات بعض أمهات الخلفاء وما قال عشاقهن من شعر فيهن ، وما أصاب عشاقهن من نكبات .. !!

وفي أكثر من موضع من رسالته « طوق الحمام » يصف الأسمار ، وب مجالس الأنس في الأندلس ، ومتنزهاتها ، وما يحدث فيها .. فهذا فتى وفتاة « اجتمعا في مكان على طوب » .. وآخرون « يضطجعان أمام الناس ، وبينهما المسند العظيم من المسائد الموضوعة عند ظهور الرؤساء على الفرش ، ويلتقى رأسها وراء المسند يقبل كل واحد منها صاحبه ولا يريان ، وكأنها يتمددان من الكلل » « وفتى وفتاة خرجا في نزهة مع الكبار من أهلها ، فأمطرت النساء فبللت الجميع ، فألقى إليها أحد الكبار بقطاء التفا به وجمعها ، ليتقيا المطر متلاصقين تحت الغطاء ..

وكانت كل هذه المراتي وغيرها من ألوان العاصي التي جهر بها الناس تثير سخط ابن حزم ، و تستدعي همته لمقاومة الفساد بدها بما شاهده في قصور العلية حيث كانت تضطرب حياته ، إلى المتنزهات العامة حيث يتعاطى سائر الناس فنون العشق الحرام !

وأنهى ابن حزم رسالته بإعلان سخطه على صور الفساد التي ساقها ، والتي ذكر أسماء بعض أبطالها وكم البعض ، وعلى صور أخرى أشار إليها ولم يكتب عنها لشدة فحشاها كما يقول !

وفي آخر الرسالة كتب فصلاً عن جزاء أهل الفساد وما ينتظرون في الآخرة ، وما يجب أن يعاقبوا به في الدنيا من نفي وجلد ورجيم حتى الموت ، وحريق بيوتهم وأجسادهم . ودعا الناس إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .. وهذا هو واجب المسلم ، فإن لم ينفع به أثم .

على أن هذا الوعظ كله لم يشفع لابن حزم ، فقد هاجه كثير من الفقهاء عندما ظهر كتابه « طرق الحمامنة في الألفة والألاف » واتهموه أنه يعرض الشباب على المنكرات وعلى الفجور ، وأنه بما ساق من أخبار يرسم لهم ويسهل عليهم اقتراف المنكرات ! ( واتهموه بأنه يهدى هيبة الفقهاء بما ذكر عن صور فسق بعضهم .. وهم أفراد منبوذون لم يعد أحد يسلكهم في زمرة الفقهاء .

لقد كتب عن فسق من كان عليه مدار الفتيا في قرطبة . أى مفتياً الأكبر .. وهو فقيه أسطعه فسقه وتبرأ منه الفقهاء والطلاب ، وما ذكر ابن حزم ما كان من هذا الفقيه وأمثاله ، إلا تشiera بالفقهاء كافة ، وتحريضاً للعامة على إهانتهم والازدراء بهم . !!

لم يكن الفقهاء المنحدرون من أصول عربية هم وحدهم الذين سخطوا على كتابه طرق الحمامنة ، بل أنكره البربر أيضا .. ذلك أنه قال عنهم : « في بلاد البربر التي تجاور أندلسنا يتعمد الفاسق على أنه إذا قضى وطره بن أراد ، أن يتوب إلى الله ، فلا يمنع من ذلك . وينكرون على من تعرض له بكلمة ( يمنعه من المعصية ) ويقولون له أتعمر رجلاً مسلماً من التوبة ؟ ! لم يتقبل البربر هذه السخرية منهم ، وكانوا يعكون بعض إمارات الأندلس ، ومنهم قواد لمسكري إمارات أخرى ، فتوعدوا ابن حزم ..

ما باله وما بال قومه من عرب وبربر من يعيشون في الأندلس ؟ إن هو كتب في الفقه كفروه ، فإن كتب في الحب ارجعوا عليه وشهروا به وترعدوا !! فيما عساه يكتب بعد ؟ وإن فليترك الحديث على الرجال والنساء ، والحب ، والفقه ، والأصول ! فليكتب في السياسة ، وفي التاريخ ... .

ونشر رأيه في الخلافة بعيداً عن شبكات الكتابة في الحب وأحواله والفقه وأصوله .

اشترط أن يكون الخليفة قرشيا ، ورجالا ، وعاقلا ، وعالما بشؤون الحكم ، وصالحا ، لكنه تصعب له

الخلافة أو الإمامة .. وقرر أن الخلافة ليست وراثية : « لا خلاف بين أحد من المسلمين في أنه لا يجوز التوارث فيها .. ولا في أنها لا يجوز لمن لم يبلغ .. ولا خلاف بين أحد في أنها لا يجوز لامرأة ».

أما طريقة تولى الخلافة فهي أحد طرائق ثلاثة : إما أن يعهد الإمام قبل وفاته إلى واحد يختاره إماماً من بعده ، كما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم وكما فعل أبو بكر... فتتم البيعة على الخليفة المختار .

وأما أن يعهد الخليفة الحي لرجال ثقات ، أن يختاروا من بينهم واحدا ، ثم تتم عليه البيعة ، كما فعل عمر ، إذ عهد إلى ستة من الصحابة ، مات الرسول صلى الله عليه وسلم وهو راض عنهم ، لي منتخبوا من بينهم رجلا .

وأما أن يتقدم رجل صالح كفء ، يرى نفسه أهلاً للخلافة ، فيدعوه إلى نفسه ، ويبايده الناس ، فيجب اتباعه ومن يخرج عليه فهو من أهل البغي .. كما قام على بن أبي طالب فدعا لنفسه وبايده الناس ، فوجب اتباعه ..

وعلى أيّة حال فيجب لا يبقى المسلمون أكثر من ليتين بلا إمام . بهذا أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم . ولا تصح الخلافة إلا بالبيعة الحرة .

وتناول ابن حزم موقف على معاوية ... ثم أقدار الصحابة من الخلفاء الراشدين ، والفضائل بينهم . وحسب رأيه كان يجب على معاوية أتباع على ، وعدم اتباع بنى عليه ، فعاوية ومن معه إذن من أهل البغي .. !

ولكن ابن حزم لم يدّن معاوية بالبغى على الإمام على كما قضى بذلك الأئمة الذين تعرضوا لهذا الأمر من قبل ، فاتخذوا أحكام البغاء من سلوك على مع معاوية وجنده ، واعتبروا على بن أبي طالب ، أول من ابتلى بأهل البغي ، فاصنعته معهم أحكام يجب اتباعها شرعاً ... بهذا أفتى الإمام الشافعى والإمام أحمد بن حنبل ومن تابعهم .

لم يدّن ابن حزم معاوية ! ذلك أنه أموى بالولاية كما قلنا ، متّعصب لهذا الانتقام .. وهو مع ذلك لم يؤيده في الخروج ورفض البيعة للإمام على

وفي رأى ابن حزم أن واقعة الجمل التي حارب فيها معاوية علينا ، لم تكن حرباً حقاً ، فلم يجتمع معاوية ومؤيدوه للحرب ، بل اجتمعوا للتشاور . وكان الجندي كثيراً في معسكر على ومعسكر معاوية .. وتجاذب الجندي ، فاشتبكوا دون أن يريدوا اقتتالاً .. !

أما أهل صفين فقد أرادوا القتال حقاً . وابن حزم لا يغفيم من البغي ، ولا يدينهم به ، وإنما يترك أمرهم إلى الله تعالى . !

ويقوم ابن حزم مكانة على بين الخلفاء الراشدين ، فيجعله آخرهم مكانة .

ويتحدث عن أهل البيت الذين وردت فيهم الآية فيستثنى منهم على بن أبي طالب ، ويفسر الآية بأنها تعنى نساء النبي ، ويفضل عليهن عائشة .. يفضلها عن خديجة وفاطمة الزهراء رضي الله عنهن جميعاً . ويدعوه إلى أن عائشة هي سيدة نساء أهل الجنة ..

ولم يكدر ابن حزم ينشر هذه الآراء حتى زلزلت الأرض من تحته زلزاً عنيفاً .. ذلك أن أبناءه فاطمة كانوا قد أسسوا دولة إسلامية ضخمة ، لتعيد الإسلام إلى عصوره الظاهرة ، وهي دولة أسمها الدولة الفاطمية ، أسسها الفاطميون في المغرب ، ثم زحفوا إلى مصر فلكلوكها ، وأنشأوا مدينة القاهرة ، والأزهر الذي عمر منذ إنشائه بالشيخ والطلاب ، وأرفقت مinarات القاهرة تضيء لما حولها ، بعد أن خربت مئارئ بغداد وقرطبة .. وأصبح الأزهر بجهد علمائه وشيخه وطلابه قلعة الإسلام في أحياء السنة ، ومحاربة البدع ، ونشر علوم الدين واللغة وأدابها ، وسائر المعارف الإنسانية ، وتفجر منه علم غزير ، عم الدنيا ، وتوهجت فيه شعلة الفكر تعرق اسماء الممدوح والتخلّف ، وتثير أطباق الظلمات المتراكمات ، وتتملاً العقول بوهج خالد من الإيمان والثقافة ، وأصبح حصننا للدين واللغة والمعرفة .

إن الذين يحبون ويشايعون على بن أبي طالب وبنيه قد أصبحوا ، يقودون مصر والمغرب العربي والأندلس ، وكثيراً من أقطار الإسلام ! ثم أن الشيعة وأهل السنة على السواء لا يقبلون ما قاله ابن حزم عن الإمام والسبعين عليه ، وعن الطاهرة خديجة ، وفاطمة الزهراء التي قامت دولة بأسرها تنتسب إليها .. والأندلسيون بصفة خاصة لم يعودوا يحملون للأمويين ، ماحلوه من تقدير وحب ، أيام الخلفاء العظام ، بل لقد شيعوا الأمويين باللعنة ، حين سقطت دولتهم ، لكثرة ماعانوا من مظالم في نهايتها ، وما عاينوا من فساد ، ولأن الأمراء الأمويون في أواخر عهد الدولة الأموية ، خرجن عن تقاليد السلف الصالحة بالأندلس ، وأهدرروا الإسلام وأسقطوا هيبة الخلافة ، وانشغلوا بالترف ، والصراع ، والله .. ومنهم من أذل العلماء وأهل الفكر والفقه ، ليسود الندامي والجواري والغلمان ، ومنهم من نزل لأمراء الفرنجية عن بعض أرض المسلمين ، ودفع لهم الجزية ، واستعانهم علىبني عمومته .. وتركهم يجوسون خلال الديار ينتهكون ويفتصبون ويقتلون !

ولئن كان من الناس من سكت عن ابن حزم حين أفتى بما خالف كل أصحاب المذاهب من الأئمة السابقين ، وحين شوه بعض الفقهاء والعلماء وأدانتهم بالفسق ، وذكر عنهم أخبار مهينة .. لئن كان من الناس من سكت عن ابن حزم وهو يصنع هذا كله واكتفى بمجافاته والغضب منه ، إن الناس

الآن لا يستطيعون السكوت بعد ، وهو يناسب على بن أبي طالب العداء .. !

ثار عليه الناس جيما ، واتهمه بأنه «ناصبي» قد ناصب على بن أبي طالب وفاطمة الزهراء العداء ! فلام مقام له بينهم في القิروان والمغرب كله بعد ، فما من أحد يستطيع أن يلقاه بغير الإنكار له !! .

أما في الأندلس فهم ينتظرون لينزلوا به العقاب .. عسى أن يشفى العقاب صدور قوم مغرب بن ا .

وهكذا وجد نفسه قد ضاقت عليه الأرض بما رحبت ، فلا هو يستطيع البقاء في المغرب كله ، ولا هو يجسر على العودة إلى الأندلس !! .

غير أن صديقه الذي كان مرشحا لتولى إمارة إحدى الأمارات ، قد أصبح اليوم أميرا على «ميورقة» إحدى جزر الأندلس ..

ودعا صديقه ليقيم في الجزيرة الجميلة المادة . وكان الأمير الجديد ذا مكانة في الدولة ، فوعده ابن حزم بالحماية ... وشرط عليه ألا يشتغل بالسياسة ، وألا يكتب ما يثير الناس . ، وأن يتفرغ للكتابة في الدين ... فهو منها تكن مشاكل الكتابة فيه ، أقلها من الكتابة في السياسة

إن هذا هو ما يريده ابن حزم على التحقيق : السكينة ، والملجأ الأمين ، في مكان هادئ جيد ، بجوار صديق كرم ، والعودة إلى الكتابة في الفقه والأصول

لقد أضجعه التجارب والحنن والقراءات والتأملات .. وأن له أن يصوغ منهجه وآراءه الفقهية المتناثرة في مجلدات متکاملة .

وسافر إلى «ميورقة» ليقيم في أطيب حال ، في ظليل من حياة أميرها وموته .. وكان الأمير قد أعد قصرا فاخرا لابن حزم ، ووهب له بعض الجنواري الشقراوات . فهو يعرف ذوقه . وخزانة كتب جمع فيها كل ما يطيب لفقيه أديب كابن حزم ...

وكما يعتكف العابد في المحراب ، اعتكف ابن حزم في داره ، لا يخرج منها إلا لحظات لصالة الجمعة ، أو للسرور مع صديقة الأمير ، فيدارسه فيها أهتدى إليه من آراء وأفكار .

لقد خرج ابن حزم من كل مامر به بعيرة جعلها دستورا لما تبقى من حياته : «ليس في العالم مند كان إلى أن يتناهى ، أحد يستحسن المم ، ولا يريد إلا طرحه عن نفسه ، فلما استقر في نفسي هذا العلم الرفيع ، وانكشف لى ذلك السر العجيب وأنوار الله لفكري هذا الكنز العظيم بحثت عن سبيل

· موصولة على الحقيقة إلى طرد المم الذى هو المطلوب النفسى فلم أجد لها إلا فى التوجه إلى الله عز وجل بالعمل للآخرة» .

علمته الأيام فى تداولها بين الناس أن «لذة العالم بعمله ، ولذة الحكم بحكمته ، ولذة المجتهد لله عز وجل ، أعظم من كل لذة فى الحياة الدنيا .. وإن فلينمنع هو ما باقى له من العمر للذات العليا : العلم والحكمة والاجتهد لله .

وأنه ليعرف فيها عرف من العجائب «أن الفضائل مستحسنة مستثقلة ، والرذائل مستقبحة ومستحبة » .. فليكن إذن من النفر القلائل الذى يناضلون من أجل الفضائل منها تكون مستثقلة لكم مقلتها السنوات !

فها هو ذا ينصح من يلتمس عنده حسن النصيحة : «احرص على أن توصف بسلامة الجانب ، وتحفظ من أن توصف بالدهاء ، فيكتثر المتحفظون منك حتى ربما أضر ذلك بك ، وربما قتلك » .. ويقدم نصيحة أخرى : «إياك ومخالفة الجليس ، ومعارضة أهل زمانك فيما لا يضرك في دنياك وأخراك وإن قل ، فإنك تستفيد بذلك الأذى والمنافرة والعداوة . وربما أدى ذلك إلى الفساد العظيم دون منفعة أصلا . وأن لم يكن لابد من إغضاب الناس أو إغضاب الله عز وجل ، ولم يكن مندوحة عن منافرة الخلق أو منافرة الخالق ، فأغضب الناس ونافرهم ولا تغصب ربك ولا تنافر الحق » .

واعتذر للناس كافة عن حدته فى الكتابة والجدل بهرض أصحابه ولزمه ، فبدل خلقه من دعوه إلى عنف : «لقد أصابتني علة شديدة ولدت ربيا فى الطحال شديدا فولد ذلك على من الصجر ، وضيق الخلق ، وقلت الصبر ، والنفق .... واشتتد عجبى من مفارقتكى لطبعى . وصح عندي أن الطحال موضع الفرح وإذا فسد تولد ضبه » .. ولكن مع ذلك لم يذكر أن معاواة المخالفين هي التى حفزته إلى كثرة القراءة وإمعان النظر ، وقدحت ذهنه ، فأندلعت منه الأفكار .

· ما أعجب ما مر به فى حياته المصطربة من أحوال الناس ! ..

وإنه فى تلك الجزيرة المادئة من جزر الأنديلس ، ليشعر بالطمأنينة ، والسكينة ، وبالراحة ، والأمن ، فى ظل جسارة صديق يتحدى الخطر .. إنه فى إعجابه العميق ببرودة صديقه هذا الذى يحميه ويكرمه متفضلًا عليه لا راداً لجميل سابق أو لسابق عارفة .. انه فى مكانه هذا ليذكر صديقا آخر فى الزمن بعيد ، كان كاتبا ، وفت بينها المودة والمحبة وهما فى السنوات الخضر من أول العمر .. ما أبعد الفرق بين الصديقين .. !

كتب ابن حزم عن ذلك الصديقين القدميين : «كان متصلا بي ومنقطعنا إلى أيام وزارة أبي رحمة الله

عليه ، فلما وقع بقرطبة مأوقع ، وتغيرت أحوالى ، خرج إلى بعض النواحي ، فأتصل ب أصحابها وعرض جاهه . وحدثت له وجاهة وحالة حسنة . فححلت أنا تلك الناحية في بعض رحلتي ، فلم يوفى حقى ، بل ثقل عليه مكانى ، وأساء معاملتى وصحتى . وكلفته في خلال ذلك حاجة لم يقم فيها ولا قعد وأشارل عنها بما ليس مثل شغله ... فاكلفته حاجة بعدها .. » .

مها يكن من الصعبات التي مرت به ، فها هوذا الآن في لين من العيش لا ينتفعه إلا أن يكتب ، وينشغل بالعلم ، والحكمة ، والأجتهد لله عزوجل ... وكل ما حوله من راحة ، ومتاع ، ودعة ، وطيب العيش ، وجمال الطبيعة ، وصباحة الوجه ، ودفع المودة ... كل ما حوله يعينه على ما يريد من تفرغ للكتابة ..

على أنه لم يلبث غير قليل في معتكfe الرائع . ذاك ، حتى أخرجه الناس منه ، ليتلدوا عنه ، وذهب إليه بعض العلماء ليناظروه .. لقد وجد في ميورقة تلاميذ وأتباعاً معجبين به على الرغم من كل ما يثار حوله ... ولقد ناظره أحد الفقهاء يوماً فلما ظهر عليه ابن حزم قال الفقيه : « تذرني ، فإن أكثر مطالعاتي كانت على شرخ الحراس » (جمع سراج) . فقال ابن حزم « وتعذرني ، فإن أكثر مطالعاتي كانت على متابر الذهب والفضة » .

وامتدت عليه حياة صديقه أمير ميورقة إلى حيث أراد أن ينتقل من أرض الأندلس ، فذهب إلى بعض المدائن المجاورة ليناظر ويلمع ، ثم ذهب إلى قرطبة نفسها ، في موكب من الأتباع ، والدواب تحمل كتبه حيث أنتقل .

وعاد إلى ميورقة ليuento من جديد .. ولقد لقى أحد الفقهاء في بعض رحلته ، فتتلاطرأ أمام الناس ، وحين انتصر ابن حزم في المنازرة قال له الفقيه : « أنا أعظم منك همة في العلم ، لأنك إنما طلبته وأنت معان عليه فتسهر بشكاه الذهب ، وطلبته وأنا أسره بقدنيل السوق » . فرد ابن حزم : « هذا الكلام عليك لالك ، لأنك إنما طلبت العلم وأنت في هذه الحال رجاء تبديلها بمثل حالى ، وأنا طلبت في حال ماتعلمه وما ذكرته فلم أرج به إلا علو القدر في الدنيا والآخرة .. »

وعنى ابن حزم في تلك الفترة بعقل آرائه وأفكاره وصياغتها في الصورة التي سيتركها من بعده للتاريخ .

وأخذ لنفسه منهاجاً عقلياً خالصاً تأثير فيه بالإمام جعفر الصادق على الرغم من انتقامه وولاته الأموي . فأعتمد كما اعتقد الإمام الصادق جعفر بن محمد على الإستقراء والتجربة ، وبصفة خاصة في دراسته عن الأخلاق التي ضمنها رسالة صغيرة عرفت باسم حكم ابن حزم أو مداواة النفوس . ولا

ريب أنه أنداد من تراث الفكر المصري القديم ، والفكر الفارسي ، والمندى ، واليوناني ، وكانت كل تلك الآثار قد ترجمت إلى العربية منذ أجيال .. ولم يعتمد على إمامه بالفلك الإنساني فحسب ، بل على فهمه لأحوال المجتمعات التي عاش فيها ، وعلى تجاربه وحسن معرفته بالناس والحياة .

ومن هذا التجارب والدراسات والمعارف استقرأ آراءه في الأخلاق . فهو يرى أن هدف النشاط الإنساني هو دفع المم والحصول على اللذة ، وهي عنده لذة الروح .

ويرى في الفضيلة رأى أسطوراً يقول : « الفضيلة وسط بين الإفراط والتطرف ، وكلما اختلفا ملتهم ، والفضيلة بينهما ... حاشا العقل ، فإنه لا إفراط فيه .. »

وهو يرى رأياً قريباً من رأى أفلاطون في أصول الفضائل وأصول الرذائل : « أصول الفضائل أربعة ، عنها تترتب كل فضيلة وهي العدل والفهم والنجدة والجود .

وأصول الرذائل كلها أربعة ، عنها تترتب كل رذيلة ، وهي أضداد الذي ذكرنا ، وهي الجور ، والجهل ، والجبن ، والشح . والعفة والأمانة نوعان من أنواع العدل والجود .

وأفلاطون يرى أن أصول الفضائل هي : المعرفة ( وهي الفهم عند ابن حزم ) ، والشجاعة ( وهي النجدة عند ابن حزم ) ، والعفة ، والعدل . وابن حزم يضع السخاء أو الجود مكان العفة . ذلك أنه يرى أن العفة التي جعلها أفلاطون أصلاً من أصول الفضائل ، إنما تدخل في العدل والجود .

وابن حزم يدعو العلماء والفقهاء إلى التتفقه في العلوم الإنسانية .. تأثرا بالإمام الصادق الذي مارس الكيمياء ، وأسس قواعدها ، وربى تلميذه جابر بن حيان على إتقان الكيمياء ، وأنشأ له معملاً ، وظل يرعاه حتى ترك جابر بن حيان في الكيمياء تراثاً شارك في صنع التقدم الإنساني كله عبر العصور .

قال ابن حزم : « كشف العلوم النافعة يزيد العقل جودة ويعفيه من كل آفة ، وبذلك ذا العقل الصعييف » ..

وهو في رسالته عن الأخلاق يضع ضوابط للخير والشر ، وينهى إلى أن الدين ضرورة للجماعات البشرية ، فهو الذي يحميها ويشر فيها الثقة بين الأفراد ويعملها بالفضائل ، ويجعلها على الحب والخير والحق .

وهو لا يخص الإسلام وحده بذلك ، بل كل دين سماوي . قال : « ثق بالمتدين ولو كان على غير دينك . ولا تشغ بالمستخف فإن أظهر أنه على دينك ومن استخف بمحرمات الله تعالى فلا تأمنه على شيء تشقق عليه » .

فهذا الفقيه الذى كان يتعصب لآرائه حتى ليصف نفسه بالنزرق ، والذى اشتد على بعض اليهود والنصارى الذين هاجروا الإسلام ، وأخرجهم من ذمة الله ورسوله لتهجمهم على ما أوحى به الله إلى رسوله .. هذا الفقيه نفسه يطالب المسلمين ألا يتقدوا بسلم غير مرتدين ، وألا يأتمنوه على شيء ، ويدعوهم إلى الفقة بالمتدينين من اليهود والمسيحيين ، وإلى أثتمانهم على كل ماهوغال وعزيز على المسلمين . !

ذلك أنه يرى الدين أساس الفضيلة ، كل الديانات السماوية دعوة إلى الصدق ، والإخلاص ، والمحبة ، والكرم ، والمروعة ، وسائر الفضائل .. وأن كل دين سماوى إنما جاء مكملاً لما قبله ، حتى بعث الله خاتم النبيين محمد بن عبد الله عليه وسلم متمناً لـ كـارـمـ الـأـخـلـاقـ .. فـالـمـتـدـيـنـ مـنـ الـيـهـودـ وـالـنـصـارـىـ أـذـنـ بـهـ إـلـىـ مـبـادـىـ الـإـسـلـامـ وـإـلـىـ اللـهـ تـعـالـىـ مـنـ الـمـسـلـمـ غـيرـ الـمـتـدـيـنـ .. !

ومكارم الأخلاق التى جاء بها القرآن ، مصدقاً لما بين أيديهم من التوراة والإنجيل ، يمكن التعرف عليها بالعقل . وال المسلمين مأمورون بالتدبر ، والتفكير ، وإعمال العقول لمعرفة الخير والشر ، والفضائل والرذائل ... على هذا نص القرآن الكريم والسنة الشريفة . فإذا أعمل الناس عقولهم اهتدوا إلى سواء السبيل .. قال تعالى عن الصابرين : « لو كنا نسمع وأنعقل ما كنا في أصحاب السعير » .

وإذن فوظيفة العقل عنده هو هداية صاحبه إلى الخير والفضائل . أما الذين يشحذون عقولهم لاجتلاف المنافع ، غير مبالين بالفضيلة ، فهو لايسوا هم أصحاب العقل ، بل هم أصحاب الدهاء ، فالعقل لا يقود إلا إلى الحق ، والخير ... .

وهو نفسه قد آثر العلم على جميع اللذات ، وترك جمع المال إلى هموم العلم ، وكان قادراً لو أهتم بجمع المال على أن يكون من أغنى أغنىاء عصره . ولكن تصارييف الزمان علمته أن المال ، واللهة الحسية ، وكل فنون المتع إنما هي عرض زائف ، ولا يبقى إلا الحكمة والعلم . « ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً ». ويقول : « للعلم حصة في كل فضيلة ، وللجهل حصة في كل رذيلة .. » .

ورأى ابن حزم . أهل زمانه يستخفون بهن يصرف جهده عن الاستزادة من المال ، ليستزيد من العلم والحكمة فيقول في هذا : « ترك المبالغة بكلام الناس والمبالغة بكلام الخالق عزوجل هو العقل كله ، والراحة كلها . من قرر أن يسلم من طعن الناس وعيبيهم فهو مجذون . ومن حقن النظر وراضي نفسه على السكون إلى الحقائق وإن آمنته في أول صدمة كان اغتاباً له بدم الناس إياه أشد وأكثر من اغتاباً له بدمهم إياه . لأن مدحهم إن كان بحق وبلغه سري في العجب ، فأفسد بذلك فضائله ، وإن كان بباطل فسره ، فقد صار مسؤولاً بالكذب . وهذا نقص شديد .. وأما ذم الناس فإن كان بحق فربما كان سبباً في تجنبه ما يعاب عليه ، وهذا حظ عظيم لا يزهد فيه إلا ناقص ، وإن كان بباطل فمبر ،

اكتسب فضلا زائدا بالحلم والصبر... »

وهو يرى من حسن الأخلاق أن يثبت الإنسان على الفكرة والعمل ، ما اقتتنع بإنه على حق ، فإذا أكتشف أنه على الباطل ، فالثبات لجاج ، وهو مذموم ...

ثم ينتهي ابن حزم في حديثه عن الأخلاق إلى أن خير ما ي فعله المسلم ليستقيم لهخلق الفاضل ، هو التأسي برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد أمرنا الله بهذا : « لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لم ي كان يرجو الله واليوم الآخر » ثم أن الله تعالى وصفه بقوله : « وإنك لعلى خلق عظيم » .

وقد قال عليه السلام : « جئت لأتمم مكارم الأخلاق أو كما قال . »

ويقول ابن حزم عن القواعد والضوابط التي وضعها للأخلاق ، إنه « أفاد فيها » مما منحني الله تعالى من العلم بتضاريف الزمان ، والإشراف على أحواله ، حتى أتفق في ذلك أكثر عمري ، وأثرت تقدير ذلك بالمطالعة له ، والفكرة فيه على جميع اللذات التي تميل إليها أكثر النفوس ، وعلى الأزيد من فضول المال . »

يرى ابن حزم أن الإنسان عنده علم البدائية وهو علم النفس .... فالطفل يدرك بالبدائية أن الجزء أقل من الكل ، وأن المكان الواحد لا يشغل جسمان في وقت واحد . فهو يتنازع على المكان الذي يريد أن يقعد فيه ، علما منه بأن هذا المكان لا يسعه مع غيره ، وهو يدرك أنه لا يجتمع الأمران ، المتضادان ، فافت إذا وقته بغير إرادته بكى . ، حتى إذا تخلص عاد إلى القعود . وإذا كبر الطفل أدرك أن الأخبار عما هو غائب لا يصح أن تتعارض ، فإذا تعارضت شئ في الجميع أو ألغاه .. وهكذا يعرف الإنسان أخبار الأنبياء وقائع التاريخ ، فإذا كبر عقله استطاع أن يعرف الصادق من المقبول عن الرسول (ص) ، وبذلك يتحقق أن علم العقل أساس لعلم النقل .. وابتعاد الخبر مدعاة خطأ ، كالأعداد في الحساب كلما كثرت الأعداد زادت مظنة الخطأ في أجزاء العمليات والمعادلات الحسابية والجبرية عليها .

ويضيف أن هذا ليس هو سبب الخطأ فقط ، بل أن هناك عوامل أخرى تفسد النقل وهي الشهوة والإنجياز . على أن العقل يظل قادرًا على التمييز أبدا .

وهو يؤمن بكل ماجاءت به النصوص ، معملا العقل في تفسيرها بظاهرها . فإذا كانت النصوص قد أجمعوا على أن الله هو خالق كل شيء ، فلا أحد يخلق فعلا من الأفعال ، ولا كان شريك الله تعالى في الخلق ! ولكنه يناقش هذا النظر ويقول أن الأخذ به يسقط التكليف ، فلا حيلة للإنسان إذن والله يخلق أعماله ، ولا إرادة للإنسان ولا اختيار ، ولكنه الجبر قطعا .

ويصحح هذا الفهم بقوله أن الله خلق في العبد القدرة والاختيار، فهو يختار مايفعله ومايستطيعه . وبذلك يكلف الله العباد ، ويحاسبهم على أعمالهم .

ثم يتحدث عن الاجتہاد بالرأی فيذهب إلى أنه ليس من الشريعة . لأن الله لم يفرط في الكتاب من شيء ..

فلا مجال للرأى إذن لأن كل الأحكام واردة في نصوص القرآن والسنّة أو إجماع الصحابة ، فإن لم يوجد فيها الحكم فقد نص القرآن على إباحة مالم يحرمه الله ، فيكون الحكم في كل واقعة حيث لانصر هو الإباحة أو استصحاب الحال بحكم النص القرآني : « وخلق لكم ماء الأرض جميما » .

على هذه الأصول يستنبط كل الأحكام الخاصة بالعقيدة والمعاملات ، أى بالدين وبالشريعة ..

وهو في القضايا الفكرية التي تتعلق بالعقيدة يمتنع النصوص والإجماع فيجد فيها إجابة عن كل سؤال .

فقد زعم الخوارج أن مرتكب الكبيرة كافر ما به إلى النار.

وقالت المعتزلة أنه في منزلة بين المنزليتين فلا هو كافر ولا هو مؤمن .

وذهب بعض أهل السنة إلى أنه ليس مؤمنا ، ولكنه مسلم لم يخرج عن الإسلام إلى الكفر، بل خرج عن الإيمان إلى الفسق .. وبئس الإسم الفسوق بعد الأيمان .

وذهب آخرون إلى أن الحكم عليه يرجأ إلى يوم القيمة ، فإن شاء الله أخذه بالكبيرة وإن شاء عفا عنه ، وهؤلاء هم المرجنة .

أما ابن حزم فقد استنبط حكمه من النصوص ، وأفتى في مرتكب الكبيرة بفتوى بعض أهل السنة : « فن تاب بعد ارتكابه الكبيرة غفر الله له والله غفور رحيم » أما من قبل التوبة النصوح ، فإن رجحت حسناته سقطت كباقيه لأن للحسنة عشرة أمثالها إلى سبعيناتة ضعف وإلى أكثر من ذلك أضعافا مضاعفة .. هذا هو نص القرآن الكريم .. فإذا استوت حسناته مع سيئاته فهو على الأعراف يتنتظر الجنة ، ( وعلى الأعراف رجال يتظلون ) ، ثم يدخلون الجنة آخر الأمر . أما إن زادت سيئاته على كباقيه فإلى النار . غير عذر فيها أبدا ، بل يخرج منها إلى الجنة بقدر ما تولده الحسنات . »

ويعرض ابن حزم لمشكلة أخرى كانت مثاره من قبل عصره ، وهي وحدانية ذات الله تعالى .. الله صفات منفصلة عن الذات ؟ أم أن أسماء الله الحسنى هي صفاته ، وكلها هي الذات الألية . ١٩ .

قال ابن حزم : « وأما إطلاق لفظ الصفات لله عز وجل فحال لا يجوز ، لأن الله لم ينفع في كلامه المنزل على لفظ الصفات وعلى لفظ الصفة . ولا حفظ عن النبي صلى الله عليه وسلم أن الله صفة أو صفات . نعم ولجاج ذلك قط عن أحد الصحابة رضي الله عنهم ، ولاعن أحد من خيار التابعين . »

فهو يعتبر الألفاظ التي تدل على صفات إنما هي من أسماء الله تعالى ، مثل السميع البصير القادر القدير الحكيم العليم الرحمن الرحيم إلى غير ذلك من أسماء الله الحسنى . وهذا بمعنى الآية : « وله الأسماء الحسنى ... »

أما عن الألفاظ الموهة للتشبيه مثل « وجه ربك » و « يد الله » فهو يطالب من يريد أن يفهمها أن يتدارس النص القرآني في لغته ، وأن يتعود دراسة اللغة العربية ، فقد نزل القرآن بلسان عربى مبين .

ومن يدرك أسرار اللغة ، يفهم بالضرورة أن الله تعالى حين يتحدث عن وجهه ويده ، لم يرد عضواً بعينه في الجسم المحسوس ، بل أراد الذات نفسها . فعندما تقول العرب « ماملكت يميني مثلاً » فالمقصود « ماملكت أنا » لاما ملكت يدي اليمنى دون يدي اليسرى .

وهكذا فسر قوله تعالى : « ويقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام » أي يقى ربكم سبحانه فهو وحده الذي لا يفتنى . وفسر قوله تعالى : « يد الله فوق أيديهم » بقوله : « الله فوق أيديهم » . وفسر : « بل يداه مبسوطتان ينفق كيف شاء » بقوله : « الله ينفق كيف يشاء » .

ومن فهم غير ذلك فليعد دراسة أساليب العرب وآدابهم ليعرف أن للالفاظ في اللغة العربية دلالات بجازية ، وهي من دلالات ظواهر الألفاظ .

إلى هذا أنتهى ابن حزم في الخلاف الذي ظل مشترياً حول الأسماء والصفات ، وأتهم كل من لم يوافقه ، بأنه لا يعرف أساليب العرب ، ولا أسرار اللغة التي نزل بها القرآن ، ونصحه بأن يصنع ما صنع الليث بن سعد والشافعي : أن يخرج إلى بادية نجد أو الحجاز ليتقن اللغة ، وأن يحفظ أشعار القدامى وبصيغة خاصة شعر المذلين .

فأسماء الله ليس فيها ما أسماء القرآن بالتشابه ، أي لا يعرف معناه ولا حكمه . فلا مشابه في القرآن إلا الحروف التي بدأت بها بعض السور مثل ألف لام ميم ، (ألم) ، وألف لام راء (أر) وصاد (ص) ، ونون (ن) ، وقف (ق) إلى غير ذلك ، وإنما أقسم به الله تعالى مثل « والذرایات » ، و « الشمس وضحاها » و « الفجر » . ولما أقسم بهذه البلد . وليس لأحد الحق في أن يبحث في هذا المشابه ، فقد يقوده البحث إلى الزيف والضلالة ،

بهذا أمرنا الرسول (ص) واتبعه الصحابة

وقد ضرب عمر بن الخطاب عندما تولى الخلافة ، رجلا من الصحابة أسوطا ، لأنه سأله عن معنى والذاريات ، وأمر المسلمين ألا يسألوا عن شيء من متشابه القرآن لم يشرحه رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما كان بين ظهرانيهم .

فإنه لرأي فيها لم يوضحه الرسول .. وقد أمر المسلمين ألا يسألوه فيها سكت عنه ، فما أهلك من قبلهم من الأمم إلى الشقب على أثبيائهم بكثرة السؤال .

قال الله تعالى : «ما فرطنا في هذا الكتاب من شيء». فما مكان الرأي إذن ، إلا إذا قلنا أن القرآن قد فرط في شيء ؟ ... وقال الله تعالى : «يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر .» فلا حكم إلا بما قضى به الله ورسوله ، ثم أولوا الأمر .. أى الأجماع .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا ينزع العلم من صدور الرجال ، ولكن ينزع العلم بموت العلماء ، فإذا لم يبق عالم اتخذ الناس رؤساء جهالا ، فأفتقوا بالرأي فضلوا . وأضلوا » .

ثم يستدل بأقوال الصحابة في النهي عن الأخذ بالرأي، ويرفض الأحاديث والأخبار التي تواترت عن الاجتهاد بالرأي، ويتم روايتها بالضعف أو الكذب ..

• • • • •

يذهب ابن حزم إلى أن القرآن وحده هو الأصل الوحيد للشريعة ، وفيه أمر لنا باتباع الرسول . فالسنة حجة . قال تعالى مخاطب رسوله : « وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس مانزل إليهم ، فالرسول (ص) يبين القرآن ، وأهل الذكر مسؤولون عن بيان مافي القرآن والسنة . لما تعلمهوه من الرسول

والبيان كما يقول أبن حزم «يختلف في الوضوح ، فيكون بعضه جليا ، وبعضه خفيا ، فيختلف الناس في فهمه ، فيفهمه بعضهم بفهمه ، وبعضهم يتأنّى عن فهمه . كما قال على بن أبي طالب رضي الله عنه : «إلا أن يوتى رجلا فهما في دينه .»

هاهوذا يستشهد بقول الإمام على كرم الله وجهه ! .

وفي الحق أن ابن حزم ماناصب الإمام عليا العداء ..!

فابن حزم قد أعتمد في بعض فقهه على أقوصية الإمام علي ، وفتياه ، وعلى آراء حفيده الإمام جعفر الصادق ..

ولقد ذكر ابن حزم أن عمر بن الخطاب كان يستفتى على بن أبي طالب فيها يغم عليه من الأحكام ويقول : «على أقضانا» فإذا عرضت لعمر قضية ولم يجد عليها قال : «قضية ولا بآبا الحسن لها ...»

وما اعتمد ابن حزم على آراء الإمام على تكفيرا عنها سلف منه ، أو نفاقا للأمراء والعلماء من يفضلون علينا على سائر الصحابة ، بل توقيرا للإمام على ، وعرفانا بمكانته من الرسول عليه الصلة والسلام ، وبمكانه في الإسلام ، وفضله في إرساء قواعد الشريعة بعد الرسول صلى الله عليه وسلم .

\*\*\*\*\*

هو إذن يرى أن الأحكام كلها في القرآن ، والقرآن هو الذي نص على حجية السنة إذ أمرنا باتباع الرسول ، ونص على حجية الإجماع بنصيه على أهل الذكر وهم الصحابة ، فإذا لم يمكن استنباط الحكم من القرآن أو السنة أو الإجماع . فلا سبيل إلا الاستصحاب وهوبقاء الحكم المبني على النص حتى يوجد دليل من نصوص تغييره . قال تعالى : «وخلق لكم ما في الأرض جيما». وقال تعالى : «ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين .» وإذا فقد «أباح الله تعالى الأشياء بقوله أنها متاع لنا ثم حظر ماشاء . وكل ذلك بشرع . أي بنص ..»

وقاده التزامه هذه الأصول التي خالف فيها جميع الأئمة والفقهاء إلى مخالفتهم في كثير من الفروع . فاعتبر التزام أفعال رسول الله صلى الله عليه وسلم سنة يجب اتباعها ، وإن لم يصحب فعله أمر . وعاد على أتباع مالك ترك هذه السنة فقال : «اختاروا الصوم في رمضان في السفر، ورغبوا عن فعله عليه السلام في الفطر . ورغبوا عن فعله عليه السلام في التقبيل وهو صائم ، وقد غضب رسول الله صلى الله عليه وسلم على من رغب عن ذلك أو تزه عنه وخطب الناس ناهيا عن ذلك . وتركوا فعله عليه السلام في تعطيبه في حجة الوداع وأخذوا بأمر له متقدم لو كان على ما ظنوه لكان منسوحا بفعله عليه السلام ... ولا يجوز أن يقال عن شيء فعله رسول الله أنه خصوصي إلا بنص في ذلك ، لأنه عليه السلام قد غضب على من قال ذلك ، وكل شيء أغضب رسول الله (ص) فهو حرام . وذلك مذكور في حديث الأنصارى الذى سأله عن قبلة الصائم فأخبره عليه السلام أنه يفعل ذلك فقال الأنصارى «يارسول الله إنك لست مثلنا . قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر» فغضب عليه السلام وقال : «والله أنى لا تقاسم الله وأعلمكم بما آتى وما أذر» ..... وقد روت عائشة : «أنه عليه السلام كان يترك الفعل وهو يحبه ، خشية أن يفعله الناس فيفرض عليهم ، كما فعل عليه السلام في قيام الليل في رمضان ، قام ثم تركه خوفا أن يفرض علينا . وإنما قلنا هذا الثلا يقول جاهل : أتيجوز أن يترك عليه السلام الأفضل ويفعل الأقل فضلا؟ فاعلمناه أنه عليه السلام يفعل ذلك رفقا بنا ... وكذلك الشيء إذا تركه عليه السلام ولم ينه عنه ولا أمر به فهو مباح . وضرب مثلا لذلك «من أسمع زمارة الراعى ، فلو

كان حراما لما أباحه عليه السلام لغيره ، ولو كان مستحبا لفعله عليه السلام » ... وكان ابن حزم يحضر مجالس الغناء في قرطبة اعتمادا على هذا .

وروى عن عائشة أنها سألت زوج بنت أختها وكانت من أهل فتيات عصرها لا يدعها ويقبلها ، فتخرج الفتى فقالت له أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يفعل ذلك وهو صائم في نهار رمضان .

\*\*\*\*\*

وعاد أتباع مالك يغلوون الأيقاع به في كل فقهه وأصوله ... وذهبوا إلى أنه يخالف إجماع أهل المدينة ، وإجماع أهل المدينة سنة ، لأنهم نقلوا عن الرسول عليه الصلاة والسلام مئات عن مئات وآلافا عن آلاف ، فهي سنة أقوى من النقل عنه عليه السلام واحدا عن واحد .. وهذا هو رأي الإمام مالك نفسه .

ولم يصبر ابن حزم على إتهامهم إياه بأنه يخالف السنة ، فانقض يسفة من يقول بهذا ، ويرد حجة الإمام الليث بن سعد في رده على الإمام مالك أن الصحابة وفي صدورهم علم الدين والشريعة ، تفرقوا في الأمصار يعلمون الناس ، ومלאوا المداign ، فليس لأهل المدينة امتياز عن أهل الكوفة التي أقام بها الإمام علي وعبد الله بن مسعود ، ولا عن أهل مصر التي أقام بها عبد الله بن عمرو بن العاص . وغيره من الصحابة ، ولا عن غيرها من أقطار الأرض التي عاش فيها صحابته .. وكان علم بعضهم أغزر من علم الذين بقوا في المدينة فضلا عن السابقة في الإسلام .

وأضاف بعد ذلك أن أهل المدينة ساروا على خلاف سنة الرسول في كثير من أمورهم ، فعندما تولى عمر بن الخطاب ، أنكر على حسان بن ثابت انشاده الشعر في المسجد ، فلما قال له حسان : « قد أنشدت فيه وفيه من هو خير منك » ، وذكر له رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فسكت عمر ومضى .

فهذا يبين أنه لاحجة في قول أحد ولافي عمل بعد النبي عليه الصلاة والسلام .

ثم أن ابن حزم انقض على أهل المدينة انقضاضا : « فأى برهان على أن المدينة أفضل البلاد كما يقولون ؟ أن مكة هي أفضل البلاد بنص القرآن . ومع ذلك ففضلها لا يوجب اتباع أهلها دون غيرهم . ولا يختلف مسلمان في أنه كان في المدينة منافقون ، وفيها شر الخلق . قال تعالى ( ومن أهل المدينة مردوا على النفاق لا تعلمهم نحن نعلمهم سنتبهم مرتين ثم يردون إلى عذاب عظيم ) . وقال تعالى : ( إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار ) . وكان فيها فساق كما في سائر البلاد ، وزناة وكذابون

وشربة خور وقدفة كما في سائر البلاد ولافرق . وأهلها اليوم — وإنما الله وإنما إليه راجعون — غلة الروافض الكفرا . انترنون لموالء فضلاً يوجب أتباعهم من أجل سكانهم المدينة ؟ فإن قالوا ( لا ، لكن إنما نوجيز الحجة بالفضلاء من أهل المدينة ) ، ( قلت لهم ومن أين خصصتم فضلاء المدينة دون فضلاء غيرهم من البلاد ، وهذا مالاً سبيل إلى وجود برهان على صحته أبداً وأيضاً فالمدينة فضلها باق كما كان لا يتغير ولن يتغير أبداً ، وأهلها أفسق الناس . فقد بطل أن يكون للبعثة حكم في وجوب اتباع أهلها ، وصح أن الفاضل فاضل حيث كان ، والفاقد فاسق حيث كان ) » واتهم القائلين بتفضيل أهل المدينة بأنهم « تابعوا خطأً مالك ، وقد ولد مالك بن أنس سنة ثلث وتسعين من المجرة بعد موت رسول الله صلى الله عليه وسلم بثلاث وثمانين سنة ، فأخبروني عن أى مذهب كان الناس قبل مالك ؟ ... فقد ولها من الفساق كالذين ولوا البصرة والكوفة كالحجاج وخالد القسري ( الذي ذبح في المسجد أحد الفقهاء من معارضيه يوم عيد الأضحى وقال عن ذبحه إنه أضحية ! الدماء والأموال والآحكام ، وموضعهم من الفسق بالدين بحيث لا يخفى ..... ولافرق بين إجماع أهل المدينة وأهل الكوفة وأهل البصرة وأهل الفسطاط هذا إن أرادوا من كان بها من الصحابة والتابعين » وتساءل : « أكان بالمدينة من هو أفضل من على بن أبي طالب وعبد الله بن مسعود رضي الله عنهما وقد أقاما بالكوفة ؟ »

ورد على اتهامه بالكفر لأنّه يخالف إجماع أهل المدينة فقال : « إنّ كان مخالفة أهل المدينة كفرا ، فلتتحكوا بالكفر على أمير المؤمنين على بن أبي طالب والصحابي الجليل عبد الله بن مسعود رضي الله عنها فقد خالفا إجماع أهل المدينة » !

ولقد قاده الاقتصاد في استبطاط الأحكام على ظاهرة النص إلى مخالفة إجماع الفقهاء وأئمة المذاهب من قبله .

— فهو يرى أن المرأة تستطيع أن تخرج وحدها دون اصطحاب الزوج أو أحد المحارم على الرغم مما ذكره في طوق الحمامنة عن خمس حاجات عابدات مجتهدات زاهدات في الدنيا اقترن الخطبة مع أحد ملاхи السفينة وهن في طريق العودة في بحر القلزم ( البحر الأخر ) .

— لا يجوز ابن حزم فسخ الزواج بحكم القاضي لعيوب في الزواج ولا لعدم النفقة ولا للضرر ولا لغيبة الزوج لأن أمر الطلاق للزوج ، وإذا فكل من فرق زوجين بغير قرآن أو سنة فقد دخل في صفة الذين ذمهم الله تعالى بقوله : « فيتعلمون منها ما يفرقون به بين المرء وزوجه ونحو ذلك من هذا ». على أنه يقرر أنه يجبوز الحكم بالطلاق في حالة واحدة هي ظهور عيوب بعد اشتراط السلامة من العيوب . وما عدا هذا الشرط فشروط الزواج باطلة : لأن شرط الزوجة لا يتزوج عليها أو أن تكون العصمة بيدها أو لا يسافر ويتركها .

— اليدين بالطلاق باطل ، فلا يقع طلاق والخالف أئم لا يؤمن إلا بالله تعالى

- المقود حكم حكم الحى حتى ثبتت وفاته ثبتوا قاطعا .
- الزوجة عند عجز الزوج عن الانفاق عليها لا تطلق ، بل ينفق عليها ولـى الأمر ان كانت فقيرة ، من أموال الصدقات ، فإن كانت غنية وجب عليها أن تنفق هـى على نفسها وعيالها وعلى زوجها .
- كل تصرفات المريض مرض الموت من وصية وهبة وطلاق وزواج صحيحة ، لا يقيد عليها لعدم ورود نص بنـها أو تقـيدـها . وبعـض الصحـابة لا يـعترـف بـطـلاقـ المـريـضـ مـرضـ الموـتـ ، ويـعـتـبرـهـ فـرـارـاـ منـ المـيرـاثـ .. وـيـسـتـشـهـدـ بـفـتـياـ للـإـلـامـ عـلـىـ بـنـ أـبـىـ طـالـبـ ، فـقـىـ عـهـدـ عـشـمـانـ طـلـقـ أـحـدـ الـأـنـصـارـ الـأـغـنـيـاءـ زـوـجـةـ أـنـصـارـيـةـ ، وـكـانـتـ زـوـجـتـهـ الثـانـيـةـ بـنـتـ عـمـ عـلـىـ بـنـ أـبـىـ طـالـبـ ، فـلـمـ مـاتـ الزـوـجـ أـرـادـ زـوـجـتـهـ الثـانـيـةـ أـنـ تـخـصـ وـحـدـهـ بـمـيرـاثـ الزـوـجـ لـأـنـ طـلـقـ الـأـوـلـىـ فـىـ مـرـضـ مـوـتـهـ ، فـاستـشـارـ عـشـمـانـ أـبـىـ عـفـانـ رـضـىـ اللـهـ عـنـهـ فـىـ هـذـاـ ، فـأـتـاهـ عـلـىـ بـنـ أـبـىـ طـالـبـ فـأـشـارـ بـأـنـ الـمـلـقـةـ تـرـثـ لـأـنـ الزـوـجـ يـفـرـ منـ قـوـاعـدـ الـمـيرـاثـ ، فـشـرـكـ عـشـمـانـ بـيـنـ الزـوـجـيـنـ إـلـاـ رـاجـعـتـهـ الزـوـجـ الثـانـيـةـ قـالـ هـاـ : «ـ هـذـاـ رـأـىـ أـبـىـ عـمـكـ ».   
 اعتبار الوصية فرض لازم لقوله تعالى : «ـ كـتـبـ عـلـيـكـ إـذـاـ حـضـرـ أـحـدـكـ الموـتـ إـنـ تـرـكـ خـيـرـاـ الـوـصـيـةـ لـلـوـالـدـيـنـ وـالـأـقـرـبـيـنـ بـالـمـعـرـوفـ حـقـاـ عـلـىـ الـمـتـقـيـنـ .ـ »ـ وـلـاـ يـوـجـدـ نـصـ يـفـسـخـ هـذـاـ الـحـكـمـ .ـ وـلـكـنـ يـشـتـرـطـ أـلـاـ تـضـرـ الـوـصـيـةـ بـالـوـرـثـةـ وـيـقـولـ فـيـ هـذـاـ «ـ فـرـضـ عـلـىـ كـلـ مـسـلـمـ أـنـ يـوـصـىـ لـقـرـابـتـهـ الـذـيـنـ لـاـ يـرـثـونـ ،ـ فـإـنـ لـمـ يـفـعـلـ نـفـذـ مـنـ مـاـكـانـ يـجـبـ عـلـيـهـ أـدـاـوـهـ ،ـ وـعـلـىـ وـلـىـ الـأـمـرـ تـفـيـدـهـ فـىـ حدـودـ الـثـلـثـ ».ـ وقدـ أـخـذـ الـقـانـونـ الـمـصـرـيـ بـرـأـيـ أـبـىـ حـزـمـ فـىـ فـرـوعـ الـوـلـدـ الـذـيـ يـمـوتـ فـىـ حـيـاةـ أـبـيـهـ .ـ وـرـأـيـ أـنـ تـكـونـ بـمـقـدـارـ نـصـيـبـ الـوـالـدـ الـمـتـوـفـىـ عـلـىـ أـلـاـ تـرـيدـ عـلـىـ الـثـلـثـ .ـ
- حقوق الله في التركة مقدمة على حقوق العباد ، وأول حقوق الله هي الزكاة المتأخرة .. ويقول : «ـ أـنـ حـقـوقـ اللـهـ أـحـقـ بـالـقـضـاءـ مـنـ غـيرـ تـخـرـيجـ وـجـبـ الـأـخـذـ بـظـاهـرـ النـصـ .ـ »ـ .ـ وـهـاجـمـ الـأـمـةـ الـأـرـبـعـةـ لـقـوـهـمـ بـغـيرـ هـذـاـ .ـ وـيـصـفـ رـأـيـ مـالـكـ بـأـنـهـ «ـ أـفـجـشـهـاـ تـنـاقـضاـ وـأـوـحـشـهـاـ شـدـةـ وـفـسـادـاـ »ـ لـأـنـ مـالـكـ قـدـ حـقـقـ الـعـبـادـ ،ـ أـمـاـ عـنـ حـقـ اللـهـ فـالـلـهـ غـفـورـ رـحـيمـ .ـ وـيـقـولـ أـسـتـاذـنـاـ الـمـغـفـولـهـ الشـيـخـ خـمـدـ أـبـوـ زـهـرـةـ تـعـلـيقـاـ عـلـىـ قـوـلـ أـبـىـ حـزـمـ فـىـ مـالـكـ «ـ إـنـاـ لـنـسـتـغـفـرـ اللـهـ تـعـالـىـ لـنـاـ وـلـهـ عـلـىـ نـقـدـهـ لـقـوـلـ مـالـكـ بـهـذـهـ الـلـغـةـ وـنـقـلـنـاـ لـهـ .ـ ».ـ أـوجـبـ أـبـىـ حـزـمـ اـعـطـاءـ الـأـقـارـبـ وـالـيـتـامـىـ عـنـدـ قـسـمـةـ التـرـكـةـ إـذـاـ حـضـرـواـ عـنـدـ الـقـسـمـةـ .ـ وـذـلـكـ بـمـاـ لـاـ يـجـحـفـ بـحـقـوقـ الـوـرـثـةـ .ـ وـولـىـ الـأـمـرـ مـلـزـمـ بـأـجـبـارـ الـوـرـثـةـ عـلـىـ إـعـطـاءـ أـوـلـئـكـ مـاـتـطـيـبـ بـهـ نـفـوسـ الـوـرـثـةـ ..ـ وـذـلـكـ أـخـذـاـ بـظـاهـرـ نـصـ الـآـيـةـ :ـ إـذـاـ حـضـرـ الـقـسـمـةـ أـوـلـوـ الـقـرـبـيـ وـالـيـتـامـىـ وـالـمـساـكـينـ فـارـزـقـوـهـمـ مـنـ وـقـولـهـ مـلـمـ قـوـلـاـ مـعـرـوفـاـ »ـ .ـ ثـمـ يـضـيـفـ :ـ «ـ أـمـرـ اللـهـ تـعـالـىـ فـرـضـ لـأـيـمـلـ خـلـافـهـ .ـ .ـ وـعـنـ أـبـىـ عـبـاسـ :ـ يـزـعـمـونـ أـنـ هـذـهـ الـآـيـةـ نـسـختـ (ـ إـذـاـ حـضـرـ الـقـسـمـةـ أـوـلـوـ الـقـرـبـيـ )ـ فـلـاـ وـلـلـهـ مـاـنـسـختـ ،ـ وـلـكـنـاـ مـاـ تـاـونـ النـاسـ بـهـ .ـ .ـ هـىـ وـاجـبـةـ ،ـ وـيـعـلـمـ بـهـ ،ـ وـقـدـ أـعـطـيـتـ بـهـ .ـ وـيـرـدـ أـبـىـ حـزـمـ عـلـىـ مـنـ فـهـمـوـاـ أـنـ الـأـمـرـ فـيـ الـآـيـةـ الـكـرـيـةـ لـيـسـ أـمـرـ وـجـوبـ بـقـوـلـهـ :ـ «ـ .ـ .ـ .ـ لـاـ يـفـهـمـ

أحد من (أ فعل) أن شئت فلا تفعل .. وليس وجود آيات قام البرهان على أنها منسوخة أو مخصوصة أو أنها ندب ، بموجب أن يقال — فيها لادليل بذلك فيه — هذا ندب أو هذا منسوخ أو هذا مخصوص ، فيكون قوله باطلًا . »

ابن حزم لا يعدد قدر ما يتبين أن يأخذه أولو القربى واليتامى والمساكين إن حضروا قسمة التركة ، بل يترك ذلك لما تطيب به نفوس الورثة ، فإن لم يفعلوا ، فرض ولى الأمر ما يراه مناسباً وعادلاً ..

يجيز ابن حزم لولي الأمر أن يفرض على التركة حصة للقراء والمساكين وإن لم يحضرها القسمة ، على أن تنفق عليهم هذه الحصة . وأحق القراء والمساكين بهذه الحصة من كان ذا قربى .. وقد أخذ القانون المصرى بهذا النظر مع تعديل يسير في فرض ضريبة الترکات ورسم الأيلولة .

الأشهاد على البيع واجب شرعاً ... قال في ذلك ابن حزم : « .... وفرض على كل متبايعين لما قبل أو كثراً أن يشهدوا على تباعيهم رجلين أو رجلاً و امرأتين من العدول ، فإن لم يجدا عدولاً سقط فرض الاشهاد ، فإن لم يشهدوا وهما قادران على الإشهاد فقد عصيا الله والبيع تام ، فإن كان البيع بشمن إلى أجل مسمى ، فرض عليهما مع الاشهاد فقد عصيا الله والبيع تام ، فإن لم يكتباه فقد عصيا الله عزوجل ، والبيع تام . فإن لم يقدرا على الكتابة ، فقد سقط عنها فرض الكتابة » . وابن حزم يستتبع هذا الحكم من ظاهر الآية الكريمة : « يا أيها الذين آمنوا إذا تدعيتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه ، ولويكتب بينكم كاتب بالعدل ، ولا يأب كاتب أن يكتب كما علمه الله فليكتب ، وليملل الذي عليه الحق ، ولويتق الله ربه ولا يبخس منه شيئاً ، فإن كان الذي عليه الحق سفيهاً أو ضعيفاً أو لا يستطيع أن يمل هو فليملل وليه بالعدل ، وأستشهدوا من رجالكم ، فإن لم يكونوا رجلين فرجل وامرأتان من ترضون من الشهادة أن تضل أحداًها فتذكرة أحداًها الأخرى ، ولا يأب الشهاده إذا مادعوا ، ولا تسأموا أن تكتبوه صغيراً أو كبيراً إلى أجله ، ذلكم أقسط عند الله وأقوم للشهادة ، وأدنى لا ترتباوا ، إلا أن تكون تجارة حاضرة تدير ونها بينكم ، فليس عليكم جناح لا تكتبوها ، وأشهدوا إذا تباعيم ، ولا يضار كاتب ولا شهيد ، وإن تفعلوا فإنه فسوق بكم ، وأنقوا الله و يعلمكم الله والله بكل شيء عليم » .

ويقول ابن حزم بما جاء في نص الآية : هذه أوامر مغلظة مؤكدة لاتحتمل تأويلاً ويشريح أحكام الآية : « أمر بالكتابة في المديونة إلى أجل مسمى ، وبالإشهاد في التجارة المدار ، كما أمر الشهاده ألا يأتوا أمراً مستوياً ، ثم أكد تعالى أشد تأكيد ، وبهذا عن أن نسأم في كتابة ما أمرنا بكتابته صغيراً كان أو كبيراً . وأخبر تعالى أن ذلك أقسط عند الله وأقوم للشهادة وأدنى لا نرتاب ، وأسقط الجناح (الأثم) في ترك الكتابة خاصة — دون الأشهاد — في التجارة المدار ، ولم يسقط الجناح (الأثم) في ترك الكتابة فيها كان ديناً إلى أجل .. فقد قال تعالى بعد أن فرض الكتابة : « إلا أن تكون تجارة حاضرة تدير ونها بينكم ،

وجمهور الفقهاء يرون أن الإشهاد في البيع والكتابة في التدابير ، والكتابة في الثمن الموجل ليست من الفروض الواجبة بحيث يأثم تاركها ، لأن النبي صلى الله عليه وسلم لم يصنع ذلك ، وقد اشترى فرسا من أعرابي ، ولم يشهد ولم يكتب ، فباع الأعرابي الفرس مرة ثانية لمشتري آخر بشمن أعلى .. .  
ويرى ابن حزم أن خبر الأعرابي ضعيف السند ، وهو إن صحي دليل على وجوب الإشهاد والكتابة ، ويعجب أن تكون هذه القصة قد وقعت قبل نزول الآية ، ولعلها هي ومثلاتها كانت من أسباب نزول الآية ..

— لا يجوز اختيار الشرط وهو حق البائع أو المشتري في الفسخ خلال مدة معينة . ويقول ردا على جمهور الفقهاء الذين ذهبوا إلى جواز هذا الخيار : « كل بيع وقع بشرط اختيار للبائع ، أو للمشتري أو لها جميعا ، أو لغيرها ، خيار ساعة أو يوم أو ثلاثة أيام ، أو أكثر أو أقل ، فهو باطل . » .... ويفضف : « كل ذلك شرع لم يأذن الله تعالى به ، ولا أوجبه سنة .... وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ( كل شرط ليس في كتاب الله فهو باطل ولو كان مائة شرط ) .... »  
وكان دليلا جمهور الفقهاء على إجازة الشرط أن أحد الصحابة كان يغبن في البيع والشراء ، فأمره الرسول (ص) لا يعقد صفة حتى يشترط لنفسه الخيار في إبرامها أو فسخها خلال ثلاثة أيام ليشير من هو أعرف منه بأمور التجارة .

فرد ابن حزم لأن هذا حكم خاص بحالة ذلك الصحابي ، ولا يجوز اعتباره حكما عاما .

— لا تحرم إلا بنص فا هو ذريعة إلى حرام ليس حراما ، وقد نهى الله عن تحريم مالم يحرمه هو ، والا كان هذا التحريم افتراه على الله ... قال تعالى : « قل أرأيتم ما أنزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حراما وحللا قل الله أذن لكم ألم على الله تفتررون » .

ولكن الإمام مالك والإمام أحمد بن حنبل ومن اعتنق مذهبهم يقسمون الشريعة إلى مقاصد وذرائع . فالمقاصد هي هدف الشريعة ، وهي تحقيق المصلحة ودرء المفسدة . والذرائع هي الوسائل أو الوسائل المؤدية إلى المقاصد . والذرائع ترتبط بالمقاصد تحليلًا وتمرعا . وعلى هذا فلا يجوز بيع السلاح في وقت الفتنة ، ولا يصبح البيع الذي يخفى ربا أو يؤدى إليه ، ويبطل الزواج المؤقت الذي يكون وسيلة وذريعة لتحليل الزوجة المطلقة ثلاثة . فكل تصرف قصد به الحرام أو أدى إلى مفسدة يعتبر باطلًا وقد أمر به النبي عليه الصلاة والسلام لا تقطع يد السارق في الغزو حتى لا يفر إلى العدو

ويرد ابن حزم على كل هذا بقوله : « أن السنة يجب أن تطبق لأنها سنة دون محاولة تغريب أو تعليل أو قياس عليها فهي نص واجب اتباعه بظاهره ، أما من حكم . باحتياط أو بشيء خوف ذريعة إلى مالم يكن بعد ، فقد حكم بالظن ، وإذا حكم بالظن فقد حكم بالكذب والباطل ، وهذا لا يحمل ، وهو حكم بالموى وتجنب للحق ، نعوذ بالله من كل مذهب أدى إلى هذا . مع أن هذا المذهب في ذاته متخاصد متناقض ، لأنه ليس أحد أولى بالتهمة من أحد ، وإذا حرم شيئا حلال خوف تذرع

إلى حرام فليخصل الرجال خوف أن يزنوا ، وليقتل الناس خوف أن يكفروا ، ولتقطع الأعصاب خوف أن يعمل منها الخمر . وبالجملة فهذا المذهب أفسد مذهب في الأرض ، لأنه يؤدي إلى إبطال الحقائق كلها ، وبالله تعالى التوفيق . »

وهكذا استنفر من جديد أتباع الإمام مالك ، واستنفر أيضاً أتباع الإمام أحمد بن حنبل ، بوصفه فاستنكروا الزعم بأن مذهب كل من الإمامين هو أفسد مذهب في الأرض ! .. وغلظوا مع ابن حزم واشتبهوا عليه

تصح شهادة الأصول والفروع والأزواج ما داما عدوا . وهاجم الفقهاء الأربعه أصحاب المذاهب الذين لم يجيزوا هذه الشهادة ، حرصا على العدل ودفعا لشبهة الأخيار ، فقال عن الفقهاء أصحاب المذاهب : « لقد أداهم هذا الأصل الفاسد إلى أن حكوا في الشيء بالتهمة التي تحمل ، فأبطلوا شهادة العدول لأبائهم وأبنائهم ونسائهم وأصدقائهم ، تهمة لهم بشهادة الزور والحييف . والحكم بالتهمة حرام لا يحمل ، لأن حكم بالظن ، وقد قال تعالى عاتباً لقوم قطعوا بظنيهم : ( وظنتم ظن السوء وكنتم قوماً بوراً ) وقال تعالى عاتباً قوماً قالوا : ( إن نظن إلا ظناً وما نحن بمسئلين ) قال تعالى : ( وما هم به من علم إن يتبعون إلا الظن وإن الظن لا يغني عن الحق شيئاً ) وقال تعالى : ( أن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم المهدى ) وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ( الظن أكذب الحديث ) ..

ها هو ذا من جديد يسرف في المجرم على الأئمة الكبار أصحاب المذاهب ، ويستثير أتباعهم ضده ، ومجلب عليه سخط أهل الورع من يروعهم أن يتهم الأئمة مالك وأبي حنيفة والشافعى وأحمد ، بالتناقض والتخاذل والتفاسد .. وأنهم يتبعون هوى الأنفس . !

— وما خالف فيه إجماع الفقهاء قوله أن العبد كالحرفي حق الزواج بأربع . وقد اقترب من الإمام مالك في هذا النظر ، ولكنه هاجمه حتى في اتفاقه معه .. ! واتهم الإمام مالك بن أنس بالتناقض ، لأنه يخالف في حكمه هذا أقوالاً لبعض الصحابة لم يعرف لها مخالف . ومالك يعتبر هذا إجماعاً يجب أتباعه فكيف يخالفه ؟ وكان أخرى بمالك في رأي ابن حزم لا يعتبر إجماعاً إلا ما توأرت الأخبار الصحاح على أن الصحابة أجمعوا عليه يقيناً .

وعلى أيه حال فقد خالف ابن حزم آراء مالك وغيره من الأئمة أصحاب المذاهب فيما عدا هذا من أحكام العبد ، فأعترف له بحق تملك الجنوار والتسري بين ، وبكل حقوق الملكية . لأن حق الملكية يرتبط بالإنسانية لا بالحرفي ، ولا شأن له بما يطرأ على الإنسان من عبودية . فالعبد والحر متتساويان ، وقد وجه إليها الله تعالى خطابه في القرآن الكريم بلا تفرقة فقال : ( يا أيها المؤمنون ) ، أو ( يا أيها الناس ) ، ولم يقل يا : ( أيها الأحرار ) ولا : ( يا أيها العبيد ) ، وعلى هذا جرت السنة ، فللعبد كل حقوق الأحرار ، ولا فرق بينها إلا فيما جرت به السنة في الحدود ، فعلى العبد نصف

ماعلى الحرمن عقوبات ، وليس لأحد أن يشرع مع الله ورسوله أبو بعد القرآن والسنّة . والقول بأن للعبد نصف مالله خروج على الشرع .

عندما أثار ابن حزم حقوق العبيد ، قامت عليه القيامة من جديد .. فها هوذا يدعوا إلى المساواة بين العبيد والسادة بل يميز العبيد فيفتى بأن لهم كل حقوق السادة ونصف ماعلى السادة من عقوبات . !

فهو إذن يثير العبيد على سادتهم !

ومن قبل أثار العاملين في الأرض على الملائكة ! .. والنظام في الأندلس يقوم على وضع أدنى للفلاحين ، والعاملين في الأرض والعبيد .. !

غير أن ابن حزم يرى أن هذا كله ليس من الإسلام في شيء ، فهو خروج صريح على نصوص القرآن الكريم وسنة الرسول صلى الله عليه وسلم .

واحتشد على ابن حزم كل خصومه من الأمراء والكبار والوزراء الذين جهربنتقدهم ، ومن العلماء والفقهاء الذين عنت عليهم في النم ، واحتشد معهم كل من استفزتهم حدته في الحديث عن الأئمة أصحاب المذاهب ..

تكاثر الخصوم على ابن حزم فدبوا له أمرا ، وأغرقوا به الحكام لينزلوا به جزاء الخارج عن الدين ، ومثير الفتنة !

لم يعد له من أحد في الأندلس إلا بعض شباب العلم وطلابه ، ولا أمير ميورقة .

أما هؤلاء الشباب فكانوا محبوبين بمحبته ، ون الصاعة بيانه ، وشدة تمسكه بالقرآن والسنّة ، وحرصه على لا يستتبع الحكم أو يستخلص الفتيا إلا من ظاهر النص ، في وقت شيع البدعة والتقليد وتجمد العقل .

وما كان الشباب يغضبون من عنفه على أئمة المذاهب ، لأن سقم الفكر ، وإفلات الملوك ، والضحاكة ، قادت البعض إلى تقدير هؤلاء الفقهاء ، فنسوا أنهم بشر يخطئون ويصيبون !! فكان لا بد للناس من فقيه عالم ، كابن حزم يصدّم جهودهم ، ويحرك صمت الحياة الفكرية الرتيبة الآمنة من حوصلهم ، وينبه الغافلين والمقلدين ، ويعيدهم إلى القرآن والسنّة ، ويلزمهم اتباع النصوص !

ومهما يكن من عنف ابن حزم الذي وصل إلى حد النزق كما عبر عنه نفسه ، فما كان هذا كله ليصرف عنه الشباب ، بل كان يشكل ما في أعماقهم من فورة الحمية والغيرة والحماسة .. !

وأما النصير الآخر الذى كان لابن حزم غير هؤلاء الشباب ، فهو أمير ميورقة صديق ابن حزم وما كان لأحد أن ينال من ابن حزم وهذا الأمير يبسط عليه رعايته .. وهو أمير شديد المروعة ، عظيم النجدة ، وهو بعد صاحب نفوذ كبير وعلاقات حسنة ، فالكل يخطب وده .

غير أن أمير ميورقة مات فجأة ، وهو أنضر ما يكون عافية ، وأشد ما يكون قوة .. !

وأصبح ابن حزم فى ميورقة بلا ولى ولا نصير: الأحزان تمزق منه القلب ، والتفكير مضطرب ، وهو يتوجس خيفة مما عسى أن يصنعه به الأعداء من الأمراء ، والفقهاء ، وكبار الملوك ، وتجار العبيد ، وكل من أسفطهم عليه من قبل !

ولتكنه استمسك ، واعتصم بالصبر والمصايرة ، وعاد إلى حلقته يعلم الشباب ويخاورهم ويخاورونه كما تعود .

وجد العزاء فى العمل ، وفي العودة إلى الحلقة ، فما من شيء يشرح صدره للحياة كنعمة التعبير عن أفكاره بالكتابة ، وكاجلوس إلى الشباب .. فهو يجد فيهم أمله فى الإصلاح .. !

ما من انسان فى الأندلس يرتاح إليه بعد ، كما يرتاح إلى هؤلاء الشباب الذين يأنس فىهم الصفاء ، والطهر ، والغيرة ، وصدق المودة ، والشوق المحتمم إلى الخلاص ، وإلى بناء عالم من العدالة والحق والخير على دعائم من تعاليم الإسلام !

انهم ليりدون أن يعرفوا الطريق ، وانى ليحمد الله أن قيضه لهم ليقودهم على الحق وما كان عنده ليغير عليه قلوب الشباب ، بل كان على النقيض ، فهو يوافق ما فى أغوارهم من احتدام ، ويشاكل ما فى طبيعتهم الفتية من غيرة للحق وشدة على الباطل . وكان فى هذا العنف رجع لحماسة أولئك الشباب .

وأما النصير الآخر الذى كان يعتزم ابن حزم مع هؤلاء الشباب ، فهو صديقه أمير ميورقة . وما كان لأحد أن ينال من ابن حزم والأمير يبسط عليه كل حياته ورعايته ! .. وهو أمير شديد المروعة ، عظيم النجدة ، واسع النفوذ ، قوى الشكيمة ، يخطب وده سائر الأمراء والفقهاء والرؤساء .

وكان ابن حزم يشعر بالطمأنينة والسكينة تحت رعايته ، ويستجم من عناء العمل فى مجلسه . وكان الأمير غريز العلم ، ظريفا ، طيب المعشر ، حلو الأحاديث ، وكان يسرى عن ابن حزم برواية ما يحفظ من طرائف وأخبار عن منافسيه من الفقهاء ، وقد روى لابن حزم قصة صوفى من أهل الأندلس ، عرف بالعداء لابن حزم وبالصلاح وكثرة السياحة والتجوال . وقد سافر الصوفى إلى مصر

في بعض سياحاته وعندما عاد روى للأمير عجبًا عن رحلته تلك : « كنت بمصر أيام سياحتي فتاقت نفسي إلى النساء . فذكرت ذلك لبعض أخوانى فقال لي : « ها هنا امرأة صوفية لها بنت مثلها جليلة قد ناهزت البلوغ . فخطبها وتزوجتها ، فلما دخلت عليها وجدتها مستقبلاً القبلة تصلي ، فاستحييت أن تكون صبية في مثل سنها تصلي وأنا لا أصلى ، فاستقبلت القبلة وصليت ماقدر لي ، حتى غلبتي عيني ، فنامت في مصلاها ، وفت في مصلى . فلما كان في اليوم التالي ، كان مثل ذلك أيضًا ، فلما طال الأمر علّ ، قلت : « ياهذه لا إجتماعنا معاً ؟ قالـت : « أنا في خدمة مولاي ، ومن له حق فـا أمنـه . » فاستـحيـتـ منـ كـلامـهـاـ ، وـتمـاديـتـ عـلـىـ أمرـيـ نـحوـ الشـهـرـ ، ثـمـ بدـاـ لـىـ السـفـرـ قـلـتـ هـاـ : « يـاهـذـهـ » قـالـتـ : « لـبـيكـ » ، قـلـتـ : « إـنـيـ أـرـدـتـ السـفـرـ » ، قـالـتـ : « مـصـاحـبـاـ بـالـعـافـيـةـ » . فـقـتـ فـلـمـ صـرـتـ عـنـدـ الـبـابـ قـامـتـ فـقـالتـ : « يـاسـيـدـيـ كـانـ بـيـنـنـاـ فـيـ الدـنـيـاـ عـهـدـ لـمـ يـقـضـ اللـهـ بـتـامـهـ ، عـسـىـ فـيـ الجـلـنـةـ إـنـ شـاءـ اللـهـ يـقـضـيـ بـتـامـهـ » . فـقـلتـ لـهـ : « عـسـىـ اللـهـ » ، « أـسـتـودـعـكـ اللـهـ خـيرـ مـسـتـودـعـ » فـتـوـدـعـتـ مـنـهـاـ وـخـرـجـتـ ثـمـ أـكـمـلـتـ سـيـاحـتـهـ فـيـ بـلـادـ اللـهـ وـعـدـتـ إـلـىـ مـصـرـ بـعـدـ سـتـيـنـ فـسـأـلـتـ عـنـهـاـ فـقـيلـ لـهـ : « هـىـ عـلـىـ أـفـضـلـ مـاتـرـكـتـهاـ مـنـ الـعـبـادـةـ وـالـأـجـتـهـادـ » فـلـمـ أـفـكـرـ فـيـ زـيـارـتـهـ . . . »

هـكـذـاـ كـانـ الـأـمـيرـ يـسـامـرـ صـدـيقـةـ أـبـنـ حـزمـ وـيـخـفـ عـنـهـ بـرـوـاـيـةـ مـاـ يـعـرـفـ فـيـ الـطـرـائـفـ عـنـ خـصـومـهـ مـنـ الفـقـهـاءـ وـالـمـتصـوفـينـ .

كـانـ الـأـمـيرـ يـوـسـىـ ، وـيـسـرىـ عـنـهـ ، وـيـصـونـهـ مـنـ عـادـيـاتـ الـخـصـومـ ، وـمـكـائـدـ الـحـسـادـ ، وـبـغـىـ الشـاثـنـيـنـ .

ولـكـنـ الـأـمـيرـ مـاتـ فـجـأـةـ ، وـهـوـ أـنـفـرـ مـاـ يـكـونـ عـافـيـةـ وـأـشـدـ مـاـ يـكـونـ قـوـةـ ، وـأـعـذـبـ مـاـ يـكـونـ ظـرـفـاـ . !  
وـأـحـسـ أـبـنـ حـزمـ ، كـأـنـمـاـ يـدـ باـطـشـةـ تـلـوـيـ عـنـقـهـ ، وـتـدـقـ عـظـامـهـ ، وـتـلـقـىـ بـهـ بـغـتـةـ فـيـ عـرـاءـ مـخـيـفـ لـاظـلـ فـيـهـ وـلـأـمـاءـ ، وـلـاشـئـ غـيرـ جـواـحـ الطـيرـ ، وـالـوـحـشـ ، وـالـهـوـامـ السـامـةـ . !!

لـقـدـ أـصـبـعـ الشـيـخـ فـيـ مـيـوـرـقـةـ بـعـدـ طـولـ الـأـئـمـةـ وـالـمـنـعـةـ وـحـيـداـ بـلـاـ وـلـىـ وـلـاـ نـصـيرـ: الـأـحزـانـ تـمـزـقـ مـنـهـ الـقـلـبـ ، وـالـفـكـرـ مـضـطـربـ ، يـتـوـجـسـ خـيـفـةـ مـاـ عـسـىـ أـنـ يـصـنـعـ بـهـ الـأـعـدـاءـ مـنـ الـأـمـرـاءـ وـصـيـفـارـ الـفـقـهـاءـ وـكـبـارـ مـلـاـكـ الـأـرـضـ وـالـنـخـاسـيـنـ . . .

ولـكـنـهـ استـطـاعـ عـلـىـ الرـغـمـ مـنـ كـلـ شـيـءـ أـنـ يـجـمـعـ شـتـاتـ نـفـسـهـ التـىـ توـزـعـتـاـ الـأـحزـانـ ، وـأـنـ يـواجهـ العـادـيـاتـ بـكـلـ الـقـوـةـ التـىـ يـنـحـىـ الـأـيمـانـ بـالـلـهـ ، فـكـفـكـ دـمـعـهـ الـعـصـىـ الـذـىـ انـهـرـ يـخـضـلـ لـحـيـتـهـ الشـهـباءـ حـزـنـاـ وـلـتـيـاعـاـ عـلـىـ صـدـيقـهـ الـأـمـيرـ..

أـذـعـنـ أـبـنـ حـزمـ لـقـضـاءـ اللـهـ فـصـبـرـ وـصـابـرـ ، وـعـادـ إـلـىـ حـلـقـةـ الـدـرـسـ يـعـلـمـ الشـابـ الـذـينـ التـفـواـ حـولـهـ

أكثراً ما ألتتفوا من قبل ، لا يخشون فيها يؤمنون به لومة لائم ، ولا يبالون في حبهم لشيخهم بما قد ينزل بهم من بطش خصومه . !!

وَجَدَ الْعِزَاءُ فِي الْعَمَلِ ، وَفِي لَقَاءِ هُوَلَاءِ الْفَتِيَّةِ طَلَابُ عِلْمِهِ مِنْ أَهْلِ الْجَسَارَةِ وَالْمَرْوِعَةِ .

مامن شيء كان يستطيع أن يشرح صدره للحياة والمستقبل كهذا الحب في الله يعمّر قلوب شباب مؤمنين تضطرم أعماقهم بالأشواق الطيبة إلى بناء عالم من العدالة والخير والفضائل على دعائم من تعاليم الإسلام.

ومامن شيء كان قادرًا على أن يضفي بالبهجة قلبه الحزين ، ويعيد الثقة إلى نفسه المضطربة ،  
كاستغراقه المخلص في الكتابة مواجهها ضلالات العصر ، وعلى شبابه قلمه يتناثر الشر يحمل اللهم  
المتأجج في أطواء نفسه ، وينير الطريق إلى الحق أمامه وأمام الآخرين ..!

وبالله كم ارتفع قدر ابن حزم في ميورقة وما حولها ، حتى لقد توافد عليه الطلاب والباحثون عن الحقيقة من كل أقطار الأندلس .. ، فأصبحت له الرئاسة على الناس .. !

ولكن خصمه يجدون منذ اليوم فى الأيقاع به ، والكيد له عند سائر الأمراء ، بعد أن مات نصيره ووليه أمير ميسورقة ..

وذات صباح فوجيء ابن حزم بأمر جليل من أمور الأندلس لم يستطع عليه صبراً... وكانت أمور السياسة في الأندلس قد آلت إلى فضائح كما قال أحد مؤرخي ذلك العصر: «صار الأمر إلى الأخلاقة والفضيحة: فهناك أربعة حكام كلهم يسمى بأمير المؤمنين في رقعة من الأرض مقدارها ثلاثون فرسخاً في مثلها.... ومنهم من لا يصحب إلا كل ساقط رذل ولا يحجب عنهم حرمه (أى نساعه) ....

من بين هؤلاء الأربعه الذين يزعم كل واحد منهم أنه هو الخليفة و يسمى نفسه أمير المؤمنين ، نهض أمير أشبيلية يحاول الوثوب على الأثارات الأخرى ليضمها إلى ملكه ، واستبد بالأمر وبطش بأهل الشورى ، وقتئم يعارضه ، حتى لقد طارد أحد معارضيه الذين فروا منه الى الحجاز وهو عالم كفيف فأرسل الأمير من يدس السم للرجل ، فمات .. !

قام حاكم أشبيلية يدعوه أهل الأندلس إلى مبايعته هو وحده خليفة على الأندلس كله وأمير المؤمنين . وادعى أنه هو الخليفة الأموي المقتول هشام بن الحكم المؤيد !!

وعندما بلغ ابن حزم ما يدعوه أمير أشبيلية أذاع الشيخ على الناس : «أخلوقة لم يقع مثلها في الدهر، فإنه ظهر رجل بعد ثنتين وعشرين سنة من موت هشام بن الحكم المؤيد، وأدعى أنه هو،

فبويغ له ، وخطب على جميع منابر الأندلس في أوقات شتى ، وسفكت الدماء ، وتصادمت الجيوش  
في أمره . »

وجن أمير أشبيلية حنقا على ابن حزم ، وأمر الشرطة أن تأتى به من ميورقة ، ولكن أحدا لم يستطع  
أن يقتتحم عليه أو يفضى إليه !

لقد حاه الشباب الذين بهرهم علمه وانلاصه ، وجوع الفلاحين الذين يدافعون عن حقهم في  
الارض ، فتحصن في قلعة منيعة من حب المعجبين به ..

وفكر أمير أشبيلية في أن يكيد له كيدا يسقطه أمام محبيه ، فيسهل على الأمير بعد ذلك أن يفتاك  
بالشيخ في معزل عن حصنه الحصين !

وكان صغار الفقهاء يغرون به ، ويريدون التخلص منه ، وخصومه وحساده يفتون بإهدار دمه ..!

وأتفق أن أبا الوليد الباقي الفقيه الأندلسي عاد إلى الأندلس بعد رحلة طويلة في المشرق  
استغرقت نحو ثلاثة عشر عاما .. وكان الباقي فقيها غزير العلم ، ولكنه كما قال عنه أحد معاصريه  
« كان مشهورا بأنه يجالس الرؤساء ويدهم بشعره ويسترضيهم حتى ينال جوازتهم ، وكانت عليه  
مطاعن في دينه ». .

ها هو إذا إذن الرجل الذي يستطيع أن يقذفه الأمير على الشيخ ابن حزم : فقيه واسع العلم يقبل أن  
يوجه علمه إلى ما يرضي الأميرا ..

ولاذ صغار الفقهاء من أعداء ابن حزم بالفقيه الباقي ، واجتمعوا كلهم عند أمير أشبيلية وأحكموا  
الخطة التي يسقطون بها ابن حزم أمام المعجبين به والملتقطين حوله . فما هي إلا أن يناظره الباقي  
ويفحمه في المناورة حتى تسقط هيبته ويتخلّى عنه الجميع !!

قدم الباقي إلى ميورقة في موكب ضخم من أهل الوجاهة وصغار الفقهاء أعداء ابن حزم ، وعدد  
كثير من حترفي الشغب ، وأهل الأبتزاز ومحترفي الإرهاب ورجال الشرطة السرية !

وذهب الباقي في موكبه ذلك إلى حلقة ابن حزم في جامع الجزرية ، وأغرى عددا من الفقهاء  
الذين صحبوه ليجادلوا ابن حزم فينهكه ، ويستفزوه بالافتراءات والتهمج عليه حتى يفقد السيطرة على  
نفسه قبل أن يبدأ الباقي مناظرته ..! ولكن ألسنة الفقهاء قصرت عن مجادلة ابن حزم وكلامه . فتقدم  
الباقي يناظره ، فأفحمه ابن حزم ، فأراد الباقي أن يمكر به وأن يعرض عليه فقراء الطلاب واللاحين  
من وراء الحلقة فقال : « تعذرني فأشك مطالعاتي كانت على سرج الحراس ». فرد ابن حزم :

«وتعذرني فأكثر مطالعاتي كانت على منابر الذهب والفضة .» وصفق أتباع ابن حزم طربا ...

ونخرج الباقي في موكيه ، وظل ليلته يعد مع أنصاره الشراك لابن حزم .

وفي اليوم التالي أقبلوا إلى الحلقة ، وبدأت المعاشرة ، ولم يكدر الباقي ينتهي من كلامه حتى وثبت أنصاره فصفقوا وتصافحوا اعجابا بما قال . وجاء دور ابن حزم ليرد ، ولكنهم قاطعواه بالصفير والزعيق والسخرية والضحكات والتهريج عليه ، وغمر صخيهم المكان ، ولم يمكنوا ابن حزم من الكلام إذ ضاع صوته وسط الشغب والتهريج ، فعزف عن الاستمرار في المعاشرة

وقام من المسجد آسفا ، فاعلنوا انتصار الباقي ، وانكسر ابن حزم ..

وظلوا يطاردون ابن حزم باصحاحهم وشغفهم : «أبو الوليد الباقي ناظر ابن حزم ، فانكسر ابن حزم  
أمامه»

آوى ابن حزم إلى داره لا يبارحها مدة يومين ، وصدى أليم من سخرية المشاغبين تلع عليه ، وأعداؤه  
يختلون حلقةه ويصرفون عنها مراديـه .

ثم جاءـه من يخبرـه أن أمـير المؤمنـين (وهو أمـير أـشبـيلـية) أـصدرـ أمرـه بـمنعـ تـداولـ مؤـلفـاتـ ابنـ حـزمـ ،  
وـجـعـهـاـ كلـهاـ منـ خـزـائـنـ الـكـتـبـ الـعـامـةـ وـالـخـاصـةـ فـيـ جـمـيعـ بـلـادـ الـأـنـدـلسـ !!

ومـاهـىـ الاـيـامـ حـتـىـ أـحرـقـتـ مـؤـلـفـاتـ ابنـ حـزمـ فـيـ جـمـيعـ أـعـدـائـهـ وـحـسـادـهـ وـشـانـيـهـ وـضـحـكـاتـهـ  
الـشـامـةـ تـعـالـىـ فـيـ جـنـونـ وـحـشـىـ !!

أـيـةـ قـارـعـةـ هـذـهـ التـىـ نـزـلتـ بـالـرـجـلـ فـيـ شـيخـوخـتـهـ .! إـنـاـ لـقـاصـمـ الـظـهـرـ .!

إـنـهـ الآـنـ لـيـقـرـعـ أـبـوـابـ السـتـينـ ، وـمـامـنـ عـزـاءـ بـعـدـ ، وـلـأـعـوضـ عـمـاـ ضـاعـ ، وـلـأـهـوـيـسـتـطـعـ أـنـ يـكـتبـ منـ  
جـديـدـ بـعـضـ هـذـهـ الصـفـحـاتـ الطـوـالـ التـىـ أـوـدـعـهـاـ كـلـ روـعـةـ حـيـاتـهـ ، وـالـدـمـ ، وـالـضـنـىـ ، وـالـمعـانـىـ ،  
وـالـأـمـلـ وـالـبـهـجـةـ ، وـحـجـاتـ الـقـلـبـ ... !

ولـكـهـ أـسـطـاعـ ! ..

ازـدـرـ الدـمـ النـازـفـ مـنـ جـراـحـاتـهـ ، وـاستـعـلـىـ عـلـىـ النـكـبةـ ، وـواجهـهـمـ مـنـ عـلـيـاءـ صـمـودـ بـشـعـرهـ  
يـتـحدـىـ :

فـأـنـ تـحـرـقـواـ الـقـرـطـاسـ لـاتـحـرـقـواـ الـذـىـ  
تـضـمـنـهـ الـقـرـصـاسـ ، بـلـ هـوـفـىـ صـدـرىـ

يسير معلى حى استقلت ركابه  
وينزل إن انزل ، ويُدفن فى قبرى  
وأستقلت ركابه .. ترك ميورقة الجزيرة التى عرف فيها حلاوة الأمن وطيب الألفة .

ترك ميورقة بعد أن تحولت طرقات الجزيرة إلى مراپس للمتربيين ، وأصبحت حلقات العلم فيها فخاخاً ومصادىداً ..!

ومضى في ركب حزين من أهله وجواريه وخزانة كتبه .. إلى حيث لا يعلم أحد مكانه ، ولا يلقي أحداً من الناس !

« وطفق الحكم يقصونه عن قريهم ويسيرونه عن بلادهم » كما قال أحد مؤرخيه (أبو حيان) اختفى زماناً ، ثم سار إلى القرية التي ولد فيها أبوه قبل أن يستطعوا قرطبة ، حيث تركوا له ضيعة يكفيه دخلها ويوفر له حياة ميسرة ، وحيث ما زال يعيش أقرباؤه ..

وفي أحضان ذلك الركن المادي من ريف الأندلس ، بين الفلاحين الذين أحبوه وعرفوا فيه قبل أن يلقوه مناصلاً عن حقوقهم ، قرر ابن حزم أن يعيش ما بقي له من العمر.

لم تكن النار التي التهمت كتبه قد استطاعت أن تمس شموخه ولا إصراره .. فما زال قادرًا على أن يبدأ من جديد على الرغم من كل شيء !

لابطش أمير أشباهية ، ولا بغي كل أعدائه ، ولا المكر السيء ، ولا شيء على الأطلاق يستطيع أن يمتد إلى تلك البقعة المادئة أو ينال منه ... فلا سلطان لأمير أشباهية على هذا المكان الجميل من ريف الأندلس ، ولا رأى لفقيه هنا إلا رأى ابن حزم : ابن القرية وحامى العاملين فيها ..

وعلى وجه النار التي التهمت مؤلفاته ، أضاءت نفسه بالإصرار وإرادة التعبير.

وعاد يلتقي بشباب آخرين . فقد تواجد عليه الشباب من القرية ومن كل أرجاء الأندلس ، وقد زادهم صمود الشيخ في محنته إعجاباً به . وفاضت عيناه العصبيتان من الفرح حين أخرج إليه بعض هؤلاء الشباب مؤلفاته التي أخفوها فنجحت من الحريق ! .. وأنذروا ينسخونها بهمة عالية متقدمة ، ويزعونها خفية في كل أقطار الأندلس ، وخارجه . ونسخوا وزعوا من هذه الكتب الناجية من الحرائق أضعاف ما كان موجوداً من قبل !

وبدأ الشيخ يملأ عليهم ما الاحتراق من المؤلفات ، ويُلْفَ كِتَابًا جديدة .

وفي قريته النائية حيث لا يصل إليه فحيح العداء ، ولا صخب الحساد ، وحيث تقتصر عنده يد الحكم ، وحيث حب الناس يعم نفسيه بالصفاء ، وحيث كل ما حوله من جال الطبيعة وطيبة القلوب يعم نفسه بالأمل ، وبقنعه بأن الحياة جديرة بأن نحياها ، وبأن نجعلها متعة حلال للآخرين هناك في هذا المدحى النابض بروعة المودة ، واستطاع ابن حزم أن يمكّن مؤلفاته التي أعاد كتابتها بعد احتراقها والتي صنفها .. وكانت مناظراته مع مريديه في جو متربع بالمحبة سبile إلى الاتقان ..

لقد عاش كل حياته السابقة يستتبع الأحكام من ظاهر النص ، فها هوذا الآن يستخلص الحكمة من باطن النفس !

إنه ليفهم ظاهر النصوص بكل معانها الصريحة والمجازية ، بلا نظر في الدلالات والإشارات الخفية ، وهو في الوقت يستطعن خفايا النقوس وأسرار الدلالات ولطف الإشارات ليصوغ أنكاره في **الأخلاق والفلسفة وسائر الإنسانيات**

وتأسيسا على هذا النظر أحكم فقهه وأصوله ، وسائر آرائه في الحياة والناس .

وهكذا أتقن إبراد كثير من أحكام والأراء التي خالف بها كل من سبقة ، أو سبق هو بها كل من جاء بعده من أهل الفكر ، من خلال أسلوب ناصع ، بطريقة يجذب بها انتباه القارئ أو السامع ، فهو يعرض الآراء التي يخالفها بما لديها من حجج وأدلة ، ثم يناقشها ويرد على أدلة ، ثم يسوق أدلة هو ويرد على ماعسى أن يثار ضد هذه الأدلة والحجج ، ثم يخلص إلى النتيجة مؤيده بالبراهين ..

وقد أوردنا فيها سبق كثيرا من هذه الأحكام والأراء ..

ولكنه صقل هذا كله في قريته وقدم بعض الأضافات .

وكان من قبل قد كرر أنه لا يحسن الظن بالمرأة ، وهو يعني المرأة التي لا شغل لها في الحياة العامة ، ولا تشغل حتى بمنزلها وتربية أولادها ، فهي لا بد أن تنزع في فراغها هذا إلى دواعي الغزل ، وإلى المعصية ، ثم إلى الفساد . والرجال والنساء في ذلك سواء .

على أنه يفتى بأن المرأة شرعا تستطيع أن تتولى الوظائف العامة بلا استثناء إذا كانت صالحة قادرة مؤهلة لتولي هذه الوظائف ...

أما قول الرسول صلى الله عليه وسلم : « لعن الله قوما ولو امهم امرأة » فهو إنما يعني الخلافة أو الإمامة فحسب ، فالخلافة يجب أن يكون رجلا . أما فيما عدا الخلافة فالمرأة الصالحة لها حق ولاية أي أمر من أمور المسلمين .. وقد قال الرسول عليه الصلاة والسلام : « كلكم راع وكلكم مسئول عن

رعيته . » وذكر الحديث أنواع الرعاة ومسئوليهم فذكر المرأة : والمرأة راعية وهي مسؤولة عن رعيتها . فضلاً عن أنه لم يرد نص في القرآن أو السنة ، يحرم على المرأة تولي أمور المسلمين فيها عدا الخلافة .

وذهب ابن حزم إلى أن المرأة إذا تفقهت في الدين يجب على الرجال أن يأخذوا عنها وقال : « وهؤلاء أزواج النبى قد نقل عنهن أحكام الدين ، وقامت الحجة بنقلهن ، ولا خلاف في ذلك . » فالمراة تستطيع أن تولى القضاء والأفتاء وأن ترأس الرجال في عملهم ، وأن تدرس لهم »

ونظر من جديد في وضع العبيد والجواري فأكَدَ أنهم لا يختلفون عن الأحرار في صفة أو موهبة وأن العبودية ليست ذنبهم ، ولا هم الذين جروها على أنفسهم ، وبينهم من هو أتقي وأذكي وأصلح من الأحرار ، وقد ولَى أمور المسلمين في المشرق من أبناء الجواري خلفاء كانوا صالحين بناءً حضارة ، وما ذلك إلا لأن أمهاهاتهم الجواري قد أحسن تربيتهم ، وما ولِي الأندلس من هو ابن حرة فقط ، فكل حكام الأندلس منذ الفتح من أولاد الأئمة لقد كان منهم خلفاء عظام .

فإذا تاق العبد إلى الحرية فليس مالكه أن يحرمه منها ، وعلى ولِي الأمر أن يجعل المالك على تحرير المملوك . وفي ذلك قال ابن حزم : « من كان له ملوك مسلم أو أمة مسلمة فدعها أو دعْتُ إلى الكتابة ، فرض على السيد الأجيابة على ذلك . وبغيره السلطان على ذلك . وذلك بما يعرف بأن المملوك العبد أو الأمة يطيقه » أي بالسعر الذي يطيقه من يطلب العتق أو التحرير . وهو سعر يراعي فيه أمران : لا يجحف بمالك العبد أو الأمة ، وأن يطيقه العبد وتطيقه الأمة ، فإذا اختلف الطرفان تدخل السلطان ليجبر المالك

فإذا اختلف الطرفان تدخل السلطان ليجبر المالك على عتق المملوك أو المملوكة

ويحدد السلطان السعر العادل . وبرهان ابن حزم على هذا هو نص الآية الكريمة : « والذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيديكم فكتابوهم إن علمتم فيهم خيراً وآتوهم من مال الله الذي آتاكم » .

ومالك الرقيق الذين يعجزون عن تحرير أنفسهم مأمور شرعاً بأن يعاملهم كما يعامل أبناءه وذوي قرباه في كل أمور المعاش ..

وكان ابن حزم قد نقض يديه من الحكم ليأخذ بيد المحكومين ، ويشن من اصلاح الرعاة فاتجه إلى الرعية يعرف الناس بحقوقهم على ولِي الأمر ، وأفتى بأن السلطان مطالب شرعاً بأن يوفر لرعيته حد الكفاية من المأكل والملبس والمسكن ودابة الركوب . هذا هو رأي إمام مصر الليث بن سعد . وزاد ابن حزم أنه ما من شيء يضطر المسلم إلى أن يأكل ما حرمته الله كالميتة والدم ولحم الخنزير . فالمسلم

لايضطر إلى هذا أبداً إلا إن عرضه الجوع وهو في خلاء ولم يجد غير هذا الطعام المحرم . أما المسلم في بلده فولي الأمر مسؤول عن إطعامه ، فإذا لم يكن في بيته المال ما يكفي لإطعام الجائع ، فعلى السلطان أن يفرض في أموال الأغنياء ما يكفي لمواجهة حاجات الفقراء . فإذا لم يفعل السلطان أى ولى الأمر ، فقد أثم وجاز للجائع أن لم يجد طعاماً ، وأن يقاتل على هذا الطعام من لديه طعام لا يحتاج إليه ، فإن قتل الجائع فهو شهيد وعلى قاتله القصاص ، وإن قتل مانع الطعام فهو في النار ولا قصاص !

وأفتى بأن تعاون الجيران ليس من مكارم الأخلاق إن شاء الجار أثناها أو تركها ، بل هو تكليف شرعى بنص القرآن : «فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون الذين هم يرمواون وينعمون الماعون» . والماعون هو ما يقترب منه الجار الحاج من جاره كالآوانى ودواب الركوب وأدوات الزرع والحرث ونحو ذلك .

وأفتى في الماء : «لا يجوز بيع الماء بوجه من الوجوه لافي ساقية ولا من نهر أو من عين أو من بئر ولا في صهريج ولا في مجموعاً في قربة ولا في إناء . ولا يملك أحد الماء الجارى إلا مادام في ساقيته ونهره ، فإن فارقها بطل ملكه عنه وصار لمن في أرضه ، وهكذا أبداً . أما من حفر بئراً بعمله وما له فهو أحق بما فيها مادام محتاجاً ، فإن فضل عنده ما لا يحتاج إليه لم يحل له منعه عن من يحتاج إليه ، وكذلك فضل النهر والساقية .. ومن استنسقى قوماً ولم يسقوه وهم يعلمون أنه لماء له البته فهم قاتلوه عمداً ، عليهم القود (القصاص) بأن يمنعوا الماء حتى يموتاً كثروا أو قلوا . وهكذا القول في الجائع والعاري . ولا فرق .

وقد فرض ابن حزم على كل صاحب بئر وبئر وغم «أن يحملها يوم ورودها على الماء ويتصدق من لبنيها بما طابت به نفسه» . فقد جاء في الحديث الشريف : «تأتى الأبل على صاحبها على خير ما كانت إذا هولم يعط حقها تطؤه بأخلفها ، وتأتى الغنم على صاحبها على خير ما كانت إذا لم يعط فيها حقها تطؤه بأظلاتها وتنطحه بقرورها . ومن حقها أن تحلب على الماء» .

في أموال القادرين حقوق غير الزكاة ، وهذه الحقوق واجبة الأداء ، وليس أداؤها من باب التطوع . قال : «وفرض على الأغنياء من أهل كل بلد أن يقوموا بفقرائهم وغيرهم السلطان على ذلك»

أما ماسبق به المفكرين الذين جاءوا من بعده ، فتلك أمور تمس بوطن النفوس وخصائص الأشياء ومظاهر الطبيعة :

— من ذلك أنه اهتدى إلى نظرية في المعرفة تقوم على مزج بين الفطرة والتجربة بين البدائية والحس .. ويلخص نظريته هذه بقوله : «إن العلم بالضرورة أو بالعقل راجع إلى الحس»

فالإنسان يعرف أشياء بالبديهة أو الفطرة و يصلح علمه بالحواس وهو ما يختزنه بإدراكه الحسي في زمن سابق ، ويحكم هذا بالتجربة . فهذه هي المعرفة .

وهذه نظرية في المعرفة اكتملت بعد ذلك بقرون . وكان الأوروبيون في عصر ابن حزم يقرأون كتاباته وكان المتعلمون في جنوب فرنسا وإيطاليا ومايلها لا يعتبرون متعلمين حقا إلا أن يعرفوا العربية .

ومن ذلك أنه اهتدى في وقت مبكر جدا إلى أن الأرض كروية وقد وصل إلى هذا الرأي من فهمه لظاهر آية في القرآن الكريم فكتب يقول : « إن أحدا من أمم المسلمين المستحقين لاسم الأمامية بالعلم رضي الله عنهم لم ينكروا تكوير الأرض ، ولا يحفظ لأحد منهم في دفعه كلمة . بل البراهين من القرآن والسنة قد جاءت بتکورها ، قال الله عزوجل : ( و يکور الليل على النهار و يکور النهار على الليل ) . وهذا أوضح بيان في تکور الأرض ... »

— ومن ذلك رأيه في أن الجزيء قابل لأن يتجزأ . وعن الجزيء (أى الذرة) . يقول ابن حزم : « ليس في العالم جزء لا يتجزأ ، وإن كل جزء أنقسم الجسم إليه فهو جزء أيضا وأن رقم أبدا ..... وأن كل شيء يحتمل أن يكون على أجزاء كثيرة وبالضرورة ندرى أنه يحتمل أن يجزأ إلى أقل منها ... »

ويرى الأستاذان عبد الخليل عويس وأحمد عبد الوهاب أنه سبق بهذه الأراء العلماء المفكرين حتى القرن العشرين .

على أن ابن حزم لم يسلم من المجموع على الرغم من اعتزاله الناس في قريته . فها هوذا يذيع كل الآراء التي ظن الناس أنها اختفت بعد أن أحرقت كتبه .. ! ها هوذا يحكم أراءه لتصبح أكثر ذيوعا من قبل ! وهما هذان يصنف مؤلفات جديدة ، وأن الشباب ليتفون حوله أكثر مما التفوا في أي وقت مضى .. لا يسمعون قول فقيه غيره !!

زادت الثورة عليه ، واتهمه مرة أخرى بأنه يحرض الفقراء والجائع والغراة على الأغنياء ! وأنه وهو يسبح الماء من لاحق لهم فيه ، ويحرض العبيد على إكراه السادة لتحريرهم .. وهو بعد يهاجم بعض الفقهاء والذين يزعمون أن الأرض تقف على قرن ثور ويتهمهم بأنهم يشيعون المزارات التي تجعل الشباب يرفضونها فيتجهون إلى الإلحاد فهو لاء الفقهاء هم المسؤولون إذن عن إلحاد الآخرين ! ثم إنه يقنع هؤلاء الشباب بأن الأرض كروية ، ويسترضاى الأبناء غير الشرعيين الذين أوجدهم ظروف المجتمع الفاسد ويعتبرهم ضحايا فساد المجتمع ، فيجب لهم حسن الرعاية ، ويفتن بمساواتهم بالأبناء الشرعيين .

وأتهمه خصومه من جديد بالخروج على الدين ، وإثارة الفتنة ... واتهمه بعضهم بالجمود لوقفه عند ظاهر النص . ، فأغلظ في الرد عليهم جميعا ، واتهمهم بأنهم جهلاء مراءون منافقون يساندون الحكم ويذمرون بغير مألفهم ويزبون لهم البغي والظلم والانحراف عن الإسلام للحصول على الجواز والأموال والمناصب والاقطاعات !

وعلى الرغم من استعار الخصومة بينه وبين الفقهاء من متبني المذاهب ، فقد ظل مع ذلك يعمل ويعمل ، حتى لقد كتب في قريته تلك ما يزن حمل بغير منها كتاب « الإنعام في أصول الأحكام »

وهو مصنف في أصول الفقه من ثمانية أجزاء وقد قال عنه المغفور له الشيخ أحد شاكر أحد أعلام الشرعية والفقه في القرن الرابع عشر الهجري : هذا الكتاب النفيس الذي لم تر العيني مثله في علم الأصول

ولكنه إذ رأى ما يعنانيه من أهل زمانه كتب وكأنه كان يعزى نفسه وسائر المخلصين من أهل العلم والفقه والفكر .

« أزهد الناس في عالم أهله ، وقرأت في الإنجيل أن عيسى عليه السلام قال : ( لا يفقد النبي حرمته إلا في بلده ) . وقد تيقنا ذلك بما لقى النبي صلى الله عليه وسلم من قريش ، وهم أوفر الناس أحلاما ، وأصحهم عقولا ، وأشدهم ثباتا ، مع مخصوصا به من سكناهم أفضل البقاء ، وتغذيتهم باكرة المياه ( بئر زرم ) و حتى خص الله تعالى الأوس والخزرج بالفضيلة التي أباهم بها عن جميع الناس ، والله يتوتى فضلهم من يشاء ، ولا سيما أندلسنا فإنها خصت من حسد أهلها للعالم الظاهر فيهم ، الماهر منهم ، بـاستقلالهم كثيرا ما يأتي به ، واستهجانهم حسنانه وتبعيهم سقطاته وعشراته ... أن اجداد قالوا : ( سارق مغير ) . وإن توسط قالوا : ( غث بارد وضعيف ساقط ) . وإن باكر لخيارة قصب السبق ، قالوا : ( متى كان هذا ، ومتي تعلم ، وفي أي زمان قرأ ! ؟ ولامة المحب ! ) ... فإذا سلك غير السبيل التي عهدوها ، حتى الوطيس على البائس ، وصار غرضا للأقوال ، ونها للألسنة ، وعرضه للتطرق إلى عرضه ... فإن لم يتعلق من السلطان بحظ لم يسلم من المثالف ... وعظم يسير خطبه ، واستثنى هين سقطه ، وأشتط عليه ، وسترت فضائله ، فتنكسر لذلك همه ، وتتكل نفسه ، وتبرد حيته . »

لكم لقى ابن حزم حقا ! وقد وصف أحد المنصفين من خصومه ما كان يلقاه : « أن ابن حزم أصابه ما أصابه من الحسد الذي لادوا له ، لأنه أزهد الناس في عالم أهله . »

وفي شعبان سنة ٤٥٦هـ ، كان ابن حزم قد جاوز السبعين بضع عامين ، وقد أنهكه العمل

الدائب ، والصراع المتصل ، والجحود والاضطهاد ، وهدته جراحات الغدر!

لقد آن للقلب المذهب أن يستريح ! ...

وعندما شعر بدنو الأجل قال قصيدة جاء فيها :

عفا الله عنى يوم أرحل ظاعنا .

عن الأهل عولا إلى ضيق ملحد

فوا راحتى إن كان زادى مقدمًا

ويانصيى إن كنت لم أزود .

ثم سكت قلبه إلى الأبد ، ولكن أصداء من صوته عبرت أطياباً التاريخ !

ويضى الزمن ليحكم الأندرس بعد قرنين من وفاة ابن حزم حاكم ينشر كتب الفقيه المضطهد ،  
ويحمل الناس على الأخذ بما جاء فيها .. ثم يطارد ذلك الحاكم أتباع الائمة الأربعه ويحرق كتب  
الاجتہاد بالرأی وكتب الامام مالک بصفة خاصة ، ويخير الناس بين الأخذ بمذهب ابن حزم واتباع  
ظاهر القرآن والسنة أو السيف .

وتعبر آراء ابن حزم جسور الزمن ، لتأثيره في المشرق العربي على أفكار قومين من أصحاب  
المذاهب ، ثار كلاهما على التقليد فحاول التجديد ... واصطك كل منها بعصره وكابده عصره ...  
هـما عز الدين بن عبد العزيز بن عبد السلام الشافعـي ، وتقى الدين تيمية الحنبـلي ..

الغزِيزُ الدِّينِ عَبْدُ الغَرِيزِيْزِ بْنُ عَبْدِ السَّلَامِ  
سُلْطَانُ الْعُلَمَاءِ



تبأ لنفسه أنه سيعيش ثلاثة وثمانين عاما ، فكان الأمر كما قال ! ..

زاره صديق ذات صباح فقال له : «رأيتك في المنام تنشد :

وكنت كذى رجلين رجل صحيح  
وآخرى رمى فيها الزمان فشلت

فسكت ساعة ثم قال : أعيش ثلاثة وثمانين سنة ، فإن هذا الشعر لكثير عزة ولا نسبة بيني وبينه غير السن ، فهو شيعي وأنا سني ، وهو قصير وأنا لست بقصير ، وقد عاش ثلاثة وثمانين سنة فسأعيش كما عاش أن شاء الله .

ولد في دمشق عام ٥٧٧ هـ ، وتوفي بالقاهرة عام ٦٦٠ هـ ، ودفن بسفح المقطم .

وحين بلغ الثانية والستين ، بدأ حياة جديدة ، وغير كل ماتعوده وهو صغير : فقد ترك دمشق مغاضباً وهاجر إلى الله من بعده حاكماً دمشق ، واستقر في القاهرة ، وشرع في تأليف الكتب . فوضع كل مصنفاته فيها ، وما كان من قبل قد كتب شيئاً يعتقد به ، ذلك أنه كان ينفق كل وقته في التدريس والخطابة والوعظ .. وفي القاهرة جمع إلى هذه الأباء مسؤولية الكتابة ، فصنف كتاباً في الفقه والتفسير والأصول والتصوف . وصاول الحكم ! .

أطلق عليه أبوه اسم العز عز الدين عبد العزيز .. ولكنه عندما اشتهر باسم عز الدين وباسم العز ، وقلماً كان ينادي الناس عبد العزيز .

وقد فتح العز بن عبد السلام عينيه على حياة الحرمان ... كان أبوه عبد السلام فقيراً جهد الفقر ، وكان يجوب الأسواق بحثاً عن عمل .

وгин شب الطفل صحبه أبوه ليساعده في بعض الأعمال الشاقة كإصلاح الطرق وحل الأمتعة ،  
· وتنظيف ما أمام محلات التجار ..

وكان أبوه عبد السلام يأخذه إلى الجامع الأموي إذا حان وقت الصلاة ، ورآه أحد شيوخ المسجد ،  
فأعجب به ودعا له .

مات أبوه فلم يجد في نفسه القوة على القيام بالأعمال الشاقة التي كان يؤديها أبوه ، ولم يجد الصبي  
مكاناً يأوي إليه ، فذهب إلى ذلك الشيخ يتلمس عنده المساعدة في الحصول على عمل يقتات منه  
ومكان يبيت فيه .

وتوسط له الشيخ فألحقوه الصبي بالجامع الأموي ، يساعد الكبار في أعمال النظافة ، وفي حراسة  
نعال المصلين وأهل الحلقات التي يتركونها عند أحد أبواب الجامع ، وسمحوا له بأن ينام الليل في  
زاوية بأحد دهاليز الجامع ، على الرخام .

وكان الصبي يعايش مراتي الغنى والمتاع خلف أسوار القصور بجذانقها الفريحة في دمشق ،  
ويشاهد الجنادل الفارهة على صهواتها رجال تعكس الشمس على خوذاتهم ، وملابسهم الزاهية  
وسيوفهم المرصعة بالذهب ، ويتأمل حاله وثوبه الذي تقتتحمه العيون ، ومضجعه البارد على رخام  
زاوية في المسجد ، ثم يتتساعل في أغوار نفسه كيف يعيش في بلد واحد رجال ونساء كهولاء الغارقين  
في النعيم ، والذين يسقطون من الحرمان ، ويقتاتون بالأسى والأحلام ؟

على أنه صرف هه إلى ما يقوله الشيوخ في الحلقات ... وكان يتناهى إلى سمعه وهو على باب  
المسجد يحرس النعال كلام يثير خياله ، ويلهب أشواقه إلى دنيا أخرى لا يموج فيها ولا يعرى !  
وتسلل إلى أحد الحلقات ذات يوم ، ودس جسده التحليل الصغير بين الطلبة الكبار . ورآه شيخ  
الحلقة ، فنهره ، وسألته كيف يسمع لنفسه أن يجلس بشوب ممزق في مجلس للعلم ينبغي على الطالب فيه  
أن يأخذ زينته .. !

وجرى الصبي إلى باب المسجد ، وتکور على نفسه يبكي ! .. حتى إذا حان خروج الشيوخ  
والطلاب ، رأى الشيخ الذي ألحنه بالجامع وهو الفخر بن عساكر صاحب حلقة الفقه الشافعى ، وسألته  
الشيخ عما يبكيه ، فروى له ما كان من أمره ، فطبيب الشيخ خاطره ، ووعده أن يتبعه ، وسينحضر  
الحلقات عندما يبلغ الشباب . ومن يدرى ! ؟ فربما أصبح هذا الصبي نفسه شيئاً حلقة في هذا الجامع  
ذات يوم ! ..

وضحك الصبي ، والتعت عيناه ، واقتحمت نظراته الجدران إلى آفاق المستقبل ، ورأى نفسه طالب علم ، ثم شيخا حلقة ، فأوشك أن يشب من الفرح ، وقبل يد الشيخ ، وسأله متى يبدأ التعليم ، فقد جاوز سن الطلب ؟ ! .. وقال له الشيخ الفخر ابن عساكر ، أنه سيبدأ من الغد .

حتى إذا كان الغد ، أخذه الشيخ إلى مكتب ملحق بالمسجد وأوصى بأن يتعلم القراءة والكتابة والخط وأن يحفظ القرآن ، وتعهد الشيخ ببنفة الصبي .

وأقبل العز على المكتب في شغف عظيم ، وحفظ القرآن ، وأتقن القراءة والكتابة والخط الحسن ، وعوض مافاته من سنوات الدرس .

وكان كلما لقى شيخه على باب الجامع سأله الشيخ عن حاله ، فيسمعه الصبي ما حفظ من القرآن ، ويطلعه على ما يكتب في اللوح الصفيح من الآيات الكريمة .

وأعجب الشيخ ابن عساكر بما يبذلو على العز من مخايل النجابة والذكاء ، وحسن ترتيله للقرآن ، وأعجب بصفة خاصة بشاشة الصبي على الرغم من فقره الطاحن . !

ومرت أعوام ، واطمأن الشيخ فخر الدين إلى أن الصبي قد أتقن حفظ القرآن وجوده ، وإلى أنه قد أصبح يصدق القراءة والكتابة بخط جميل ، فبشره الشيخ بأنه سيضمه إلى الطلاب الذين يحضرون حلقاته ، ودفع إليه بما يعينه على شراء ثوب صالح لحضور حلقات العلم .

وأمضى الصبي ليته يعلم بالمستقبل !

إنه الآن ليشب إلى مرحلة الشباب ، وهو في حاجة إلى عمل يكفل له دفع المسكن والثوب اللائق والطعام الطيب .. ! هو في حاجة إلى مال يوفر له شراء أدوات التحصل من دفاتر وأقلام وأوراق ومحبرة ، ومايلزم من كتب .

وخرج أن يكلم الشيخ ليساعده في الحصول على عمل آخر يحصل منه على أجر أكبر ويوفر له ماينبغى لطالب العلم ! .. لقد منعه الحياة ! ..

و قبل أن تنتهي ليته استيقظ فجأة ! .

ويحدثنا السبكي في طبقات الشافعية عن تلك الليلة فيقول : « كان الشيخ عز الدين في أول أمره فقيرا جدا ، ولم يستغل إلا على كبير ، وسبب ذلك أنه كان يبيت في كلاسة « زاوية » من جامعة دمشق ، فبات فيها ليلة ذات برد شديد فاحتل ، فقام مسرعا ونزل في بركة الكلافة فحصل له آ

شديد من البرد ، وعاد فنام ، فاحتلم ثانيا ، فعاد إلى البركة لأن أبواب الجامع مغلقة وهو لا يمكّن الخروج ، فطلع فأغمى عليه من شدة البرد .. ثم سمع النداء : يابن عبد السلام أتريد العلم أم العمل ؟ فقال : بل العمل لأنه يهدى إلى العلم » .

وأصبح الفتى عز الدين ، فروى لشيخه ابن عساكر ما كان من أمر تلك الليلة . وقال الشيخ له « لقد بلغت مبلغ الرجال . وهذا النداء هاتف من السماء يأمرك أن تهب نفسك للعلم » .

وأعطاه الشيخ كتاب « التنبيه » في الفقه الشافعى ، وأعطاه أسبوعين مهلة ليحسن قراءته وأستيعابه . وعاد العز إلى شيخه بعد ثلاثة أيام وقد استوعب الكتاب وحفظه عن ظهر قلب !

وضمه الشيخ إلى حلقة ، ونظم له حضور حلقات أخرى في اللغة وآدابها ، وفي الحديث وأصول الفقه . ونصحه أن يتقن علوم اللغة من نحو وصرف ، وأن يحفظ الشعر ويدرسه ليحسن فهم نصوص القرآن .

وكان العصر زاخرا بكثير من المعرف . ولكن الشيخ ابن عساكر نصح تلميذه إلا يهتم من كل ذلك العلوم إلا بما يعين على فهم القرآن .

ولزم عز الدين شيخه ابن عساكر ، وتعلم منه الفقه الشافعى ، وكان الشيخ زاهدا ورعاً واسع المعرفة كثير الصدقات ، خطيبا ، لاذعا ، وهو في الوقت نفسه شديد الحياة ، وكان مرحبا متألقاً بذوقه ، فتأثير تلميذه عز الدين ونقل عنه كثيراً من خصاله وسجاياه .

من الحق أن عز الدين لزم شيخه ابن عساكر وتأنبه ، ولكنه لم يتلزم نصحه فيها بطلب من علوم . فتلاقى إلى التزود بمعرف عصره جيما . وكانت أفكار اليونان والمصريين القدماء والهنود والفارسيين قد نقلت إلى اللغة العربية .. وكان المسلمون قد تفوقوا في علوم الطبيعة والطب والكيمياء والرياضيات والفلك ، وتعاطوا الفلسفة فأراد عز الدين أن ينبل من هذا كله ..

وكانت فلسفة الإشراق التي جاء بها السهوروبي إلى دمشق وحلب تعيس ، وتصبك أعداء تلك الفلسفة الذين نجحوا من قبل في الإيقاع بالسهوروبي ، فأغروا به صلاح الدين . وكان ابنه الظاهر بمحى السهوروبي في قصره بحلب ... فأمر صلاح الدين ابنه الظاهر أن يسجن السهوروبي حتى يهلك في سجنه صبراً وجوعاً وعطشاً ، ولكن الظاهر بن صلاح امتنع ، فأرسل إليه أبوه يخربه بين إحدى الثنتين : إما قتل السهوروبي أو العزل !

وأذعن صاحب حلب لأمر أبيه صلاح الدين وجاء بالسهوروبي وخصومه ، وأمرهم أن يناظروه

قبل أن يقضى في أمره .

كان السهوروبي شيعيا ، وصلاح الدين يحارب الشيعة ويضرهم في كل مكان ... وكان السهوروبي ينادي بأن العالم لم يخل من الحكمة ومن شخص قائم بها عنده الحجج والبيانات ، وهذا الشخص هو الإمام وهو خليفة الله في أرضه ، وهو واجب الاتباع فهو معصوم يوحى إليه لكن على نحو آخر غير الأنبياء والرسل !

وكان السهوروبي يذهب إلى أن النور أساس كل الموجودات ، ويعتمد على الآية الكريمة : « الله نور السموات والأرض » . وقد استفاد بحكمة أخناتون الذي نادى بالتوحيد في مصر القديمة ، وأعتبر النور والشمس بالذات سبب وجود كل الكائنات الحية . كما استفاد الرجل بأفكار أفلاطون في المثل وآراء زاردشت الفارسي . ولكنه رد كل أفكاره إلى القرآن الكريم .. وأحسن الاستشهاد بآياته ..

ولم يعرف أحد لماذا ثار فقهاء دمشق على السهوروبي ، واتهموه بالشبوبي وهى الدعوة إلى تغليب الفرس على العرب ، ثم اتهموه بالكفر ! .. وعلى الرغم من أن الظاهر بن صلاح الدين كان سينا كأبيه ، فقد بسط حايته على السهوروبي معجبًا بأفكاره الصوفية وبنكتة الأشراق ، والفيض الالهي الذي تشرق به قلوب الصالحين فيحصلون بالمعرفة الذوقية مع المعرفة العقلية .

ومهما يكن من أمر قد جمع الظاهر بن صلاح الدين خصوم السهوروبي من الفقهاء ... وبدأت المناظرة أو المحاكمة التي صدر فيها سلفا أمر صلاح الدين بقتل السهوروبي حكيم الأشراق !

سأله خصوصه : « الله قادر على أن يخلق ما يشاء ؟ ! »

قال السهوروبي : « نعم » . فسألوه : « ونبي الإسلام أليس هو خاتم الأنبياء ؟ . »

قال : « بلى » . قالوا : « ألا يستطيع إله هكذا أن يبعث نبيا بعد نبي الإسلام ؟ . »

كان السؤال مصيبة للرجل !

قال السهوروبي بعد لحظة : « ختمت النبوة ولكن الولاية قائمة . »

وأخذوه برأسه في الولاية .. فهو يرى أن ولى الله وهو الإمام المعصوم قطب الأقطاب خليفة الله في الأرض يجب أن يكون من نسل النبي ... وهذا النظر يحكم بعدم شرعية الخلفاء والملوك إلا إذا كانوا من نسل الرسول صلى الله عليه وسلم ... أي من أبناء على وفاطمة رضي الله عنها .. وصلاح الدين نفسه ليس عربيا على الأطلاق فهو كردي الأصل . وهكذا اضطر الظاهر بن صلاح الدين أن يودع السهوروبي غيابة السجن ليوت فيه صبرا وجوعا !

لقد وقعت الواقعة بالسهروردي بينما كان عز الدين بن عبد السلام صبياً في نحو العاشرة من عمره، وزلت نهاية السهروردي الفاجعة نفس الصبي زلزالاً شديداً، ولم يفارقه الحزن والعجب .. كيف يقضى على رجال بالموت لأنه قال رأياً يخالف فيه بعض الفقهاء، ولا يرضي عنه الحاكم؟

ولكن أفكار السهروردي في الأشراق قد ذاعت وملأت أماكن العلم، وأضطرك فيها الناس بين مستنكر ومعارض .. منهم من يرى القتيل شهيداً مات دفاعاً عن تصوفه ومنهم من يراه كافراً حتى ظهر في دمشق رجل آخر تسمى باسم السهروردي، وأذاع أفكار السهروردي في الأشراق، ولكنه لم يعد يتحدث عن الإمامة والولاية، وليس خرقه التصوف، وممضى في الطرقات يهتف الناس: «الله نور السماوات والأرض ..» وأخذ يشرح أفكار السهروردي عن النور والفيض الإلهي ..

وتبعه قوم لبسوا خرق التصوف، وأطلقوا كلمات في الأسواق وندوات العلم. كلمات مكثفة تحمل رموزاً كثيرة ..

وهر الشاب عز الدين بهؤلاء وأحواهم .. وهرته بصفة خاصة شخصية السهروردي الجديد، فلزمه على الرغم من نصيحة شيخه ... وليس عز الدين خرقة التصوف عاماً أو بعض عام ملتمساً علم الحقيقة على يد السهروردي الجديد، حتى إذا علم ماعنته، عاد إلى أستاذة ابن عساكر يلتمس عنده علوم الشريعة من جديد ..

وسمع عز الدين أن في العراق شيئاً عنده من علم الحديث ماليس عند غيره في دمشق فحمل متابعه وزاده وزواجه وسافر إلى بغداد، وجلس إلى ذلك الشيخ وحفظ عنه الحديث .. ثم عاد من جديد إلى دمشق.

كان صلاح الدين الأيوبي قد مات، وترك دولة شاسعة تقاسمها أخوه وأبناؤه وأبناء أخوه .. وما هي إلا سنوات حتى تقطعوا أمرهم، فتفرقوا وأصبح بأسمهم بعدهم شديداً .. وتمزقت دولة صلاح الدين إلى دويلات تناحرت فيما بينها، مما أغري التتار والصلبيين بالطمع في الاستيلاء على بعض أجزاء هذه الدولة الإسلامية الكبرى.

وقد أسلكت هؤلاء الحكام معارضهم إما بالإرهاب والقمع أو بإغراقهم في المال أو بدفعهم إلى الرزء والتتصوف على نحو لم يعرفه السلف الصالح من الزهد والتصوفين. وكان هؤلاء جميعاً من العلماء والفقهاء الذين يتورون في الأمة أبلغ تأثيراً!

وعز الدين يرى كل هذا، فيتقدم صفوف طلاب العلم تحت راية الإسلام وخلف قيادة بعض شيوخه من العلماء القلائل المقاومين .. وعرفه الشباب خطيباً يستثير الحمية.

وكان إلى هذا شديد الدأب على تحصيل العلم ، مما أثار إعجاب شيوخه به .

ولم يكدر ينتهي من الدراسة على شيخه الفخر بن عساكر ، وغيره من الشيوخ في جامع دمشق ، حتى أجازوه للتدرис .

وعين مدرساً بدمشق ، يقرئ صغار الطلاب القرآن ، ويعليمهم القراءة والكتابة .. ثم نقل إلى مدرسة أعلى .. يعلم الطلاب الفقه وأصول الفقه على المذهب الشافعى .. وهو المذهب السائد إذ ذاك في كل البلاد التي حكمها صلاح الدين .

وهيأت له مهنة التدريس أجراً طيباً أصلح به حاله ، فاستأجر بيته لانتقا وتزوج ..

وعرف الناس في ندوات دمشق شيخاً متواضعاً متوسط الطول ، يسخر بما يلقى ، مرحًا ضاحك السن ، وعليه مع ذلك وقاره عذب الحديث ، خفيض الصوت إذا تكلم ، جهير الصوت إذا انفعل أو خطب ، نظيف الثوب ، لا يريد سائلًا ، فإذا لم يجد ما يتصدق به أقطع جزءاً من عمamته ودفع به إلى سائله !

وكان نحرياً يقتصر بنظراته المجهولة كأنه يفتشف وراء الغيب عن شيءٍ ما ..!

لم يكتنعوا بما نال من علم ، فتعمد أن يغشى مكتبة الجامع الأموي يقرأ فيها كل ما يقع عليه من معارف ، وقد كشفت له تأملاته ودراساته في آثار السلف أن كل المعارف الإنسانية تعين على فهم القرآن .. وكان يريد أن يفسر القرآن ، ولكنه شعر أن الوقت لم يحن بعد ، وأن عليه أن يستوعب الكثير من العلوم حتى يجسر على العمل بالتفسير وهو مطمئن الضمير !

ودرس خلافات المتقدين حول الفلسفة ، وكان الإمام الغزالى قد هاجم الفلسفة من قبل ، ولكن هذا لم يصرف كل العلماء عن دراسة الفلسفة ، فها هوذا السهروردى المقتول الذى فتن عز الدين بأرائه قد خلف ميراثاً سخياً من الفكر وفق فيه بين الفلسفة والدين .

واستوعب العز كل ماتركه السلف في علم الكلام . العلم الذي يتكلم عن الله وصفاته وأسمائه . ومن السلف من هاجم هذا العلم ونبذه واعتبره بدعة فاسدة ، ومنهم من عالجه وتعقّل فيه وأضاف إليه ، واعتبره علم أصول الدين .

والخلاف بين العلماء حول هذا الأمر قديم يرجع إلى نهاية القرن الأول وأوائل القرن الثاني للهجرة ، حين ظهر المعتزلة وأنضموا كل شيء للعقل ، وتحددوا في القضاء والقدر والجبر والاختيار وصفات الله تعالى ، واعتمدوا في كل آرائهم على الأدلة المقلية . ونبذوهم أهل السنة ورفضوهم وأعتمدوا على ماتركه السلف منذ عصر النبي صلى عليه وسلم وعصر الصحابة ومن بعدهم عصر التابعين . وذهب

أهل السنة إلى رفض الكلام في كل هذه الأمور، لأن أسلافهم لم يتكلموا فيها بل إن منهم من نهى عن الاقتراب منها.

وأتهم أهل السنة مفكري المعتزلة بالزيف والضلال ، واتهموا المعتزلة بالجمود وانعكاس هذا على قواعد استنباط الأحكام وأصول الفقه ، فن تأثروا بالنظر العقلي اعتمدوا على الرأي في الاستنباط ، وتمسك آخرون بالنصوص ، وحدها ، ولم يعدلوا عنها إلى الرأي إن لم يجدوا الحكم في النصوص كما صنع أهل الرأي ودعاة أعمال العقل ، بل آثروا الصمت . ومن أهل السنة من أخذ بظاهر النص وحده ، ومنهم من تأول النص ليستبطن الحكم إن لم يسعفه الظاهر.

وانساقت كل هذه الأفكار بصراعاتها على أمواج الزمن من جيل إلى جيل . حتى أتيح لأهل السنة مفكر كان من قبل من كبار مفكري المعتزلة ثم هجرهم ، مستخدما أدواتهم في التفكير والاستنباط ، فاعتمد على البراهين العقلية في مناصرة آراء أهل السنة والنصوص .

حدث هذا في القرن الرابع المجري .

وهذا الفقيه هو الأشعري الذي ألف الكتب على مذاهب أهل السنة ورد على المعتزلة في كل مقولات علم الكلام . « حتى دخلوا في أقانع السمس » .

وكان المعتزلة قد ذهبوا إلى أن العقل هو أساس الحكم بالقبح والحسن ، وتبين الحلال والحرام ، وذهبوا في تفسير الآية الكريمة وما كانا معدلين حتى نبعث رسولا . إلى أن الرسول ليس هو النبي الذي يرسله الله ، ولكنه العقل .

وأتهمهم أهل السنة بالكفر ، ورفضوا أن يتكلموا في العقائد بالأدلة العقلية ، وهاجروا المنطق والفلسفة ، حتى جاء الأشعري ، فاستعان بالمنطق والفلسفة في الكلام عن العقائد ، ودافع عن السنة بأدلة المعتزلة . فلم يعتمد على النصوص وحدها في كلامه عن العقائد ، وإنما أعمل العقل ، ليناور المعتزلة بأسلحتهم .

وقد أعجب العز بهذا كله ، واعتنق عقيدة الأشعري ، كما اعتنقها من قبل أكثر المستنيرين من أهل السنة والرأي منها تختلف مذاهبهم الفقهية .

أعجب العز الدين بمحاولات المعتزلة والأشاعرة وتتوفر على دارستها في مكتبة الجامع الأموي .

ولقد أحبته بصفة خاصة مناظرة بين الأشعري والجبايني أحد أئمة المعتزلة ، « عن ثلاثة أخوة ماتوا : الأكبر منهم مؤمن برتقى ، والأوسط كافر فاسق شقى ، والأصغر مات على الصغر لم يبلغ الحلم .

فقال الجبائي : أما الزاهد في الدرجات ، وأما الكافر في الدرجات — بناء على أن ثواب المطیع وعقاب العاصي واجب على الله تعالى عند المعتزلة — وأما الصغير فين أهل السلام لا يثاب ولا يعاقب .

فقال الأشعري : فإن طلب الصغير درجات أخيه الأكبر في الجنة ؟

الجبائي : يقول الله تعالى الدرجات ثمرة الطاعات .

الأشعري : فإن قال الصغير ليس من النقص والقصير .. فإنك إن أبقيتني إلى أن أكبر لأطعتك ودخلت الجنة .

الجبائي : يقول الباري تعالى قد كنت أعلم منك أنك لو بقيت لعصيت ودخلت في درجات الجحيم . فإن الأصلح لك أن تموت صغيرا .

الأشعري : فإن قال العاصي المقيم في العذاب الأليم مناديا من بين درجات النار وأطباق الجحيم : يا إله العالمين ! يا أرحم الراحمين ! لم راعيت مصلحة أخني دوني وأنت تعلم أن الأصلح لي أن أموت صغيرا ولا أصير في السعير أسيرا ؟ فماذا يقول رب ؟

فيهت الجبائي في الحال وانقطع عن الجدال

وعن دور الأشعري في الفكر الديني

كتب المغفور له الإمام الشيخ مصطفى عبد الرزاق : أخذت الفلسفة توجه أهل الفرق إلى الاعتماد على العقل . فلما أخذ الأشعري في مناضلة المبتدعة بالعقل حفاظا للسنة ، جاء أنصار مذهبه من بعده يشتبون عقائدهم بالعقل تدعيمها ومنعا لإثارة الشبهة حولها . ووضعوا الأدلة العقلية التي تتوقف عليها الأدلة والأنظار » .

وإذن فذهب الأشعري مقرر لذاهب السلف ولكنه يناضل عنها بالأدلة العقلية لا بالنصوص وحدها . وهو رأى وسط بين مذهب المعتزلة الذين نفوا التجسيم عن الله تعالى ومذهب غلاة الخنابلة الذين آمنوا بالتجسيم كما يدل ظاهر النص .

ولقد شاعت عقيدة الأشعري فاجتمع عليها الشافعية والمالكية والحنفية وفضلاء الخنابلة ... كما قال الشيخ عز الدين بن عبد السلام فيما بعد .

وكان صلاح الدين قد اعتنق المذهب الشافعى وعقيدة الأشعري فألزم بها الناس .

غير أن الذين جاءوا من بعده تفرقوا : فظل بعضهم شافعيا على رأى صلاح الدين ، واعتنق بعضهم غير ذلك من المذاهب ، وإن ظلوا جيئا على رأى الأشعرى إلا قليلا !

وكان الملك الكامل حاكم مصر وهو ابن العادل شقيق صلاح الدين أو سعهم أفقا وأشدتهم احتفالا بالعلم والعلماء ، حتى لقد جلس وهو ملك مصر إلى الشيخ ليتعلم منهم في الحلقات ثم تقدم لنيل إجازة علمية كما يتقدم غيره من الطلاب ، ونجح فيها ! وتعد أن يعقد مجلسا للعلماء في مساء كل خميس ، وفتح المدارس والمكاتب وأغدق على أهل الفقه والعلم .. وكف عن اضطهاد أصحاب المذاهب الأخرى كما كان يصنع عمه صلاح الدين . وعين قضاة من كل المذاهب بدلا من القاضي الشافعى الذى اكتفى به أبوه .. ولقد نافسه فى تشجيع العلماء أخيه عيسى ، فكafa المؤلفين حتى وضعوا فى عهد الملك الكامل كتابا من أضخم كتب الفقه الحنفى وهو كتاب (الذكرة) .

وقد أرسل العز بن عبد السلام إلى الملك الكامل وأخيه عيسى كتاب شكر على ما يصنعان للعلم والعلماء ، فأرسلوا اليه ردًا جيلا . وبعث الملك الكامل إلى أخيه صاحب دمشق — الملك الأشرف — يستوصيه خيرا بالعالم الشاب عز الدين بن عبد السلام .

وكان عز الدين قد جذب إليه عديدا من الطلاب أحبوا دروسه التي كان يرصدها بما حفظ من طرائف الحكمة وروائع الشعر مما كان يپسر على الطلاب صعوبة الفقه .

وقصده الناس يستفتونه فلم يدخل عليهم بالرأى ، ولم يعد يتقييد بالمذهب الشافعى الذى كان يعتنقه من قبل ، بل كان يبحث فى كل المذاهب عن إجابات لما يرد إليه من أسئلة ، فإن لم يجد حاول أن يجتهد رأيه .

وكان شديد الحرج فى فتياه . يفكر طويلا قبل الإجابة ، ويظل يفكربعدها وينقب حتى يطمئن أنه على الصواب . ولقد أصدر فتيا ذات مرة ، ثم طرق يفكربعدها فيما قال ، وعاد إلى كتب السلف عسى أن يجد فيها ما يسانده ، فاكتشف أنه خطأ ، ولم يكن يعرف صاحب المسألة الذى أستفاته ، فأطلق عددا من تلاميذه فى الأسواق والطرقات والمساجد ينادون فى الناس : «من صدرت له فتيا بالأمس من العز عز الدين بن عبد السلام فلا يعمل بها فهي خطأ ، وليرعد إلى الشيخ ليفتته بالرأى من جديد بالصواب » .

شاع ذكر الشيخ فى أقطار المسلمين ، ولم يكن قد ألف كتابا بعد ، ولكن ها هوذا شاب عالم فقيه زاهد أمين ، يستحرر من المذهب الفقهي فى عصر شاع فيه التقليد للأئمة الأربع ، كل جماعة تتبع لمذهب ولا تعوده حتى إن وجدت الجواب الصحيح عند غيره من المذاهب ، وكل حزب بما لديهم فرحة ! فإذا صدرت الفتيا من أحدهم فلا رجعة فيها حتى إن تبين الخطأ ..

وعز الدين لا يتفرغ للعلم والتدريس والفتيا فحسب ، ولكنه يتحرك في الأسواق يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر في رحمة وحكمة وموعظة حسنة ، ويشدد النكير على الظالمين من التجار الذين يخسون الناس أشياءهم ، وعلى جبة المكوس ، والمرتشين والجائزين منمن يلعن أمرا من أمور المسلمين .

من أجل ذلك أحبه الناس : المظلومون والفقراء خاصة ، وطلاب العلم الذين يجاهدون من أجل مستقبل أفضل . وخلفه الجائزون من الحكماء ، أما العادلون منهم فقد حاولوا أن يقتربوه ، ولكنه كان بطبيعة لا يحب الاقتراب من السلطان ...

وضاق به بعض الفقهاء المقلدين من ينافقون الحكماء .. ذلك أنه احتل مكانة لا يوكلها له عمره فهو بعد في الخمسين ، وأنه ليعتمد على مكانته هذه ، فيسلق المقلدين والجامدين والمرتشين والمترقبة الفقهاء بالسنة حداد ، ويطالب المسلمين لا يتبعوهم حتى لا يفسدوا عليهم دينهم !

وفي أحد الدروس وجه أحد الطلاب إلى الشيخ عز الدين سؤلا عن حكم الدين في العلماء الذين يسكنون عن الظلم ، وهم بعد ذاك يتصدرون بعض الحلقات في الجامع الأموي يعلمون ويفتون ؟ !

فأقتنى الشيخ عز الدين بأن السكوت عن المنكر منكر .. وعلماء المسلمين هم أولى الناس بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فإن تخروا فما أطاعوا الله والرسول ، وإن كان سكوتهم طمعا . في الأموال والمدايا والمناصب أو حرصا فيائمهم مصاغف . وقد قال الله تعالى : « فلتكن منكم أمة يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ». وهؤلاء هم العلماء ، فإن لم يفعلوا فهم العصاة والعياذ بالله ..

وأسأل طالب آخر: أもしئل هؤلاء طاعة؟! فقال الشيخ: لاطاعة لهم ...

ورأى ذلك النفر من العلية في كلام الشيخ عز الدين تحريرا للطلاب وللعلامة عليهم وعلى السلطان نفسه ! ..

وتوجه أحد طلاب الحلقات في الجامع الأموي إلى شيخ حلقة يسأله عن حكم الدين في العلماء الذين يتلقون من الحكماء أموالا وهدايا ثمنا لسكتهم عن فساد هؤلاء الحكماء؟ .

وأسأله طالب آخر عن رأي الدين في العلماء الذين لا يأمرون بالمعروف ولا ينهون عن المكرا . وغضب الشيخ غضبا شديدا وسب الطالبيين سبًا عنينا ، وطردهما من الحلقة طردا غليظا وحرم عليهما دخول الجامع ، وذكر الشيخ عز الدين بن عبد السلام بالسوء وأنذر أن يوقع به العقاب حتى لا يفتنه الشباب !

فأعلن سائر الطلاب سخطهم لمقالة الشيخ و فعلته ، فسبهم جميعا ، وأنسحب من الحلقة وهو يصيح

أن ابن عبد السلام قد أفسد العامة والطلاب . !

وانصرف الرجل فاجتمع ببعض شيوخ الحلقات من المتصلين بالسلطان وذهبوا جيئاً إليه ، فطالبوه أن يردع الشيخ عز الدين بن عبد السلام ، وأن ينزل به عقاب من يثير الفتنة ، ولكن الحاكم طيب خاطرهم ، وكما هم حلاً فاخرة وأعدق عليهم المدياً وصرراً من المال ، وطلب منهم أن يمهلوه في أمر الشيخ عز الدين هذا .. !

ولكنهم عادوا يطالبون بأن يمنع عز الدين من الفتيا والتدریس والمشي في الأسواق .

غير أن السلطان الأشرف لم يستجب لهم ، فالشيخ على أية حال لا يدرس في الجامع الأموي ، ولكن في مدرسة صغيرة قليلة الخطر ! .. فليردوا هم في الجامع الأموي على آرائهم .

ولكنهم ما زالوا بالحاكم يغرونه بالشيخ عز الدين حتى صرخ لهم بأنه لا يستطيع أن يسيء إلى عز الدين ، فالمملوك الكامل حاكم مصر يحب عز الدين ، ويوصي به خيراً ، فإن نال من عز الدين سلطانهم فسيغضب له الملك الكامل ولا طاقة له بغضب أخيه الأكبر !

ولم يهدأ كيد الخصوم عن الشيخ عز الدين ، وظلوا يتربصون به ..

وحاولوا أن يغروا به الطلاب وال العامة وأن يسفهوا لهم آرائه ، ولكن حلمتهم عليه وشدة عز الدين في نقد ذلك النفر من العلماء ، مكنت له في قلوب أهل دمشق ، وزادته مكانة في قلب الملك الكامل . فأرسل الملك الكامل إلى أخيه الأشرف ، يطالبه بأن يحسن صلة الشيخ عز الدين ، وأن يعينه شيخ حلقة في الجامع الأموي ، لتعلم الفائدة من علمه .

أما الصلة فقد ردها الشيخ عز الدين شاكراً ، وأما منصبه في الجامع الأموي ، فقد فرح به ، لأنه يتبع له الاتصال بعدد أكبر من الطلاب هم أفضح عقلاً وأكبر سناً من طلاب المدرسة التي يعلم بها .

وكان منصب شيخ حلقة في الجامع الأموي هو أكبر منصب علمي في دمشق .

وتقىم الشيخ عز الدين ، بوجهه النحيل الباسم ، في ثياب بسيطة نظيفة ، فاختار الزاوية الغزالية حيث كان الإمام الغزالى يعتكف منذ أجيال ، وبدأ يدرِّس للطلاب علوم الدين .. وتوافد عليه الطلاب حتى صارت بهم الحلقة ، وأفقرت سائر الحلقات من طلابها . وكان يلقى أكثر من درس في النهار والليل في الحديث والفقه والأصول .. غير متقييد بمذهب من المذاهب الأربع .

وشرع يفتئى كلما استفتاه أحد ، ويشرح عقيدة الأشعرى في أصول الدين ، وأدلة العقلية على

صحة مذهب أهل السنة . ويأخذ الطلاب بإتقان وعلوم اللغة ليفهموا نصوص الشريعة .

وغاظ التفاف الناس حوله وانصرافهم عن سواد ، كثيراً من خصومه ، فعادوا يحاولون الأيقاع به ، ولكنهم خشوا أن يردهم سلطان دمشق حرصاً على إرضاء أخيه سلطان مصر !

أما الشيخ عز الدين فلم يكن ليالي بهم ، بل مضى في طريقة ، يقرأ ويدرس ويفتني ، وقد أطمأن به الحياة فالراتب الذي يأخذة من المسجد الأموي راتب كبير يكفيه لحياة موفورة .

وخطابته زوجته في أن يغير المسكن الغبي الذي كان قد استأجره وهو مدرس في مدرسة صغيرة ! .

لقد ضاق بهم المسكن بعد أن أنجبها أولاداً . وقال لها إنه يعرف أن المسكن الغبي هو الجحيم الأصغر كما قال الإمام على كرم الله وجهه ، وهي تمنى أن يغيره ، ولكن لا سبيل ... ! وعادت الزوجة تلح عليه ، وكان حانياً عليها شديد البر بها ، وتمتنع لو أنه اشتري بيته فسيحاً يحيط به بستان جميل ، فهو بعد أستاذ وشيخ حلقة بالجامع الأموي ، وينبغى أن يتخد له سكننا مريحاً يليق به ، ويتسنى لأهله وبنيه ، ولضيوفه الذين يتوقفون عليه ملتمسين عنده العلم ، والفتيا بعد أن يفرغ من الحلقات ...

وعدها خيراً ، غير أنه لم يستطع ، فقد كان ينفق عن سعة على أهل بيته ، ويخسر إكرام ضيوفه ، ويتصدق بما بقي ، ولا يدخل شيئاً على الإطلاق .

ثم أصابت دمشق أزمة ، فهبطت الأسعار ، وقل المال ، أعننت الناس عنيناً شديداً ... وصارت البيوت الواسعة بما حولها من البساتين تباع بشمن قليل .

فجاءته امرأته وطلبت منه مرة أخرى أن يشتري بيته واسعاً بحديقة وجمعت مصاغاً لها وقالت :

— اشتراكنا بهذا بستاننا .  
فأخذ المصاغ وباعه ، وتصدق بشمنه .

فلم يعاد إلى زوجته استقبلته فرحة :  
— ياسيدى .. اشتراكنا بستاننا !

— نعم ، بستاننا في الجنة . ! إنني وجدت الناس في شدة فتصدق بشمن المصاغ .

— جزاكم الله خيراً .

وكان الناس يتسمعون بفضل الشيخ عز الدين فيزداد مكانة واحتراما ، ولقد علم الأشرف صاحب دمشق بكثرة صدقاته ، فطلبه ، وحاول أن يقدم إليه مالا ليصدق به ولكن رد السلطان ، وأفetaه أنه من الخير أن يتصدق السلطان نفسه بالمال ! ..

وقارن السلطان الأشرف بين هذا الرجل يرفض عطاياه الخفية ، وبين الآخرين الذين يرتشون وبجبرون بالإلحاح في طلب المزيد من المدايا والأموال والمناصب ١١

ودخل السلطان الأشرف إكبار خارق لعز الدين ، وأدرك أن أخاه الكامل ملك مصر على حق ، فثل هذا الشيخ جدير بالإحترام . وإن له لطيبة !

ولاحظ السلطان الأشرف أن الشيخ عز الدين لا يطالب مقابلته على خلاف الآخرين ، وكانت سيطرة عز الدين على قلوب الشباب وسائر الناس تقوى يوما بعد يوم ، وهو لا ينفك يهاجم خصومه من الفقهاء بجمودهم وتمسحهم بأصحاب السلطان ، ولا يكفي عن نقد أخطاء الحكام .

ورأى الأشرف أن من الحكمة أن يصفع الشيخ لنفسه ويدنيه من القصر ، فأخذ يمدح الشيخ عز الدين في كل مكان ، ويطلب منه مجالسته فيتلاقل عنه الشيخ إلى حلقات الدرس ويعالج الفتيا ، ولا يبادله مدحاً بمدح .

وانهزم خصومه الفرصة ، فزعموا للسلطان الأشرف أن الشيخ عز الدين قد غره حبه الناس له والتفاف الشباب حوله ، فرسولت له نفسه الأمارة بالسوء أن يتعالى على الجميع حتى على السلطان نفسه !

وفي الحق أن السلطان الأشرف ، كان يشعر برج لموقف الشيخ عز الدين منه ، وكان يحس في أغوار نفسه أن الشيخ لا يضره من الإحترام ما يجب على الحكم للحاكم ! ! ...

وكان في حاشية السلطان نفر من فقهاء الحنابلة المتشددين المضيقين ، وكان الشيخ عز الدين ينكر عليهم غلطهم مع خالفتهم ، ويتهمهم بالحقق والجمود وفساد الرأي ، وبالإساءة إلى صاحب المذهب الإمام أحمد بن حنبل ، الذي كان فقيها جليلا عميق النظر واسع الأفق رائعا الحكمة .. والذى ترك تراثا عظيما يحمل كل طاقات التجديد .

ولكن هذا النفر من فقهاء الحنابلة ، كانوا قد خالطوا السلطان الأشرف منذ كان حدثا صغيرا ، وصاغوا عقله على رأيهم الجامد المتحجر حتى « أختلط هذا بلحم السلطان ودمه وصار يعتقد أن خالفه كافر حلال دمه »

وقد أتاحت لهم منزلتهم عند السلطان . ونفوذهم عليه أن يصنعوا في البلاد كما يشاءون ، فكانوا إذا  
خلوا بمخالفتهم من الشافعية أو الأشعرية آذوهم وضربوا بهم !

وما كان ليغمض لهم جفن وهم يرون السلطان الأشرف يخطب ود الشيخ عز الدين  
بن عبد السلام .

وغدوا إلى السلطان ليوقعوا بالشيخ عز الدين ، قبل أن يتقارب الرجالان ، فزعموا للسلطان أن العز  
عز الدين يخالف السلف ويقول في القرآن قوله عظيم .. ويختلط من يقول في القرآن بالحرف والصوت ،  
وأنه يعتقد رأى الأشعري : أن الخبز لا يشبع والماء لا يروي والنار لا تحرق !! .. وهذا كله كفر !!

وكان الأشرف قليل الحظ من الشفافة وعلوم الدين والاطلاع على آثار السلف .. فما تعلم إلا  
ما علمه ذلك النفر المحيطين به من أراذل فقهاء الحنابلة الذين ينافقونه !

ولم يصدق السلطان أول الأمر أن الشيخ عز الدين يقول هذا وهو العالم الورع عظيم التقوى ..  
وزجرهم السلطان .. ولكنهم وعدوا السلطان أن يقدموا له الدليل الخامس .

وأجمعوا أمرهم ، وجاءوا عز الدين عبد السلام فقدموا إليه ورقة فيها فتيا بأن القرآن حرف وصوت ،  
وطلبوا من الشيخ أن يكتب رأيه في هذه الفتيا ، وكان قد علم بكيدهم وهم لا يشعرون !

قال لهم الشيخ عز الدين : « هذه فتيا كتبت امتحاناً لي . والله لا أكتب فيها إلا ما هو الحق . »

وببدأ الكتابة بتفسيره الفتيا ، وتأكد أن الإمام أحمد بن حنبل لا يعتقد أن القرآن حرف وصوت ،  
وقولهم هذا إنما هو جهل فاضح برأي الإمام أحد .. واستطرد الشيخ عز الدين فكتب أن الإمام أحمد بن  
حنبل بريء من كل ما يدعون . وأن فضلاء الحنابلة أبرياء منهم . وكذلك سائر السلف : فهم لا يقولون  
بالحرف والصوت . فالإمام أحمد بن حنبل وغيره من فقهاء السلف الصالح . لا يعتقدون أن وصف الله  
القديم القائم بذاته هو عين لفظ اللافظين ومداد الكاتبين . مع أن لفظ الله قديم ، وهذه الأشكال  
والألفاظ حادثة بضرورة العقل وصریح النقل . قال تعالى : ما يأتیهم من ذكر من ربهم محدث .  
والعجب من يقول إن القرآن مركب من حرف وصوت ثم يزعم أنه في المصحف !! وليس في  
المصحف إلا حرف مجرد لاصوت معه !! وإنما أتنى القوم من قبل جهلهم بكتاب الله وسنة رسوله  
وسخافة العقل وبلاهة الذهن فإن لفظ القرآن يطلق في الشرع واللسان على الوصف القديم ، ويطلق  
على القراءة الحادثة ، والقراءة غير المقررة ، لأن القراءة حادثة والقرآن قديم وهو لاء القوم يذمون  
الأشعري لقوله أن الخبز لا يشبع والماء لا يروي والنار لا تحرق . وقول الأشعري كلام أنزل الله معناه في  
كتابه : فإن الشيع والرى والإحراق حوادث انفرد الرب بخلقها . فليس الخبز هو الذي يخلق الشبع ، ولم

يخلق الماء الرى ، ولم يخلق النار الإحرق ، وإن كانت أسباباً فى ذلك . فالحالت هو المسبب دون السبب كما قال تعالى : ومارميت أذ رميتك ولكن الله رمى « فقد نفى أن يكون رسوله خالقاً للرمى وإن كان سبباً فيه .. »

وعندما ظفروا بجواب الشيخ تماليوا من الفرح ، وأيقنوا أنها القاضية عليه !

أوحوا إلى السلطان أن يدعو جميع الفقهاء والعلماء إلى سماطه على الإفطار . وكان الوقت رمضان . ففعل ، وذهبوا بما كتبه الشيخ عز الدين إلى السلطان الأشرف ، فانفجر سخطه على الشيخ .. ! سخط عنيف هائل ينبع من أعماق نفس امتلأت بالحب والاكبار لشخص رفضت فيه كل الوشيات والأقوايل ، ثم إذ بها تكتشف بعنة أن هذا الآخر ، كان يخدعها ويسخر منها ، ويظن بها الغفلة !! .. واحتلطا غضبه على الشيخ بضيقه المترافق من سيرة الشيخ معه . فهو كلها أدناه ابتعد ، وكلما قربه هجر ، وكلما تألفه نفر .. !

وعلى سماط الإفطار ، ظلت صيحة السلطان تندد بالشيخ عز الدين : « صبح عندي ما قالوه عنه ! .. هذا رجل كنا نعتقد أنه متوحد في زمانه في العلم والدين ، فظهر بعد الاختبار أنه من الفجار... لا ... بل من الكفار » ! ..

ولم يستطع أحد من الفقهاء أو العلماء أن يرد على السلطان الأشرف .. وظل صوته يدوى بالوعيد في به الطعام بقصره السلطاني . وضيوفه يغضبون طعام الإفطار على مهل ، ويزدردون المضمض ، وقلوبهم تدق ! !

مامن صوت واحد يرتفع إلا أنفاس تلهث ، وصرخ السلطان يتضاعد كحيوان جريح يوشك أن ينتقض ليفترس ، بكل ضراوة الألم والإهانة وغرية البقاء !!

وبعد لأى تغيراً أحد الفقهاء فقال في تذلل : « السلطان أولى بالصفح والعفو ، ولا سيما في مثل هذا الشهر ، شهر رمضان . فلم يرد السلطان ، وهمهم آخر ملتمساً مغفرة السلطان .. !

ولم يرد السلطان .. وانصرف الفقهاء والعلماء ، وكان منهم على مائدة الإفطار ، عدد من العلماء والفقهاء من كل الأقطار .

وتشاقق العلماء والفقهاء محدث ، ولاموا أنفسهم على الصمت في حضرة السلطان ، وهم يعلمون أنه على الباطل ، وأن الشيخ عز الدين على الحق الذي يؤمنون به هم أنفسهم !

ومحفز الطلاب والمعجبون !

ماعسى أن يصنع السلطان بشيخهم عز الدين؟!

أيتم السلطان الأشرف وهو جاهل بأصول الدين، شيخهم العالم الورع التقى بالفجر والكفر؟!.. أتراه ينزل به عقاب الفجار والكافر وهم ينظرون؟!

واشتعل التوتر في دمشق. وأصبح الناس وما من شيخ من الذين حضروا المأدبة بالأمس، يستطيع أن يمشي في الأسواق!

احتشد الطلاب حول باب الشيخ عز الدين، وتعهدوا أن يمنعوه إذا حاول السلطان أن ينزل به أي مكره.

ولاذ أرادل شيخ الحنابلة من حاشية السلطان بالقصر، غير أن شيخ المالكية عمرو بن الحاجب عذبه صمته وصمت الفقهاء الآخرين أمام السلطان، فركب بغلته وأخذ يطوف المدينة، حتى جمع العلماء في الجامع الأموي بعد صلاة العصر وانقض عليهم بعنفهم: «العجب أنكم كلكم على الحق وغيركم على الباطل، وما فيكم من نطق بالحق. وسكتم وما انتصرتم لله تعالى والشريعة المطهرة».

ولما تكلم متكلم منكم قال: السلطان أولى بالغفور والصفح ولا سيما في مثل هذا الشهر! وهذا غلط يوهم الذنب، فإن الغفور والصفح لا يكون إلا عن جرم وذنب... أما كنتم سلكتم طريق التلطف بإعلام السلطان بأن ما قاله ابن عبد السلام مذهبكم ومذهب أهل الحق وأن جمهور السلف والخلف على ذلك، ولم يخالفهم فيه إلا طائفة محندة يخنون مذهبهم ويدسونه على تخوف إلى من يستضعفون علمه وعقله، ومنهم السلطان الأشرف؟! لقد قال الله تعالى: «ولا تلبسو الحق بالباطل وأنتم تعلمون».

ولام ابن الحاجب لأنّه سكت، وأعلن الندم والتوبة.. ثم اقترح عليهم أن يكتبوا فتياً بموافقة الشيخ عز الدين بن عبد السلام.

وكتبوا الفتياً وقعوها، وذهبوا إلى بيت العز الدين عبد العزيز بن عبد السلام، وخاصوا إليه زحام الناس الذين رابطاً عند بيته.

وقبيل أن يتداعع الناس لادانتهم على موقفهم أعلن ابن الحاجب، أنهم جاءوا الشيخ بفتياً موقعة منهم توافق رأيه. وهذا هو اعتذارهم له مما فرط منهم أمام السلطان في حق الشريعة وحق ابن عبد السلام.

وفرح الشيخ ب موقف ابن الحاجب ومن معه من العلماء والفقهاء

فأرسل الشیخ إلى السلطان يعلمه بفتیا الشیوخ ، وأنهم « إذا كانوا قد سكتوا ولم يعلنوا رأيهم على سماط الإفطار بالأمس ، فما ذلك إلا لأن السلطان لم يكنهم من الكلام لما ظهر من حدة غضبه » !

وأنهى رسالته طالبا من السلطان أن يعقد مجلسا للشافعية والحنابلة بحضوره المالكية والحنفية وغيرهم من العلماء لتدور المنازرة أمام الجميع بينه وبين خصوصه من فقهاء رجال الحاشية !

وأنهى رسالته إلى السلطان بقوله : « والذى نعتقد فى السلطان أنه إذا ظهر له الحق رجع اليه ، وأنه يعاقب من موه بالباطل عليه ، وهو أولى الناس بموافقة والده السلطان الملك العادل . فإنه عز جماعة من أعيان الحنابلة المبتدعة تعزيرا بليغا رادعا ، وبدع بهم وأهانهم . »

وذهب ابن الحاجب إلى السلطان وسلمه الرسالة ، ولم يقرأها السلطان أمامه ، ووعده السلطان خير وودعه خيرا وداع ..

وعندما خلا السلطان الأشرف إلى رجال حاشيته من الفقهاء الحنابلة وقرأوا الرسالة أوجسوا خيفة من مجلس المنازرة الذى اقترحه الشیخ عز الدين ، فما كانوا يطيقون مواجهته أمام سائر الفقهاء والعلماء . وخلصوا تجبيا وأجمعوا على لا تكون مناظرة ، ثم وسوسوا في صدر السلطان لا يقبل عقد المنازرة ، فقد يهينه ابن عبد السلام !

وكتبوا ردا فوقه السلطان . واستدعاى رسولًا يحمل الرسالة إلى الشیخ عز الدين ليأتى فى الوقت بردہ .

وفض الشیخ رسالة السلطان وقرأها بصوت مرتفع ليسمعها ضيفه .

« بسم الله الرحمن الرحيم . وصل الى ما تمسه الفقيه ابن عبد السلام أصلحه الله من عقد مجلس وجمع المفتين والعلماء ، وقد وقفنا على خطه وما أفتى به ، وعلمنا من عقيدته ما أغنى عن الاجتماع به . ونحن نتبع ما عليه الخلفاء الراشدون الذين قال صلى الله عليه وسلم في حقهم : عليكم بسنننا وسنة الخلفاء الراشدين من بعدي . وعقائد الأئمة الأربعية فيها كفاية لكل مسلم يغلب هوا ، ويتبع الحق ، ويخلص من البدع ، اللهم إلا إن كنت تدعى الأجتهد ، فعليك ان تثبت ليكون الجواب على قدر الدعوى ، ولتكون صاحب مذهب خامس . وأما ما ذكرته عن الذي جرى في أيام والدى تقدمه الله برحمته ، فذلك الحال أنا أعلم به منك ، وما كان له سببه إلا فتح باب السلامة لأمر ديني

وกรรม جره سفهاء قوم

فعمل بغير جانيه العذاب

ومع هذا لقد ورد في الحديث : ( الفتنة نائمة لعن الله مثيرها ) . ومن تعرض إلى إثارتها قاتلناه مما يخلصنا من الله تعالى ، وما يغضبه كتاب الله تعالى ، وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم . »

وعندما فرغ الشيخ من قراءة الرسالة طواها وقال للرسول : « قد وصلت وقرأتها وفهمت ما فيها فاذهب بسلام . فرد الرسول : « لقد تقدمت الأوامر السلطانية بإحضار جوابها . »

والطلاب ومؤيدو الشيخ مازالوا خارج الدار ينتظرون ما يكون ، وقد استبد بهم التوتر والقلق منذ دخول رسول السلطان !

وفي داخل الدار يجلس مع الشيخ ابنه عبد اللطيف ، وبعض الأصدقاء ، وأحد العلماء الفضلاء من يغشون مجالس السلطان ، وقد أقبل يتوسط بين السلطان والشيخ .. ولكن لم يكدر يسمع الرسالة حتى تغير لونه وأيقن أنه لا جدوى من وساطته ، ودخل في نفسه أن الشيخ يعجز عن الجواب ، وأنه هالك لامحالة !

غير أن الشيخ كتب للسلطان مترسلا بلا توقف وهو يقرأ ما يكتبه : « بسم الله الرحمن الرحيم . فوربك لنسألكم أجمعين عما كانوا يعملون . أما بعد . حدا الله الذي جلت قدرته وعلت كلامته . فإن الله إن تعالي قال لأحب خلقه إليه وأكرمه عليه : « وإن طمع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله إن يتبعون إلا الظن ، وإن هم إلا يخربون » . وقد أنزل الله كتبه ورسله لنصائح خلقه . فالسعيد من قبل نصائحه وحفظ وصيائه . وأما طلب المجلس وجمع العلماء فما حملني عليه إلا النصح للسلطان وعامة المسلمين ، وقد أديت ما على في ذلك . والفتيا التي وقعت في هذه القضية يوافق عليها علماء المسلمين من الشافعية والمالكية والحنفية والفضلاء من الخنبلة ، وما يخالف في ذلك إلا رعاع لا يعبأ بهم ! وأما ما ذكر من أمر الاجتهد والمذهب الخامس فأصول الدين ليس فيها مذهب ، فإن الأصل واحد ، والخلاف في الفروع . والحمد لله وحده . وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم .. »

وختم الرسالة بتوقيعه وطواها وسلمها رسول السلطان .

وقال له العالم الذي جاء للوساطة بينه وبين السلطان : لو أن هذه الرسالة التي وصلت إليك وصلت إلى قس بن ساعدة لعجز عن الجواب ، وعدم الصواب ، ولكن هذا تأييد من الله .

وتلقيت الرسالة على السلطان ، فألقوا في روعه أن الشيخ يتحداه محتميا بالعامة والطلاب وسائر العلماء ! فلينزل بالشيخ عقاب الفجار والكافر !

ولكن السلطان لم يستطع فقد وجد كل العلماء حتى فضلاء الخنبلة يؤيدون الشيخ ! فما يقف

السلطان إلا بعض رجال الحاشية من فقهاء الخنابلة وهم الذين أسمائهم الشيخ في رسالته : الرعاع ، والجهال . واتهمهم بالبلادة والإساءة إلى الإمام أحمد بن حنبل !

وفكراً السلطان ملياً ، ثم استدعي وزيره وأسمه خليل ليشاوره في الأمر ، وكان الرجل من الذين يحبون الشيخ عز الدين ويحترمونه . وما زال الوزير يحاور السلطان ويوضع له سوء عاقبة البطش بالشيخ حتى هداً السلطان .

وذهب خليل وزير السلطان إلى الشيخ العزيز بلغه أمر السلطان : « لا لا يفتى ، وألا يجتمع بأحد ، وأن يلزم بيته » .

وحاول الوزير خليل أن يهون على الشيخ عز الدين . فهذا العقاب أخف مما كان معداً له .

غير أن عز الدين ابتدأه باسمه : « إن هذا العقاب من نعم الله الجليلة على ، الموجبة للشكر على الدوام . . . أما الفتيا فإني كنت والله متبرماً منها ، وأعتقد أن الفتى على شفير جهنم . ومن سعادتي لزومي لبيتي وتفرغني لعبادة ربِّي ، والسعيد من لزم بيته ، وبكى على خطبه ، واشتغل بطاعة الله . » وأراد الشيخ أن يقدم هدية للرسول شكراً على هذه الرسالة السارة ، فلم يجد غير سجادة صغيرة :

ولما عاد خليل يروى للسلطان مقالة الشيخ عز الدين قال السلطان محنقاً : « قولوا لي ما أفعل به ؟ .. هذا رجل يرى العقوبة نعمة . أتركوه . بيننا وبينه الله . »

على أن الذين أحاطوا بدار الشيخ العز الدين لحراسته أنكروا عليه طاعته لأمر السلطان ، وكلموه في ذلك فقال لهم إن مصلحة قيام الشعْر تقتضي وجود السلطان ، ومتى وجد وجبت طاعته والا تعطلت الأحكام !! ولكن لا طاعة للسلطان إذا خان عهد الله وأهدر مصالح المسلمين وأمر بمعصية الخالق . أما فيما عدا ذلك فالطاعة واجبة .

وعجب له محبوه ،

فأمرهم بالحسنى أن ينصرفوا إلى شؤونهم ويدعوه وشأنه ، فسيكتفى للعبادة .. أما وجودهم حول الدار فسيتعذر لأعدائهم أن يتهموه بإثارة الفتنة !

غير أنهم انصرفوا إلى الزاوية الغزالية التي كان يدرس بها ، وأقسموا ألا يستمعوا لشيخ غيره . !

وجلسوا في حلقة الفارغة متربصين ! ولم يجيء إليهم أستاذ غيره يعلمهم مكانه !!

على أن سائر العلماء والفقهاء أضمرروا السخط على مأاصاب الشيخ ، ولكنهم رضوا به لأنهم كانوا

يتوقعون عقاباً أشد ودعوا الناس إلى الصبر. وقضاء أخف من قضاء !

أما الشيخ جمال الدين الخصيري شيخ الحنفية فما كان ليستطيع على ماجرى صبرا .. ! وكان عاماً ورعاً فاضلاً صاحب نفوذ على قلوب الناس جميعاً، وكان السلطان يحسب له ألف حساب !

وما هي إلا ثلاثة أيام قضتها عز الدين في بيته ، ممثلاً للأمر السلطاني ، ممتنعاً عن لقاء من سعوا إلى لقائه ، حتى كان الشيخ الخصيري يركب حماره إلى السلطان ، ومعه ابن الحاجب شيخ المالكية . ولم يكدر السلطان يعلم أن الشيخ الخصيري شيخ الحنفية قادم إليه حتى أمر كبير وزرائه وكبار حاشيته أن يستقبلوا الشيخ خارج القصر ، وأن يدخلوه القصر راكباً حماره تكريماً له .

ودخل الشيخ ساحة القصر ، فاستقبله السلطان وأنزله بنفسه عن حماره ، وأدخله القصر وأجلسه إلى جواره وهش له ، وجلس ابن الحاجب وفي يده ورقة فيها توقيع العلماء على تأييد موقف الشيخ عز الدين ابن عبد السلام ..

وحين أذن لصلاة المغرب وبسطت المائدة للإفطار ، أم الشيخ الخصيري السلطان والحاضرون في الصلاة !

وبعد الصلاة دار الشراب عليهم وهم جلوس قبل أن ينتقلوا لمائدة الطعام . وكان الحاضرون هم حاشية السلطان من أزادل فقهاء الحنابلة أعداء العز بن عبد السلام ..

وقدم السلطان للشيخ قدح الشراب ، فنحاه بإشارة غاضبة قائلاً : « ماجئت إلى طعامك ولا إلى شرابك »

فقال السلطان : « يرسم الشيخ ونحن نتمثل لرسومه . »

الشيخ : إيش بينك وبين ابن عبد السلام ؟ .. هذا رجل لو كان في الهند أو في أقصى الدنيا كان ينبغي على السلطان أن يسعى في حلوله في بلاده ، ويفخر به على سائر الملوك . »

السلطان : عندي خطه باعتقاده في فتيا ، وخطه أيضاً في رقعة جواب رقعة سيرتها إليه . فيقف الشيخ عليها ويكون الحكم بيني وبينه .

فلما قرأ الشيخ الخصيري رسالتى عز الدين بن عبد السلام رد الورقتين للسلطان وقال : « هذا اعتقاد المسلمين وشعار الصالحين ، وكل ما فيها صحيح ، ومن خالف ما فيها وذهب إلى ما قاله الخصم من إثبات الحرف والصوت فهو حمار ! ». وهب الجميع فالشيخ يتم السلطان بأنه حمار .. وريع

السلطان من حدة الشيخ الخضيري ، ونظر إلى ابن الحاجب المالكي وقدم إليه ورقة يؤيد فيها العلماء رأى ابن عبد السلام ! ونظر إلى الحاشية من فقهاء الخنابلة فوجدهم قد اسودت وجوههم وعراهم الأضطراب . فقال السلطان الأشرف : « نحن نستغفر الله مما جرى ، ونستدرك الفارط في حقه ! .. والله لأجعلن ابن عبد السلام أغنى العلماء . »

وقاموا إلى الإنقطاع ، ثم أرسل السلطان إلى الشيخ عز الدين ، فترضاه وأجلسه إلى جواره وسأله أن يطلب ما شاء ترضية له ، فلم يطلب عز الدين شيئاً . ولكن السلطان ظل يستمعبه ويسترضيه ، حتى رضى الشيخ وعاد إليه مرحه .. وازوى الأراذل من خصمه ، وأذن للعشاء فأتمهم الشيخ عز الدين لصلة العشاء استجابة لدعوة الخضيري وأبن الحاجب .

وقبل أن ينقض المجلس أمر السلطان لا يخوض أحد في الكلام في أمر الخلاف مرة أخرى .

وفي اليوم التالي عاد الشيخ عز الدين إلى الزاوية الغزالية بالجامع الأموي يدرس ويفتش ، وأستقبله عبوه هاتفين .. « الله أكبر .. الله أكبر .. ظهر الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً . »

وعلم الملك الكامل سلطان مصر بما كان ، فأرسل يسأل العزوبيدي استعداده لنصرته ، .. فشكراه الشيخ ولم يحك له ما جرى .

وجاء الملك الكامل سلطان مصر ، لزيارة أخيه الملك الأشرف سلطان دمشق . وسأل الملك أخاه عما حدث من خلاف بين الشافعية وبعض الخنابلة فقال الأشرف أنه قد أمر الفريقيين بأن يكفوا عن الكلام سداً لباب الخصم . فقال الملك الكامل ناهراً أخاه الأشرف : « والله مليح .. ! ما هذه إلا سياسة وسلطنة .. ! تساوى بين أهل الحق وأهل الباطل ، وتمنع أهل الحق من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ؟ كأن الطريق أن تتمكن أهل السنة من أن يلعنوا بمحاجتهم ، وأن يظهروا دين الله تعالى ، وأن تشتق من هؤلاء المبتدعون عشرة نفساً ليتردع غيرهم ، وأن تتمكن الموحدين من إرشاد المسلمين وأن يبيتوا لهم طريق المؤمنين » . . وذاب الملك الأشرف خجلاً ، وظل يعتذر عما بدر منه . فاتهمه أخوه الأكبر بالجهل ، ونصحه أن يجلس إلى الشيخ عز الدين ليعلمه أصول الدين ، وما زال به حتى أقنعه بصحة رأي الأشعرية وفساد رأي حاشيته . وأوصاه بعز الدين خيراً فأرسل الأشرف في استدعائه . وأخذ الملك الكامل يتلطف مع عز الدين أمام أخيه الملك الأشرف ، ويسأله أن يتمني عليه ما يشاء ، وعز الدين يشكره ويحمد الله إليه ولا يطلب شيئاً ..

ووقع الأشرف مرسوماً بتعيين الشيخ عز الدين خطيباً للجامع الأموي ليزيد النفع بعلمه .

وقال الأشرف لأخيه الكامل : لقد غلطنا في حق الشيخ عز الدين بن عبد السلام غلطة عظيمة .

ولكنى أترضاه ولن أعمل إلا بفتاويه . »

أقتى السلطان الأشرف رسالة كتبها الشيخ عن مقاصد الصلاة ، فكانت تقرأ عليه فى اليوم ثلث مرات ، ولا يدخل عنده أحد إلا طلب منه أن يقرأها لينفعه الله بها . وكان يقول بعض خاصته : « أنسخوها وطربوا بها مجالسكم . »

إطمأن الكامل إلى أن أخيه الأشرف قد أصلح عقيدته ، وأبعد من حاشيته الفقهاء المسلمين المنافقين البداء المرتدين من أراذل الخنابلة .

وأصبح له مجلس أسبوعي من فضلاء الخنابلة وعلماء المذاهب الأخرى يتدارسون فيه الفقه وأصول الدين .

وجاءه الشيخ عز الدين مستجبياً لدعوته ، وكان من قبل لا يحببه ، فاقتصر عز الدين أن يرفع السلطان الضرائب التي تقلص الصناع والتجار والقراء ، وأن يعوضها بضرائب على الأغنياء ، وأقترح عليه أن يغلق المآخرين والحانات ودور الفساد ، فاستجاب السلطان الأشرف من فوره لما طلبه الشيخ .

أشار الكامل على أخيه الأشرف أن يعين عز الدين قاضياً للقضاء ليصلح له أمور الرعية ، فتردد الأشرف ، على الرغم من أن اشارة أخيه الأكبر كانت أمراً بالقياس إليه !

وقال الأشرف أنه يخشى من عناد عز الدين وشدة إذا هو تولى أمر القضاء وأصبحت أحكمه واجبة النفاذ ! .. ففضحه الملك الكامل ، وأمر أخيه لا يشق بأحد من العلماء إلا هؤلاء الذين يأخذون الكتاب بقوة ، الأشداء الأتقياء الورعين الذين لا يخالفون في الله لومة لائم . لأن هؤلاء هم أعمدة الأمة ومنارات العدل ، وهم أحرى بأن يجعلوا السلطان قوياً وفاضلاً ومحباً عند الرعية ، وهم على أية حال خير من الفقهاء والعلماء الضعاف المستغزلين المنافقين طلاب المنافع الذين يذهبون بجلال الملك ويزورون بهيبة الدين !!

وروى الكامل لأن أخيه قصته مع قاض مصرى ورع شديد في الحق . ذلك أن الملك الكامل وهو الملك المهاب الصالح ، كان قد هفا قلبه إلى مغنية قاهرية بارعة الجمال ذات صوت لم يسمع أعدب منه اسمها عجيبة . وكانت عجيبة تذهب إلى الملك ، فتنهى له ولخاصته حتى قبيل الفجر ، على قرع الدف ، ورنة عود تدقن العزف عليه . فعرضت أمام القاضى دعوى كان أحد طرفها رجل من خاصة الملك يسمع معه إلى غناه عجيبة وجوارتها . وأراد الملك أن يشهد في تلك القضية . فرفض وقال لل圆满完成 : « السلطان يأمر ولا يشهد . » ولكن الملك الكامل لم يقنع برأ القاضى ، وعاد يطلب منه أن يؤدى الشهادة ، وكرر القاضى الاعتذار ، فأدرك الكامل أن القاضى لا يقبل شهادته ، فسألته : « أرأى

أن أشهد . أتقبلني أم لا ! » فقال القاضى : لا . ما قبلك . وعجبية المغنية تطلع إليك كل ليلة ، وتنزل ثانى يوم بكرة تتمايل سكرا على أيدي الجوارى . «

فغضب الكامل وقال له : ياكنواج « وهى شتمة فارسية » فقال القاضى : « مافى الشريعة ياكنواج ! أشهدوا على أنى عزلت نفسي . » ومضى ينشد فى الناس :

لَمْ يَكُنْ شَيْئًا تَوْلِيهُ  
وَلَمْ يَكُنْ شَيْئًا تَقْضِيَهُ  
وَمَا كَنْتُ قَبْلَ تَمْنِيَهُ  
وَقَدْ سَاقْتُنِي لِلتَّقْضَاءِ الْقَضَاءِ

وفكر الملك فيما عسى أن يقول الناس عن سبب عزل القاضى . فأرسل إليه يتراضاه ، وعدل عن طلب الشهادة . ولم يعد يستقبل المغنية ولا يقيم مجالس طرب . وسارفى رعيته منذ ذلك اليوم سيرة تقية فاضلة ، وهكذا أصبح وعده ورع قاض حازم عادل ، فأصبح الملك باتعاظه مهابا محبا ..

ورى الملك الكامل لأنخيم الأشرف الملك الأشرف هذه الحكاية ، وأقنعه أن وجود عالم فاضل عادل قوى إلى جوار الملك إنما هو أقوم للسلطان والرعاية جيما .

ولكن السلطان الأشرف وعد بتعيين الشيخ عز الدين قاضيا للقضاء ، ثم ترافق ،

وأراد الملك الكامل أن يؤكد لأنخوم الأشرف والصالح اسماعيل ، ماللشيخ العزم مكانة وتقدير . فدعاه فى حضورها وبالغ فى حسن استقباله ، وأجلسه إلى جواره وأخذ يستفتنه . وكلما أفتى الشيخ أبدى الملك أتعجبا بالفتيا ، وسأل الرضى والدعاء . ثم قال له مشيرا إلى أصغر الأنحصار الصالح اسماعيل : « إن هذا له غرام برمى البندق ، فهل يجوز له ذلك ؟ » فقال الشيخ : « بل يحرم عليه . فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عنه لأنه يفتأ العين ويكسر العظم ويحرم عليه » والبندق كور صغيرة من الرصاص أو الحجر تستعمل فى الصيد .

وعاد الملك الكامل إلى القاهرة ، ومرض الملك الأشرف ، فأذاب عنه ولى عهده الصالح اسماعيل . وكان الشيخ عز الدين كما تعود من قبل لا يغشى مجالس السلطان ولا يزوره ، ولكنه عاده فى المرض ، فبلغ التأثر من نفس السلطان اعظم مبلغ حتى بكى ، وسأل الشيخ أن يغفوا عنه لما فرط منه فى حقه ، فدعاه الشيخ وأمر السلطان وأمر ولى عهده الصالح إسماعيل لا يستفتى غير الشيخ عز الدين وأن يستهدى بآرائه .

غير أن الصالح إسماعيل ، لم يقرب الشيخ ولم يدعه إليه .. ففتيا الشيخ بتحريم الرمي بالبندق آلمته !

على أنه أهدر هذه الفتيا منذ أصبح سلطانا ، وجمع حوله خصوم الشيخ من الأراذل والبلداء الذين

يتحلون الفقه الحنفي و يشوهونه !

وأقصى الصالح إسماعيل عنه الفضلاء من العلماء الحنابلة ، وانصرف إلى اللهو ، وأعاد ما أبطله أخيه من المنكرات : ففرض على التجار والصناع وأرباب الحرف والقراء كثير من المكوث والضرائب التي كان أخيه الأشرف قد رفعها عنهم !

وأحاط به النخاسون الكبار وأغنياء تجارة الرقيق ، فأعاد فتح الحانات والموالخير ! .

وأحياناً كل المفاسد والبدع التي كان أخوه الأشرف قد أ Mataها استجابة لطلب الشيخ عز الدين .. !

وكان الصليبيون الفرنجة والتتار الطامعون في الاستيلاء على أرض العرب قد عرّفوا ولع الصالح اسماعيل بالتفايس وبالتحف الفاخرة والخمر الغالية والجواري الحسان ، فطفقوا يقدمون إليه الهدايا النادرة ، حتى بادلهم الهدايا ونشأت بينه وبينهم ألمه وودة .. ولقد دسوا إليه من الجواري الحسان من أصبحن عيونا عليه ، فلن لا يربحن مجالسه في هو أو جد ، ويطلعن على كل أسراره ، وهو بهن سعيد !

وَفَسَدَ الْأَمْرُ فِي دَمْشَقَ، فَأَرْسَلَ أَهْلَ الْغَيْرَةِ فِيهَا يَشْكُونَ الْمَلْكَ الصَّالِحَ اسْمَاعِيلَ إِلَى أَخِيهِ الْأَكْبَرِ  
الْمَلْكِ الْعَادِلِ سُلَطَانِ مَصْرَ. فَسَارَ عَلَى رَأْسِ جَيْشٍ إِلَى دَمْشَقَ، وَأَبْطَلَ الْمَفَاسِدَ وَرَفَعَ الْمَكْوَسَ وَالْمَصْرَابَ  
الظَّالِمَةَ عَنْ كَاهْلِ الصِّنَاعَ وَأَرْبَابِ الْحَرْفِ وَالْفَقَرَاءِ وَالْتِجَارِ، وَعَيْنَ الشَّيْخَ الْعَزِيزَ الدِّينَ عَبْدَ الرَّزِيزَ بْنَ  
عَبْدِ السَّلَامِ قَاضِيَاً، صَوْنَا لِلْعَدْلِ، وَحَفَظَا لِلشَّرِيعَةِ، وَضَمَانَا لِصَلَاحِ الْأَمْرِ، وَأَذْعَنَ الْأَشْرَفَ لِأَمْرِ أَخِيهِ  
الْأَكْبَرِ.

وكان على الشيخ عز الدين ، أن يضع على رأسه أكبر عمامة في الدولة : عمامة قاضي القضاة ، صاحب أكبر منصب ونفوذ .. الرجل الذي يلزم بأحكامه كل أولياء الأمر حتى السلطان نفسه !

ورأى الشيخ عز الدين أن يتعجل من التقليد ، فطرح العمامة كبيرة وصغيرها ، ووضع على رأسه طاقية من لباد مصر وهي غطاء الرأس الذي لا يستعمله إلا فقراء الناس في مصر والشام . وكان من قبل عندما عين خطيباً للجامع الأموي ، قد طرح الرداء الأسود الذي ألف خطباء الجامع ارتداءه ، وعدل عن صعود المنبر بالسيف ، وعن ترصيم الخطبة بالسجع .

ها هوذا الشيخ عز الدين ، يجمع كل وسائل النفوذ وأدواته : فهو خطيب الجامع الأموي ، وأكبر المفتين ، وهو شيخ حلقة ، يقنن الناس بوضوح الدليل ونصاعة البرهان وقوة الحجة ، ثم هو إلى كل ذلك قاضى القضاة ، فعلى رجال الدولة تنفيذ ما يقضى به ، وإلا أثموا شرعا ، واختل ميزان الأمور ، فتهراة الدولة !

والشيخ يجد ويصطعن الاجتہاد فی دروس الفقه والأصول بالزاویة الغزالیة فی الجامع الأموی ، وينشط فی قضايیه وفتاویه لاستباط الأحكام من القرآن والسنۃ واجماع الصحابة ، والقياس الصحيح وتصری مصالح الأمة التي هي مقصد الشريعة ، حتى لقد صرخ عند الشيخ ابن الحاجب المالکی وهو واحد من أئمۃ علیاء دمشق أن يقول : « لم نعرف منذ الأئمۃ الأربعة من هو أفقه من الغزالی ، إلا الشيخ العز الدين عبد العزیز بن عبد السلام » .

وظلّ الشيخ عز الدين يعمل على إمامة البدع ، وإحياء السنن فی كل ما يصدر من أحكام ، وما يلقى من دروس وخطب ، وما ينشیء من فتاوى . وقال : « طوبی لمن ولی أمرا من أمور المسلمين ، فأuan على إمامة البدع وإحياء السنن » .

وكان الصالح إسماعيل عندما أحس أن أخيه سيعزله ، قد لاذ بالشيخ عز الدين معنا التوبة ، متعمدا بحسن السیرة إن هو بقى على عرش دمشق . وما زال بالشيخ يستعطفه ويستشفعه والشيخ يشترط عليه شروطا حتى قبل الشيخ أن يتوسط له ، وضمنه الشيخ عند الملك الكامل فأبقاء سلطانا على دمشق

ولكنه لم يكدر يستقر على العرش حتى عزل الشيخ عز الدين عن منصب قاضی القضاة .. فقد مات الملك الكامل !! ...

وخلف الملك الكامل على ملك مصر آخر له ، ولكنه أساء السیرة فی الناس ، وخضع لخاشية من الجواری والممالیک والعلماء ، وغلبه الضعف ، ولعبت به الأهواء ، فوثب عليه أخوه نجم الدين وهو رجل صارم وتولى ملك مصر باسم الملك الصالح نجم الدين أيوب .

ما برح التتار والصلیبیون يرافقون فی يقظة كل ما يجری فی دولة صلاح الدين التي حولها ورثة من الأبناء وأبناء الأخوة ضیاعا خاصة لهم ، فوهنت وتداعت وتمزقت ! فطمם التتار فی العراق ، وخططوا الصليبيون للاستیلاء على مصر والشام وفلسطين ، وبصمة خاصة بيت المقدس ! .. واضمحلت برقة والجزیرة العربية ..

وحصن الملك الصالح نجم الدين أيوب أبواب مصر وسد ثغورها بعسكر كثيف ، ودعم فيها القلاع ، وأرسل إلى عميه الملك الصالح اسماعيل صاحب دمشق ، يطالبه بأخذ المدة لواجهة ما عسى أن يفعله الصليبيون الفرنج ، ولكن إسماعيل كان مشغولا برسالتهم وتبادل المدایا معهم ، والاستمتاع بأموالهم وجوارهم .. فأنفذ الملك الصالح نجم الدين أيوب حلة إلى الشام ليضمها إلى مصر .

وهرع إسماعيل سلطان دمشق إلى الفرنج ، فحالفهم وفتح لهم دمشق ليشتروا منها السلاح ، وكان

سلاح دمشق معروفاً بأنه أمضى سلاح - مضى إلى سائر أمراء الشام ليضمهم إلى حلفه ضد ابن أخيه ملك مصر، فحالفة صاحب حصن ..

واضطرب الناس في دمشق مذ رأوا الصليبيين يدخلونها و يتجلوون في أسواقها يشترون السلاح . وترك الشيخ عز الدين حلقة في الجامع الأموي ، ومضى يخوض في الشعب المتراحم في الطرقات ويفتيهم أن بيع السلاح للفرنجة حرام ، وكل بيع لهم حرام . فن ارتكب من ذلك شيئاً فقد خان الله والرسول ولا ذمة ولا عهد له ، ودمه مهدر ، وما له مباح ! ..

ومضى الشيخ ابن الحاجب المالكي يفتى بمثل ذلك . وطبق الشيخان يحرضان التجار على الامتناع عن البيع للفرنجة ، ويحرضان الناس على قتال من يبيعهم السلاح فأصبح الفرنجة وهم لا يجدون من يتعامل معهم من تجار دمشق ، وحتى الذين تعاملوا معهم من قبل آثروا العافية ورفضوا التعامل بعد ..!

وغدت دمشق ذات صباح تتناقل أنباء ما صنعه سلطانها مع الفرنج ، فقد جيش معهم الجيوش ، وقرروا أن يسيروا معاً إلى مصر ليكسرו الحملة التي أنفذها الملك الصالح نجم الدين أيوب ، وأن يواصلوا الزحف فيستولوا على مصر كلها .

وفي مقابل مساعدة الفرنج لسلطان دمشق ، نزل لهم عن صيدا وقلعة الشقيف وبعض مدن فلسطين واقتسم معهم مدنًا أخرى .. !!

وعندم تحققت هذه الأنباء ، وقف الشيخ عز الدين يخطب الجمعة فأعلن خيانة سلطان دمشق ومن والاه من أمراء الشام . وختم خطبته داعياً :

«اللهم أبرم هف الأمة إبرام رشد تعز فيه أولياءك ، وتذل فيه أعدائك ، و يعمل فيه بطاعتك وينهى فيه عن معصيتك » .

وهدرت حناجر المصلين : «آمين .. آمين» .

والتحق الشيخ عز الدين بالشيخ ابن الحاجب ، فأصدر رفياً بخياناً سلطان وبخلع طاعته

ولم يطلبوا من أحد التوقيع معهما على الفتيا حفظاً لسائر العلماء من أن يؤذيهم السلطان .. اذ كان قد أذر مخالفيه بعذاب عظيم ، ووعد مؤديه بحسن الجائزة ووفرة المال وعلو الشأن . ! على أن الخطباء والعلماء امتنعوا عن الدعاء للسلطان من على المنابر بعد خطبة الجمعة . وهكذا تجاهلوا وجوده .. !

وارسل بعض حاشية السلطان إليه وهو غائب عن دمشق بما كان من أمر الشيخ العز والشيخ ابن الحاجب ، فأمر بسجنهما وأمر حاشيته من أراذل الحنابلة باسقاط شأنهما في عيون الرعية .

و سجن الشيختان ، وأصدر بعض هؤلاء الأراذل فتيا ضد الشيختين وأتهموا كليهما بإثارة الفتنة ، و طالبوا الرعية بإطاعة السلطان لأن معصيته خروج على الشرع ، وهو أدرى فيما يأخذ وما يدع بمصالح المسلمين . ! و اتهموا الشيختين بالغرض والحسد وسوء النية والحقن على السلطان : فأما الشيخ عز الدين فلأن السلطان عزله عن منصب قاضي القضاة ، وأما الشيخ ابن الحاجب فلأنه طمع في المنصب ولم يبنله .. !! .. فكلاهما موتور لأنه حرم من المنصب الكبير والراتب الوفير .. !

ولم يكن أى الشيختين يملكون الدفاع عن نفسه فهو السجن ، ولكن الناس لم يصدقوا ، واحتل غضبهم على السلطان وحاشيته ، ومضوا يسألون في الأمر شيوخهم ، فأيد الشيوخ بما فيهم الحنابلة ، رأى الشيختين ، لم يشد عنهم أحد ، إلا البداء متخلو الفقه الحنبلي من أراذل حاشية السلطان !

وعاد السلطان إلى دمشق بجيش كبير ، فوجد عدداً ضخماً من الناس يحيطون بالسجن ويحاولون تحرير العز وابن الحاجب من وراء الأسوار ، فأمر بإطلاقهما ، وملأ طرقات دمشق وأسواقها بالعسكر ، وبث الجواسيس في كل مكان حتى المساجد !

وهذه الشورة عن السلطان ، فأمر بإقالة العز من كل مناصبه ، من التدريس والخطابة ، وأمره « بلازمة داره ، وألا يفتى ، ولا يجتمع بأحد البتة » .

وتقديم أحد العلماء من أصدقاء السلطان والعز معاً فاستأذن للعز « في صلاة الجمعة - وكان العز لا يترك صلاة الجمعة - وفي أن يعبر إليه طبيب أو مزین إذا احتاج إليها ، وأن يعبر إلى الحمام ، فأذن له السلطان »

وكان العز في معتقله بداره يقرأ القرآن ويكرر تلاوة قوله تعالى : « ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها . »

فأرسل إلى السلطان صديقهما المشترك ، وهو ذات الصديق الذي حاول أن يصلح بينه وبين السلطان الأشرف خلال فتنة الحنابلة . أرسل العز هذا الصديق إلى السلطان ليأذن له بمعادرة دمشق وملكه جيئاً .

وأطربت السلطان فكرة الخلاص من الشيخ ، ولكنه لم يستجب لطلبه بسهولة ، وذهب الوسيط وعاد مرات في ذات اليوم ، والسلطان يتشدد ويلين ويشترط ويتنازل ، حتى أذن آخر الليل للشيخ بالمجرة ، على أن ينبعض من فوره فيكون خارج دمشق قبل الفجر !

ورشق السلطان جنوده وبث عيونه في كل الطرق المؤدية إلى دار الشيخ وإلى خارج دمشق

تحرزا من معرفة الناس بہجرته والاحتشاد لوداعه .

وأحضر الصديق للشيخ بعض الدواب ، فحمل عليها أهل وكتبه ، وركب في الطريق إلى القاهرة .

ولقي الشيخ في سفره هذا نصبا وكثيرا من الخطوط . فقد مر ببلاد يحكمها حلفاء للسلطان من أمراء بنى أيوب ، وببلاد أخرى يحكمها أنصار ملك مصر نجم الدين أيوب

كابد الشيخ في رحلته صنوفا من الإنكار والتهديد ، وألوانا من الحفاوة والترحيب . وهو لا يفتأ كلما اجتمع بأحد من الخصوم والأنصار قائما يدعوه إلى الجهاد في سبيل الله ضد الصليبيين الفرنج وحلفائهم من الأمراء المسلمين ، منكرا موقف صاحب دمشق ومن والاه من الأمراء ، ودور منتقل الفقه ، مزرا يا بصمت الصامتين عن هذا كله ، متها إياهم بالبلاد والخوار والندالة !

ويصف ابنه الشيخ عبد اللطيف ما كان من أمر أبيه : « أنتزع منها » دمشق إلى بيت المقدس ، فرواه الملك الناصر داود في الفور فقطع عليه الطريق ، وأخذه وأقام عنده بنابلس مدة ، وجرت له معه خطوط ، ثم انتقل إلى بيت المقدس حيث أقام مدة . ثم جاء الملك الصالح اسماعيل والملك المنصور صاحب حصن - حليف اسماعيل ضد نجم الدين أيوب - ، وملوك الفرنجة بعساكرهم وجيوشهم إلى بيت المقدس ، يقصدون الديار المصرية ، فسير الصالح اسماعيل بعض خواصه إلى الشيخ منديله وقال له : تدفع منديلي إلى الشيخ ، وتتطفى به غاية التلطف ، وتستنزله وتعده بالعوده إلى مناصبه على أحسن حال ، فإن وافقك فتدخل به على ، وإن خالفك فأعتقله في خيمة إلى جانب خيمتي ، فلما اجتمع الرسول بالشيخ شرع في مسايسته ولزينته ثم قال له : « بينك وبين أن تعود إلى مناصبك ما كنت عليه وزيادة أن تنكسر للسلطان وتقبل يده لا غير ». فقال الشيخ : « والله يا مسكين ما أرضاه أن يقبل يدي فضلا عن أن أقبل يده .. ! » يا قوم أنت في واد وأنا في واد . والحمد لله الذي عافاني مما ابتلاكم به ، فقال : قد رسم لي أن توافق على ما يطلب منك وإلا اعتقلتك . فقال الشيخ : افعلوا مابدا لكم . فأخذه وأعتقله في خيمة إلى جانب خيمتي خيمة السلطان . وكان الشيخ يقرأ القرآن والسلطان يسمعه فقال يوماً لملوك الفرنج : « تسمعون هذا الشيخ الذي يقرأ القرآن ». قالوا : « نعم ، قال هذا أكبر قسوس المسلمين ، وقد جبسته لأنكاره تسلمك لكم حصون المسلمين ، وعزلته عن الخطاب بدمشق وعن مناصبه ، ثم أخرجته فجاء إلى القدس ، وقد جددت حبسه واعتقاله لأجلكم . فقالت ملوك الفرنج : « لو كان هذا قسيينا لفسلنا رجليه وشربنا مرقتها » .

ثم جاءت العساكر المصرية ، ونصر الله الأمة الحمدية ، وقتلوا عساكر الفرنج .

أطلق سراح الشيخ ، فانطلق في طريقه إلى القاهرة فبلغها عام ٦٣٩ هـ بعد عام كامل من الأهوال والخطوب في الطريق إليها .

كان مقدم الشيخ عز الدين إلى القاهرة يوماً من أيام الزينة . فقد احتشد الناس الذين سمعوا به في أبهى ملابسهم ، وأمر السلطان أمراءه وقاده الجيش أن يرتدوا حلل العيد ، وخرج في أبهته على رأسهم يستقبلون الشيخ على الباب الشرقي للقاهرة ، وقد أعدوا له الخيل المطعمه ليتطيبها هو وأهله وأبناؤه بدل المطاييا المنكهة .

وعجب الناس للشيخ عز الدين : فهذا العالم الذي تحدى أمراء بنى أيوب وملاً أطباق الأرض بآرائه وفتاؤه ، ليس ضخماً ولا مخيفاً بل هو نحيل خشن الثوب ، وما على رأسه عمامة الفقهاء والعلماء بل اللبدة التي يرتديها العامة والفلاحون في مصر ! إنه لشديد الحياة خفيف الصوت .. !

وسار الموكب يزف الشيخ بالتهليل والتکبير ، والسلطان إلى جواره ومن خلفه أمراء الدولة والأعيان والعلماء .

وانهى الموكب إلى حديقة واسعة غناء فيها تتوسطها دار فسيحة .

وودعه السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب قائلاً : « هذه هي دارك يا شيخ عز الدين بن عبد السلام . وهي ليست هبة مني ولا من بيت المال ، ولكن أهل مصر اشتراوها لك نعمهم الله بك ، ونفع بك الإسلام والمسلمين أيها الإمام . »

وتجولت الزوجة في الدار وهي لا تستطيع أن تغالب فرحتها . !! .. أخيراً هاهوذا البستان التي حلمت أن تعيش فيه .. ولكنه أجمل مما حلمت به وأنفسه . وهو بعد يقع على النيل !! ..

وفرح الجميع بالأثاث الفاخر ، ورقائق الزجاج الملون ، والمصابيح الجميلة المنتشرة .

وشعر الشيخ أن هذا المكان الممدوح ، يمكن أن يمنحه من صفاء الذهن وراحة البال ما يتبع له كتابة مالم يستطع أن يكتبه في دمشق .

أستراح في البيت يوماً وليلة .. ثم بدأ يستقبل الزوار .

وتعرف على علماء مصر وفقهائها وشيوخها ، وتبادلوا الرأي

وجاءه رسول السلطان يبشره بصدور الأمر بتعيينه إماماً وخطيباً لجامع عمرو . فأثنى الحاضرون على قرار السلطان . وكان جامع عمرو قد أصعب منذ عهد صلاح الدين بديلًا للأزهر الذي عطل صلاح

الدين التدریس فيه في حربه على الشيعة الذين بنوا الأزهر.

وخلال زيارة رسول السلطان للشيخ العز بحضور عدد من الفقهاء والعلماء منهم شيخ المذاهب الأربعية قال الشيخ المنذري مفتى مصر للحاضرين : « كنا نفتى قبل حضور الشيخ عز الدين ، وأما بعد حضوره فالفقه متعمق فيه ولا يفتى أحد وهو بيتنا » .. وهكذا أصبح الشيخ عز الدين مفتى مصر.

وأراد السلطان أن يعينه قاضياً للقضاء على أن يختار الشيخ نواباً له . فطلب الشيخ أن يمهله بعض الوقت حتى يحسن التعرف على العلماء والقضاة وأحوال الناس في مصر . ولكن السلطان كان يلح عليه . وبعد فترة وجيزة قبل الشيخ منصب قاضي القضاة وعيّن نواباً بنفسه .

ولم يكُد يتولى المنصب حتى لاحظ أن أمراء البلاد وقادة الجيش ليسوا من أهل مصر ، وليسوا أحراراً على الإطلاق ، بل هم محليون ، اشتراهم السلطان من بيت المال وهم صغار فتعلموا اللغة العربية وعلوم الدين ، وفنون الفروسية وال الحرب والرياضيات ، وعندما شروا عليهم في مناصبهم . فهم أمراء مماليك أرقاء إذن ، وليس لهم حقوق الأحرار . وهذا فليس لهم أن يتزوجوا بحرائر النساء وكانوا قد تزوجوا من حرائر نساء مصر ، وليس لهم أن يبيعوا أو يشتروا أو يتصرفوا إلا كما يتصرف العبيد !

وببدأ قاضي القضاة يطبق عليهم من أحكام الشريعة ما يطبق على العبيد !

وبيت الملك مما صنعه الشيخ ، فذهب إليه يسأله أن يعدل عنما أخذ فيه ، فطلب منه الشيخ لا يتدخل في القضايا فليس هذا للسلطان ، فإن شاء أن يتدخل فالشيخ يقبل نفسه !

وكان السلطان رجلاً قوياً الشكيمة ، ولكنه لم يعرف ماذا يفعل بالأمر ! ..

لقد أبطل الشيخ كل ما أبرمه الأمراء المماليك من عقود : عقود البيع والإجارة .. وحتى عقود الزواج !

واضطرب الأمر بالمماليلك : فالزوجات يهجرن فراش الزوجية ، ويعاملن أزواجهن كالغرباء ، والتجار يعودون في الصفقات ، والصبية يطاردون الأمراء المماليك بكل هيبتهم ويعيرونهم بأنهم عبيد ! .. وكان الناس يذوقون الأهوال من صلف الأمراء !! .

وصف السيوطي « في حسن المحاضرة » تلك الحال بقوله : « تصدى - الشيخ عز الدين - لبعض أمراء الدولة من الأتراك ، وذكر أنه لم يثبت عنده أنهم أحرار وأن حكم الرق مستصحب عليهم بيت مال المسلمين ، فعظم الخطب عندهم ، والشيخ مصمم لا يصحح لهم بيعاً ولا شراء ولا نكاحاً ( زواجاً ) ، وتعطلت مصالحهم لذلك ، وكان من جلتهم نائب السلطنة ، فاستشار غصباً ، فاجتمعوا وأرسلوا إليه

فقال الشيخ : « نعقد لكم مجلسا وننادي عليكم ( بالبيع ) لبيت مال المسلمين ، فرفعوا الأمر إلى السلطان ، فبعث إليه فلم يرجع ، فأرسل إليه نائب السلطنة بالملاظفة فلم يفده فيه ، فانزعج النائب وقال : ( كيف ينادي علينا هذا الشيخ ، ونحن ملوك الأرض ! والله لا أضر به بسيفي هذا ، فركب بنفسه في جماعته ، وجاء إلى بيت الشيخ والسيف مسلول في يده ، فطرق الباب ، فخرج له ولد الشيخ فرأى من نائب السلطان مارأى ، وشرح له الحال ، فما اكتثر ذلك ، وقال : « يا ولدي . أبوك أقل من أن يقتل في سبيل الله » ، ثم خرج فحين وقع بصره على النائب ، يبست يد النائب ، وسقط السيوف منها ، وأرعدت مفاصله ، فبكى وسأل الشيخ أن يدعوه .

- وقال : « يا سيدى إيش تعمل ؟ .
- أنا دى عليكم وأبيعكم ويحصل عتقكم بطريق شرعى .
- فيم تصرف ثمننا ؟
- في صالح المسلمين .
- من يقابله ؟
- أنا .

انصرف نائب السلطنة إلى السلطان حيث كان جميع الأمراء قد اجتمعوا عنده ، فروى لهم نائب السلطان ما كان بينه وبين الشيخ .

ولم يذعن السلطان ، فأرسل إلى الشيخ من يتلفظ له ويحاول صرفه عن بيع الأمراء ، وأنبأه الرسول بعد حوار طويل أن السلطان لن يسمح ببيع الأمراء ، وأمر السلطان واجب ، وهو فوق قضاء الشيخ عز الدين ! وعلى أيه حال فليس للشيخ أن يدخل في أمور الدولة فشون النساء لا تتعلق به . بل بالسلطان وحده !! .

وأنكر الشيخ تدخل السلطان في القضاء وقام فجمع أمتنته ووضعها على حمار ، ووضع أهله على حبر أخرى ، وساق الحمير ماشيا ! ..

إلى أين ياشيخ ! ؟ ..

قال : ألم تكون أرض الله واسعة فتهاجروا فيها ! ..

فيم المقام بأرض يستضعف فيها أهل الشريعة ، ويعتدى فيها على القضاء ؟ !  
وتجتمع الناس وراءه .. وكلما سار في طريق تراحم الناس عليه يحاولون منعه من الهجرة ، فهو

أملهم في مواجهة مظالم الأمراء المالك ، فلكل عانى التجار والصناع وسائر الناس من صلفهم ، وهابهم أولاء يرون فيهم يوما من أيام الانكسار على يد هذا الشيخ الجليل عز الدين بن عبد السلام ! .. فلماذا يتركهم الشيخ ؟ ! .. ولمن يكلهم ؟ ! .. إلى هؤلاء الأفراد العبيد المغطسرين من جديد ؟ !

أحاط الناس بموكب الشيخ وهو يتسلون بأكين لا يتركهم ، فقد عرفوا في قضائه قوة الانتصار للمظلوم ، وهيبة العدالة ، خلال تلك الأشهر القلائل التي ولّ فيها المنصب ..

ولكن الشيخ مضى في طريقه لا يبالى ..

سار الشيخ أميلا خارج القاهرة والناس من ورائه يرجون ملحن ساختين حتى امتلأت بهم الأرض الفضاء إذ لم يتخلّف عن اللحاق به « امرأة ولا صبي ولا رجل ولا سيا العلماء والصلحاء والتجار وأمثالهم . »

وببدأ أن هذه الجموع ستذهب في تحدي السلطان إلى أبعد مدى ! .. ولئن هي رجعت بغير الشيخ ليثيرون الدنيا على السلطات حتى الذين هم تحت التراب !

وعلم السلطان بما يجري ، وقال له أحد ناصحيه : « تدارك ملكك وإلا هب بذهاب الشيخ »

فأسرع السلطان إلى فرس سريع فامتطاه على عجل وانطلق حتى أدرك الشيخ عز الدين ، وشهد الناس من حوله وعain سخطهم ، فنزل عن فرسه ، وتقدم متلطفا معذرا إلى الشيخ عز الدين ، وقال له : « لا تفارقنا . عد يا أمام واصنع مابدالك . » .. وقدم للشيخ فرسا فامتطاه وعاد الشيخ .

وعاد الشيخ والناس يهلوون من حوله ومن خلفه .

وجمع السلطان كل الأمراء في القلعة بأمر الشيخ ، ثم عرضوا في مزاد ونادي الشيخ عليهم وغالى في ثمنهم . حتى إذا امتنع الحاضرون عن المزايدة في الثمن لارتفاعه الفاحش ، تقدم السلطان فدفع ثمنا أزيد من ماله الخاص لا من بيت المال ، حتى اشتري جميع الأمراء المالك وأعتقدم لوجه الله ، فأصبحوا أحرارا .

وصحح الشيخ عقودهم بما فيها عقود الزواج .

أما ما قبضه الشيخ الفاحش من ثمنهم فقد وزعه على الفقراء وأصحاب الحاجات وبصفة خاصة أهل العلم وطلابه ، وأقام به مكاتب لتعليم القرآن والخط وعلوم اللغة .

وازدادت مكانة الشيخ في قلوب الناس ، وتزاحموا عليه وما كانوا يتركونه بعد صلاة الجمعة في

جامع عمرو حتى يؤذن لصلة العصر .

أما السلطان ، فقد أضمر أن يتخلص من الشيخ ، فقد خافه على ملوكه ! .

إن هذا الشيخ الخجول النحيل ليستطيع أن يحرك الناس ضده كيما يشاء !

على أن أمراء المماليك لم يعودوا بعد لصلفهم واستبدادهم بالناس كما كانوا من قبل بيعهم في المزاد !

واستمر عز الدين في القضاء حازما حاسما لا يخشى إلا الله ولا يأبه إلا بالحق ، ولا يراعي إلا مصلحة الأمة . لقد تأثيره الدعوى من أحد الأفراد على أحد خواص السلطان ، فيسوى بينها في المجلس ، وينحرى العدل وحده .. ولكن أدان خواص السلطان ! ..

لم يعد السلطان يتوقع منه جمالة ، وتنمى أن يزيمه من مكانه ، ولكنه خشى غضب الناس !

كان الملك الصالح نجم الدين أيوب ، سلطاناً قوياً واسع الخيلة ، ولكنه وجد نفسه مع الشيخ عز الدين بلا حيلة !

وفي الحق أن الشيخ عز الدين ، لم يجهر بعداء السلطان ، ولا حتى بنقده ، ولكنه مضى في طريقه : يفتى ، ويخطب الجمعة في جامع عمرو ، ويقضى بما يهديه إليه فهمه لنصوص الشريعة أو اجتهاده إن لم يجد حكماً في النصوص ، ثم يخلص إلى بيته ليكتب .. ولكنه على انسفاح بيته وهدوئه وجراه لم يكن يجد الوقت الكافي للكتابة ، فالناس يتزاجون حيث يكون ، ومنهم من لع عليه بالزيارة .. !

ولم يشاً أن يستخذ حاجباً يمنع عنه الناس ، كما كان يصنع الفقهاء من قبله حين يخلون إلى الكتابة ..

وكان كثيراً الصدقات ينفق معظم رواتبه خفية على أصحاب الحاجات ، فكان كثيراً من أصحاب الحاجات يطربون بابه .

وكان يلعن بالدعوة إلى المعروف والنهي عن المنكر ، ويعتبر القيام بها واجباً شرعاً يأثم تاركه ، ف يأتيه الناس يستفتونه في المعروف والمنكر .

ووجد بعض الأئمّة الظالمين يغتصبون حقوق المستضعفين ، فأفتقى أن من واجب المستضعفين أن ينتزعوا ما اغتصبوا منهم ، ولا عقاب عليهم ، فهذا حقهم الشرعي

فإن هم وجدوا السلطان عاجزاً عن رد أموالهم المغتصبة ، فعليهم استردادها بأنفسهم ، وإلا أثروا  
شرعاً !

وأشارت هذه الفتيا عدداً من الأمراء الذين ألقوا أن يستضعفوا ! بعض التجار والصناع والحرف ،  
ويغصبون منهم خفية بعض البضائع أو الأجر !

وكان يعتبر من الحقوق المقصوبة إنقاص أجر العامل ، أو قهر البائع أو تخويفه فيبيع بشن أقل من  
الثمن المعروف ! ثمن المثل !

وسخط السلطان نفسه عليه ، فقد رأى في أحكامه وفتاوته يفرض أوامر على الشرطة ، وليس هذا  
لأحد غير السلطان ، فإن لم تستجب الشرطة حرض الناس على الدولة !

ثم اصطدم الشيخ عز الدين بأقرب أعون السلطان وأعزهم عليه . وهو أستاذ أو أستاذ دار  
السلطان : الرجل الذي يتولى شؤون مساكن السلطان وسائر حواريه الخاصة .

ذلك أن «الأستاذ» فخر الدين بن شيخ الشيوخ كان مولعاً بالفناء والرقص ، فعمد إلى مسجد  
وسط حديقة واسعة مطلة على النيل ، فصعد إلى سطح المسجد فاقتني بجمال المنظر ، فبني فوق المسجد  
«طبلخانة» أى خاناً أو داراً للطلب والغناء ، وتعود السهر فيها مع صحبه يسمعون إلى الجواري المغنيات  
الراقصات ..

ولم يجرؤ أحد على أن يشكوا الأستاذ إلى قاضي القضاة ، ولكنه ذهب حتى تحقق ما سمع ، فعاد  
وقد مجلس القضاء ، وأصدر الحكم بإزالة البناء .

غير أن الشرطة لم تزل الملهى من على سطح المسجد ، فنهض الشيخ عز الدين يعود أبنائه وبعض  
الشباب من مرادي ، وأخذوا المaul والفوش ، وأزالوا البناء ... ثم أعلن الشيخ أنه يقيل نفسه من  
منصب قاضي القضاة ، فما عاد يطبق أن يقضى بقضاء فتتظر الشرطة إذن رئيس الشرطة أو السلطان  
لتتنفيذ الأحكام ، وقد لا تنفذها ..

ولم يكدر السلطان يسمع بما حدث من الشيخ حتى اضطرم غيظاً ، ثم جاءه من يخبره بأن الشيخ قد  
أقال نفسه ، فصفع السلطان طرباً ، وحد الله لأن الشيخ أغاره من حرج كبير ، فأقال نفسه بنفسه !  
وأرسل السلطان رسولاً إلى الشيخ موافقته على استقالته ، ففرح الشيخ ، وحمل سجادة من على أرض  
بيته وأهداها رسول السلطان تعبراً عن الفرج ، معتذراً إليه بأن لا يجد هدية أثمن منها !

ها هوذا عبء ثقيل انزاح عن قلب الشيخ !

صمم الشيخ على أن يخصص أكثر وقته للتأليف ، ضاع منه عمر طويلاً وما كتب بعد شيئاً . ! غير أن السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب زاره وطلب منه أن يدرس الفقه الشافعى فى المدرسة الجديدة التى أقامها السلطان الفقه على المذاهب الأربع قبل الشيخ ونهض بتدريسي الفقه ، والتفسير . وكان هو أول من ألقى دروساً فى التفسير بمصر منذ عهد بعيد . ولقد قام الشيخ بتدريسي الفقه الشافعى فى هذه المدرسة .

وخطط دروسه لكي تكون كتاباً ينفع بها الناس ، فدرس أصول الفقه والتصوف ، بهذه المدرسة الجديدة التي أسماها السلطان باسمه .. المدرسة الصالحية .. وحزن الناس لأن الشيخ ترك القضاء وما عرفوا في زمانهم قاضياً أكثر حسماً وأعمق نظراً ولا أنهض منه للأمر ، ولا أشد تقى وورعاً وروعة من هذا الشيخ العزى الدين عبد العزيز بن عبد السلام !

وعبر عن ذلك شاعرهم الجزار:

سار عبد العزيز في الحكم سيرا  
لم يسره سوى ابن عبد العزيز «يعنى عمر بن عبد العزيز»  
عَمِّنَا حُكْمَهُ بِعْدَ وَسِيطَ  
شَامِلٌ لِلْسُورِيِّ بِلِفَاظِ وجيز

لقد أراح الشيخ واستراح . ولكن حكمه على «الاستادار» قد وصم الرجل في مصر وسائر بلاد الإسلام . فقد جاء في كتاب «حسن المعاشرة» بعد الحديث عن حكم الشيخ في أمر الملتهي ، كما جاء في تاريخ ابن إيماس وظن فخر الدين وغيره أن هذا الحكم لا يتاثر به في الخارج ، فاتفق أن جهز السلطان رسولاً من عنده إلى الخليفة المستعصم ببغداد ، فلما وصل الرسول إلى الديوان ، ووقف بين يدي الخليفة ، وأدى الرسالة له ، خرج إليه ، وسألـه :

— هل سمعت هذه الرسالة من السلطان ؟

— فقال الخليفة لا . ولكن حلنيها عن السلطان فخر الدين بن شيخ الشيوخ استاداره .

— فقال الخليفة : إن المذكور أسقطه ابن عبد السلام . فنحن لانقبل روایته .

فرجع الرسول إلى السلطان حتى شافهه بالرسالة ، ثم عاد إلى بغداد ، وأداها .

استقر الشيخ في داره ، يؤلف الكتب ، مستفيداً من كل ما مربه : ألف نحو أربعين كتاباً في

الفقه والتفسير وأصول الفقه والتصوف حصاد تجاري وقراءاته وتأملاته وفتاويه

على أن الشيخ لم يكدد يسيطر على وقته وينظمه ، ويستقر في داره ليكتب ، حتى هاجه جماعة من الأشقياء ذات ليلة مظلمة فتسرعوا عليه الحديقة ، وتقادوا إلى باب الدار يحاولون كسره ، والشيخ مستغرق في عمله لا يشعر بهم .. !

وهب أهل الدار من نومهم فرعون ، خاف كل من في الدار إلا الشيخ !

وحاول أحد أبنائه أن يخرج من باب خلفي فيستدعي العس ، ولكن الشيخ رفض وتقى خواص الباب الذي حاول اللصوص اقتحامه ، فتأخروا إلى الحديقة ، وتقى هو إليهم قائلاً : « أهلا بضيوفنا » .

وعلى ضوء النجوم تبين الشيخ أنهم جماعة من الفتاك من كان يستأجرهم بعض أمراء المالكية للفتوك بأعدائهم ! وتعرف على رئيسهم ، وتذكر أنه وثيق الصلة بأمير كان يصرخ ويبكي ويتوعد الشيخ عندما نادى على الأماء في المزاد ! .. وكانت تفلت من الأمير حركات أنشوية !

وكان هذا الفتاك يدلل إلى الأمير ويهون عليه .. فأبدى من آيات المودة والتعاطف المريب ما أثار سخرية الذين شهدوا المزاد ! ! .

مثل أمامة هذا الفحل الفتاك فيما بعد متها في نهب المتجر ، وشهد الأمير له زورا ، وأثنى عليه في رقة .. فحكم الشيخ عز الدين على الأمير بغرامة لشهادة الزور ، وبجعل من المال تعويضاً للتاجر المعتمد عليه ، وحكم على الناهب بالسجن . غير أن الشرطة لم تسجنه وزعمت أنه فر إلى جبل في صعيد مصر !

إن الشيخ يعرف أن هذا الأمير وغيره يتذمرون من بعض السوق ضعاف العقول أشداء الأجسام ، عصابات يؤذبون بها من يرفض لهم طلبـا ، فإذا سقط أحدهم فهو مصرى اعتدى على مصرى ولا شأن للأمراء المالكية بالأمر كله !

وطلب الشيخ عز الدين عشاء لضيوفه ، فالضيف ينبغي أن يكرم في أي وقت جاء . وذهل رجال المصابة .. ! ثم أخذ يعظهم ، حتى ألقوا تحت قدميه ما أخفوه وراء العباءات من أسلحة . وفاض الدموع من أحدهم فاعترف من خلال الدموع أن ذلك الأمير المحنث الشرس حرضهم على قتل الشيخ ونهب بيته ووعدهم بأموال طائلة ، وقد أقسم لا يبقى الشيخ على وجه الأرض ، بعد أن نادى على الأماء المالكية في المزاد العلن وهم ملوك الأرض كما ينادي على الجواري والعبيد !

فدعوا الشيخ لضيوفه وللأمير بالهدایة بعد الصلاة . وقام الفتاك ، فقبلوا يد الشيخ ، وظلوا يقبلونها حتى غسلوها بدموع الندم ! .. وطلبوا منه الدعاء ، فطلب منهم أن يتوضأوا ليصلّى بهم . وحين فرغوا من الوضوء أمهم الشیخ فی صلاة توبۃ علی خضرۃ الأرض ، تحت شعاع النجوم ! .. وطلب أبناء الشیخ منه أن یبلغ السلطان ، فأبی .

حتى إذا جاء يوم العید ، وخرج السلطان فی أبهة الملك إلی القلعة ، وحوله الأمراء يتشاركون — وفيهم ذلك الأمير— واجه الشیخ سلطانهم بما روى الأمراء وألقى المحبة من الشیخ فی قلوبهم . ويصف السبکی ذلك المشهد فی طبقات الشافعیة : « طلع شیخنا عز الدين مرة إلی السلطان فی يوم عید إلی القلعة ، فشاهد العسكر مصطفین بين يديه و مجلس الملكة وما السلطان عليه يوم العید من الأبهة ، وقد خرج علی قومه فی زينة علی عادة سلاطین الديار المصرية ، وأخذت الأمراء تقبل الأرض بين يدى السلطان فالتفت الشیخ إلی السلطان وناداه :

(ياأیوب . ما حجتك عند الله إذا قال لك ألم أبوی لك ملك مصر ثم تبيع الخمور؟)

فقال السلطان : « هل جرى ذلك ؟ »

قال : « نعم الحانة الفلانية تبيع الخمور وغيرها من المنكرات وأنت تقلب في نعمة هذه الملكة . »

وأخذ الشیخ يناديه كذلك بأعلى صوته والعساکر واقفون :

فقال السلطان : « ياسیدی هذا أنا ما عملته . هذا من زمان أبي . »

قال الشیخ : « أنت من الذين يقولون أنا وجدنا آباءنا على أمة ! »

فأمر السلطان باغلاق الحانة .

وبعد أن انصرف سأله أحد تلاميذه عما فعله فقال الشیخ :

—رأيته فی تلك العظمة فأردت أن أهينه لكيلا تكبر نفسه فتوذى .

فقال التلميذ :

— أما خفته ؟

قال الشيخ :

— ((والله يابنى لقد استحضرت هيبة الله تعالى فصار السلطان أمامى كالقط . ))

وكان هذا التلميذ هو تاج الدين الذى أصبح فيما بعد .

وعاد الشيخ من القلعة ، فطاف ببيوت بعض أصدقائه وتلاميذه يهتم بالعيد ، ثم عاد إلى بيته يستقبل المهنئين .

اهتم الشيخ عز الدين بوضع أصول للفقه ، فألف كتابه قواعد « الأحكام فى مصالح الأنام » وقد ضمته كثيرا من القواعد الفقهية . وقال فى أوله : « الشريعة كلها إما درء مفاسد أو جلب مصالح . فإذا سمعت الله تعالى يقول : بأيها الذين آمنوا فلا تجدر إلا خيرا يحيثك عليه أو شرًا يزجرك عنه أو جعل بين الحث والزجر . وقد أبى الله تعالى ما فى بعض الأحكام من المفاسد فتح على اجتناب المفاسد وما فى بعض الأحكام من المصالح فتح على إتيان المصالح . »

ثم يقول : أما مصالح الدارين « الدنيا والآخرة » وأسبابها ومفاسدها وأسبابها فلا تعزف إلا بالشرع . فإن خفى طلب بأدلة الشرع وهي الكتاب والسنة والإجماع والقياس والاستدلال الصحيح . أما مصالح الدنيا وأسبابها ومقاصدها معروفة بالضرورات والتجارب والعادات والظنون المعتبرات . فإن خفى شيء من ذلك طلب من أدله . ومن أراد أن يعرف المصالح والمفاسد فليعرضها على العقل

فهو يدعى إلى إعمال العقل فى استنباط الأحكام ، وفي التعرف على المصالح . وهو يرى أن الأحكام إن لم يمكن استنباطها من الكتاب أو السنة أو الإجماع أو القياس ، فيجب استنباطها بما يتحقق مصلحة ويدرأ مفسدة . والعقل هو أداة هذا الاستنباط .

ويقول : « إن الطبع كالشريعة وضع جلب مصالح السلامة والعافية ولدرء معاطب الأسئمة . والذى وضع الشريعة هو الذى وضع الطبع فإن كل واحد منها موضوع جلب مصالح العباد ودرء مفاسدهم . »

وتأسيسا على هذا النظر ، استتباط كثيرا من الأحكام :

— فهى عن تعمد المشقة فى العبادات والمعاملات . فلا مصلحة فى المشقة : « قد علمنا من موارد الشرع ومصادره أن مطلوب الشرع هو مصالح العباد فى دينهم ودنياهם . وليس المشقة مصلحة ، بل الأمر بما يستلزم المشقة بمثابة أمر الطبيب باستعمال الدواء المر بشغ . فإنه ليس غرضه إلا الشفاء ، ولو قال قائل كان غرض الطبيب أن يوجد مشقة ألم مرارة الدواء لما حسن ذلك فيمن يقصد الأصلاح

وقيل في بعض كتب الله : «يعينى ما يتحمل المحتملون من أجلى» .. فلا يصح التقرب بالمشاق .

ومن آرائه أنه من الممكن تأخير بعض المصالح لما تأخيرها من مفاسد فقد أخر الله إيجاب الصلاة والصيام ، « ولو عجل بها لنفروا من الدخول في الإسلام » .

— في تحصيل المصالح يراعى الأفضل فالأفضل لقوله تعالى : « فبشر عبادى الذين يستمرون القول فيتبعون أحسنه » . وقوله « واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم » .

وعلى ذلك :

— فإنقاذ الغرقى مقدم على أداء الصلوات لأنه أفضل عند الله من أداة الصلاة والجمع بين المصلحتين ممكن بأن ينقذ الغريق ثم يقضى الصلاة . ومعلوم أن ما فاته من أداء الصلاة لا يقارب إنقاذ نفس مسلمة من الملائكة .

— لورأى الصائم فى رمضان غير يقا لا يتمكن من تخليصه إلا بالتقوى بالفطر فإنه يفطر وينفذه . لأن فى النفوس حقاً لله تعالى وحقاً لصاحب النفس ، فقدم ذلك على أداء الصوم .

— لا يتقدم فى ولایة الحرب إلا أشجع الناس وأعرفهم بمکائد الحرب والقتال ، وقد جاء فى الحديث الشريف : « من ولى من أمر المسلمين شيئاً ثم لم يجهد لهم ولم ينصرهم فالجنة عليه حرام . »

— الأئمة « الحنکام » البغاء لا ولایة لهم . وإنما نفتت تصرفاتهم وتوليتهم لضرورة مصلحة الرعايا ، وأنه مع غلبة الفجور عليهم لا إنفكاك للناس منهم . وأما أخذهم الزكاة فإن صرفوها في مصارفها أجزاء ، وإن صرفوها في غير مصارفها لم يبرأ الأغنياء منها . ومصالح الفقراء أولى من مصالح الأغنياء لأنهم يتضررون بعدم أخذ نصيبهم من الزكاة ، ولا يتضرر به الأغنياء من تشبيه الزكاة .

— دفع المشقة واجب فيجوز لبس الخيط في الحج و كذلك الطيب والدهن وقلم الأطفال .

— يجوز للتييم للمشقة كالخوف من حدوث المرض من ماء الوضوء أو خوف إبطاء الشفاء . أو إذا غل ثمن الماء وأصبح الحصول عليه مشقة أو إذا احتاج الإنسان إلى ثمنه في سفر أو نحوه .

— يجوز للمرأة أن تتييم بدلًا من الوضوء بالماء إذا كان الماء يؤذى جمال وجهها . كأن يظهر عليه من أثر الوضوء في الشتاء ما يشين هذا إذا كان الوضوء يؤثر على جمال المرأة في وجهها أجاز لها الشافعى أن تتييم وهذا

— من أطلق لفظاً لا يعرف معناه لا يؤخذ بقتضاه كمن لفظ بكلمة الخانع أو الطلاق وهو لا يعرف

أحكامها فلا يترتب حكم على ما قال .

— لوعم الحرام الأرض بحيث لا يوجد فيها حلال ، جاز أن يستعمل من ذلك ما تدعوه إليه الحاجة ، ولا يقف تحليل ذلك على الضرورات لأنه لو وقف عليها لأدى ضعف العبد واستيلاء أهل الكفر والعناد على بلاد الإسلام ... ويقتصر على ما تمس إليه الحاجات دونأكل الطيبات وشرب المستلزمات وشرب الناعمات .. « ولو دعت ضرورة واحدا إلى غصب أموال الناس لجاز له ذلك بل يجب عليه إذا خاف الهلاك لجوع أو برد ، وإذا وجوب هذا للإحياء نفس واحدة ، فما الظن بإحياء الفوس . فثورة المقصوبين على الغاصب واجبة . »

— إذا سرق إنسان مالا سرقة موجبة لقطع اليد لم يجب عليه الإعلام أى الاعتراف بالسرقة ، بل يخبر مالك المسروق بأن له عليه مالا ، ويرده إليه أو يعوضه عنه إن كان قد تلف . ولا يتعرض لذكر السرقة .  
فإن رد السارق المال أو عوضه بأبرأه منه المسروق فقد بريء السارق ، ولا وجوب قطع يده فهو حد من حدود الله .

— الوسائل تسقط بسقوط المقاصد . فلا يجوز ضرب الصبي للصلة إذا لم يشمر الضرب . فهذا الضرب ينفره من الصلة

إذا اختلف الزوجان في متاع البيت فادعاه كل منها ، أو ادعى أحدهما الاشتراك في الجميع فإن الشافعى يسوى بينها نظرا إلى الظاهر . وبعض العلماء يخص كل منها بما يليق به نظرا إلى العادة الغالبة . وهذا أصوب فإذا كان الزوج جنديا وادعى الزوجة ملكية السلاح والخيل أو ادعى هوملكية أدوات زينتها ، فإن ما يختص بالرجال يصير للزوج وما يختص بالنساء لا يصير للمرأة . على خلاف ما يقول الشافعى .

— إذا اختلف الزوجان في النفقة فالشافعى يجعل القول قول المرأة لأن الأصل عدم قبضها ، ومالك يجعل القول للزوج لأنه الغالب في العادة وقول مالك أحسن .

— الصلة تنهى عن الفحشاء والمنكر . فهي تتحقق مصلحة للأمة ، والصلة التي لا تتحقق هذه المصلحة لا جدوى منها ولا يقبلها الله . فالصلة أمر بالسيرة الحسنة ومكارم الأخلاق .

— الكذب حرام ولكن جائز لتحقيق مصلحة .. كالإصلاح بين الناس أو الكذب على الزوجة لتقويمها .

ولاحظ الشيخ أن بعض المشعوذين ينسبون أنفسهم إلى الرهد والتتصوف ويسوّون إلى الشريعة

ذلك أنهم اقتفوا المنكرات ولبسوا المركعات ، وادعوا أنهم قد سقطت التكاليف عنهم فليس عليهم صلاة ولا صيام ولا زكاة ولا حج ..

وتصدى لهم نفسه سلوكهم ، ومدح الأقطاب الكبار من أئمة الصوفية ، وكانت له صلات مودة أو معرفة بآراء بعضهم كالشاذلي والعباس المرسى وإبراهيم الدسوقي والسيد أحد البدوى .

وكان يحترم هؤلاء ويغضن تلاميذه على الأفاده منهم فيقول : « اسمعوا كلامهم فهو قريب العهد بنسب الحقيقة .» وكانوا هم يقولون عنه : « مامن عجلس فى الفقه أبهى من مجلس الشيخ عز الدين عبد السلام .»

وشرع وهو يعلم تلاميذه أن الزهد ليس هو ما يفعله عامة الصوفية الذين يسيئون إلى التصوف : لاهو تعذيب النفس ولا لبس المركعات . « وليس الزهد هو خلو اليد من المال ولكن هو خلو القلب من التعلق بالمال . فليس الغنى بمناف للزهد » . وقد كان عبد الله بن المبارك والليث بن سعد وهما من أغنى الأغنياء من أزهد الناس .

وسمى التصوف علم الحقيقة وهي معرفة أحوال الباطن ، والشريعة تستغرقه لأنها تتناول الظاهر والباطن جميعا . « فكل حقيقة لا شريعة لها فهي باطلة ، وكل حقيقة لا شريعة لها فهي باطلة . ولن يستحق المعرفة خارجة من الشريعة بل الشريعة طافحة بإصلاح القلوب بالمعارف والأحوال . فمعرفة أحكام الظواهر معرفة بجل الشرع ومعرفة أحكام البواطن معرفة بعض الشرع ولا ينكر ذلك كافر أو فاجر .

وهكذا أحسن التوفيق والمزاوجة بين الفصون والشريعة والتصوف . وقال : الشريعة بجاهدة الحقيقة مشاهدة ولا تباين بينها إذ الطريق إلى الله سبحانه وتعالى لها ظاهر وباطن . فظاهرها الشريعة وباطنها الحقيقة .. والحقيقة والشريعة يجمعهما كلمتان هو قوله : إياك نعبد وإياك نستعين فإياك نعبد شريعة وإياك نستعين حقيقة . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « العلم علمنا علم باللسان وعلم بالقلب . »

وفرق بين الإسلام والإيمان : « فالإسلام هو قيام البدن بوظائف الأحكام ، والإيمان هو قيام القلب بوظائف الإسلام . والإحسان أن تعبد الله كما تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك فتكون قائماً بوظائف العبودية مع شهوده إياك . »

وكتب عن الحبة الألية شعرا جاء فيه :

نار الحبة أحرقت أحشائى  
ومداعى تنهل كالأنواء

فأنا الحريق بأصلعى وأنا الفريق بأدمعى ،  
يامنقذ الغرقاء !

ومن العجائب أن نار تحرق  
تزاد وقدا عند فرط بكائي !  
فالنار والماء القراب تأكلها  
هذا العمرى أعجب الأشياء !

فالمحبة تكمن فى ذات المحب وتسليها صفاتها كما تكمن النار فى ذاتية الماء الحار فائت تقطنه فى الصورة ماء يغرق وهو فى الحقيقة نار تحرق ، فإن قلت أن المحرق هو النار فأين الماء ؟ وإن قلت المحرق هو الماء فأين النار ؟

وللشيخ سبعات صوفية عديدة أودعها كتابه « حل الرموز ومفاتيح الكنوز ». وقد عنى فيها بشرح الغامض من أقوال شيخ الزهد والتتصوف . واستشهد ببعض أقوال الإمام على كرم الله وجهه وهو إمام الزاهدين : « سئل على رضى الله عنه هل عرفت الله بمحمد أو عرفت خالما بالله ؟ فأجاب لوعرت الله بمحمد ما عبدته ولكن محمد أوثق في نفسي من الله . ولو عرفت خالما بالله لما احتجبت إلى رسول الله . ولكن عرفني نفسه بلا كيف كما شاء وبعث خالما صلى الله عليه وسلم بتبلیغ أحكام القرآن وبيان معضلات الإسلام والإيمان وإثبات الحجۃ وتقوم الناس على منهج الإخلاص فصدقـت بما جاء به . »

ويعلق الشيخ على هذا : « يستحيل الوصول إلى شيء من معرفة الله بغير الله ولا سبيل إلى معرفة الله إلا بالله .

ويكتب دروسه في التفسير، فتحس فيها آثار الفكر الأشرافي الذي تعلمه في صباحه عن السهر وردي .. ومثال ذلك تفسيره للآلية الكريمة : « الله نور السماوات والأرض . » قال الشيخ : جاء في الحديث الشريف إن الله خلقهم من ظلمة ثم رش عليهم النور فلن أصحاب ذلك النور اهتدى ، ومن أخطأه ضل . ويضيف الشيخ : معرفة العبد لربه هو نور الله الذي يقنه في قلب عبده فيدرك بذلك أسرار ملكه ويشاهد غيب ملكته ويلاحظ صفات جبروته ثم تنزل قوة إدراكه على مقدار ما أفيض عليه من ذلك النور.

ثم يفسر سورة العصر بظاهرها فالناس خاسرون إلا في اجتماع فيه أربع أوصاف : الإيمان ، والعمل الصالح ، والتواصي بالحق ، والتواصي بالصبر .

وقال إن الصحابة كانوا إذا اجتمعوا لم يفترقوا حتى يقرءوا : « والعصر . إن الإنسان لفى حسر ، إلا الذين آمنوا ، وعملوا الصالحات ، وتواصوا بالحق ، وتواصوا بالصبر . »

ونتحدث في التفسير عن أنواع المجاز في القرآن من مجاز الحذف كحذف القسم أو المبدأ أو الخبر أو بعض حروف الجر ثم أنواع المجاز المعروفة في علوم البلاغة والبيان ، ثم تحدث عن الكنایة في القرآن .

وضرب لكل ذلك أمثلة بآيات القرآن مرتبة حسب المصحف . وضمن ذلك كتابه «الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع الجاز» .

وقد ذهب بعض مؤرخي المتصوفة إلى أن العز تصوف ، ولكن الأستاذ محمد حسن عبد الله ينفي ذلك عنه ويذهب إلى أن التصوف يخالف طبيعة الشيخ عز الدين .. وهذا حق فقد كان بعض التصوف في عصر الشيخ هروباً من الواقع ، وكان الشيخ من أشد الناس جسارة في مواجهة الواقع ، وأنشطتهم إلى تغييره . فقد ظل يواجه عصره ويقاوم مفاسده ويصل المجتمع بمواقف رائعة ، وكان إلى كل ذلك زاهداً من أولئك الزهاد العظام الذين يفرضون بالقول وال موقف والسيرية فيها شريفة فاضلة على مجتمع تعمّن فيه الفضائل ويشقى به الشرفاء !

ومهما يكن من أمر الشيخ فقد كتب في التصوف وشرح أحوال الصادقين من المتصوفة ، ودافع في شعره عن سماع الأذكار وأناشيد الصوفية في حلقات الذكر ..

وما كان يمكنه أن يتجاهل تياراً يجتاح العصر ، ولكنه رد التصوف إلى أصوله النبيلة في مواجهة النفس لتنطهر من الهوى فلا تمتليء إلا بالحقيقة ونور الحق ، وتناضل في سبيل الخير وتتمرّد الدنيا بالحب والعدل والجمال والحرية .

وللشيخ في التصوف شعر حسن

من ذلك قوله :

مهربنا غال لمن يطلبنا	أيها العاشق معنى حسنتنا
وجفون لا تذوق الوسنا	جسد مضنى وروح فى العنا
إذا ماشت أذ الثنا	وفؤاد ليس فيه غيرنا
فالفن يفضى إلى ذاك الغنى	فافن إن شئت فناء سرمنا
ذلك الحى ففيه قد سنا	وأنخلع النعلين إن جشت إلى
وأزل ما بيننا من بيننا	وعن الكونين كن منخلعا
أنا من أهوى ومن أهوى أنا	لو إذا قيل من تهوى فقل

ومن ذلك قوله في تجلّى الله على قلب عبده المؤمن «يشاهده بعين يقينه ، ويجلّيه ببصر بصيرته من غير حلول ولا تحيز ولا انفصال ولا اتصال » :

وأشهدني ذاك الجمال المعظما

ولما تجلّى من أحب تكرما

تعرف لي حتى تيقنت أنني  
وفي كل حال أجيته ولم ينزل  
وما هو في وصلني بتصل ولا

أراه بعيني جهراً لا تؤهلا  
على طور قلبي حيث كنت مكلما  
بنفصل عنى وحاشاه منها

ومن شعره في العشق الألهي :  
شربت حيا حبكم مذ عرفتكم  
فلا مورد للعالمين كموردي  
فلئن تعلو على كل رتبة

على ظمآنى فزاد تلهى  
ولا مشرب للعاشقين كمشربى  
ولى منصب يسمون على كل منصب

وهو يعني رتبته من الزهد ، وانشغال قلبه بغير الدنيا ، مما جعله فوق الطمع والرغبة في الدنيا ، فما يخاف ولا يخاف ولا يرجو إلا الله تعالى ، وهذا هو منصبه الديني وهو أعلى من كل منصب دنيوي .  
وقال :

حبه راحتى وروح حياتى  
ولذا ما مرضت فهو طيبى  
ولذا ما ضللت أو ضل ركب  
يا عذيرى فكن عليه عذيرى  
إن تلمى أولاً تلمى فإنى

وكذا ذكره بلا غنى وزادى  
كلما عادنى بلغت اعتمادى  
عن حمأه فوجهه لى هادى  
أو قلل لى ماحيلتى واعتمادى  
حبه مذهبى وحسن اعتقادى

وقال :

فلوا شاهدوا معنى جمالك مثلما  
خلعت عذارى في هواك ولم يكن  
ومزقت ثواب الوقار تهتكا  
فأ فى الموى شكوى ولو فرق الحشا  
وكم كنت من خوف الموى أتقى الموى  
وقال من قصيدة طويلة :

شهدت بعين القلب ما أنكروا الدعوى  
خلعيم عذار سره في الموى نجوى  
عليك وطابت في محبتك البلوى  
وعار على المشاق أن يعلنوا الشكوى  
ولكننا حكم الموى غالب التقوى

لئن كان جزءك جزءاً صغيراً  
وقال يلوم الذين أساءوا إلى التصوف في عصره ،  
ليس التصوف عكازاً ومبحة  
وأن ترود وتغدو في مرقة  
وتظهر الزهد في الدنيا وأنت على

ففيك انطوى العالم الأكبر  
من لابسى المرقفات ومرتكبي المنكرات :  
وكلا ولا .....  
وتحتها موبقات الكبر والسرف  
عكوفها كعكوف الكلب في الجيف

وقال فيهم ، وفي المخلصين من أهل التصوف :

ذهب الرجال وحال دون مجالم  
زعموا بأنهم على آثارهم  
قطعوا طريق السالكين وأظلموا  
عمروا ظواهرهم بأثواب التقى  
إن قلت قال الله قال رسوله  
تركوا الشرائع والحقائق واقتدوا  
وترصدوا أكل الحرام تخادعا  
فهناك طاب المخلصون وأصبحوا  
عملوا بما علموا وجاءوا بالذى  
وعيوبهم تحرى بفيض دموعهم  
تاهوا على كل الملوك وإنهم  
بوجوههم أثر السجود لربهم  
لانيظرون إلى سوى محبوهم  
وأخيبة الآمال إن أقصيتى  
فهم إليك وسليتى ياسيدى

زمر من الأولاش والأندال  
ساروا ولكن سيرة البطال  
سبل المدى بجهالة وضلال  
وحشوا بواطفهم من الأدغال  
هزوك هز المنهى المغالي  
بطرائق الجمال والضلال  
كتخادع المتلصص المحتال  
مسترین بصورة الأشكال  
وجدوا وما بخلوا بفضل نوال  
مثل انهم الوابل المطال  
لهم الملوك بعزة الإقبال  
و بها أشعة نوره المتلالى  
شغلوا به عن سائر الأشغال  
عن قصدتهم ياخيبة الآمال  
هلا وصلت حبالم بمحبالي

كان الشيخ يكتب الكتب بخطه أو يملئها على تلاميذه . وقد جاءه في مصر عدد كبير من علمائها وسمعوا دروسه ، ولا زموه معجبين بعلمه وموافقه وغيرته للحق ، ودفاعه عن الشريعة وأحكامها لا يبالى في ذلك بشيء ولا يزيد إلا وجه الله فأطلق عليه أحد علماء مصر ومتصوفها وهو ابن دقيق العيد . «سلطان العلماء» . وقال عنه لقد تحرر من سلطان الفقهاء السابقين ، وقاوم سلاطين الزمان فهو السلطان . ! .. وسماء آخرؤن شيخ الإسلام .

وتصر السنوات بالشيخ وهو في عمله مطمئن البال آمن السرب يدرس وينخطب ويكتب .. ولكن قارعة تنزل ، فتنتفع الشيخ من كل هذا .. فقد انتشرت في القاهرة أخبار غزوة صليبيية تتوجه إلى دمياط . بقيادة لويس التاسع . فوقف الشيخ تاركا كل أعماله ليدعوا كل أفراد الأمة إلى الجهاد .

ولم يعد صوت يرتفع من على منابر المساجد إلا بالدعوة إلى الجهاد .. وهجر الشيخ كتبهم وحلقاتهم وذهبوا جميعا إلى دمياط للاشتراك في الجهاد المقدس ، وانتقل السلطان إلى المنصورة ليكون قريبا من ميدان المعركة .. وزحف الفرنج إلى المنصورة وهناك انصر المصريون على الصليبيين الفرنج

وأسروا قائدهم لويس التاسع ملك فرنسا .

ومات السلطان في المنصورة ثم تولى مكانه ابنه طوران شاه ، فقتله ماليك أبيه حرقا وغرقا . وتولت شجرة الدر ، وقتلت ، وتولى أمراء المماليك بعد سقوط بنى أيوب كل يقتل صاحبه ويتولى مكانه !

وعاد الشيخ إلى القاهرة وعاد الشيوخ إلى حلقاتهم والجميع يطالبون ملوك المسلمين في كل البلاد بأن يتحدوا ليخذلوا خطر الفرنج وخطر التتار ، ولكن بلا جدوى ! فما كان يشغل الملوك المسلمين غير ذهو السلطان وأئبته الملك !

وذات صباح روعت الدنيا باستيلاء التتار على بغداد عاصمة الخلافة الإسلامية وألقوا بمكتبتها العامة في ماء دجلة لتختلط الكتب بأشلاء العلماء والفقهاء وألاف الصحفايا الذين قتلهم التتار في وحشية لم يعرف لها التاريخ مثيلا من قبل .

ومن جديد يطلق الشيخ عز الدين صيحته إلى الملوك والأمراء العرب والمسلمين أن يتلقوا فما استباح التتار أرضهم وأعراضهم في العراق إلا لأنهم تفرقوا ... !

وذهب النداءات المخلصة أدراج الرياح .. فزحف التتار إلى الشام واستولوا على حلب في طريقهم إلى مصر !

وكان السلطان قطز على عرش مصر ، فجمع الأمراء والأعيان والعلماء ليتشاوروا في أمر غزو التتار . ورأى قطز أن الحرب تقتضي مالا كثيرا وخزانة الدولة خاوية ، فلا بد من فرض ضرائب جديدة على الرعية لتجهيز جيش قوي يصد زحف التتار .

ووافق الأمراء المماليك على فرض ضرائب جديدة . إلا أن العزbin عبد السلام قال : «إذا طرق العدو بلاد الإسلام وجبر قتالم . وجاز أن لا يبقى في بيته المال شيء من السلاح والسرور الذهبية والفضية والمزركشات ... وأن تبيعوا مالكم من الحوائض «أحزنة الخيل» الذهبية والآلات الفضية . ويقتصر كل الجندي على سلاحه ، ومركبته ويتساوا هم والعامية .. وأماأخذ الأموال من العامة مع إبقاء الأموال والآلات الفاخرة في أيدي الجندي ، فلا». .

واقتنع السلطان بهذا الكلام فكان الأمر كما قال الشيخ ، ولم يقرر السلطان ضرائب جديدة ، وبيعت الأشياء الثمينة التي يمتلكها الأمراء والجندي المماليك وجهز بشمنها جيشا ضخما .

كان الشيخ في الثمانين ، مصنى من مقارعة الخطوب والمكاره ومن السن ، فلم يستطع أن يخرج مع الجيش كما خرج إلى دمياط ، ولكن شباب العلماء والقادرین خرجوا مع الجيش ، والتقي الجمعان في

عين جالوت فأوقع الجيش المصري بقيادة قطز باللتار هزيمة منكرة لم تقم لهم بعدها قائمة !

وفي طريق العودة وثب الظاهر بيبرس على قطز فقتله وتولى مكانه ، واستأثر هو بكل ما منحه الجماهير لقائد الجيش المنتصر من إعجاب وترحاب .. !

عاد الظاهر بيبرس إلى مصر يتلقى البيعة ، فلم يبايعه الشيخ عز الدين بل قال له : « ما أعرفك حرا لأنّي أيعنك . وما أعرفك إلا ملوكاً للبنادقدار . (والبنادقدار هو الذي يحمل كيس البندق للسلطان أثناء الصيد) . فأنت عبد لا تصلح لتولى الأمر . فالشرط أن يكون ولـى الأمر حرا » .

وأثبت الظاهر بيبرس أنه اعتق وأنه قد أصبح حرا ، فبايعه الشيخ آخر الأمر بعد أن تأكد بكل الطرق الشرعية أن السلطان حـ..

لم يستمر الظاهر بيبرس على عرشه إلا بعد أن بايعه الشيخ العز عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام وهو يقترب من الثالثة والثمانين ، وقد كبر أبناءه وأحفاده وأصبح ابنه عبد اللطيف أحد علماء مصر .

ها هو هذا الشيخ يخاطروه ويؤدي إلى الثالثة والثمانين ، وقد تخرج على يده أئمة ، وأرسى تقاليد للقضاء والفقهاء والعلماء ، وترك ميراثاً عظيماً من جسارة المواقف .

ومهما يكن حظه من الفقه ، فقد كان داعية إلى التجديد ، عدواً للتقليل يعيّب على أتباع المذاهب تجمدهم عند مذاهبيهم حتى حين يبدو لهم الخطأ في بعض الفروع أو الأصول .. وكان يقول لهم : إننا لم نؤمر بتقليل الصحابة فكيف نقلد الأئمة أصحاب المذاهب ؟ ..

وكان هو نفسه شافعياً ولكنّه لم يقتيد بالمذهب الشافعى ، وخالفه وأخذ بغيره أو اجتهد رأيه بقدر ما استطاع ، وبقدر ما سمح له ظروف عصره .

وفي الحق أن دعوته أثمرت فعدل بعض المقلدين عن التقليل ..

وإنه الآن ليطرق أبواب الثالثة والثمانين .. لكم مربه من أهواه في قراع الباطل ، ومصاولة البغى ، وفي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ! ! ..

وآن للشيخ أن يستريح .

مرض وغلبه الوهن ، فأدرك كل من عرفوه أنه مفارقهم ، وحدّثهم أنه سيفارقهم إلى جوار الله عندما يبلغ الثالثة والثمانين ، كما تنبأ لنفسه من قبل .

وعاده السلطان الظاهر بيبرس فى مرضه ، ورآه يشرف على التلف ، فاستأذنه فى أن يعين أبناءه مكانه فى مناصبه ، فقال له الشيخ : « ما فيه من يصلح ، والمدرسة الصالحية للقاضى تاج الدين . »  
وكانت أخبار كراماته قد ذاعت ، وكان هو يكذب أن له كرامات .

فحين أشرف الشيخ على الموت أذاعوا عنه أنه عندما قدم الصليبيون دمياط بقيادة الملك لويس التاسع ، وهبت الربيع لصالح سفائن الفرنج ، دعا الشيخ ربه أن يغير اتجاه الربيع ، فتغيرت لصالح المسلمين وكان هذا هو سبب الانتصار !!

وحكوا أن صديقاً من ريف مصر اسمه البلاجى تعود أن يهدى هدايا من خبرات الفلاحين ، فأهداه جل جل من المدايا وكان فيها إماء جبن ، فسقط في الطريق فانكسر ففسد الجبن ، وأخذ حامل المدية يصرخ ، فجاءه رجل رومي فسألة فحكي له أن الجبن قد فسد ، فقال له الرومي أنا أعطيك خيراً منه ، وأعطيك إماء جبن . وعندما وصلت المدايا إلى الشيخ قبلها ورد إماء الجبن قائلاً أنه عرف فيه ريح الخنزير فقد صنعته امرأة رومية متوجسة

وكان الشيخ وهو على فراشه يسمع حكايات أخرى عن كراماته ، فيغضب وينكر ما يسمع ، ويستغفر الله لنفسه وللرواة ، ويطالب الناس ألا يبالغوا في يمحكون عنه فـا هو إلا عبد فقير الله عمل جهده ليفيد الناس ويقيم الشريعة ويدافع عن السنة ويميت البدعة ويلامر بالمعروف وينهى عن المنكر .. وبلغ الثالثة والثمانين ، فطلب إلى أبناءه أن يستدوه إلى المدرسة الصالحية التي تعود أن يدرس فيها .. وكان شديد الضعف من المرض ، فحاولوا أن يشوهوا ولكنه صمم .. !

وساندوه إلى المدرسة ، فألقى الدرس ..

وكان درسه الأخير ، فقد مات في المدرسة وهو يفسر الآية الكريمة : الله نور السموات والأرض .

فاختت روحه .. لتعود إلى نور السموات والأرض ، التي نعمت من فيضه طوال الحياة  
وشييعته مصر كلها برجاتها وأطفالها ونسائها .. وأمر السلطان الأشرف أن يحملوا نعش الشيخ ،  
واشتراك معهم السلطان نفسه في حل النعش .  
وأقيمت له في دمشق جنازة ضخمها وصلوا عليه صلاة الغائب .

وحين استقر جثمان الشيخ آخر الدهر تحت سفح المقطم ، وعاد السلطان الظاهر بيبرس إلى قصر ملكه تنفس الصعداء وقال : « الآن استقر أمرى في الملك لأن هذا الشيخ لو كان يقول للناس : أخرجوا عليه لانتزعوا الملك مني »  
لقد صدق الظاهر بيبرس !  
فقد كان الشيخ سلطاناً فوق السلاطين ! . كان سلطان العلماء !

رقم الإيداع : ١٩٩٠/٩٩٦٦  
الت رقم الدولي : ١ - ٠٠٧٨ - ٠٩ - ٩٧٧

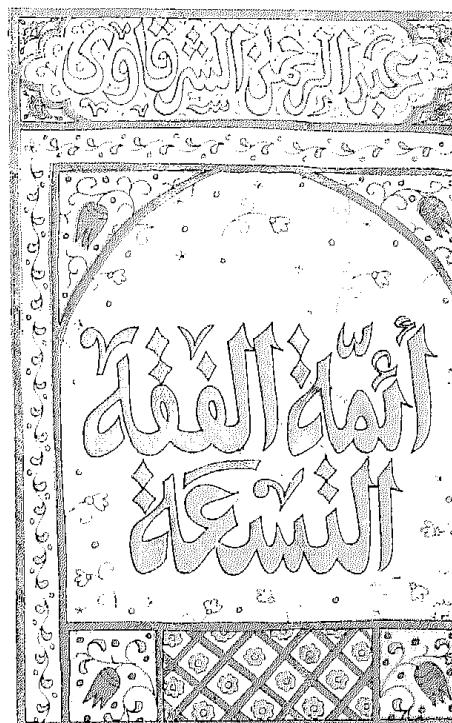
### مطبع الشروق

المناهف: ١٦ شارع جراد حسni - هاتف: ٣٩٣٤٥٧٨ - ٣٩٣٤٨١٤  
بيروت، ص ب: ٨١٦٤ - هاتف: ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٧٦٥ - ٨١٧٢١٣

لمستحدثات الأمور ، متأثرين بالبيئات الجديدة محترمين الأعراف والعادات السائدة عندما لا تتعارض مع نصوص الشريعة الإسلامية أو روحها السمحة .

وقد نشأ من أهل البلاد المفتوحة علماء وفقهاء أثري بهم الفقه الإسلامي .

وها هي صفحات من نضال هؤلاء العلماء والفقهاء تتقصى مواقفهم من الحياة والناس، وترسم صورا لهم ، عسى أن نجد فيها المثال الحى وأن تثير همة المسلمين في هذا العصر عليهم ينهضون ببعض ما نهض به السلف الصالح .



أثر الإسلام على نحو ما ، في جميع الذين يعيشون على أرض الإسلام ، فهو ميراثهم العظيم مهما تكن دياناتهم .. فقد ترسّبت قيمه الفاضلة في نفوسنا وشكّلت عدالته مجتمعات كثيرة عبر التاريخ .

وقد زحف الفرسان الأوائل ليحررروا الشعوب المستعبدة في الامبراطوريات القديمة ورأوا رعايا تلك الامبراطوريات يدخلون في دين الله أفواجاً ، تخليصاً للنفس من الهوان ، وذل الاستعباد ، وألام الظلم .

وكان أولئك الفرسان المسلمين محاربين بواسل وكانوا أيضاً دعاة عدل وحضارة وحرية ، وكانوا علماء وما فتحوا البلاد باحثين عن مغانم ، ولكن محرريين ورعاين وحملة مبارئ نشروها بين الناس . وكان هذا كلّه ميلاد لعصر جديد . وجاء من بعدهم خلف عظيم ، من أهل الجزيرة العربية أو من أهل البلاد المفتوحة ، أحسنوا نشر التعاليم وبرعوا في استنباط الأحكام الشرعية

### --- شارع الندى ---

القاهرة : ١٦ شارع جواد حسني - هاتف : ٣٩٣٤٨١٤ - ٣٩٣٤٥٧٨  
بيروت : ص. ب : ٨٠٦٤ - هاتف : ٢١٥٨٥٩ - ٨١٧٧٦٥ - ٨١٧٢١٣